

سيرة و مناقب الولي الصالح العارف بالله تعالى

سيدي محمد الصوفي التلمساني

((2004-1914))

و معه :

شرح قصيدة أبي مدين

(ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء)

الإهداء

إلى روح سيدى محمد الصوفى رضى الله عنه و قدس سره

غمره الكريم المنعم بالروح و الريحان فى جنان الرضوان

الفهرس

كلمات لا بدّ منها :

بسم الله الرحمن الرحيم و به ثقتي و عليه توكّلي .

إذا أحببت أخي الفقير أن ينفعك اللّه تعالى بهذا الكتاب فاقرأ خطّه و لا تنظر إلى مَن خطّه ، و تأمّل سُطوره و محتواه ولا تسأل عن ثقافة صاحبه و مستواه ، فما هو إلاّ محدود الثّقافة مُعترفٌ بقلّة البضاعة في هذه الصِناعة ، قد ولج ميدان كتابته بغير سلاح و لا آلة ، لكن لم يكنْ في تأليفه مُتطفّلا و لا عالة ، وما أحسن ما قيل في مثل هذه الحالة : إنْ بدا لك علم عند مُنْخَفِضٍ *** فاجْنِ الثّمار و ما عليك من خشبٍ

فكُلِ العسل و لا تسأل عن الشّهد ، و اشربْ من الروح لا من الجسد ، و احذر أن يتجلّى في قلبك جسد صاحبه بلا نُقطة فتُصيبُك من حيث لا تحتسب عثرة أو سقطة، و لكي تتدلّل و أنت غارق في بحار شيخك سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، تدلّل في رُكوب زورق خادمك صاحبِ التّأليف و امْحِ نقطة نفسك، كما قيل:

بين التّذلّل و التدلّل نقطـــــةٌ ***** في فهمها يتحيّر النّحــــــرير

هي نقطة الأكوان إن جاوزتها ***** كنت المُراد و عندك الإكسير

و قد لامه بعض الأحباب على إهماله النّقطة و الفاصلة و القوسين و قالوا أين المصادر و الهوامش و العنوان ، و أقاموا على كتابه الميزان و كأنّه مسطور للأطفال و الصّبيان ، و إن لم يعترفوا بالجميل و العرفان و ماهو براقٍ إلى بيان الجاحظ و لا بلاغة سُحبان ، لكن خامر قلوبهم حِسٌّ زائدٌ دالٌّ على فقدهم لحسّ البلاغة و البيان ، غفر اللّه لهم ما جاش في قلوبهم من تحقير و نُقصان ،

لأنّ الفقير حقيرٌ، و الحقيرَ فقيرٌ، كما قيل: فصاحة سُحبان و خطّ ابن مُقلــة

* و فهم بني أسد و زهد ابن أدهم

إذا جُمعتْ في المرء، و المرءُ مفلسٌ * و إن كان حرّا لا يُساوى

بدرهم

لكن لو ملك الدينار لكان لصدى كتابه آثار، كما قيل:

رأيتُ الدراهم في البلاد كلّها ***** تكسو الرجال مهابةً و جلالا

فهي اللّسان لمن أراد فصاحة ***** وهي السّلاح لمن أراد قتالا

و قد تذلّلتُ في البلدان مُقترضا فضلة مال لطبعه، لأنّي كُلّفتُ تكليفا بكتابته و ما كُلفتُ محبّة و لا إعجابا بكتابته، ولكنّي أزهد النّاس فيما نابني لو وجدت من في كتابته نابني، فسرتُ مشرّقا و مغرّبا باسطا كفّي لكن ردّني عن إلحاح المسألة قول الحكيم:

لمّا بلوت النّاس أطلب منهم ***** أخا ثقة عند اعتراض الشدائد

تطلّعتُ في يومي رخاءً و شدّةً ***** و ناديتُ في الأحياء هل من مُساعد

فلم أر فيما ساءني غير شامت ***** و لم أر فيما سرّني غير حاسد

و إن كنتُ قد كتبتُ عن ترجمة الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه هذه الوُريقات في سنة ٢٠٠٠ أي في زمن حياته رضي اللّه تعالى عنه، و كان راضيا على عملي ثم جاءني الإذن الباطنيّ منه رضي اللّه تعالى عنه لنشره بالتّمام والكمال ليلة وفاته أي في ليلة الأحد ١٧ ذو الحجة ١٤٢٤هـ الموافق ل: ٠٨ فبراير ٢٠٠٤م من بعد صلاة العشاء، بكيفية خاصّة، فتمّ المقصود و للّه وحده الحمد والشكر، ثمّ قد يرفض هذا الكتاب بعضُهم، و يلفظ خسيس الأوصاف عليه، لكن بُشّرتُ أنّه لا يقبله إلاّ الصّادق و الفاني في حبّ شيخه

سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، لأنّ من بدايته إلى نهايته كلام على سيدي الشيخ رضي اللّه تعالى عنه ، و تبيان لأخلاقه و شمائله المحمّديّة ولعلوّ مقامه ، و لم أبغ وراء ذلك مدح نفسي بل يسرّني ذبحها لا مدحها ، و كنت أزهدَ النّاس في معرفة النّاس و مُلاقاتهم و لازلت ، و أَحَبُّ شيء عندي هو أن لا أَعْرِفَ و لا أُعْرَفَ ولا أَزُورَ و لا أُزارَ ، حتّى أنّي في زمن حياة الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه كنتُ كذلك ، و لو وجدتُ من ينوبني في ذكر ترجمة سيدي الشيخ لما تجرّأتُ و أنا ذرّة حقيرة تطاولت لمعرفة درّة فاخرة فتمّ لها ذلك ، لكن لا أدري هل ذلك من كرم الدّرّة أم من حسن طالع الذرّة ، لكن مهما يكن فهي طاقية سقطت على رأس الزاهد فيها ، و من لقينا بلا حُضن في الحُضن الدافي بأنفٍ طويلٍ ، لقيناه بخرطوم فيل ، و مَن لَحَظنا على القطار بنظرٍ شزْرٍ بعناه بثمن نَزْرٍ ، و ينصرُ اللّهُ من ينصره ، و السّلام .

سلام عليك يا سيّدي محمّد الصّوفي

عن سفين الحبّ في يمّ التّوحيد روحي *** غرقت فمَن غير الصّوفي يُنجّيها؟
فيا واقفا على بو عدّال و وليّها *** بلّغها منّي حنين روح لم تسلها
و اسمعني شدوَ سماع جمع حاديها *** بأرواح طارت إلى سماء معانيها
و بلّغ من قليبٍ مغبون نار شوق ** إلى غوث طريقة روحي تفديها
هو سيدي محمد الصّوفي غوثنا *** روحه لأرواحنا غيث يسقيها
جميل الظاهر جليل الباطن و نسبه *** من نسل و دم سيّد الخلق و هاديها
كساه رسول اللّه حلّة تشريف **** و أدناه منه بكيفية لا يُخفيها

و حلاّه بكلّ منقبة نبويّة **** من خصال و أخلاق لا يُواريها

فسار على قدمه الشريفة لا يحيد **** و كان نِعمَ التّابع للسنّة يُحييها

و كان من خصاله كثرة لا يُحصيها **** العدّ حَدَثَ بذكرها الركبان بأغانيها

نشره العلم و حربه الجهل **** و همّته بزاوية بوعدال يُبديها

شرقا و غربا عبقَ عطرُ كفّه ****خجلت منها يُمنى الأسخياء لا تُجاريها

فنبعه من نبع النّبيّ و دلوه من دلوه ** و روحه من روحه شاربة من سواقيها

تفاخرت به شمّ الجبال و رواسيها *** و هو جبل الألوهية بهمّته يُرضيها

و تواضعت له شمّ الرّجال و معاليها *** فكان شمسا و حوله أقمار تداريها

تسامعت به أرواحٌ شرقا و غربا ** عطشى فكان بسرّه و نوره راويها

كم أتته من نفوس ميّتة يائسة **** و بلمسة حنان و عطف يُحييها

و كم من أفواه جائعة شبعت **** من سماطه و عطشى من ماله يُرويها

و تملّت به عقول و نفوس مريضة ** فبابتسامة عالجها و كان نِعمَ راقيها

كرمه كحاتم طيّ على موائده دارت **مجالس خمرة بقطرة كان ساقيها

فطاشت لقطرته أرواح و باحت** فكيف لو بكؤوس ملآ يُناغيها

جاءته أناس زائرة فغرقت فيه حائرة****فانقلبت منه مبصرة و هو هاديها

جالت أرواحها في معاني الحب***و كان الصوفي شمس دياجيها

و لمّا جفّت عيون المدد من علّة***و غارت الآبار من غيرة أن تحييها

و كثرت المشايخ و قلّ العارفون بالله***و كلّ يدّعي وصلا بليلى و معانيها

و ادّعى أقوام المشيخة و العرفان**** و توشّح القوسَ غيرُ راميها

فضُيّع سرّ المعرفة بين مدّع و خال *** الوفاض من التّقوى و مجاليها

و حارت أفئدة طالبي الحقيقة من غربة *** و تاهت في فيافي الحيرة و بواديها

و ضجّت الطريق أنّ الأمانة قد ضُيّعت * فهل من ليث يذبّ عن حوضها و يحميها

و هل من بازٍ قادريّ زمانه يُحييها * و هل من نجمٍ من ظلام الدعوى يُجلّيها

فقال الصوفي : أنا لها ممدّ و ساقيّ * * * فيا ريح أرواح نالت أمانيها

فأضحت أسرار اللّه من روحه سائلة * * * * يشرب منها الخلق و هو ساقيها

و عقد لواء الحبّ لمن آتاه بنيّة * * و أركبه براق المعرفة بمعاني أغانيها

به تعزّز المدد عزيز بعد شحٍ * * * و تهاطلت غيوث من كريمٍ مُجريها

و كثر أتباعه و نال مريدوه بُغيتهم * * و فاضت خمرته فأسكرتهم بنشاويها

و اخضرّت صحراء التصوّف إداما * * * و مسّ يابس أشجار القلوب ليُحييها

و غنّت أطيار الأرواح لشدو أسراره * * * فطارت بلا ريش إلى سماء معانيها

و تشرّفت روح الكعبة لزورته و لا غرو * * * فقد بلغ قطب الأقطاب لا يُواريها

و كم من رقاب حَنَتْ لسطوته تواضعا * * كيف لا و همّته من يقول أجاريها

فوقفت الإنس و الجن عند حدودها * * * و حكاية المارد في باب العسّة يُعنيها

وقف و قد مسّ صبيّة و قال أنا ضعيف * * * و سطوة الصّوفي لحوفي لا أحاذيها

و قد رأى أنوار أسراره ساطعة فاحترق * * * * فكيف لا تراها أبصارنا تشبيها

لكن ما عرف أسرارَه بعضُنا حتّى فارقنا * * * و فاضت روحه الطاهرة إلى باريها

فبكته نفوس و عقول و قلوب و أرواح * * * ترقرق الدّم دمعا حزنا في مآقيها

عطّر اللّه قبره الشريف بأنوار و أملاك * * * تُنشد ألحانَ خلودٍ عن ليلى بأغانيها

فجزاك اللّه يا ابن الزهراء خيرا و برّا * * * * فأنت أهل لنصرة السّنّة و محييها

و قد عقرت أرحامٌ و عقمت أصلابٌ * أن تلد مثلك في كرم الكرامة و معاليها

غفر اللّه لثرى أقدام العباد مذنبيها * * عتو عياد الحسني لروح شيخه يهديها

فعفوا لأنّي وصفت بحرا من شاطئه * * لأنّي لست من بحارة الأشعار و قوافيها

الحمد لله فاتحة كلّ خير و تمام كلّ نعمة

أستغفر اللّٰه تعالى من شرّ نفسي و شرّ الشيطان و مَصْيَدَته وشَرَكِه ، فما ذكرته عن شيخي الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه هو ما سمعته بأذني و رأيته بعيني ، و كل شيءٍ ذكرته عنه رضي اللّٰه تعالى عنه فاللّٰه تعالى شاهد عليّ و قد يظن بعض إخواننا أنّي كنتُ مُلازما للشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه لما ذكرته عنه ، و الحقيقة أنّ زياراتي له رضي اللّٰه تعالى عنه تُعدّ على الأصابع لكنّي كنتُ أدوّن كل ما أسمعه منه و أراه عنه ، و قد قمت بتخطيط هذه السطور في ذكر مناقبه في سنة ٢٠٠٠ م أي في زمن حياته رضي اللّٰه تعالى عنه و قد أقرّني عليه باطنيّا ، وأجد في قلبي قبوله منه رضي اللّٰه تعالى عنه بعد وفاته بأدلّة معنوية ، ولستُ من المفتوح عليهم بل لا أستحق لقب فقير، حتّى أنّي لا أعدّ نفسي من المحبّين فلا زلتُ في سجن نفسي محبوسا و بنار هواي ملفوحا ، لكنّي كتبت عن حياة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه هذه الوريقات و هو راض ، وكلّ شيء ذكرته استندت فيه إلى كلام الحق تعالى وكلام النبيّ صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلم و كلام رجال التحقيق من الصوفية ، ثمّ قد لا يُعجب بعض إخواني بعض الكلام أو أنّي أخطأت ، فلا مانع من سبّي أو شتمي إن عُدمتُ نُصحهم ، و اللّٰه يتولى سرّنا وجهرنا ، لأنّي إن أحسنت فمنه تعالى وحده و إن أخطأت فمنّي و من نفسي و شيطاني وجلّ من لا يخطئ ، و اللّٰه الهادي و الموفق ،

الفقير الحقير عثّو بن إسماعيل عيّاد الحسني

في الثامن من جمادى الأولى ١٤٢٧ الموافق للرابع من جوان ٢٠٠٦

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله على سيدنا محمد و آله و صحبه و سلم سبحان من ألف بحكمته بين لطائف الأرواح و كثائف الأشباح و سقى أرواح المحبين شراب المحبة راحا بعد راح و أطربهم في حضرة أنسهم بإفصاح فشربوا بالدنان لا بالأقداح فطاروا للفناء بلا ريش و لا جناح فتلهوا و طربوا بالحلال و المباح فعطرهم شذى الأفراح في سوق الأرباح و الحمد لله من به المبتدى و إليه المنتهى أن جعل شجرة التصوف مشرقة أصلها في أرض الأرواح ثابت و فرعها في سماء الأشباح ثابت أصلها من عبده الحبيب المحبوب أصيل و فرعها إلى يوم الدين طويل و غارسها بيده الرب الجليل و قاطف ثمرتها من أتى الله بقلب سليم :

(المشايخ كثر لكن العارفين بالله تعالى قلة) هي كلمة نقشت بحروف من ذهب في قلوب تلاميذ و مريدي قائلها رضي الله تعالى عنه و أرضاه و هو العارف بالله تعالى و الدال عليه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه و أرضاه و جعل حضرته تعالى منتهاه ، و إنّي و إن كنت أصغر و أحقر مريديه فقد بدا لي من وجهة نظر أن أذكر شيئا يسيرا عما رأته عيني العمشاء و سمعته أذني الطرشاء عن مناقب شيخي سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه و كل ما أذكره عنه رضي الله تعالى عنه هو ما سمعته منه بلسانه في حضرته و إن كنت قد دخلت حرم الشيخ الجليل بلا آلة و لا سلاح لأني لست من خيّالة و لا فرسان ميدان

التأليف و الكتابة لكنّي سايرت ما يُمليه قلبي على قلمي و كأنّ الخواطر و الأفكار تتوالى فأفصح لسان اليراع عما توالى فكانت هذه الأوراق اليسيرة لعلها تفي بالمقصود . و ربما أجد نفسي أمام فريقين من النّاس أحدهما مُحبّ مُعتقد والآخر منتقص منتقد فللأول أقول أنّ الفضل للّه تعالى وحده (واللّه خلقكم و ما تعملون) وأنّ ما بدا لك ،هو من نظرة واحدة من آلاف النظرات المحيطة بالشيخ رضي اللّه عنه ، فان ذكرت منقبة واحدة فهناك آلاف المناقب للشيخ ، و إن ذكرت كرامة فهناك ألف كرامة ، والحال كذلك لكل كلمة أذكرها عنه رضي اللّه عنه بل كل مريد ينظر إلى الشيخ كنظرتي و له فيه قول كالذي قلت و بذلك فمناقب الشيخ بعدد مريديه ..أما للثاني فأقول ما قاله كعب بن زهير:

و ليس لمن لم يركب الهول بغية ***** و ليس لرحل حطّه اللّه حِلّ
إذا أنت لم تقصر عن الجهل و الخنا ***** أصبت حليما أو أصابك جاهل

و إن كان المحبّ المعتقد حليما فلا غرو أنّ منتقصي و منتقدي جاهل ، و أتسلى عنه بما قاله الشيخ الولي الشهير سيدي محمد بن عمر الهواري رضي اللّه تعالى عنه و أنا تراب تحت نعاله لمّا ألف كتاب السّهو الذي عمل عليه التّنبيه ، فأخذه الفقيه أبوزيد عبد الرحمن المغراوي المقلش فوزن فيه أشياء و أعرب فيه أشياء فأتى به الشيخ و قال له : يا سيدي إني أصلحت سهوك .فقال له الشيخ:{هذا السهو يقال له سهو المقلش و أمّا سهوي فهو سهو الفقراء ، إنّما ينظرون فيه إلى المعنى ومن أين العربية و الوزن لمحمد الهواري بل سهوي يبقى على ماهو عليه}.

محطّات من سيرة الشيخ سيدي محمّد الصّوفي

في قرية بو عدّال ، في بيت صلاح و تقوى و تحت سقف كرم و جود من والدين فقيرين مسكينين كانا منتسبين إلى الطريقة الموسوية أكرمهما الله تعالى لهما التّشرّف بولادة طفل في سنة ١٩١٤ م الموافق ل ١٣٣٣هـ و قد أرخت تاريخ ولادته على عادة المؤرخين القدامى بالحساب بالجمل بقولي :

<u>أسفر الصبح و تلألأ جمالا</u> ***** <u>و بدا محبوب المعبود يزهو دلالا</u>

٥ ١ ٠ ١ زائد ٨ ١ ٣ يساوي ١٣٣٣ و هو تاريخ ولادته رضي الله عنه.

كما أرخت هذه الولادة الشريفة بقولي :

أسعى لأُسْعد بالوصال و حقُّ لي ***** أن السعادة في دنّ بدور سعاد.

وبقولي : بفتح (ألم نشرح) جاء أسد الله الماجد.

أو : طلع فريد جمال الهادي ذي الجلال أو : طلع بدر جمال الحق ذي الجلال..

وُلد سيّدي محمّد غاية في الجمال كأنّه مَلَك نزل من السّماء ، ففرح به الوالد سيدي قدور و لالة يامنة ، و كان شرفا أن يُسمّى المولود محمّدا تيمّنا باسم النّبيّ صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم بل زاده شرفا أن كان اسم والدته كاسم والدة النّبيّ صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم ، آمنة لكن كان الغالب

على ذلك الزمان اسم يامنة على آمنة ، و زاده شرفا على شرف أن كان نسبه حسني يتّصل بسيّد الوجود صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، فكان دمه من دمه صلّى اللّه تعالى عليه وآله و سلّم ، فكانت سلسلة هذا النّسب الشريف أنّ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه بن قدور بن محمّد بن أحمد بن مسعود بن العربي بن سيدي سليمان بن محمّد بن عطا بن سيدي محمّد المهدي بن مسعود بن موسى بن عزوز بن عبد العزيز بن عبد اللّه بن عمران بن عبد اللّه بن عيّاد بن بلقاسم بن عبد اللّه بن أحمد بن مولاي إدريس الأصغر بن مولاي إدريس الأكبر بن عبد اللّه الكامل إمام المدينة المنوّرة بن الحسن المثنّى بن الحسن السّبط بن أمّنا فاطمة الزهراء البتول بنت سيّدنا محمّد رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و تدرّج سيدي محمّد بين أحضان الوالدين يُسقيانه حليب الحنان و الأمان ، و بدأ يعقل ولاحظ والديه يُتمتمان بكلام لم يفهمه و في يد كلاهما سُبحة ، و كعادة كل طفل بدأ سيدي محمّد يسأل و الوالدان يُجيبانه فهم أنّهما يذكران اللّه تعالى ، و كان كثيرا ما يمدّ يده لأخذ سبحة والده فيقطع عليه ورده ، فيُلقيها الوالد و يسحبها سيدي محمّد فيروح يتمثّل و يتشبّه بأبيه و يُدوّرها هو الآخر في يده ، فرسخت عادة لعبه بالسّبحة ، لكن نبّهه الوالد على أنّ السبحة مُقدّسة و يجب بعد إتمام ذكر اللّه تعالى وضعها على العنق ، فيروح سيدي محمّد واضعها على العنق و يرسخ إحترامه لها ، ثمّ يرى والده يُصلّي فيرتمي في أحضانه و يجلس أمامه و لا يدري معنى حركات والده ، فيُعلّمه الوالد أنّ هذه الصلاة و تكون للّه تعالى ، ثمّ يسمع والده يُنشد و يأتي برموز الشيخ سيدي أحمد بن موسى رضي اللّه تعالى عنه فكلمّا أنشد الوالد أصاخ سيدي محمّد فينجذب إلى عالم فارقه

منذ أمد قريب و هو عالم الأرواح ، فيحنّ ويطرب ، وترسخ معاني و تتوارد على العقل تساؤلات ، تكبر كلّ ما نضج العقل ، فإذا مرّت ثلاث أو أربع سنوات يكون سيدي محمّد قد تلقّى من أبيه إجابات ، لكن لا يسعه الوقت وهو مهموم بطلب المعاش حتّى يدفعه إلى سي الفقيه ليُحفّظه القرآن الكريم ، فيجد سيدي محمّد بديل السّبحة لوحة من العرعار لا يدري كيف يتعامل معها ، فيُلقّنه سي الفقيه مبادئ الكتابة و أنّ هذا قلم و تلك دواة مصنوعة من صوف الغنم ، و يبدأ الطالب الصغير في رسم الحروف هذا ألف و هذه باء ... وتتسارع وتيرة الحفظ عنده وقد كان وقّاد الذكاء ، لا يمرّ بسمعه حرف إلاّ حفظه ، ثمّ لمّا يرى سي الفقيه سرعة حفظه يكتب له صِغار السور و يأمره بحفظها ، و كانت حلقة الحفظ آنذاك في العراء تحت وارف الأشجار ، و كان النّاس فقراء يقتصر أكلهم على لبن البقر و كسرة الزرع ، وتمرّ السنون و قد أكمل سيدي محمّد عقده الأول و دخل في الثاني و قد أجاد القرآن الكريم كتابة و حفظا ، فيفهم القلب و لا يجرؤ العقل و كما نعلم أنّ العقد الثاني محفوف بالمخاطر النفسية و العقلية ، فينضج العقل أو يُحاول ، و تشرد النفس طالبة التحرّر من قيود الآباء و أوامرهم ، لكنّ سيدي محمّدا لم يكنْ كذلك شأن المراهقين و لكن أثقل كاهله تساؤلٌ قد عجز عقله عن فهمه لكن أصرّ على فهمه ، وتتوارد عليه الأسئلة تلو الأسئلة في حقّ الذات ، و من توارد ت عليه تلك الأسئلة يعرف ما كان يُثقل قلب سيدي محمّد ، ولمّا يعجز العقل عن الفهم يُسقط ما يراه على ما لا يفهمه ، فيروح العقل واحيًا للقلب أنّ الله تعالى في السّماء و قد يكون جالسا على الكرسي ، و تتجاذب القلبَ تشبيهاتُ العقلِ في حقّ الذات ، فتنقبض النفس إنقباضا ترضى لو غاصت في الأرض على أن

يمرّ عليها خاطر من العقل يُشتّته ، ولمّا بلغ العشرين من عمره إلتقى بفقيه آخر كان أكمل عقلا و أجود فهما من فقيه الطفولة ، فكان الفقيه سيدي عبد القادر شقيق الشيخ سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه ، و كان سيدي عبد القادر في العقد الرابع و قد إكتمل عقله قد أذن له شيخه في تحفيظ الطلبة كتاب اللّه تعالى ، وكان من تلاميذه سيدي محمّد ، فكان يقطع سيدي محمّد مسافات طويلة ليأتي إلى الفقيه سيدي عبد القادر الذي كان يقطن في قرية {مسيفة } بنواحي ندرومة ، و لمّا رأى سيدي عبد القادر قوّة همّة سيدي محمّد و شدّة عزمه في طلب العلم نوى أخذه إلى الشيخ سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه ، وتحلّ سنة ١٩٣٧ و قد بلغ سيدي محمّد سنّه الثالثة و العشرين من عمره ، و يكتمل عزم سيدي عبد القادر لأخذ سيدي محمّد إلى الشيخ سيدي أبي مدين ، و يقرّران السفر ولمّا تقترب الخُطا من زاوية الشيخ و قد أُنهكت القدمان من السير مئات الأميال ، تتوارد على الأرواح كلمات مُشتاق قد أضر به الحبّ و العشق من نار { يحبهم و يُحبونه } ، و تتورّم الأقدام من طول السّفر ويأخذ الجوع من النفس مأخذا ، و قبل الدخول على الشيخ تتزاحم الخواطر و الأفكار على قلب وعقل سيدي محمّد من يكون هذا الشيخ ؟ و ما معنى التّصوّف؟ ويأتي الشّيخَ الخبرُ أنّ ضيفا قد أتاه ، فيخرج الشيخ و يلتقي سيدي محمّد فيدقّ القلبان على باب الروح ليخرج السّرّ ، فيخرج السّرّ يتهادى كأنّه مَلِك بل مَلِكٌ وسُلطان ، و يربط على قلبيهما { و ألقيتُ عليك محبّة منّي و لتُصنع على عيني } ، فتغرق الروحان في يمّ {محمّد رسول اللّه و الذين معه} ، فتنجذب روح سيدي محمّد إلى شيخه في التّوّ و اللّحظة ، و بعد كرم ضيافة تبعها راحة أجسام ، سأل الشيخ سيدي أبو مدين ضيفه عن

إسمه ، فقال : { إسمي محمّد الصّوفي } فقال الشيخ و قد توسّم في ضيفه الولاية و الصّلاح : { إسمك يدلّ على مقامك } ، فمدّ سيدي محمّد يده إلى يد الشيخ و صافحه مُصافحة البيعة وضغط الطالب بيده على يد الشارب ، حتّى أحسّ كل منهما نبض قلب الآخر في يده ، ثمّ لقّنه طريقة الذكر ، فركب سيدي محمّد الصّوفي من أوّل قدم سفينة النجاة فأمخرت به عباب بحور التوحيد كما قال سيدي الكريم الجيلي رضي الله عنه:

الله أكبر هذا البحر قد زخرا ***** وهيج الريح موجا يقذف الدُّررا

فاخلع ثيابك و اغرق فيه عنك و دع ***** عنك السباحة ليس السبح مفتخرا

و مت فميت بحر الله في رغد ***** حياته بحياة الله قد عمرا

ونهل من المعين الذي لا ينضب و شرب من المنبع الذي من ذاق قطرة منه سعد في الدنيا و الأخرى كما قال نجم الدين النسفي: {في تفسير قوله تعالى :(وسقاهم ربهم شرابا طهورا) هو شراب ادخره الله تعالى فإذا شربوا طربوا فإذا طربوا هاموا فإذا هاموا طاشوا فإذا طاشوا طاروا فإذا طاروا طلبوا فإذا طلبوا وجدوا فإذا وجدوا نزلوا فإذا نزلوا قربوا فإذا قربوا كشفوا فإذا كشفوا شاهدوا}،و ما أحسن ما قاله العارف بالله تعالى الإمام النفري رضي الله عنه في التجريد والتنزيه: {وجه ما له سمت و عين مالها طرف و نطق ما له حرف و علم ما له صحف و قرب ما له أين و بعد ماله خلف}، قال أحد المحبين :

و لما تصافينا المحبة بيننا *** فصرنا و من نهوى كشيء واحد

لا زلت أقرب منه حتى صار لي *** بصرا و سمعا حيث كنت و ساعدي

فإذا رأيت فلا أرى إلا بـه *** و إذا بطشت فلا يزال مساعدي

إن شئت شاء و إن أمرت فأمره *** أمري لقد بلغت كل مقاصدي

فأنا الذي أهوى و من أهوى أنا *** ما شاء يصنع حاسدي و معاندي

قال سيدي أبو بكر بن أبي سعدان رضي اللّه تعالى عنه:{الصوفي هو الخارج عن النعوت و الرسوم ، و الفقير هو الفاقد للأسباب ، فقد السبب أوجب له اسم الفقر وسهل له الطريق إلى المسبب تعالى ، و صفاء الصوفي عن النعوت و الرسوم ألزمه اسم التصوف فصفي عن ممازجة الأكوان كلها ، بمصافاة من صافاه بالأنوار و المبار} ،فمن لم يكن له شيخ يقوده كما قيل :

من أجل كونك في البداية أحولا ***** لابد من شيخ يقودك أولا

من المحال أن يذوق هذا الشراب ،.أما شيخنا سيدي محمد الصوفي قدس اللّه سره فشرب و روى و تم له ما نوى بفضل اللّه تعالى.

و سار مُجدفا قد غطّته الحيرة غطّا ، و ملأ قلبه حبّ لا يدري لمن ؟

كبد مقروح و قلب مجروح بالمحن *** عين تبكي الهوى و لا تدري لمن ؟

و هذا شأن الحبّ عند الصّوفي ، يكون بداية حيرة و جمرا على القلب ثمّ يصير نهاية راحة و طمأنينة و سكون ، و تتوالى الأيام و السّنون على سيدي محمّد الصّوفي و قد بدأ يرسخ له قدم السّلوك ، لكن حرقة الحبّ زادته غرقا في بحر المدامع كما قيل :

كيف إصطباري و نار الشوق في كبدي *** و الدمع من مقلتي طوفانه أبدي

و اللّه ما طاب لي عيش أسرّ بــه *** فكيف يفرح قلب حشوه كمدي

فصاحب حال الصمت و السّكوت سيدي محمّد الصّوفي ، و لا صواب و لا حلَّ إلا في كفكفة الدمع و اللّه المُستعان على حمل ما عجز الطور عن حمله ، و لا أجرؤ على دخول بحور توحيد الشيخ لأخرج لأخي الفقير درر أحوال سيدي محمّد الصّوفي وجواهر مقاماته لأنّي لا أحسن السّباحة فضلا عن عدم

إمتلاكي قنّينة أكسجين الإذن، فلو غطست غرقت، فليكن وقوفي هنا، و لمّا بزغ نجمه رضي اللّه تعالى أوكل إليه الشيخ سيدي أبو مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه أن يكون مُقدّما على فقراء الجزائر بحكم تواجد الشيخ سيدي أبي مدين في المغرب بمداغ، وقد داخل قلوب الفقراء غبطة حسدٍ لسيدي محمّد الصّوفي لمّا رأوا شيخه يحبّه ويُؤثره عليهم، ثمّ قال سيدي أبو مدين { قد قدّمت سيدي محمّد الصوفي } فقال الفقراء :{ يا سيدي إنّك قد قدّمته منذ زمان } فردّ سيدي أبو مدين بجزم و حزم :{هو مُقدّمٌ وسأقدّمه، و من نظر إليه فكأنّما نظر إليّ }، ثمّ بأمر من شيخه بادر سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه إلى تحفيظ الطلبة القرآن الكريم، فأنشأ دارا متواضعة في دوّار أولاد حمّو تبعد عن بوعدّال بستّة كيلومترات كان بقربها ضريح وليّ اسمه سيدي أبو مدين و أقبل على الطلبة يُحفّظهم كلام اللّه تعالى، و مع عدم توفيقه بين ذلك وطلب المعاش، شارط فقيها مغربيا على تحفيظ طلبته القرآن الكريم، فكان رضي اللّه تعالى عنه يَدفع للفقيه المغربي خمسة آلاف أو ستّة آلاف سنتيم قديم أي ما يُعادل خمسين أو ستين دينارا، وكان هذا المبلغ في ذلك الزمان له قيمة مصرفية كبيرة و كان من ماله الخاص شرطا شهريا للفقيه، و توجّه إلى طلب المعيشة من عرق جبينه، فكان إذا حلّ فصل الصّيف عمل شوّالا عند الفلاحين، ثمّ تدرّج في أعمال حرّة فتراه مرّة بنّاءً ملطرا و مرّة نادلا في المقاهي، بل كان إذا وجد عملا باشره أيّا كان، و كان رضي اللّه تعالى عنه بذلك يُجاهد نفسه فيُطفئها بمياه التواضع كلما شبّت وقودها، و إلاّ أرهف عليها سيوف المجاهدة، و قد كان حازما معها لا يتوانى معها و لا يدع لها فُرص أخذ الأنفاس، و طلب المعيشة فيه سرٌّ من أسرار السّلوك، و المهنة التي أجاد فيها و

أفاد هي خياطته للجلابة و صنع القلانس ، و كان إذا حلّ القيظ اصطاف مع طلبته و قد تبرّع مرّة أحد الميسورين بكبش لطلبة سيدي محمّد الصّوفي ، فذهب معهم رضي اللّه تعالى عنه إلى البحر و أقاموا فيه بعض الليالي ، و قد كان رضي اللّه تعالى منذ صغره يُحبّ خدمة غيره ، فلمّا ذهبوا إلى الشاطئ و هنا أفتح قوسا لأصحّح مفهوما قد يبدو خاطئا ، فلمّا أقول شاطئ البحر أتنسّم منه قول النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : {علّموا أولادكم السّباحة و الرماية و ركوب الخيل} لأنّ البحر صيفا في زمن الشيخ سيدي محمّد الصّوفي كان طاهرا يُسبّح باسم الطاهر تعالى ، أمّا في زمننا فتسبيح البحر هو يا جبّار يا منتقم يا قهّار يا مميت ، لأنّ النسوة في ذلك الزمان كنّ لا يعرفن من البحر إلا اسمه ، أمّا في زماننا فحدّث عن البحر و لا حرج ! فلمّا ذهبوا إلى الشاطئ كان خادم الطلبة شيخهم سيدي محمّد الصّوفي فذبح الكبش ثمّ سلخه و أقام هو يُطعمهم و يسقيهم ، و كان شديد الحرص على العبادة فكان يُقيم الصلوات مع طلبته ، و في أحد المرات ذهب معهم أحد أقرباء الشيخ سيدي محمّد الصّوفي وتكرّرت عادة خدمته رضي اللّه تعالى عنه لطلبته من ذبح و سلخ و طبيخ ، و لمّا كان الفجر أذّن الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه لصلاة الصّبح فانتبه قريبه من نومه و ناداه مازحا { يا شيخ على من تؤذن ؟ على حوت البحر ؟ } وكان رضي اللّه تعالى عنه سبّاحا ماهرا لا يسبقه إلى قصبة السّبق سابق ، و لمّا بلغ رضي اللّه تعالى عنه السابعة و العشرين من عمره تزوّج مع لالة حليمة بنت علي وقد أُرِّخَ عقد هذا الزواج المبارك يوم السبت ٢٢ نوفمبر ١٩٤١م الموافق للرابع من ذي القعدة ١٣٦٠هـ ، و بزواجه جدّ سير عزمه للتوفيق بين طريق السّلوك و طلب المعيشة ، و كان

مُهابا من أولاده قد تحلّى بجلالة و مهابة ، فلمّا وُلد له أولاد ، قد كانت تصدر منهم شقاوة الصبيان فكان يريد رضي اللّه تعالى عنهم تأديبهم فيهربون إلى حضن جدّتهم لالة يامنة ، فيقف إحسانه و أدبه مع والدته رضي اللّه تعالى عنه فلا يقدر على شيء إذ كان بارًّا بوالدته ، و كان إذا غضب على أولاده فلا يلعن ولا يصخب ولا يسبّ ، بل يقتصر على قوله لأحدهم { يا رأس الكيدار } ، و لم تمتد يده على أحد منهم بضرب ، و كان منذ صغره قليل الكلام طويل الصّمت ، قليل الضحك لأنّه لم يُخلق لهذا ، و كان محبّا للطهارة تشق عليه الراوائح الكريهة وبخاصّة رائحة التّبغ ، و في سنة ١٩٥٣ حجّ رضي اللّه تعالى عنه مع شيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه حجّته الأولى ، و كان ذهابهم إلى الحج على متن الباخرة التي قطعت بهم خمسة عشر يوما ذهابا ، وخمسة عشر يوما إيّابا ، و كان دخولهم إلى مصر قبل تنقلهم نحو الحجاز إلى البقاع المقدّسة ، و في الحج كان رضي اللّه تعالى عنه خادما مُطيعا لشيخه فبشّره سيدي أبو مدين ببشائر و دعا له أن يصير خليفة له ، وفي سنة ١٩٥٤ ومع إندلاع الثورة التحريرية انقطع رضي اللّه تعالى عنه عن مجالسة الفقراء الذين كان مُقدّما عليهم و سار في طريق النّضال لتحرير الجزائر من أسر المستعمر الفرنسي فناضل الشيخ رضي اللّه تعالى عنه بالنّفس و النّفيس فأسندت إليه مهمّة { إتّصال } ، فكان ممدّا للثورة كنقطة تواصل بين الشعب الجزائري و المجاهدين في جمعه أموال الإشتراك للثورة لشراء السّلاح و العتاد ، و بعد سنتين أي في سنة ١٩٥٦ ألقي عليه القبض من قِبل السلطات الفرنسية و زُجّ به في السجن الحربي للالة مغنية ، و في السجن حلّقوا له لحيته رضي اللّه تعالى عنه فاغتاظ لذلك ومرِض مرضا شديدا ، فتعجّب مسئولو السجن لمّا علموا أنّ

مرضه كان من جرّاء حلقه للحيته ، فقدّم رضي اللّه تعالى عنه طلبا لمدير السجن الحربي يطلب منه أن يتركه ليُوفّر لحيته ، فكَبُر في عين مدير السّجن و لبّى طلبه و أوصى عليه الجنود أن يخدموه و لا يُزعجوه ، فلقّبوه باسم {مَرابو} { MARABOUT } أي مُرابط و وليّ ، وصار مسئولو السجن يُكنّون له كلّ الإحترام و التّقدير ، فتركوا له حريّة التّحرّك في السّجن ، فكان يُصلّي بالمساجين إماما وصار يُحفّظهم القرآن الكريم و يُعلّمهم تعاليم الإسلام و منهم من أعطاه الوسيلة و عرّفه طريق السّلوك ، و في السجن نال الفتح العظيم من سيّد الوجود صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم ، إذ كان السّجن خلوته و كان له الشرف أن ذاق المقام اليوسفي ، إذ لبث في السجن ثلاث سنوات ، ثمّ أطلق سراحه سنة ١٩٥٩ ، و مع ذلك تابع نضاله حتّى غداة الاستقلال فأوكلت له السلطات الجزائرية آنذاك مهمّة نائب رئيس بلدية ، و بعد سنوات من عمله رضي اللّه تعالى عنه لمّا رأى أنّ المجالس الشعبية البلدية داخلها سوس السّياسة استقال و لم يقبل أن يدخل في متاهات السّياسة ففتح محلاّ تجاريّا يسترزق منه ، و في سنة ١٩٦٤ انفطرت فلذةٌ من كبده رضي اللّه تعالى عنه إذ هاجر ابنه عبد الحميد إلى فرنسا للعمل ، وفي نهاية السّتينيات و بداية السّبعينيات توظّف إماما راتبا في مسجد حيّ بوعدال و الذي هو الآن زاويته الكبرى فقد كان مسجدا حيث المحراب العتيق ، و في سنة ١٩٧٢ تزوّج رضي اللّه تعالى عنه بزوجته الثانية الحاجة لالّة رابحة ، و التي حجّ معها الحجّة الثالثة إذ كانت الحجّة الأولى مع شيخه و الثانية مع زوجته الأولى الحاجة لالّة حليمة رحمها اللّه تعالى ، و ولد له رضي اللّه تعالى من زوجته لالة حليمة رحمها اللّه تعالى أبناؤه سيدي عبد الحميد و سيدي عبد الحفيظ و سيدي محمّد

، و من زوجته الثانية الحاجة رابحة سيدي أحمد ، و كان له تسع بنات من الزوجتين ، ومع بداية الثمانينيات سافر ابنه سيدي عبد الحفيظ إلى فرنسا للعمل ، و قبل سفره و قد كان جاهزا إلا لأخذ الإذن من سيدي محمّد الصّوفي ، فلمّا سمع الوالد أمر السّفر من فلذة كبده حتّى انفطر كبده ثانية فكان لا مناص من الانصياع لقدر اللّه تعالى فقال رضي اللّه تعالى عنه لابنه سيدي عبد الحفيظ { يحضر جود اللّه }، و أذن له بالسّفر ، وفي سنة ١٩٨٤ صار له الإذن المطلق للتربية و الإرشاد ، و منذ هذه السنة توافد عليه طالبو السّلوك من كلّ حدب و صوب ، فعرفه الخاص و العام ، حتّى جاءت ليلة الحزن و الترح لنا و ليلة الفوز و الفرح له رضي اللّه تعالى عنه أي ليلة الأحد ١٧ ذو الحجة ١٤٢٤هـ الموافق لـ : ٠٨ فبراير ٢٠٠٤ م إذ جاءته بشارة لقاء الحبيب سيّدنا محمّد صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ولقاء ربّه تعالى ، و من قوّة همّته وحرصه على عبادة اللّه تعالى وهو في سكرات الموت فلمّا كان يفيق يسأل أولاده {هل صلّيت أم لا ؟} ، فإن قالوا بالنّفي قال رضي اللّه تعالى عنه : { أسندوني لأصلّي } فيُصلّي بعينيه ، و في ليلة وفاته رضي اللّه تعالى عنه أسندوه فصلّى صلاة العشاء و أسلم روحه الطاهرة إلى بارئها و نال درجة الشهادة، فرحمه اللّه تعالى رحمة واسعة وحشره مع النبيّين و الصّديقين و الشهداء والصالحين و حشرنا ووالدينا وأولادنا و أهلينا معهم بمنّه و فضله و رحمته آمين .

و كسفت شمس بو عدّال بموت شهيد الحبّ

هذا سيدي الصّوفي و هذا ضريحه المعطّر

فاسكب على تربته دموع نار الغرام

و ابكِ و انتحبْ أسى و أسفا و لوعة

على فراق غوث أرواح سقلها المُدام

و قفْ بحرمة قلب و استذكر شيخك

وهو في صدر المجالس كبدر التّمام

و قد علته مهابة و أنارته وضاءة

و أحاطته أنوار كأنّه بيت اللّه الحرام

و لاحظْ إطراقه و صمته و تواضعه

فإن تكلّم فبحياءٍ يعلوه إبتسام

و سر على قدمه متّبعا إن أردت

الفتح و بلوغ كلّ قصد و مرام

و إنْ كان رضي اللّه تعالى عنه رحل ، فلم يرحل من القلوب و لم يغب عن الأرواح و المُهج ، و سكنُه من القلب الفؤادُ ، و من العين السوادُ ، و روحه في ذوات الصادقين من مريديه ، كما قيل :

مُذ غبتَ أوحشتَ جميع الورى ◦◦◦◦◦ إلاّ أنا مُذ غِبْتَ آنستَني

سكنْتَ في القلب فلا ينبغي ◦◦◦◦◦ أن يُقالَ للسّاكن أوحشتَني

و قلت :

خليليا قفا بي على رُبوة بو عدّال ***** فقد هب من تلك الديار نسيم

و لا تلماني لماذا أقمت بأرضهم ***** و أعذراني لأني للمقام أهيم

فهناك روحي و راحتي ***** و لرحيلهم كبدي سقيم

و من أراد البحث عن شيخه عارف مثله في هذه الأيام فقد رام المُحال لأنّ رحم العرفان قد عقرت عن مثله ، قال الشاعر:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله °°°°° إنّ الزمان بمثله لبخيل

فليجتهد أخي الفقير في ذكره تعالى و ربط قلبه بالشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه ، فما هي إلا أيّام معدودة وتفنى هذه الدنيا ، و فناؤها هو بموتك أخي الفقير ، فلا تنتظر القيامة لأنّ من مات فقد قامت قيامته ، قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه: {هذه الدنيا سوق بعد ساعة لا يبقى أحد ، عند مجيء الليل يذهب أهله منه ، اجتهدوا أنّكم لا تبيعون و لا تشترون في هذا السوق إلاّ ما ينفعكم غدا في سوق الآخرة فإنّ الناقد بصير ، توحيد الحقّ عزّ و جلّ الإخلاص في العمل له ،هو النافق هناك و هو قليل عندكم}.يقول اللّه تعالى : (إنّ يوما عند ربّك كألف سنة ممّا تُعدّون) فانظر أخي الفقير رحمك اللّه تعالى إلى هذا المقدار من السّنين و هو ألف سنة أي عشرة قرون ، فلا يُقابله إلاّ يوم واحد من أيّام الآخرة ، ثمّ انظر إلى معنى الأبد ، ومعنى الخلود إمّا في جنّة النّعيم أو نار الجحيم ، بعد ذلك تجد حياتك و لو عشت مائة سنة هباءة بل أحقر و أدنى من الهباءة ، و لو قمنا بعملية حسابية مقارنة بزمن الدنيا و زمن الآخرة لوقفنا مشدوهين و حائرين ضاربين أخماسا على أسداس على ضياع أعمارنا في الفراغ و البطالة و لبكينا الدّم من نفاذ الدموع ، فمن ذلك أنّه من عاش أربعا و ثلاثين سنة فقد عاش مُقارنة بزمن الآخرة دقيقة واحدة فقط ! ومن عاش ثمانيا و ستّين سنة فقد عاش دقيقتين ! و من عاش قرنا و سنتين فقد عاش ثلاث دقائق فقط ! و لذلك جاء في الأثر: (أنّ الدنيا ساعة فاجعلها طاعة) ، و هذه المقارنة الزمنية لو تأملناها نجدها

أخطر على القلب و أذوب لمن كان له قلب أو ألقى السّمع و هو شهيد و هي أنّ يوم المحشر و الوقوف بين يديّ الحَكم العدل جلّ سلطانه ، و مَلِك و مَالك يوم الدّين جلّ جلاله هو خمسين ألف سنة بالتّحقيق و التّدقيق ، فقد تلا النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (يوم يقوم النّاس لربّ العالمين) ثمّ قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم: (كيف بكم إذا جمعكم اللّه تعالى كما تُجمع النّبل في الكنانة خمسين ألفَ سنةٍ لا ينظر إليكم) ، قال سيدنا الحسن رضي اللّه تعالى عنه : {ما ظنّك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألفَ سنة (أي خمسمائة قرن) لا يأكلون فيها أكلةً و لا يشربون فيها شربة ، حتّى إذا انقطعت أعناقهم عطشا ، و احترقت أجوافهم جوعا ، انصرف بهم إلى النّار ، فَسُقوا من عين آنية قد آن حرّها ، و اشتدّ لفحها ، فلمّا بلغ المجهود منهم مالا طاقة لهم به ، كلّم بعضهم بعضا في طلب مَنْ يُكْرَمُ على مولاه تعالى ليشفع في حقّهم ، فلمْ يتعلّقوا بنبيّ إلاّ دفعهم و قال : نفسي ، نفسي ، شغلني أمري عن أمر غيري ، و اعتذر كلّ واحد بشدّة غضب اللّه تعالى و قال : قد غضب اليوم ربّنا غضبا لم يغضبْ قبله مثله ، و لا يغضبْ بعده مثلَه ، حتّى يشفع نبيّنا سيدنا محمّد صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم لمن يُؤذن له فيه}، يقول اللّه تعالى : (لا يملكون الشّفاعة إلاّ مَنْ أذن له الرحمن و رضيَ له قولا فتأمل في طـــــول

هـــــذا اليّـــــوم و شـــــدّة الانتظـــــار فيـــــه حتّى يَخِفّ عليك انتظار الصّبر عن المعاصي في عُمرك المُختصر} !! و لو حسبنا المقارنة الزّمنية بين هذا اليوم الطويل و بين عُمر أحدنا في هذه الدّنيا لوجدنا عجبا ، و أنّ أعمارنا في غير طاعة اللّه تعالى عبثٌ ، لأنّه من عاش أربعا و ثلاثين سنة إنّما

عاش دقيقة واحدة فقط ! و من عاش ثمانيا و ستّين سنة إنّما عاش دقيقتين فقط ! و من عاش مائة سنة و ستّين إنّما عاش ثلاث دقائق فقط !! و لمن أراد الحساب بنفسه فليَقسمْ خمسين ألفا (و هي سِنُونُ يوم المحشر) على أربع و عشرين ساعة (و هو زمنُ يوم بحساب الدّنيا) يجد عددَ ألفين و ثلاثا وثمانين سنة ، و هو عمر غير مُفترض لأحدٍ من أبناء الدّنيا باستثناء أعمار من سبق من أوائل سكّان الدّنيا كقوم سيدنا نوح عليه السّلام و غيرهم ممّن كانوا يُعمّرون كثيرا ، ثمّ إنّ عدد ألفين و ثلاثا و ثمانين سنة الذي هو ساعة واحدة بمقدار يوم المحشر نُقْسِمه على ستّين دقيقة التي هي زمن ساعة دنيوية ، فنجد أنّ أربعا و ثلاثين سنة من عمر الدّنيا تُساوي دقيقة من زمن يوم المحشر ، فإذا كان عمرك إذاً أربعا و ثلاثين سنة فاعلم بأنّك عشت دقيقة واحدة فقط بزمن الآخرة ، و إذا عشت مائة سنة و ستّين فاعلم بأنّك عشت ثلاثة دقائق فقط بزمن الآخرة ، ثمّ قِسْ هذه الدقائق بزمن الآخرة مع معنى أبد الآبدين و معنى الخلود كما قال تعالى عن أصحاب الجنّة و النّار (خالدين فيها) فافهم معنى الخلود ، إذاً أخي الفقير نفسك دقيقة فاجعلها من النّار عتيقة ، وغُبِنْتَ غُبناً لو أضعت عمرك العزيز في التّفاهات و الخُزعْبلات و طلب التّفاهات ، فاحرص عليه ليكونَ لك لا عليك ، كما قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه : {عمرك نفسٌ واحد فاحرصْ أن يكون لك لا عليك}، و قال سيدي ابن عطاء اللّه السّكندري رضي اللّه تعالى عنه: {ما فات من عمرك لا عوض له ، و ما حصل لك منه لا قيمة له}.

كما قيل: بقيّة العمر عندي ما لها قيمة ◦◦◦◦◦ و إنّ غداً غير محسوب من الزمان

يستدرك المرء فيها كلّ فائتة ◦◦◦◦◦ من الزمان و يمحو السّوء بالإحسان

قال سيدنا مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللّهِ عَنْهُ : قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّه تعالى عليه وآله و سلّم : (لَنْ تَزُولَ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ؟) ، و قال سيدي إسماعيل بن المقرّي رضي اللّه تعالى عنه :

إلى كم تمادٍ في غرور و غفلة ooooo و بطالة و نوم إلى غير يقظة

لقد ضاع عمرٌ ، ساعة منه تُشترى ooooo بملءِ السّما و الأرض ، أيّة ضيعة

أتُنفقُ هذا في هوى هذه التي ooooo أبى اللّه أن تُساوى جناح بعوضة

أترضى من العيش الرغيد تعيشه ooooo مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة

فيا دُرّةً بين المزابل ألقيت ooooo و جوهرة بيعتْ بأبخس قيمة

أفانٍ بباقٍ تشتريه سفاهة ooooo و سُخطاً برضوانٍ و ناراً بجنّة

ألأنتَ صديقٌ أم عدوٌ لنفسه ooooo فإنّك ترميها بكلّ مصيبة

و لو فعل الأعداء بنفسك بعض ما ooooo فعلت لمسّتهم لها بعضُ رحمة

لقد بعتَها هونا عليك رخيصة ooooo و كانت بهذا منك غير حقيقة

فويلك لا تفضحها بمشهد ooooo من الخلق إن كنت ابن أمّ كريمة

بين يديها موقفٌ و صحيفة ooooo يُعَدُّ عليها كلّ مثقال ذرّة

كلفت بها دنيا كثيرا غرورها ooooo تقابلنا بنصحها بالخديعة

فإذا علمت هذا ، فاحرص على عمرك و أفنيه في طاعة اللّه تعالى و عمّر أنفاسك بذكره جلّ سلطانه ، و سرْ في مسلك الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، قدماً بقدم و اجتهدْ و فرّحه و هو عند ربّه يدعو لك بالسّداد ، لأنّه شهيد وحيّ يُرزق ، فأمّا الشهادة فقد نالها بمرضه رضي اللّه تعالى عنه فقد قال

النبي صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلم : (ما تعدّون الشّهداء فيكم ؟ قالوا : من يُقتل في سبيل اللّٰه ، فقال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلم : إنّ شهداء أمّتي إذنْ قليل ، المقتول في سبيل اللّٰه شهيد ، و المرءُ يموتُ على فراشه في سبيل اللّٰه شهيد ، و المبطون شهيد ، و الملدوغ شهيد ، و الغريق و الشريق شهيد ، و الذي يفترسه السّبُع شهيد ، و الخارُّ عن دابته شهيد ، و صاحب الهدم شهيد ، وصاحب ذات الجنب شهيد ، و النّفساء يقتُلها ولدُها يجرُّها بِسُرَرِه إلى الجنّة) ، فالشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه مات شهيدا ، و نال درجة الشهادة مرتين ، الأولى بمرضه ، و الثانية مات شهيدا بالحبّ الإلهي ، وموت العارفين يكون موتا من الحبّ و للحبّ و بالحبّ و إلى الحبّ وفي الحبّ يروى عن سيدي الشبلي رضي اللّٰه تعالى عنه {أنّه تواجد يوما فضرب يده على الحائط حتى عملت عليه يده ، فعمدوا إلى بعض الأطباء فلما أتاه قال للطبيب : ويلك ؟ بأيّ شاهد جئتني ؟ قال : جئت حتّى أعالج يدك ، فلطمه سيدي الشبلي رضي اللّٰه تعالى عنه وطرده ثم عمدوا إلى طبيب آخر ألطف من الأول فلما أتاه قال له سيدي الشبلي : ويلك ؟ بأيّ شيء جئتني ؟ قال الطبيب: بشاهده ، فأعطاه سيدي الشبلي رضي اللّٰه تعالى عنه يده وهو ساكت ، فلما أخرج الدواء يجعله عليها صاح و تواجد و ترك إصبعه على موضع الداء و هو يقول :

أنبتت صبابتكم ***** قرحة على كبدي

بتّ من تفجّعكم ***** كالأسير في الصّفد }

و الذكيّ يفهم سبب مرض الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّٰه تعالى عنه ، كما يُروى عنه رضي اللّٰه تعالى عنه أنّه قال لأحد الفقراء : { لولا الفقراء لآثرت الذهاب عند سيدي ربّي } ، و عن هذا الذهاب قال الإمام حجة الإسلام سيدي

أبو حامد الغزالي رضي اللَّه تعالى عنه يذكر سرّ موت العارف باللَّه تعالى و أنّه المُبتغى بعد رضوان اللَّه تعالى :

قل لإخوان رأوني ميتّا ***** فبكوني ورثوا لي حزنا
أتظنون بأني ميّتكم ***** ليس ذاك الميت واللَه أنا
أنا في الصور وهذا جسدي ***** كان بيتي وقميص زمنا
أنا كنز وحجابي طلسم ***** من تراب كان له فيه عنا
أنا درٌّ قد حواه صدف ***** كنت ممحوناً فعفت المحنا
أنا عصفور وهذا قفصي ***** طرت منه وبقي مرتهنا
أحمد اللَّه الذي خلصني ***** وبنى لي في المعالي سكنا
كنت قبل اليوم ميتاً بينكم ***** فحييت وخلعت الكفنا
و أنا اليوم أناجي ملأً ***** وأرى اللَه جهاراً علنا
عاكف في اللوح أقرأ وأرى ***** كلما كان تناثي ودنا
وطعامي و شرابي واحد ***** وهو رمز فافهموه حسنا
ليس خمراً سائغاً أو عسلا ***** لا ولا ماء ولكن لبنا
فافهموا السر فيه نبأ ***** أي معنى تحت لفظي كمنا
فاهدموا بيتي ورضوا قفصي ***** وذروا الطلسم بفنا
قد ترحلت وخلفتكم ***** لست أرضى داركم لي وطنا
وردائي وقميصي مزقوا ***** واتركوا الكل دفيناً بفنا
لا تظنوا الموت موتاً إنّه ***** لحياة وهي غاية المنى
حيّ ذا الدار نوم مغرق ***** فإذا مات أطار الوسنا
لا ترعكم هجمة الموت فما ***** هو إلا نقلة من هاهنا

وخذوا في الزاد جهداً لا تنوا ***** ليس بالعاقل منّا من ونا

و أحسنوا الظن برب راحم ***** شاكر للسعي و أتوا أمنا

عنصر الأنفس منا واحد ***** وكذا الجسم جميعاً عمنا

ما أرى نفسي إلا أنتم ***** واعتقادي أنكم أنتم أنا

فارحموني ترحموا أنفسكم ***** واعلموا أنكم في أثرنا

أسال الله لنفسي رحمة ***** رحمة الله صديقاً أمنا

وعليكم مني سلام طيب ***** سلام الله عليهم وثنا

فاللهمّ اسق الشيخ سيدي محمد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه من خمر المُشاهدة و أغرقه في بحر تجليات أسرارك و فضاء سُبحات أنوارك ، اللهمّ ارزقه من مواهبك الربّانية موهبة يطّلع ببركتها على مخفيات رموز (ألم تر إلى ربّك) ومُغيّبات كنوز (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة) اللهمّ أحيّيه في قبره حياة طيّبة يذوق بها حياة الحبّ و طُعم شراب القرب فيكون بك حيّا و لك وليّا ، اللهمّ مجّد قدره بحبّك و شرّف مرتبته بقربك حتّى يكون بحبّك مُمَجّدا و بقربك مُؤيّدا و أطلعه على دقائق المدد و رقائق الجِدّ و ألبسه من تيجان المجد و السّعد بفضل براهين مجدك يا مجيد ، اللهمّ أعطه من فضلك عطاءً وفيّا يتقرّب بسببه لأبواب محبّتك و يكون من أهل حضرتك و يُشاهد أسرارك القدسية فيفوز بعطية جودك الوفيّة ، اللهمّ قدّس سرّه و روحه بسرّ سرّك و بروح روحك و أدخله لمنازل الأنس و أسقه من مشارب القدس فيكون سرّه بك مُقدّسا يا قدوس يا قدوس يا قدوس ، آمين آمين آمين بجاه سيد المرسلين سيدنا محمد صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم

رضي الله عنه

سند الطريقة الصوفية

للشيخ سيدي محمد الصوفي قدّس الله سرّه و

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه : { اعلم أنّه من لم يعرف أباه و أجداده في الطريق فهو دعيّ و ربّما انتسب إلى غير أبيه فيدخل في قوله صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم : { لعن الله من انتسب إلى غير أبيه } ، وقال سيدي محمّد بن إبراهيم بن عبّاد رضي الله تعالى عنه في المفاخر العليّة : {وقد درج السّلف الصّالح كلّهم و هم مُجمعون على أنّ من لم يصحّ له نسبُ أِلقوه ، و يأذن له شيخه في أن يجلس للنّاس ، لا يجوز له التّصدّر إلى إرشاد النّاس ، و لا أن يأخذ عليهم عهدا ، و لا أن يُلقّنهم ذكرا ، إذ السّرّ في الطّريق إنّما هو ارتباط القلوب بعضها ببعض إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم إلى حضرة الحقّ جلّ جلاله ، فمن لم يدخل في سلسلة القوم فهم غير معدود منهم ، و أقلّ ما في الاتّصال بسلسلتهم أنّك إن تحرّكتَ أجابك بالتّحريك كلّ حلقة من شيخك إلى رسول الله صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم إلى حضرة الحقّ جلّ جلاله } فإذا علمت ذلك ، فاعلم أنّه قد ثبت بالسند المتصل أن الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه أخذ الطريق عن شيخه سيدي أبي مدين أبو تشيش رضي الله تعالى عنه عن سيدي أحمد العلاوي رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد البوزيدي رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد الوكيلي رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي يعزى المهاجي رضي الله

تعالى عنه عن سيدي محمد بن عبد القادر رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي العربي الدرقاوي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي علي الجمل رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي العربي بن عبد اللّه رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أحمد بن عبد اللّه رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي قاسم الخصاصي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي محمد بن عبد اللّه رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي عبد الرحمن الفاسي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي يوسف الفاسي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي علي الصنهاجي الدوار رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي إبراهيم الفحام رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أحمد زروق رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أحمد الحضرمي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي يحي القادري رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي علي بن وفا رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي محمد وفا بحر الصفا رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي داود بن باخلي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أحمد بن عطاء اللّه السكندري رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أبي العباس المرسي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي عبد السلام بن مشيش رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي عبد الرحمن العطار الزيات رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي شعيب أبي مدين رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي سعيد المبارك رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أبي علي الحسن بن يوسف رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أبي الفرج الطرطوسي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أبي الفرج عبد الوهاب التميمي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أبي بكر بن جحدر الشبلي رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي أبي القاسم الجنيد رضي اللّه تعالى عنه عن سيدي سري السقطي رضي

اللَّه تعالى عنه عن سيدي معروف الكرخي رضي اللَّه تعالى عنه عن سيدي علي بن موسى الرضا رضي اللَّه تعالى عنه عن سيدي موسى الكاظم رضي اللَّه تعالى عنه عن سيدي جعفر الصادق رضي اللَّه تعالى عنه عن سيدي محمد الباقر رضي اللَّه تعالى عنه عن سيدي زين العابدين رضي اللَّه تعالى عنه عن سيدنا الحسين السبط رضي اللَّه تعالى عنه عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم اللَّه تعالى وجهه عن سيدنا و مولانا و منبع فيوضاتنا و وسيلتنا إلى ربنا سيدنا محمد رسول اللَّه صلى اللَّه تعالى عليه و سلم عن سيدنا جبريل عليه السلام عن رب العزة و الجلال سبحانه و تعالى

صفته قدس اللَّه تعالى روحه و رضي عنه

قال المحبّ:

نظرت إلى من زين اللَّه وجهه ***** فيا نظرة كادت على عاشق تقضي

فكبرت عشرا ثم قلت لنفسي ***** متى نزل البدر المنير إلى الأرض

تبين قلبي أن روحي تحبه *** و في العين تبيان من الحب و المرض

و ماهو إلا خلق ذي العرش كله **** و لكن بعض الناس أحسن من بعض

كان سيدي محمد الصوفي قدس اللَّه تعالى سره مربع القامة عريض الصدر عبل جميل الصورة حسن الهيأة أبيض اللون مشرب بحمرة صلت الجبهة مسترسلها رقيقة بشرتها بيضاء اللون تسطع الأنوار منها و هي خالية من الغضون و الأسارير كما قيل:

و إذا نظرت إلى جمال جبهته ***** برقت كبرق العارض المتهلّل

و كان أزج الحاجبين يمتدان إلى مؤخر العينين كأنما خطا بقلم أبلجهما نقي ما بينهما من الشعر و ذلك من صفات السؤدد عند العرب قديما إذ كانوا يتيمنون بالسيد الأبلج. و كان البلج من أوصاف النبي صلى اللّه عليه و سلم قال أبو طالب يمدح النبي صلى اللّه عليه و سلم:

و أبلج يستسقى الغمام بوجهه ***** ثمال اليتامى عصمة للأرامل

و كانت له رضي اللّه عنه نظرة صافية و حانية من عينين بنيتي اللون في بياض صاف تتدفقان حنانا و عطفا و حبا و شوقا تمتازان بالنجل و الحور في اتساع مع حسن إلا أن العين اليسرى يزينها أكثرا فتور و انكسار في النظر، و لما كانت العيون هي منفذ الأرواح كانت منبع أنوار و أسرار المشايخ لتلاميذهم و مريديهم وهو ما يسمى بالسقوة لقولهم الملاقاة مساقاة كما قال الشاعر:

إنسان يسقيك من إنسانه ***** خمرا حلالا مقلتاه عنبه

و إنسان الإنسان هو عينه كما يقال عن البؤبؤ أنه إنسان العين ، و لذلك كانت نصائح المشايخ لتلاميذهم أن يجلسوا بين أيديهم و هو مجلس المتعلم من المعلم والمتنور من المنور.قال سيدي أحمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه:{الرجل من يربي بحاله لا من يربي بمقاله و إذا جمع بين الحال و القال فهو الرجل الأكمل}. وقال سيدي ابن عطاء اللّه: {لا تصحب من لا ينهضك حاله و لا يدلك على اللّه مقاله} ، وقد لمسنا حال سيدنا محمد الصوفي رضي اللّه عنه و هو يجود به بنظراته الهادئة الصافية على مريديه و تاللّه ما أن يجلس بين يديه مريد السلوك الصادق في طلبه و نيته حتى ينقلب من عنده مستغني باللّه وحده، قال المتيم:

حكم الزمان بأنني لك عاشق ***** يا من محاسنه كبدر يشرق

حزت الفصاحة و الملاحة كلها ***** و عليك من دون البرية رونق

و لقد رضيت بأن تكون معذبي ***** فعسى علي بنظرة تتصدق

من مات فيك صبابة فله الهنا ****** لا خير فيمن لا يحب و يعشق

و كانت له رضي اللّه عنه وجنتان أسجحتان متسعتان كأنهما تفاحتان معطرتان أو جمرتان تذيبان قلب الدنف المتيم المستهام كما قيل :

أسقم جسمي بسقم طرف ***** حيرني في الهوى احوراره

عجبت من جمر وجنتيه ***** يذيبني دونه استعاره

و كان رضي اللّه عنه أقنى الأنف كأنفه الشريف صلى اللّه عليه و سلم حيث بينه ابن أبي هالة بقوله: {أقنى العرنين يحسبه من لم يتأمله أشم}، و كان رضي اللّه عنه ضليع الفم شفتاه لمياء بسمرة يسيرة و ضمياء مع رقة و ضمور أشنب الثغر كأنما أسنانه الدر تتلألأ بياضا إلا أنه رضي اللّه عنه سقطت أسنانه ابتداء من الناب إلى ما يليه من الجهة اليسرى لثغره فإذا تبسم رئي النور يخرج من بين ثناياه ، و كانت تزينه رضي اللّه عنه لحية عريضة طويلة بيضاء تسطع منها الأنوار لينة الملمس كأنها الحرير الناعم، قال الشاعر :

أقسم باللّه و آياته ***** ما نظرت عيني إلى مثله

و لا بدا وجهه طالعا ***** إلا سألت اللّه من فضله

و كان له رضي اللّه عنه وجه صاف يتلألأ أنوارا و أسرار كأنه البدر المكتمل ، كما قيل :

جاء إلى الصلاة بوجه ***** يخجل البدر في ليالي السعود

فتمنيت أن وجهي أرض ***** حين يومئ بوجهه للسجود

و كان رضي اللّه عنه يعتجر و يتحنك بالعمامة البيضاء و يلبس البياض لا يلبس غيره و إذا كان الفصل حارا كان رضي اللّه عنه يكشف عن ذراعين كأنهما الجمارة تزينهما راحتان رحبتان سائلتا الأطراف كأنما أنامله قضبان فضة، قال الشاعر :

ألثم أناملة فلسن أناملا ***** لكنهن مفاتح الأرزاق

و أشكر صنائعه فلسن صنائعا ***** لكنهن قلائد الأعناق

وكان إذا أراد القيام عَجِن لكبر سنّه رضي اللّه تعالى عنه أو استعان بغيره ليقوم

و كان عبلا سمينا قد أسمنه الحب الجمالي للّه تعالى و لرسوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم و كان سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه سمينا جدا و إذا قيل له في ذلك يقول : {كلما أتذكر أنا عبد من ، أزداد سمنا}و في رواية أخرى قيل له:{ نراك جسيما بدينا و المحبة تضني } فأنشأ يقول:

أحب قلبي و ما درى بدني ***** و لو درى ما أقام في السمن

و بالجملة فكانت صفته و صورته جميلة كما قيل :

جار الذي قال الملاحة كلها ***** في يوسف كم في جما

حياؤه قدّس اللّه سرّه و رضي عنه

قال صلى اللّه عليه و سلم (الحياء شعبة من الإيمان) و عن سيدنا ابن عمر رضي اللّه عنهما قال:(الحياء و الإيمان مقرونان جميعا، فإذا رفع أحدهما

ارتفع الآخر) و كان يقال :{أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه}،كان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه عنه بحكم إرثه لخلق النبي صلى اللّه عليه و سلم قد تجمل بخلق الحياء،فالنبي صلى اللّه عليه و سلم كما وصفه أبو سعيد الخدري رضي اللّه عنه :{كان أشد حياء من العذراء في خدرها}، و اتصافا بهذا الخلق كان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه عنه إذا جلس إلى مريديه جلس و كله حياء و أدبا و كان معظم جلوسه الإطراق و جل نظره الملاحظة و كان طويل السكوت كثير الصمت قد يرى من بعض مريديه سوء أدب أو قلة حياء فيغضي بصره و يستحي و ما رأيناه يلوم أحدا على قلة أدبه قط و لا سمعناه يؤنب أحدا أمام الملأ و كان من شدة حيائه رضي اللّه عنه أنه ربما كان متمددا في خلوته فإذا دخل عليه أصغر مريديه سوّى رضي اللّه عنه نفسه و اعتدل في جلوسه متربعا مطرقا رأسه خافضا طرفه وربما سأله مريده مسألة فيبقى رضي اللّه عنه كذلك مطرقا خافضا و يصغي إلى سؤاله فلا يقاطعه حتى يختم مسألته ثم يجيبه رضي اللّه عنه بما يراه له و كان كلامه رضي اللّه عنه من شدة حيائه من ربه تعالى فصل لا فضول ولا تقصير فيه لا يتكلم إلا جوابا فإذا نطق فعليه البهاء و إذا صمت فعليه الوقار و الهيبة و كان من شدة حيائه رضي اللّه عنه أن يرى ظاهر الوضاءة مبتلج الوجه تعلوه الأنوار.

سألت الحياء و التواضع و التسليم دهرا *** هل محقّق لكم في زماننا من أحد

فقالوا لي متنا جميعا و ضمتنا لحود *** فأحيانا غوث الزمان الصوفي محمد

و قد أنكر على الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه عنه كثرة سكوته بعض الجهّل من مدّعي الطريق من الفقراء و المشايخ و لجهلهم بمقامه فلم يدروا أن من عرف اللّه تعالى كلّ لسانه قال العارف باللّه تعالى الولي الغوث سيدي شعيب أبو مدين رضي اللّه عنه:{الشيخ من هذبك بأخلاقه و أدبك بإطراقه و أنار باطنك بإشراقه}، قال شارحها سيدي أحمد العلاوي رضي اللّه عنه: {أخذ يبين رضي اللّه عنه في أوصاف الشيخ المعتمد عليه في طريق القوم فأخبر أن من سمته و حسن سيرته أنه يأخذ المريد من حال إلى حال شريف بدون أن يتكلف له بمقال إنما الحال يسرق الحال فيتهذب المريد بأخلاقه كان صلى اللّه عليه و سلم سكوته بين أصحابه و جلوسه و نومه و يقظته و سائر أحواله تعليما و كذلك من كان على آثاره فلا بد من أحواله تسري في تلامذته}، دخل بعض الصوفية على سيدنا الجنيد رضي اللّه عنه فوجد أصحابه في غاية الأدب فقال له:{أدبت تلامذتك يا جنيد} قال:{و اللّه ما أدبتهم و لكن ما في بواطنهم ظهر على ظواهرهم}، و قال بعضهم: {إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظرة فكيف بالشيخ الكامل لا يربي أبناءه بالنظرة بل ذلك من لوازمه} ، و في هذا قال أبو العباس المرسي رضي اللّه عنه :{ما بيني وبين مريدي إلا نظرة واحدة فإذا نظرته قد أغنيته}، و كان أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه يقول :{مالي و صحبة الأميين (يقصد بهم الغافلين عن اللّه تعالى و لو كانوا من فطاحل العلماء) و اللّه لقد صحبنا رجالا لو نظر أحدهم إلى شجرة يابسة لأثمرت من حينها} ، و إن الشيخ سيدي محمد الصوفي بصمته يعلمنا الصمت لأن الطريق مبدؤها حرف (الصاد) أي (صَهْ) و معناه اسكتْ و اصمتْ و منتهاها حرفين (الميم و التاء) أي مُتْ ، فمن صمت و مات موتة العز التي لا

ذلّ بعدها أدرك خير الدارين قال سيدي أحمد بن عاصم الأنطاكي رضي الله تعالى عنه:{إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن بحفظ لسانك}، و قال حكيم : {الصمت فيه سبعة آلاف حكمة جمعت في سبعة:

١- عبادة من غير تعب.
٢- حصن من غير حائط .
٣- هيبة من غير سلطان .
٤- راحة الكرام الكاتبين .
٥- ستر للجاهل.
٦- زين للعالم .
٧- قلة الإعتذار .

و قال آخر : {عليك بتقوى الله تعالى في السر و الجهر و بقلة الطعام و قلة المنام وقلة الكلام و هجر المعاصي و الآثام و ترك الشهوات على الدوام و احتمال الأذى و الجفاء عن جميع الأنام و المواظبة على الصيام و دوام القيام و ترك مجالسة السفهاء و العوام و مصاحبة الصالحين الكرام تدخل جنة المعارف بسلام}.قال علي بن هشام رحمه الله تعالى:

لعمرك إن الحلم زين لأهله ***** و ما الحلم إلا عادة و تحلم
إذا لم يكن صمت الفتى عن ندامة ***** و عيّ فان الصمت أولى و أسلم

قال صلى الله عليه و سلم لأبي ذر رضي الله عنه:(عليك بالصمت إلا من خير فانه مطردة للشيطان و عون على أمر دينك) وأحسن الصمت يكسب المحبة ويروى أن لقمان الحكيم عليه السلام قال: {الصمت حكم وقليل فاعله}

وقال سيدنا الحسن بن علي عليه السلام وقد ليم على كثرة الصمت :{إني وجدت لساني سبعاً إن أرسلته أكلني}، وقيل لعبد العزيز بن مروان رضي الله تعالى عنه: {أنت من أطول الناس لساناً فإذا رقيت المنبر تكلمت بكلام نزر، فقال: إني لأستحيي من ربي عز وجل إن آمرهم بما لا أفعل} ويروى أن يونس - عليه السلام - قيل له من بعد خروجه من بطن الحوت، وقد أطال الصمت: {لم لا تتكلم؟ فقال: الكلام صيرني إلى بطن الحوت} وكان سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله تعالى عنه يطيل السكوت فليم في ذلك فقال:{الكلام على أربعة وجوه: فمنه كلام ترجوه منفعته وتخشى عاقبته، فالفضل فيه السلامة منه، وكلام لا ترجو منفعته ولا تخشى عاقبته فأقل ما في تركه خفة المئونة على بدنك ولسانك، وكلام لا ترجو منفعته وتخشى عاقبته، وهذا هو الداء العضال، ومن الكلام كلام ترجو منفعته، ولا تخشى عاقبته، وهو الذي يجب عليك نشره} وقد كان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه يعلم ويربي تلامذته بالصمت ليغرس فيهم هذه السنة الحميدة الغائبة و المفقودة من فقراء هذا الزمان ناهيك عن عوامّه ، بلى كان لا يمنعه حياءه أحيانا أن يباسط زائره ليذهب وحشته أو يمازح مريده ليذهب دهشته أو يؤاكل جليسه ليذهب حشمته و كأنه رضي الله عنه يتمثل بالحكمة القائلة أنه لكل غريب وحشة و لكل داخل دهشة و لكل آكل حشمة قال الشاعر:

لا يرفع الضيف رأسا في منازلنا ***** إلا إلى ضاحك منا و مبتسم

سخاؤه و كرمه قدّس اللّه سرّه و

أيا سيدي الصوفي حزت كرما ***** و سخاء شاع بين العالمين

و كنت من الكرام فجزت طورك ***** و صرت من الكرام الكاتبين

كان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه على قدم سيدنا رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم في سخائه ما سئل قط فقال لا و كان لا يسأل شيئا إلا أعطاه فإن عدمه اعتذر و استحيا كما قال سيدي أبو سعيد الخراز رضي اللّه تعالى عنه :{ليس من طبع المؤمن قول: لا. وذلك أنه إذا نظر ما بينه وبين ربه من أحكام الكرم استحى أن يقول: لا} و كان من سخائه و جوده رضي اللّه عنه ما رأيناه من كثرة كرمه لما تزوره مئات الفقراء تربو أحيانا على الألف من فاخر الأطعمة ولذيذها و حسن الضيافة و جميلها أما من ذاق عسله رضي اللّه عنه فلا يكاد ينسى لذته و إنما عسله ذلك ليدل على مشربه العزيز لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . قال المحب:

ذا الشراب له و أواني ***** لا يذوقه من هو جاهل

إلا من يدري المعاني ***** و يكون في الحب واصل

و قال الشاعر:

هو البحر من أي النواحي أتيته ***** فلجته المعروف و الجود ساحله

تعود بسط الكف حتى لو انه ***** أراد انقباضا لم تطعه أنامله

و لو لم يكن في كفه غير روحه ***** لجاد بها فليتق اللّه سائله

بل ما يدل دلالة قطعية على كرمه و سخائه ما جاد به من عسل معنوي و لكم استغنى بأسراره و أنواره القاصي و الداني فلم يكن رضي اللّه عنه عزيزا

على أسراره متحفظا على أنواره بل كان يجود و يتكرم عكس من تشدد لحكمة و عز عليهم من سالفي المشايخ حرصا على أسرارهم و أنوارهم فضلا عن وسيلتهم و أورادهم الذين كان الواحد منهم لا يقبل الداخل إلى طريقته إلا بعد امتحان عسير و مِن كثير من تردد الطالب ذهابا و إيابا كما قال أحدهم:

حاسبونا و حققوا ***** ناقشونا و دققوا

و اسمع إلى هذا الامتحان الذي خاب فيه أحدهم و هو يريد سلوك الطريق عن شيخ كامل فلما أتاه قال له الشيخ: إذا كنت تريد الدخول في طريقتي فاذهب و طلق زوجك و بع دارك وعقارك و ائتيني بمالك كي أحرز روحك في سلسلة الطريق فراح ذلك الشخص و طلق زوجه و باع داره و عقاره و جاء بالمال إلى الشيخ وهو يأمل رضا الشيخ فقط و لما استقر المال في يد الشيخ ركب سفينة و أركب معه ذلك الشخص فمخرت بهم عباب البحر ثم إن الشيخ رمى ذلك المال في البحر فتغير خاطر ذلك الشخص و قال في سره معتقدا لا منتقدا و راضيا لا معترضا لو تصدق الشيخ بهذا المال على الفقراء و المساكين لكان أولى من رميه في البحر فكاشفه الشيخ عما تغير به خاطره فأدخل يده في البحر و أخرج المال سالما ورمى به صدر ذلك الشخص و قال له: أنت لا تصلح للإرادة أطلب شيخا غيري، فتأمل كيف كان الحرص شديدا من هذا الشيخ وغيرته على الطريق و اسمع إلى ما حدّث به الشيخ سيدي شعيب أبو مدين رضي اللّه عنه و هو يطلب الطريق قال: {كانت أخبار سيدي أبي يعزى ترد علي و كراماته يتداولها الناس و تنقل إلي فملأ قلبي حبه فقصدته مع جماعة الفقراء فلما وصلنا إليه أقبل على الجماعة دوني و إذا حضر الطعام منعني من

الأكل معهم و بقيت كذلك ثلاثة أيام فأجهدني الجوع وتحيرت من خواطر ترد عليّ و قلت في نفسي إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان فقام و مرغت وجهي فقمت فإذا أنا لا أبصر شيئا و بقيت طول ليلتي باكيا فلما أصبح الصباح دعاني و قربني فقلت له يا سيدي قد عميت ولا أبصر شيئا فمسح بيده على عيني فعاد بصري ثم مسح على صدري فزالت عني تلك الخواطر و فقدت ألم الجوع و شاهدت في الوقت عجائب من بركاته}.لكن من يكون في اعتقاد و صدق سيدي أبي مدين رضي الله تعالى عنه و صبره في هذا العصر فلو كان امتحان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه لمريدي الطريق على منوال الشيخ سيدي أبي يعزى رضي الله عنه لما دخل الطريقة أحد لأن الغالب على فقراء هذا العصر عزة النفس و نقص الاعتقاد بل من تكون له الطاعة العمياء لأوامر شيخه حتى لو رماه في الهلكة رضي و طاب خاطره بل من يدعي أنه يفعل ما فعله أحد مريدي سيدي أبي مدين رضي الله عنه لما استأذنه يوما مرارا في خبز كسرة الفقراء بقوله: يا سيدي إن التنور قد حمي ،و كان سيدي أبو مدين رضي الله عنه مشغولا عن سماع كلامه بأمر آخر فلما أكثر عليه الاستئذان قال له سيدي أبو مدين رضي الله عنه :اذهب و ادخل فيه ،فذهب المريد الصادق إلى التنور وجلس فيه وبعد وقت تذكر الشيخ رضي الله عنه أمره للمريد فنادى مريدا آخر وقال له: أدرك أخاك انه في التنور فوجدوه جالسا وسط النار و هي ملتهبة حوله مضطرمة لكن بردا و سلاما إلا ما كان من حبات عرق على جبهته و لم تحرق له ثيابا .و في هذا العصر لما كثرت البلاوي و المحن العاصفة بأمة الإسلام وتسورت عليها جحافل اليهود و النصارى و تلهت الأمة من أبنائها ما بين مُكفّر ومُشرّك في أودية الضلال ، قيض الله تعالى من

حِماه من ينشل عبيد الله من هذه الحمأة فكانت هذه الطريقة المباركة و قد رأينا من كان على ضلالة و عمى عن الهدى مع علمه و تعلمه فأنقذه الله تعالى من حمأة التكفير بأن سلك طريقة الشيخ فنجاه الله تعالى دنيا و أخرى وبهذا نستدل أن الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه أنه كان أعلى مقاما ممن سبقه أو عاصره و كيف لا و قد انتشل شبابا عاصر المدنية الفاتنة و الفتن الحالقة و جواذب الدنيا و ملذاتها و قد اعتصروا اعتصارا في زمان من يرى فيه الفاحشة و يقول لصاحبيها لو تنحيتما عن الطريق كان أولى لكما ثم افعلا ما تشاءان يكون إيمانه كإيمان سيدنا كأبي بكر رضي الله تعالى عنه و لهذا السر كان جود وكرم الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه بالظاهر و الباطن كما قيل :

رأيت بنور العقل أعلام جوده ***** فلم يبق لي ميل لزيد و لا عمرو

و كان الشيخ الكريم رحمة لنا نحن ضعيفي اليقين يسيري الاعتقاد في هذا العصر الجحود وما رأيناه رضي الله عنه يوما أعرض عن أحد يريد الدخول في طريقته ولا رد أحدا على أنه ليس أهلا لها بل كان كريما جوادا فلم يمتحن أحدا على صدقه أو كذبه. و كنت في بداية أمري منتسبا إلى إحدى الطرق تبركا فزرته رضي الله عنه لما سمعت به مع أحدهم وكان له اعتقاد أوهن في المشايخ كبيت العنكبوت و لما رآني آخذ العهد و الطريقة على الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه استحيا و مد يده إلى الشيخ فقال له الشيخ رضي الله عنه :{هات يدك فنحن لا نحرمك من هذا الفضل و هذا الخير}و توسل قناعا لا اقتناعا و استحياء لا اعتقادا ، و الشيخ أعلم بحاله و هواجسه و خواطره و

كان قبل ذلك لا تفتر وساوسه في الشيخ فكاشفه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه عنه و أجابه بمطلع قصيدة الشيخ العلاوي رضي اللّه عنه :

يا من لم تفهم مقالي ***** لماذا تنكر عليا ..... إلى آخر القصيدة .

فبهت ذلك الشخص بمكاشفة الشيخ له لكن الشيخ كان أكرم فبعد ضيافته و إكرامه جاد عليه بسره و فضله. قال الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي اللّه عنه في الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية : }و كذلك أجمعوا على أن كل مريد دخل على شيخ ليختبره فهو ممقوت جاهل فان الشيوخ لا يختبرون البتة و لا يطلب منهم كرامة و لا كلام على هواجس النفوس ومن طلب منهم ذلك فقد جهل و أساء الأدب معهم و ربما استحكم فيه المقت فلا يفلح على يد شيخ بعد ذلك و اللّه أعلم} ، و قال أيضا : سمعت سيدي عليا المرصفي رحمه اللّه يقول :}لا يطلب من الأشياخ الكلام على الأسرار و إنّما يطلب منهم معرفة الأمراض و الأدواء لا غير}

سألت الكرم و الجود هل عبيدان أم حران أنتما ؟

فقالا تحرّرنا من الخلق إلاّ أنّنا لعبيدٌ للوفّي

فقلت و من مولاكما ذو الجود من سائر الخلق

فتطاولا و قالا إنّه الجواد محمد الصوفي

و كان رضي اللّه عنه بكرمه ذاك مقتفيا أثر سيدنا محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم الذي مدحه اللّه تعالى بقوله:(حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم) فكان الشيخ رضي اللّه عنه أحرص ليكون كل الناس ممن زاروه فقراء و مريدين رحمة بهم حتى يكون شافعا لهم (يوم لا ينفع مال و لا بنون إلا من أتى اللّه بقلب سليم) ولن يسلم القلب إلا إذا كان هو الشارب من الشيخ

الحالب و أي سلامة ترجى للقلب إن حرم صحبة مثل هذا الشيخ الكريم و كانت النفس التي قتلها بسيف همة الشيخ لازم هي الرائدة و المسيرة لخطوط القلب و كانت مساندة لعدوها الشيطان و غفلت عن أمر معادها فأين هي حياة هذا القلب قال حكيم: {حميتك لنفسك أثر الجهل بها فلو عرفتها حق معرفتها أعنت الخصم عليها }و قال آخر: {اشتر نفسك اليوم فان السوق قائمة و الثمن موجود و البضائع رخيصة و سيأتي على تلك السوق و البضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل و لا كثير(ذلك يوم التغابن) و (يوم يعض الظالم على يديه). قال الشاعر:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ***** و أبصرت يوم الحشر من تزودا

ندمت على أن لا تكون كمثله ***** و أنك لم ترصد كما كان أرصدا

و لو كانت صحبة الشيخ إلا لما قاله أحد الصحابة لأخيه رضوان الله عليهما : {تعال نتآخى و نكاثر الإخوان عسى أن يشفع بعضنا في بعض} لكفى،فكيف و الفضل في مثل هذه الصحبة أكبر و أكثر و هو أن الشيخ يكون حلقة موصلة في سلسلة الأنوار و الأسرار النبوية و الربانية. قال الشاعر:

فلا شيخ إلا من يجود بسره ***** حريص على المريد من نفسه أولى

و بالجملة كان سخاء و كرم الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه ما قاله الشاعر: بنت المكارم وسط كفك منزلا ***** و جميع مالك للأنام مباحا

فإذا المكارم قفلت أبوابها ***** كانت يداك لقفلها مفتاحا

حلمه قدّس اللّه سرّه و

{كاد الحليم أن يكون نبيا}، كان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه حليم الطبع راجحه ، رحب الصدر سمحه ، واسع الخلق رزينه ، خافض الجناح رصينه ، وادع وقور ، حصيف متأن ، متثبت يستحي من جليسه في حين قد لا يستحي جليسه منه. كثيرا ما رأيناه يكظم غيظه و هو يرى سوء الأدب من بعض الفقراء و قد تكلم في حقه بعض الحساد ونقّصوه على أنه ليس بشيخ كامل لكن لكل عروس حسود و لكل نار خمود قال المتنبي:

و إذا أتتك مذمتي من ناقص ***** فهي الشهادة لي بأني كامل

ثم ما لبث أن مدّ هؤلاء الحساد رقاب التذلل و التسليم لقدمه الشريفة رضي اللّه تعالى عنه لمّا عرفوا و تيقّنوا من علو مقامه و رسوخ قدمه في العرفان،كما قيل:

و إن شئت شاء و إن أمرت فأمره ***** ما شاء يصنع حاسدي و معاندي

و كان من حلمه ألا يخيب أمل سائله و لا يرد رجاءه حتى أنّ منهم من طمع في سجادته و عباءته و عمامته و عصاه فاستحيا و أعطاهم ما أرادوا. وّ أعرف شخصين أحدهما طمع في بساطه المعروف محلّيّا باسم(الهَيْدُورة) الذي كان يجلس عليه ، فأعطاه له و أنا أنظر إليه ، و الآخر أراني عصا الشيخ التي طمع فيها وطلبها من الشيخ ، و ظنّ أولئك ، أنّ سرّ الشيخ في تلك الأشياء ، و ما علموا أنّ سرّ الشيخ في مريده ، لا في الأشياء المادية ، قال الشاعر:

لا يحسن الحلم إلا في مواطنه ***** و لا يليق الوفا إلا لمن شكرا

لاموه في بذله الإفضال قلت لهم ***** هل تقدر السحب أن لا ترسل المطرا

و كان من حلمه رضي اللَّه تعالى عنه أن أحدهم أساء معه الأدب و هو يذكر اللَّه تعالى بسبحته و على حين غفلة منه رضي اللَّه تعالى عنه أراد هذا الشخص خطف سبحة الشيخ و مع تعديه و مسكه بشدة لسبحة الشيخ و في نيته خطفها و هو يقول للشيخ أطلقها أطلقها و الشيخ صابر لسوء أدبه و بعد إفاقة المتعدي وعودته إلى رشده لم يعنفه الشيخ و حلم عليه و أكرمه بمبلغ مالي و سامحه. قال الشاعر:

و ليس حليما من تُقبّل كفّه °°° فيرضى، و لكن من تُعَضّ فيَحلِم

وكان من حلمه رضي اللَّه تعالى عنه أن يرى سوء خلق من بعض المريدين فيغضي الطرف و يكظم غيظه. و كان من حلمه رضي اللَّه تعالى عنه أن يزوره أحد ما فيجلس معه و قد أشغله عن أذكاره و أوراده و مراقبته و توجهه فيستحي رضي اللَّه تعالى عنه أن ينتهره و يحلم عليه كحلمه و استحيائه صلى اللَّه تعالى عليه و سلم قال اللَّه تعالى: (و لا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم و اللَّه لا يستحي من الحق) و قد قيل: {منْ أشغل مشغولا باللَّه عن اللَّه أدركه المقت من حينه}، و كم مرة ذكّر بعض مريديه أن لا يزورنه ليلة الجمعة لأنهم يشغلونه عن أوراده و توجهاته و كيف لا ينهاهم و قد نصب الموكب الإلهي ثم انه كان ينهاهم عن ذلك حتى يغتنموا أنوار ليلة الجمعة و تجليات الكريم الوهاب فيها. قال الناصح:

لا تؤذي شيخك بكثرة الجلوس ***** خفف فان التخفيف راحة النفوس

لكن ما حيلة المعنّى و الحب بليته كما قال المتيم:

جسد ناحل و دمع يفيض ***** وهوى قاتل و قلب مريض

وسقام على التنائي شديد ***** وهموم و حرقة و مضيض

يا حبيب القلوب قلبي مريض ***** و الهوى قاتلي و دمعي يفيض

إن يكن عاشق طويل بلاه ***** فبلائي بك الطويل العريض

و ما أحسن إشارة من قال:

ما يقلق الكوز إلا من تألمه ***** يشكو إلى الماء ما قاسى من النار

روي عن بعض الصالحين رضي اللّه عنه أنه كان يقول : {إذا حرم الإنسان احترام الأولياء طرد عن بابهم } ، و العياذ باللّه فعليه بالتسليم لهم و رفع الإذاية عنهم لئلا يهلك و يقع في محاربة اللّه تعالى لأن اللّه تعالى يقول (من آذى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة) و ليحذر المريد أن يكون سببا في تغيير خاطر شيخه لئلا يهلك و يطرد من قلبه .قال الشيخ القشيري رضي اللّه تعالى عنه: {إن قبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته و من ردّه قلب شيخ من الشيوخ فلا شك أنه سيتحقق من ذلك بعد حين}، و قال سيدي أبو الحسين بن هند الفارسي رضي اللّه تعالى عنه :{من أكرمه اللّه تعالى بمعرفة الحرمة و الاحترام للأكابر أوقع حرمته في قلوب الخلق ومن حرم ذلك نزع اللّه تعالى حرمته من قلوبهم فلا تراه إلا ممقوتا و إن حسنت أخلاقه و صلحت أحواله}لأن النبي صلى اللّه تعالى عليه و سلم قال: (من تعظيم جلال اللّه إكرام ذي الشيبة المسلم) و يروى عن الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه أنه كان إذا جاءه ضيف أو غريب يخرج له و يجالسه ويباسطه و يؤاكله و إن زاره أحد مريديه يكتفي الشيخ رضي اللّه تعالى عنه بمصافحته من باب خلوته ثم يغلق عنه بابه و لما طال هذا استنكره بعض

المريدين فلما بلغ الأمر الشيخ قال لهم رضي الله تعالى عنه : {إنني أخرج إلى الضيف و أجالسه لأنه غريب عنا و لا تربطه معنا رابطة أما مريدي فيكفي عند لقائه المصافحة لأنه تربطه معنا رابطة روحية قلبية و ملاقاة الأرواح أفضل من ملاقاة الأشباح } ، أو هكذا قال رضي الله تعالى عنه و المريد الصادق لو كان بالمشرق لزار بروحه شيخه و لو كان بالغرب . قال الشيخ العلاوي رضي الله تعالى عنه:

و لو أن بين المحبين مسافة ***** لقطعتها عزما و لو بمشقتي

و لو كان بيني و بينكم حائل ***** لمزقت مانع الوصول بهمتي

و قال غيره :

لي حبيب خياله نصب عيني ***** و اسمه في جوارحي مكنون

إن تذكرته فكلي قلوب ***** أو تأملته فكلي عيون

فهكذا يكون المريد الصادق قلبه عند شيخه و لو نأى عنه بشبحه و هو ما يسمى بالرابطة و التوجه القلبي نحو الشيخ المربي حتى يتخيل المريد أن روحه التي بين جنبيه هي روح شيخه و من ثم يترقى بالتوجه القلبي نحو سيد الوجود صلى الله تعالى عليه و سلم و هو أدق و أخفى من الرابطة مع الشيخ ثم تأتي الرابطة المقدسة التي قال فيها بعض المحبين :

يا منية المتمني شغلتني بك عنك ***** أدنيتني منك حتى ظننت أني أنت

رضي الله عنه

تواضعه قدّس الله سرّه و

و من زاد في وقت الترقي تواضعا ***** ترقى مكانا لم تنله الأكابر

كان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه أكثر الناس تواضعا و أسكتهم من غير كبر و أبلغهم من غير تطويل و أحسنهم بِشرا تراه خافض الجناح ، متجافٍ عن مقاعد الكِبْر ، متجانف لمواطن التواضع ، يجالس كلّ من أتاه و ينزل عند مناه و كان يخدم ضيوفه و مريديه بنفسه فعلى جلالة قدره و كبر سنه و ضعف قواه و قد أناف على العقد الثامن كان يقدم لهم موائد الطعام بيديه و يباشر غسل أيديهم بعد الأكل بنفسه و كان يشيع زائره فلا يدخل داره حتى يتوارى عن نظره ذلك الزائر قال بعضهم :

يا ضيفنا لو زرتنا لوجدتنا ***** نحن الضيوف و أنت رب المنزل

و كان رضي اللّه تعالى عنه لا يأنف من مجالسة الوضيع و مؤاكلته بل إذا سأله مسألة أجابه بالبشر و الابتسام و قد رأيناه رضي اللّه تعالى عنه و هو يمزح و لا يقول إلا حقا فكان كثير التبسم و هو يباسط جليسه و ربما استحيا مريده و هو يأكل فيقول له رضي اللّه تعالى عنه : كُلْ ، كُلْ و اشبعْ فالعشاء على اللّه ، و يظن المريد أنه لن يوجد عشاءً ، أما قصد الشيخ رضي اللّه تعالى عنه أن العشاء على اللّه أي من فضله و إحسانه ، ثم يضحك في تبسّم ، و اللّه لكأن الأنوار تخرج من فيه ، و بمزاحه ذلك يحفز مريده على الأكل و خلع جلباب الحياء أمام نعمة اللّه تعالى قال بعضهم :

لا يرفع الضيف رأسا في منازلنا ***** إلا إلى ضاحك منا و متبسم

و كان رضي اللّه تعالى عنه من تواضعه أنه إذا سمع من أحدهم أو ابد كلام ضحك حتى تبدو نواجذه و ذلك إرثا منه صلى اللّه تعالى عليه و سلم : { لما جاءه أعرابي يوما و كان صلى اللّه تعالى عليه و سلم متغير اللون ينكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا : لا تفعل يا أعرابي فإننا ننكر لونه فقال دعوني

فو الذي بعثه بالحق نبيا لا أدعه حتى يتبسم فقال يا رسول الله بلغنا أن المسيح يعني الدجال يأتي الناس بالثريد و قد هلكوا جوعا أفترى لي بأبي أنت و أمي أن أكف عن ثريده تعففا وتنزها حتى أهلك هزالا أم أضرب في ثريده حتى إذا تضلعت شبعا آمنت بالله وكفرت به قالوا فضحك رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم حتى بدت نواجذه ثم قال له صلى الله تعالى عليه و سلم { لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين } ، فكان سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه دائم البشر إذا زاره أحد كثير الترحيب به وكان من تواضعه أن يفتح على الطارق بنفسه ثم يخدمه و يشيعه بنفسه و لم يتخذ له أبدا حاجبا قال بعضهم:

أضاحك ضيفي قبل أن أنزل رحله ***** و يخصب عندي و المحل جديب

و ما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ***** و لكنما وجه الكريم خصيب

و قال عاصم بن وائل:

و إنا لنقري الضيف قبل نزوله ***** و نشبعه بالبشر من وجه ضاحك

و كان رضي الله تعالى عنه بخلق البشر يعلم مريديه التواضع الذي افتقده مريدو هذا العصر فضلا عن شيوخهم قال الشاعر:

تواضع تكن كالنجم لاح لناظر ***** على صفحات الماء وهو رفيع

و لا تكن كالدخان يرفع نفسه ***** إلى طبقات الجو وهو وضيع

و كان من تواضعه رضي الله تعالى عنه و هو شيخ كامل مكمل أنه لم ينسَ فضل شيخه عليه فكتب ورقة و علقها عند محراب زاويته و قد لقطتُ هذه الورقة بآلة التصوير في شهر مارس ١٩٩٧ و فيها :

{ بسم الله الرحمن الرحيم و صلى الله تعالى عليه و آله و سلم

كلمات من الشيخ الصوفي :

أيها الأحباء أيها المريدين عاشقين ذكر اللّه و محبة اللّه ، يا من دخلت إلى زاويتنا فابدأ التحية لبيت اللّه ثم اذكر اللّه على حسب استطاعتك و صاحب هذا الذكر بالصلاة على رسول اللّه ثم أدعو اللّه لنفسك و لأهلك و للمؤمنين و المؤمنات .

و بعد هذا اطلب منكم يا أحباب اللّه و يا أحباب رسول اللّه أن تقرءوا سورة الإخلاص إحدى عشرة مرة على شيخ الطريقة سيدنا بومدين بن منصور بوتشيش طيب اللّه ثراه .آمين .

يوم الأحد ٧ من صفر الخير ١٤١٧هـ الموافق ل ٢٣/٠٦/١٩٩٦م }.

و كان رضي اللّه تعالى عنه أيضا من تواضعه أن يمشي على قدميه و قد أناف على الثمانين ليزور المكان الذي كان يجتمع فيه مع إخوانه الفقراء أيام حياة شيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه و يلتقي فيه مع بعض أترابه و هو يقع على مسافة بعيدة من منزله و كأنه يشعر أستاذه و هو في لحده انه لا زال فقيرا تحت حكمه و مريدا تحت أمره و مع انه شيخ كامل مكمل ومشربه محمدي خالص قد انتهى إلى مقام التربية و الإرشاد و صار عارفا باللّه تعالى و دالا عليه تعالى كما قيل: مذ عرفت الإله لم أر غيره ***** و كذا الغير عندنا ممنوع

مذ تجمعت ما خشيت افتراقا ***** و أنا اليوم واصل مجموع

فمع كل ذلك إلا انه يعتبر نفسه مجرد فقير لا شيخ و هذا من دقيق التواضع و مما يثبت هذا التواضع النبوي الشريف أني لما زرته لأول مرة لآخذ عنه الطريقة وبعد أخذ العهد أخذ رضي اللّه تعالى عنه الورقة المكتوب فيها ورده

الشريف و في أعلاها كتب التالي : (الأذكار والأوراد في الطريقة الصوفية البوتشيشية القادرية للشيخ المربي سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه) ثم لما بدأ في قراءة ما سبق و عند وصوله إلى كلمة (للشيخ) قال لي بصريح العبارة :{أنا لست شيخا أنا مجرد فقير}، ثم أكمل رضي اللّه تعالى عنه قراءة باقي الورد ليعلمني كيفية ذكره . قال سيدي احمد بن المبارك رضي اللّه تعالى عنه جامع الإبريز أن شيخه سيدي عبد العزيز الدباغ رضي اللّه تعالى عنه كان يقول :{لا تجعلوني في مقام الشيخ إنما أنا لكم بمنزلة الأخ و مقام الشيخ لا تطيقون القيام بآدابه فانا أسامحكم و أجعلكم في حل من ذلك و اجعلوني بمنزلة الأخ تدوم الصحبة بيننا وبينكم}.قال الشيخ القطب الرباني سيدي احمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه :{أي سادة أنا لست بشيخ لست بمقدم على هذا الجمع لست بواعظ لست بمعلم حشرت مع فرعون و هامان إن خطر لي أني شيخ على احد من خلق اللّه إلا أن يتغمدني اللّه برحمته فأكون كآحاد المسلمين}، اللّه اكبر ما أجل هذا التواضع عكس ما نراه من بعض المريدين و الفقراء الذين يترفعون فوق شيوخهم و هم بين أظهرهم أحياء و هو ما يخالف ظاهر الشريعة فضلا عن باطن الحقيقة و قد جرهم العجب بأنفسهم إلى زلات جرفتهم إلى قاع البليات قال صلى اللّه تعالى عليه و سلم :(إن العجب ليأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) و قد قيل: { إن للإعجاب أسبابا منها مديح المتقربين و إطراء المتملقين الذين جعلوا النفاق عادة و مكسبا والتملق خديعة و ملعبا فإذا وجدوه مقبولا في العقول الضعيفة أغروا أربابها باعتقاد كذبهم و جعلوا ذلك ذريعة إلى الاستهزاء بهم } ، و قد روي عن النبي صلى اللّه تعالى عليه و سلم انه سمع رجلا يزكي رجلا فقال له صلى

اللَّه تعالى عليه و سلم :(قطعت مطاه لو سمعها ما أفلح بعدها) لكن البعض قد سمعها فنعوذ باللَّه تعالى ممن تَشَيَّخُوا قبل أن يَشِيخُوا ، فالقوم أدلجوا و هم أناخوا و وقفوا و لم يفيقوا ، قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللَّه تعالى عنه :(المدح ذبح) و قال ابن المقفع :{قابل المدح كمادح نفسه} ، و قيل :{من رضي أن يمدح بما ليس فيه فقد أمكن الساخر منه}، و قال صلى اللَّه تعالى عليه و سلم :(إيّاكم و التمادح فانه الذبح إن كان أحدكم مادحا أخاه لا محالة فليقل أحسب و لا أزكي على اللَّه أحدا)قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللَّه تعالى عنه:{ويحك ، لا يغرك مقالات الناس أنت تعرف ما أنت فيه و عليه قال اللَّه تعالى (بل الإنسان على نفسه بصيرة) ما أحسنك عند العوام و ما أقبحك عند الخواص}.وقال أيضا رضي اللَّه تعالى عنه :{ويلك تدعي أنك صوفي و أنت كدر، الصوفي من صفا باطنه و ظاهره بمتابعة كتاب اللَّه تعالى و سنة رسوله صلى اللَّه تعالى عليه و سلم، فكلما ازداد صفاؤه خرج من بحر وجوده و يترك إرادته و اختياره و مشيئته من صفاء قلبه}. قال بعضهم :

يا جاهلا غرّه إفراط مادحه ***** لا يغلبن علمك بك جهل من أطراك

أثنى و قال بلا علم أحاط به ***** و أنت اعلم بالمحصول من ربّك

و لأن العجب هو خميرة التكبر و بذرته فقد حذر منه القرآن الكريم بقوله تعالى على لسان نبيه سيدنا لقمان عليه السلام و هو يعظ ابنه بقوله:(و لا تصعر خدك للناس و لا تمش في الأرض مرحا إن اللَّه لا يحب كل مختال فخور و اقصد في مشيك و اغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) و قال تعالى :(تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض و لا فسادا) و قال تعالى أيضا:(سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق) و قال

صلى اللّه تعالى عليه و سلم :(لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر) وإن كان هذا الكبر المنهي عنه هو كبر العوام الذين هم أشبه بالسوام فما ظننا بتكبر من يدّعي طريق القوم التي بُنيت على التذلّل و التواضع كما قال الشيخ سيدي عبد القادر رضي اللّه تعالى عنه :{طريقنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كُنِسَتْ بأرواحهم المزابل}، وقال أيضا رضي اللّه تعالى عنه : {يا غلام ليكن الخرس دأبك و الخمول لباسك والهرب من الخلق كل مقصودك و إن قدرت أن تنقب في الأرض سربا تخفى فيه فافعل ،يكون هذا دأبك إلى أن يترعرع إيمانك و يقوى قدم إيقانك، و يتريش جناح صدقك،و تنفتح عينا قلبك}

قال الشاعر: ملء السنابل تنحني تواضعا ***** و الفارغات رؤوسهن شوامخ

يروى {أن بعض الصالحين لقي إبليس اللعين فقال له: بِمَ تظفر بابن آدم ؟ فقال اللعين إذا ظفرت منه بثلاث لم أطلبه بغيرها إذا أعجب بنفسه و استكثر عمله ونسي ذنوبه}. و أيضا مما يدل على تواضع الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه أننا زرناه ذات مرة مع جماعة من الفقراء و المريدين و بتنا ليلتنا في ذكر وعمارة وفي الصباح بعد صلاة الفجر جلسنا ننتظر قدومه في الزاوية و لما دخل علينا أقسم أن نبقى جلوسا و لا يقوم منا احد و أعلمنا انه سيقبل رؤوسنا واحدا تلو الآخر فبدأ يقبل رؤوسنا على قاعدة الفقراء و منّا الباكي والشاكي على ذلك ومنّا المتأسف والمشدوه ، لكنه التواضع الذي افتقده شيوخ هذا العصر وكان بتواضعه ذلك الموروث من خير خلق اللّه تعالى صلى اللّه تعالى عليه و سلم يعلمنا سرّه و أنّه هو سرّ الوصول ، قال احدهم:

إذا كنت ذا أصل فكن متواضعا ***** إن التواضع من أخلاق كلّ مقدّس

و إذا جلست بمجلس فاجلس به ***** حيث انتهيت فذاك صدر المجلس

و كان رضي اللَّه تعالى عنه من تواضعه يترك مجلسه و متكأه إذا دخل عليه كبير سن أو شيخ عالم حد ممن يحب صدر المجالس و يأنف صف النعال فيؤثره به.وكان أيضا من تواضعه رضي اللَّه تعالى عنه أن يؤاكل جليسه كائنا من كان ويقسم اللحم بيده على من حضر مائدته فإذا كان شايا أو قهوة كان هو من يملأ الكؤوس أو الفناجين ، و كان أيضا من تواضعه رضي اللَّه تعالى عنه أن يجيب كل من دعاه إلى وليمة أو حضرة فتراه يتنقل مئات الكيلومترات و هي مسافة تفني قوى ذي العود الصليب فكيف و هو شيخ جليل قد خارت قواه ، أما لما كان شابا يافعا فكان رضي اللَّه تعالى عنه يتنقل من بلدته أبي عدّال إلى مدينة مداغ المغربية أين توجد زاوية شيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللَّه تعالى عنه سيرا على قدميه ليحضر مجلس الذكر الجلي و هو المعروف بالوظيفة الكبرى وهو ما يأنف منه بعض فقراء هذا الزمان فيحبوا أن يُزاروا لا أن يَزوروا ،.و كان من تواضعه رضي اللَّه تعالى عنه في شبابه ما ذكره لي من زعامة عزمه و رباطة جأشه ليؤدبني لما علم من تواكلي و كسلي عن العمل أنه رضي اللَّه تعالى عنه عمل نادلا في المقهى و عمل خَمّاسا وكان إذا حل وقت الحصاد و الدرس عمل شوّالا وبالجملة كان رضي اللَّه تعالى عنه من تواضعه لا يأنف من عمل مهما كان و بتواضعه هذا كان يُشعرنا بسرّ التشرع و اتخاذ الأسباب و هو ما فقدناه معاشر الفقراء في أنفسنا و ذلك دليل على عزة نفس و أنفة طبع لكن لا عزة بدون مال ولا أنفة بقلة ذات يد قال أحدهم: لو

كنت في علم موسى ***** و زهد عيسى بن مريم

و لم يكن لك مال ***** لم تسْوَ في الناس درهم

لأنه من كان فقيرا مسكينا إذا خطب لم يُزوج و إذا تكلم لم يُسمع و إذا غاب لم يُفتقد و إذا حضر لم يُؤبه له، قال أحدهم:

يمشي الفقير و كل شيء ضده ***** و الناس تغلق دونه أبوابها

و تراه ممقوتا و ليس بمذنب ***** و يرى العداوة لا يرى أسبابها

حتى الكلاب إذا رأت رجل الغنى ***** حنت إليه و حركت أذنابها

و إذا رأت يوما فقيرا ماشيا ***** نبحت عليه و كشرت أنيابها

قال الشيخ سيدي احمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه: {أيها السالك إياك و رؤية النفس إياك و الغرور إياك و الكبر فان كل ذلك مهلك ،ما دخل ساحة القرب من استصغر الناس و استعظم نفسه من أنا و من أنت ؟أي أخي كل واحد منا مُسَيْكِين أوله مضغة و آخره جيفة}، و قال أيضا: {أي بطال تعلمت علم الكبر تعلمت علم الدعوى تعلمت علم التعالي ايش حصل لك من كل ذلك ،تطلب هذه الدنيا الجايفة بظاهر حال الآخرة ،لبئس ما صنعت ، ما أنت إلا كمشتري النجاسة بالنجاسة كيف تغفل نفسك بنفسك و تكذب على نفسك و أبناء جنسك}، و بسر التواضع ينال السالك من الأسرار و الأنوار ما اللّه تعالى به عليم و بالتواضع يدق الباب و به يفتح ،قال بعضهم :{لا تسأم من الوقوف على الباب و لو طردت و لا تقطع الاعتذار و لو رددت فان فتح الباب للمقبولين دونك فاهجم هجوم الكذابين و ادخل دخول الطفيلية و ابسط كف (و تصدق علينا)} و بالتواضع يُنال مقام المشيخة و الإذن للإرشاد قال مجاهد رضي اللّه تعالى عنه :{لمّا أغرق اللّه تعالى قوم نوح شمخت الجبال وتواضع الجودي فجعله اللّه تعالى قرارا لسفينة سيدنا نوح عليه السلام} ، وقال

الفضيل بن عياض رضي اللّه تعالى عنه : {أوحى اللّه تعالى إلى الجبال (إنني مكلم على واحد منكم نبيا) فتطاولت الجبال و تواضع طور سيناء ، فكلم اللّه تعالى سيدنا موسى عليه السلام عليه لتواضعه} و قيل لأبي يزيد رضي اللّه تعالى عنه : {متى يكون الرجل متواضعا ؟فقال :إذا لم ير لنفسه مقاما و لا حالا و لا يرى أن في الخلق من هو شر منه}، و قال ذو النون المصري رضي اللّه تعالى عنه :{من تزين بعمله كانت حسناته سيئات}. قال بعضهم :

خفضت جناح الذل رفعا لقدرها ***** فأوجب ذاك الخفض رفعي عن النصب

و ناجيتها فيما أحب سماعه ***** مشافهة لا بالرسائل و الكتب

و بالجملة فقد رأينا من سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه تواضعا سنيّا عجيبا ما رأينا مثله تواضعا لأحد من معاصريه من المشايخ و كان الآية الكبرى في تواضعه و خموله و خفائه فقد كان عارفا بالمشهود تعالى غارفا من المحمود صلى اللّه تعلى عليه و سلم حتى جاءه الإذن الإلهي مشافهة من الحبيب المحبوب صلى اللّه تعالى عليه و سلم ، فكان كما قيل:

طريقتي يا لاهي ***** تحت الإذن الإلهي

ليس لي فيها دعوى ***** مولانا بها أولى

بشرني بصحتها ***** سيدي الآمر الناهي

و كان كما قيل :

أحبتي إن كنتم على صدق من أمري *** فذاك نفس السبيل سيروا على سيري

فلست على شك تاللّه و لا وهم *** أنا العارف باللّه في السر و الجهر

سقيت من كأس الحب ثم ملكته *** فصار ملكا لدي في مدة الدهر

و كان من تواضعه العجيب رضي اللَّه تعالى عنه انه كان يكره الاشتهار فاستأذنه أحد الفقراء أن يوثّقوا طريقته إداريا فغضب غضبا شديدا و رمى بالختم الحامل لاسمه و عنوان زاويته و قد صنعوه بدون علمه و قال: (نحن مقصودنا اللَّه تعالى وحده لا نريد الدنيا و لا الشهرة) ، وكان بتواضعه ذاك و إظهاره لمقام الذّلة و الافتقار للَّه تعالى لابسا خِلع التّشريف و التّكريم الإلهية ، وهي مقام العَبدية الذي ورثه عن النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و هذا المقام قد يُقارنه البعض بمقام الصّولة كمقام الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللَّه تعالى عنه ، فيُرجّح هذا على ذاك ، و أنّه الأكمل ، و الآخر نقص في الولاية و العرفان ، و الصّواب غير ذلك كما قال الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي رضي اللَّه تعالى عنه : { إنّما ظهر الشيخ عبد القادر الجيلي بالتّصريف في الوجود و التّأثير و الدّعاوى العريضة ، لأنّ مشهده من الحقّ تعالى كان حضرة الاسم الظاهر ، فأعطاه مقام الصّولة و الهمّة و الشّطح و إظهار العلو على أمثاله و أشكاله ، بل على من هو أعلى منه في مقامه و هذا المقام و إن كان رفيعا ، فثمّ ما هو أرفع منه ، و هو مقام الأدب و إظهار الذلّ و المسكنة }.

رضي الله عنه

عبادته قدّس اللَّه سرّه و

قال بعضهم:

وقفت على نجوى الإله جوانحي *** لذلك قلبي منزل كله ذكر

و أخليت قلبي من مناجاة غيره *** فأصبح طودا لا يزلزله الغير
أسارع مشتاقا و أسكت هائما *** و أنطق إجلالا و ما عاقني سير
ففي صحوتي شوق و في غفوتي هوى *** و في مشيتي علم و في وقفتي سر

و عبادته رضي اللّٰه تعالى عنه لا يعلم بها إلا اللّٰه تعالى لأنها سر بينه و بين حبيب قلبه تعالى لكن ما رأيته بهذه العين العمشاء الرمصاء و ما سمعته بهذه الأذن الصماء الطرشاء أنه رضي اللّٰه تعالى عنه كان يذهب في أول الثلث الثاني من الليل كل ليلة صيفا و شتاء و قد ناف على الثمانين سنة فيذهب إلى مسجد الحيّ الذي يكون فارغا من سواه و يصطف في مصلاه مناجيا اللّٰه تعالى و بعد صلاة نوافل غير قليلة يجلس متفكرا ذاكرا و مراقبا شاكرا حتى يحين وقت الفجر فيؤذن و يصلي بالناس إماما ثم يدخل خلوته و يذكر أوراده و يأتي بر واتبه ثم يقرأ ورده من القرآن الكريم و مع أنه حافظ للقرآن الكريم إلا أنه لا يدع ورد العين و هو النظر إلى المصحف الشريف حتى تطلع الشمس فيصلي صلاة الضحى ثم يجلس ذاكرا شاكرا و مراقبا متفكرا حتّى يؤدي صلاة الظهر جماعة في المسجد فان كان الوقت صيفا قال ساعة ثم يجلس ذاكرا مراقبا حتى وقت العصر فيصليه ثم يجلس ذاكرا مراقبا حتى يصلي المغرب ثم يجلس ذاكرا مراقبا في المسجد حتى يصلي العشاء وهكذا دأبه كل يوم من أيام السنة و بالجملة كان نومه قليلا و إن كان نوم العارف عبادة فان الشيخ رضي اللّٰه تعالى عنه كان حريصا على تعمير أنفاسه بذكر اللّٰه تعالى ومثل هذا الدأب في العبادة يعجز عنه الكثير منا بل مَن منّا لا يحنّ إلى الوثير و قد هب عليه نسيم السحر فأرجف منه الأوصال فغدا قائما لا للصلاة بل ليجر عليه الغطاء الذي انسدل على إحدى جانبيه أتراه يدع الدفء الذي يكتنفه و

يسخر من الشيطان الذي كتفه و عقد على قفاه ثلاثا ثم غدا في البرد الشديد إلى المسجد سحرا لا في أول الثلث الثاني أو الأخير ، و قد ذكر لي رضي اللّٰه تعالى عنه أنه يصلي مائة و خمسين ركعة يوميا قياما لا قعودا مع كبر سنه و ضعف قواه وهذا مع كثرة أوراده وتلاوته للقرآن الكريم و كما أسلفت الذكر أنه رضي اللّٰه تعالى عنه مع حفظه للقرآن الكريم إلا أنه كان يمنح عينيه حظها من العبادة بالنظر إلى المصحف الشريف و كانت له ختمة كل ثلاثة أيام ، و قد زرناه ذات يوم و وافقنا ختمه للقرآن الكريم فنادانا لنحضر دعاء الختم و بعد دعائه رضي اللّٰه تعالى عنه رأيته يثبت في آخر المصحف عدد الختمات على شكل دوائر صغيرة فتطلعت فرأيت أكثر من مائة دائرة كل واحدة عددا لختمة ، و قد تذاكرت مع ابنه الشيخ سيدي عبد الحفيظ على هذا فأراني ورقة أخرى و فيها عدد ختمات الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّٰه تعالى عنه لشهر رمضان من كلّ سنة و أراني مصحفه الشريف الذي كان يقرأ منه أوراده و كتاب دلائل الخيرات ، فأخذت مصحفه الشريف و قبّلته وتبرّكت بقراءة سورة سيّدنا محمّد صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم و سورة الفتح ثمّ نظرت في تلك الورقة فوجدت الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّٰه تعالى عنه كاتبا بخطّه :{ ختمة شهر سيّدنا رمضان لسنة ١٩٩٥ خمس و خمسون ختمة ، وختمة شهرسيّدنا رمضان لسنة ١٩٩٦ سبع و خمسون ختمة ، و ختمة شهر سيّدنا رمضان لسنة ١٩٩٧ ثلاث و خمسون ختمة ، و ختمة شهر سيّدنا رمضان لسنة ١٩٩٨ ستّ و خمسون ختمة ، و ختمة شهر سيّدنا رمضان ١٩٩٩ ثلاثون ختمة } و ختماته رضي اللّٰه تعالى عنه هذه للقرآن الكريم كانت بلسان الشريعة لأنّ العارف إذا ختم القرآن الكريم بلسان الحقيقة كان له

كلّ يوم سبعون ألف ختمة كما ورد عند سائر الأولياء ، و ذكر لي رضي اللّه تعالى عنه مرة أنه يهدي كل ليلة جمعة على أموات ثمانين مقبرة ممن حوله أما عن ذكره رضي اللّه تعالى عنه فلا يفتر عنه ليلا و لا نهارا بلطائفه الخمس بل لا يترك سبحته الشريفة إلا عند طلب ضرورياته البشرية من أكل أو نوم و ما عدا ذلك فهي متبركة به تدورها أنامله و كلها أنوار قال احدهم:

همم العارفين باللّه علقت ***** فما لهم همة ترقى إلى احد

مطلبهم قد فاق المطالب جملة ***** همتهم جاوزت مقاصد العباد

وقفت ببابه تنتظر لوجهته ***** عكفت في قربه لا تنظر لأحد

فلم يكن له عكوف رضي اللّه تعالى عنه إلا على مولاه تعالى كما قال سيدي عبد القادر رضي اللّه تعالى عنه :

فؤادي عند حبيبي مقيم ***** يناجيه و عندكم لساني

و لحرصه رضي اللّه تعالى عنه على قرة عينه الصلاة كنّا كثيرا ما نراه يتطلع إلى ساعته يترقب دائما دخول وقت الصلاة ليؤديها في أول وقتها و كثيرا ما رأيناه يؤدي الفرائض الخمس بوضوء واحد .و كان رضي اللّه تعالى عنه على ضعف قواه يصوم كل خميس و إثنين على طوال السنة و هو ما يتعذر على من هم في سنه أما إذا قامت الحضرة و سطعت الأنوار الإلهية و تراقص الموكب الروحاني و تشرف بسيد الوجود و كعبة الشهود و حبة القلوب سيدنا محمد صلى اللّه تعالى عليه و سلم و تلألأ المكان بحضرة وجهه الشريف صلى اللّه تعالى عليه و سلم و وجوه أصحابه الكرام و سائر الأولياء عليهم الرضا و الرضوان

يقوم رضي اللّه تعالى عنه فرحا مستبشرا مرحبا ذاكرا والها حاضرا غائبا فانيا باقيا كأنه شاب يافع كما قيل :

فغن يا صوفي و ارقص في أمن ***** و اشطح لقد وصفت بالدلال

أنت محبوب الحضرة دون مَيْنٍ ***** و مرغوب لها فلا تبالي

و كان ذكره رضي اللّه تعالى عنه في الحضرة ضمير الغيبة (هو هو) و كان بعد انتهاء الحضرة نراه يتصبب عرقا و كم مرة تشرفت بتقبيل يده الشريفة بعد انتهاء الحضرة فألثمها وقد علق بها عرقه المترشح .

و كان رضي اللّه تعالى عنه لشدة حرصه و رأفته بمريديه ينصحهم بالتحلي بتقوى اللّه تعالى و التخلّي عن الصفات الذميمة كما قال الناصح الشفيق:

يا خاطب الحوراء في حسنها ***** شمر فتقوى اللّه في مهرها

و كن مجدا لا تكن وانيا ***** و جاهد النفس على صبرها

و إن كان هذا شأن خاطب الحور و القصور فما شأن طالب القرب و رفع الستور إن أمره لعجب ، بل العجب فيمن يطلب الوصول و الوصال و هو غارق في البطالة و النوم قال المغلوب على أمره:

كيف الوصول إلى سعاد و دونها ***** قلل الجبال و دونهن حتوّف

الرجل حافية و مالي مركب ***** و الكف صفر و الطريق مخوف

و قال آخر: وصالي غال عليك ***** و أنت فقير فما تنفق ؟

و قال آخر : أنا زادي قليل ما أراه مبلغي ***** أللزاد أبكي أم لطول مسافتي

لذلك كان رضي اللّه تعالى عنه يدلهم على مفتاح الفتح و الوصول و أن سره في الصبر في اللّه تعالى و عليه تعالى و إليه تعالى .

نزه فؤادك من سوانا تلقنا ***** فجنابنا حل لكل منزه

و الصبر طلسم لكنز وصالنا ***** من حل ذا الطلسم فاز بكنز

المحبّة بُراقه قدّس الله سرّه و رضي الله عنه

قال تعالى : (يأتي الله بقوم يحبهم و يحبونه) و قال صلى الله تعالى عليه وسلم: (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه) و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلم أيضا : (أشد أمتي لي حبا قوم يكونون بعدي ،يودّ أحدهم أنه فقد أهله و ماله و أنه رآني) قال سيدي ابن الفارض رضي الله تعالى عنه:

نسخْتُ بِحبّي آية العِشْق من قبلي *** فأهْلُ الهوى جُنْدي وحكمي على الكُلّ

وكلُّ فتىً يهوى فإنّي إمامُهُ *** وإني بَرِيءٌ من فتىً سامعِ العَذْلِ

ولي في الهوى عِلْمٌ تَجِلّ صفاتُهُ *** ومن لم يُفقّهه الهوى فهْو في جهل

ومن لم يكنْ في عِزّةِ الحبِّ تائهاً *** بِحُبّ الذي يَهوى فَبَشّرْهُ بالذّل

إذا جادَ أقوامٌ بمالٍ رأيْتَهُمْ *** يَجودونَ بالأرواحِ مِنْهُمْ بِلا بُخْلِ

قال سيدي محمد بن محمد الحراق رضي الله عنه:

نَظَرَ المُحِبُّ إلى الحَبِيبِ حَياتُهُ *** وَهَواهُ في ميزانه حَسَناتُه

تَاللّهِ لَولا نَظرَةٌ نَظَرَت بِهِ *** أجفانُهُ ما أَشرَقَت أوقاتُه

لكِنَّهُ بِالفضلِ يَمنَح وَصلَهُ *** مَن يَصطَفي فَنِعمَةٌ نَفَحاتُهُ

وَيَصيرُ لَيسَ بِناظِرٍ مِن ذاتِهِ *** إلّا الّذي هُوَ في الحَقيقَةِ ذاتُه

آهٍ! من انكسار النفس من الحبّ ..

و آهاً ! من نَصَب القلب بالحبّ ..

ثم آهْ ! من سكون الروح إلى الحبّ .. قالوا

و لي كبد مقروحة من يبيعني ***** بها كبدا ليست بذات قروح

أبلها عليّ النّاس لا يشترونها ***** و مَن يشتري ذا علة بصحيح

و قال الشيخ سيدي أبو مدين شعيب رضي الله تعالى عنه :

تذلّلت في البلدان حين سبيتني ***وبتُّ بأوجاعِ الهوى أتقلّبُ

فلو كان لي قلبان عشتُ بواحدٍ *** وأترُكُ قلباً في هواك يعذّبُ

ولكنَّ لي قلبا تملَّكهُ الهوى *** فلا العيشُ يهنا لي ولا الموت أقربُ

كعصفورةٍ في كفِّ طفلٍ يضمها *** تذوقُ سياق الموت والطفل يلعبُ

فلا الطفلُ ذو عقلٍ يحنُّ لما بها *** ولا الطيرُ ذو ريشٍ يطيرُ فيَذهبُ

تسمّيتُ بالمجنون من ألم الهوى *** وصارت بي الأمثال في الحي تُضرَبُ

فيا معشرَ العُشّاق موتوا صبابةً *** كما مات بالهجران قيس معذَّب

لم تشغل الصوفية في تراثهم كلمة كهذه و لم يؤرقهم و يقض عليهم مضاجعهم مثل الحبّ ، والحبّ هو البرزخ بين المريد و شيخه و العُروة الوثقى التي لا انفصام لها بل هو طلسم و سرّ الوصول و إكسير القلوب و الأرواح ، و إن كان الحبّ الحسّي الدنيء الشهواني الدنيوي الذي يقع بين الفتى و الفتاة يمسّ شغاف قلبيهما بالأعاجيب كما يروى أن عاشقة سألت طبيبا فقالت : عند لقائي بحبيبي أتغذى بالحبّ فأستطيع أن لا آكل و أشرب لمدة أربع و عشرين ساعة ، فهل للعشق تفسير و هل الحبّ يغذي جسم الإنسان ؟ فقال لها الطبيب: العشق يؤدي إلى فقدان الشهية و النوم و هذه النوبة تؤدي إلى القلق

مما يزيد في ارتفاع نسبة هرمون الأدرينالين في الدم و هذا الهرمون يزيد من قوة الجسم فلا يحس العاشقان بالجوع و النوم هذا عن الحبّ المذموم النفسي الشهواني فما بالك بالحبّ الروحي القلبي الطاهر الذي تروي أرضَه سحائبُ الودود المعبود جل جلاله ،قال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي رضي اللَّه تعالى عنه : { و لقد تجسّد لي مرة حبّي لشيخي أبي مدين رضي اللَّه تعالى عنه فكنت لا أقدر أن أنظر إليه و كان يخاطبني و أصغي إليه و أفهم عنه ولقد تركني أياما لا أشبع طعاما و كانوا كلما قدّموا إلي المائدة تقف المحبة على حرفها و ينظر إلي و يقول بلسان أسمعه بأذني:تأكل و أنت تشاهدني ؟ فأمتنع من الطعام و لا أجد جوعا و أمتلئ من الحبّ حتّى سمنت و عبلت من نظري إليه فقام لي مقام الغذاء أذوق ذواقا و لا أجد جوعا و لا عطشا و كان الحبّ لا يبرح نصب عيني في قيامي و قعودي و حركتي و سكوني }، قال مولانا جلال الدين الرومي رضي اللَّه تعالى عنه : {إنّ الحبّ ليحول المر حلوا و التراب تبرا و الكدر صفاء و الألم شفاء و السجن روضة و السقم نعمة و القهر رحمة و هو الذي يلين الحديد ويذيب الحجر و يبعث الميت وينفخ فيه الحياة ويسوّد العبد }، و إن كانت الصورة الآدمية على شكل و رسم اسم الإنسان الكامل سيدنا محمّد صلى اللَّه تعالى عليه وسلم فالرأس على شكل الميم و الصدر مع الذراعين على شكل الحاء و البطن على شكل الميم الوسط و الرجلين على شكل الدال و هذه الصورة الظاهرية الكاملة تحتاج من السالك إلى صورة باطنية تكملها ليصلح للحضرة الأزلية و تلك الصورة الباطنية هي الحبّ و سر حرف الحاء في الصورة المحمدية الآدمية هو قلب الإنسان وهو عرش الرحمن ولهذا الحرف من الأعداد ثمانية وهو نفس عدد الملائكة

الحاملين لعرش الرحمن (و يحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) و لمّا كان العرش على التحقيق مظهر العظمة و مكانة التجلي وخصوصية الذات و يسمّى جسم الحضرة و مكانها لكنه المكان المنزه عن الجهات الستّ و ليس فوقه شيء إلا الرحمن جل جلاله و لا يعلم كيفية ذلك إلا هو تعالى كما قال سيدنا مالك رضي اللّه تعالى عنه: {الاستواء معلوم و الكيف مجهول}، كان مقابله عرش الرحمن تعالى في الصورة الآدمية و هو القلب و له ثمانية أركان يتم بها سر الوصول و هي اليقين في معرفة الصفات الثمانية للذات الإلهية و هي :(التنزيه ،و الحياة ،و القدرة ،و العلم ،و الإرادة ، و السمع ، و البصر ، و الكلام) و سرّ الباء هو ما ورد في الخبر (أنّ كل ما في الكتب المنزلة فهو في القرآن و كل ما في القرآن فهو في الفاتحة و كل ما في الفاتحة فهو في بسم اللّه الرحمن الرحيم و كل ما في بسم اللّه الرحمن الرحيم فهو في الباء و كل ما في الباء فهو في النقطة التي تحتها) و معنى الباء (بي كان ما كان و بي يكون ما يكون) و إذا تأملنا حرف الحاء وجدناه حرفا ترابيا و الباء حرفا هوائيا ، و كما أنّ الهواء يسفّ التراب فكذلك الحبّ يسفّ وجود الإنسان و يُفنيه في محبوبه ، و هذا الحبّ إما يجره إلى الهاوية و الخسران في الدنيا و الأخرى و هو حبّ ما سوى الحق تعالى أو يرفعه إلى أعلى عليين وهو حبّ اللّه تعالى و حبّ رسوله صلى اللّه تعالى عليه و سلم و حبّ شيخه الذي هو برزخ بينه و بين المحبوبين العظيمين قال سيدي جلال الدين الرومي رضي اللّه تعالى عنه :{ إنّ هذا الحبّ هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء و يصل من السّمك إلى السمّاك ومن الثرى إلى الثريا }.و السمّاك و الثريا هما من منازل القمر و هما كناية على المنزلة الكريمة عند الحق تعالى أي يرفعه من

الحضيض إلى اليفاع ، ثم قال رضي اللّه تعالى عنه :{ إذا سرى هذا الحبّ في الجبال الراسيات ترنحت و رقصت (فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا و خر موسى صعقا).إنّ الحبّ الخالد لا يجدر إلا لخالد انه لا يجمل بمن كتب له الفناء و الأفول إنّه حق الحيّ الذي لا يموت الذي يفيض الحياة على كل موجود ، إنّ هذا الحبّ يجري من صاحبه مجرى الدم إن وضع في محله وصادف أهله فإنه شمس لا ينتابها الأفول و زهرة ناضرة لا يعتريها الذبول عليك بهذا الحبّ السرمديّ الذي يبقى، ويفنى كل شيء، الذي يدور عليك بكؤوسه التي تروي ظمأك ، عليك بهذا الحب الذي ساد به الأنبياء و حكموا } قال المحبّ:

سرٌ سرى من جناب القدس أفناني ***** لكن بذاك الفنا عني قد أحياني

و ردني للبقاء حتى أعبر عن ***** جمال حضرته لكل هيمان

و صرت في ملكوت من عجائبه ***** لم ألف غير وجود ماله ثاني

و قال آخر : إن نفسا لم تعرف الحب ***** هي نفس لم تدر معناها

أنا بالحب وصلت إلى نفسي ***** و بالحب عرفت اللّه

و كما هو الشأن لدى سائر الأولياء و العارفين باللّه تعالى فقد كان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه ناهلا من المعين الذي لا ينضب و شاربا من سلسبيل المحبة التي هي براق معرفته باللّه تعالى

كما قال سيدي عبد القادر رضي اللّه تعالى عنه:

رفعت رايتي على العشاق ***** و اقتدى بي جميع تلك الرفاق

و تنحى أهل الهوى عن طريقي ***** و انثنى عزم من يروم لحاق

سرت في الحب سيرة لم يسرها ***** عاشق في الهوى على الإطلاق

فدعاتي تجول في كل أرض ***** و طبولي يضربن في الآفاق

يمثّل العاشقون فوق بساطي ***** في منام الهوى و تحت رواقي

ضربت سكة المحبة باسمي ***** و دعت لي منابر العشاق

كان للقوم في الزجاجة باق ***** أنا وحدي شربت ذاك الباقي

شربة لم أزل سكرانا منها ***** ليت شعري ماذا سقاني الساقي

فكان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه سابحا في بحر العشق الإلهي الذي ليس له شواطئ كما قال سيدي جلال الدين الرومي رضي اللّه تعالى عنه :{الحبّ بحر فسيح لا شواطئ له فيه السموات و كأنها فقاقيع من زبد الماء }.

قال المحبّ الضعيف القوي الحيران :

ظفرتم بكتمان اللسان، فمن لكم ***** بكتمان عين دمعها الدهر تذرف

حملتم جبال الحب فوقي و إنني ***** لأعجز عن حمل القميص و أضعف

وكان رضي اللّه تعالى عنه كثيرا ما ينصحنا بالتوادد و المحبة فيما بيننا و نبذ الاختلاف و التباين فيقول لنا رضي اللّه تعالى عنه : (تحابوا فلا ينقصكم شيء) وكان كثيرا ما يؤكد لنا أن سر الوصول إلى معرفة اللّه تعالى هو المحبة و تكون ابتداء بمحبة المريدين فيما بينهم ثم محبتهم للشيخ و من محبة الشيخ يحدث التلاقح الروحاني إلى محبة سيد الوجود صلى اللّه تعالى عليه و سلم وهي المحبة التي كان رضي اللّه تعالى عنه كثيرا ما يكشف السر الموصل إليها بقوله رضي اللّه تعالى عنه: (أحبوني فتصلون إلى محبة سيدنا رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم) وكان يقول أيضا: (أحبوني أوصلكم إلى

حضرة سيدنا رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و سلم) و من وصل إلى محبة سيد الوجود صلى اللّه تعالى عليه و سلم فقد استكمل الإيمان و وصل إلى حضرة الشهود و العيان وسقي بشراب محبة الودود المعبود جل سلطانه فبلغ مناه و منتهاه قال بعضهم :

أبى الحب أن يخفى و كم كتمته ***** فأصبح عندي قد أناخ و طنبا

إذا اشتد شوقي هام قلبي بذكره ***** و إن رمت قربا من حبيبي تقربا

و يمنحني و صلا فأحيا به له ***** و يسكرني حتى ألذ و أطربا

و كأن - و للّه المثل الأعلى - أن اتخاذ المريد للشيخ كاتخاذه لمفتاح و سر المفتاح في أسنانه كما أن سر الشيخ في محبته فمن أحب شيخه فقد أحب سيد الوجود صلى اللّه تعالى عليه و سلم لأنّ الشيخ نائبٌ له صلى اللّه تعالى عليه وسلم كالمفتاح إذا وافق مغلاق الباب فتحه أما من كان خاليا قلبه من محبة شيخه فهو كمن ملك مفتاحا بدون أسنان و الذي لا فائدة في امتلاكه أصلا. قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه: (من رأى محبا للّه تعالى فقد رأى من رأى اللّه تعالى بقلبه) ومقصوده رضي اللّه تعالى عنه أن من رأى عارفا باللّه تعالى فقد رأى حبيب اللّه تعالى صلى اللّه تعالى عليه و سلم؛ لقوله صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم :{ طوبى لمن رآني و طوبى لمن رأى من رآني ، و طوبى لمن رأى من رأى من رآني ، طوبى لهم و حسن مآب}قال بعضهم :

تهتك و لا تخش في الحب عارا ***** و إيّاك إيّاك تبدي استتارا

و بادر إلى الباب مع فتية ***** لهم في الظلام عيون سهارا

و إن خفت عند المسير الضلال ***** فوجه حبيبك يهدي الحيارى

و يقال – و اللَّه تعالى أعلم - أن محبة الجلال تضني و محبة الجمال تسمن لذلك كان سيدي محمد الصوفي رضي اللَّه تعالى عنه عبل بدين، قال سيدي أبو العباس المرسي رضي اللَّه تعالى عنه :{إياك و الاعتراض على من رأيته سمينا فإن الحب إذا تمكن من العبد سمن }، و كان سيدي الشبلي سمينا جدا و إذا قيل له في ذلك يقول :{ كلما أتذكر أنا عبد من ، أزداد سمنا } و في رواية أخرى قيل له : {نراك جسيما بدينا و المحبة تضني فأنشأ يقول:

أحب قلبي و ما درى بدني ***** و لو درى ما أقام في السمن}

و دخل مريد مرة على شيخ سمين فوجده يزهد المريدين في الدنيا و هو كالدب من السّمن فكاشفه الشيخ و قال :{ و عزته تعالى ما سمّنني الأكل و إنما سمّنني حبه تعالى} .

قال أحد المحبين :

أفديك بل قلّ أن يفديك ذو دنف ***هل في المذلة للمشتاق من عار

بي منك شوق لو أن الصخر يحمله *** تفطر الصخر عن مستوقد النار

قد دبّ حبك في الأعضاء من جسدي *** دبيب لفظي من روحي و إضماري

و لا تنفست إلا كنت مع نفسي *** و كل جارحة من خاطري جاريّ

و قال آخر :

ما الحب إلا لقوم يعرفون به ***** قد مارسوا الحب حتى هان معظمه

عذابه عندهم عذب، و ظلمته ***** نور، و مغرمه بالضراء مغنمه

كلفت نفسي أن أقفوا مآثرهم ***** والشيء صعب على من ليس يحكمه

إني أوري لغيري حين يسألني ***** بذكر زينب عن ليلى فأوهمه

و طالما سجعت و هنا بذي سلم ***** ورقاء يعجم شكواها فأفهمه

محبة المريد للشيخ

قال الشاعر :

أيقظ شعورك بالمحبّة إن غفا °°°°° لولا المحبّة ، كان النّاس كالدّمى

أحبِبْ فيغدو السّجن كونا نيّرا °°°°° و أبغض فيُمسي الكون سجنا مُظلما

إنّ محبة المريد لشيخه أمر لابد منه و هو الحبل السّرّي الذي يربطه برحم روح شيخه ومن ادعى سلوكه على يد شيخ بدون أن تتحرك ذرة من قلبه و روحه إلى محبته فضلا عن الاحتراق والإصطلام بنار نور محبته فسلوكه لا يعول عليه ولا يوصله أبدا إلى المطلوب الأسنى جل جلاله . و المحبة التي يربو فضلها و ينمو نتاجها و توصل صاحبها إلى مطلوبه ومرغوبه هي المحبة بلا غرض أي أن يحبّ المريد شيخه لذاته لا بغرض مادي أو معنوي حتّى لو قال له شيخه يا ولدي أنا لا أقدر أن أوصلك و لا أسلّكك و لست أصلا بشيخ فلو رضي بذلك مريده و قال له أحبك في اللّه تعالى لا لغرض غيره فإن بركة صدقه في محبته توصله إلى اللّه تعالى و الطرق إلى اللّه تعالى بعدد الأنفاس و فضل اللّه تعالى لا يحجره حاجر.قال سيدي عبد العزيز الدباغ رضي اللّه تعالى عنه : { إنّ المحبّ لا ينتفع بمحبة الكبير له و لو كان الكبير نبيا حتى يكون الصغير هو الذي يحبّ الكبير فحينئذ ينتفع بمحبته إلاّ اللّه تعالى ، فإنّه تعالى إذا أحبّ عبدا نفعته محبته و لو كان العبد في غاية الإعراض ، و الصغير إذا أحب

الكبير جذب ما في الكبير و لا عكس ،فإذا قويت محبة المريد جذب الشيخ فتصير ذات المريد مسكنا للشيخ و كل واحد يزين مسكنه ، إشارة إلى تأثير الشيخ في ذات المريد إذا سكنها }، وقال أيضا رضي اللّه تعالى عنه : { إنّ المريد إذا أحبّ الشيخ المحبة الكاملة سكن الشيخ معه في ذاته ويكون بمنزلة الحبلى التي تحمل ولدها ،فإن حملها تارة يتم صلاحه فيبقى على حالة مستقيمة إلى أن تضعه و تارة يسقط و لا يجيء منه شيء و تارة يحصل له رقاد ثم يفيق والإفاقة تختلف فقد يفيق بعد شهر و قد يفيق بعد عام وقد يفيق لأكثر من ذلك ، فهكذا حالة المريد إذا حمل لشيخه فتارة تكون محبته خالصة تامة دائمة فلا يزال أمر الشيخ يظهر في ذاته إلى أن يفتح اللّه تعالى عليه و تارة تكون محبته منقطعة بعد أن كانت صادقة و انقطاعها بسبب عرض مانع فتتبدل نيته في الشيخ و تنقطع أسرار الشيخ عن ذاته بعد ن كانت ساطعة عليها وتارة تقف محبته في سيرها لمدة قريبة أو متوسطة أو طويلة فتقف أسرار ذات الشيخ عن ذاته فإذا رجعت المحبة رجعت الأسرار فيختبر المريد نفسه من أي قسم هو من هذه الأقسام الثلاثة .و لا ينتفع المريد بمحبة شيخه إذا أحبه لسره أو ولايته أو لعلمه أو كرمه أو لنحو ذلك من العلل حتى تكون محبته متعلقة بذات الشيخ متوجهة إليه لا لعلة و لا لغرض مثل المحبة التي تكون بين الصبيان فإن بعضهم يحب بعضا من غير أغراض باعثة على المحبة بل مجرد الألفة لا غير فهذه المحبة ينبغي أن تكون بين المريد و الشيخ حتى لا ترهق محبة المريد إلى الإغراض و العلل فإنها متى رهقت إلى ذلك دخلها الشيطان و أكثر فيها من الوساوس فربما تنقطع و ربما تقف كما سبق في القسمين الأخيرين }. ثم ذكر رضي اللّه تعالى عنه أمارة المحبة و علامتها فقال :{ أن تكون راحة المريد في

ذات شيخه فلا يتفكر إلا فيها و لا يجري إلا لها و لا يهيم إلا بها ولا يفرح إلا بها و لا يحزن إلا عليها حتى تكون حركاته و سكناته سرا و علانية حضورا و مغيبا في مصالح ذات الشيخ و ما يليق بها و لا يبالي بذاته و لا بمصالحها ثم الأدب و التعظيم لجانب شيخه حتى لو قدر أن شيخه في بئر و هو في صومعة لرأى بعين رأسه أنه هو الذي في البئر و أن شيخه هو الذي في الصومعة لكثرة استيلاء تعظيم الشيخ على قلبه بل على عقله و أيضا علامة كون المريد يحب الشيخ المحبة الصادقة النافعة أن تقدر زوال الأسرار و الخيرات التي في ذات الشيخ حتى تكون ذات الشيخ مجردة من ذلك كله و تكون كذوات سائر العوام فإن بقيت المحبة على حالها فهي محبة صادقة و إن تزحزحت المحبة و زالت بزوال الأسرار فهي محبة كاذبة }.وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه في الأنوار القدسية :{ و محك الصدق في محبة الشيخ أن لا يصرفه عنه صارف ولا ترده السيوف و المتالف و قد ادعى بعضهم الصدق في محبة الشيخ و إخوانه في الطريق و أنه لا يصرفه عنهم صارف و لو هجروه بغير حق و شاع ذلك بين العام و الخاص فقام يوما و أنشد على رؤوس الفقراء :

لو عذبوني كل يوم و ليلة ***** على غير ذنب سرّني و رضيتُ

فقال له شخص من حذاق المريدين : تكذب؟ فتشوش و جلس و ظهر أثر ذلك في وجهه فأجمع الفقراء على كذبه و قالوا له : كيف تقول ما قلت و تتكدر من قول بعض الناس لك تكذب ؟و إذا كنت لا تحتمل نقطة واحدة فكيف تحتمل التعذيب كل يوم و ليلة على غير ذنب ؟ فاستغفر المدعي و اعترف بكذبه ، فاصدق يا أخي في محبة الشيخ تنل كل خير }، و قال أيضا :{ أنّ عمدة الأدب مع الشيخ هو المحبة له فمن لم يبالغ في محبة شيخه بحيث يؤثره على جميع

شهواته لا يفلح في الطريق لأنّ محبة الشيخ إنما هي مرتبة إدمان يترقى المريد منها إلى مرتبة الحق تعالى ، و من لم يحب الواسطة بينه و بين ربه التي من جملتها رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله و سلم فهو منافق والمنافق في الدرك الأسفل من النار ، و أجمع أهل الطريق على أن من صفات المريد الصادق في محبة الشيخ أن يكون تائبا من جميع الذنوب متطهرا من سائر العيوب ، فمن تلطخ بالذنوب وادعى محبة شيخه فهو كاذب و كما أنه لا يحب شيخه فكذلك شيخه لا يحبه و إذا لم يحبه شيخه فالحق تعالى كذلك لا يحبه قال تعالى : (إن اللّه يحب التوابين و يحب المتطهرين) و قال تعالى : (إن اللّه لا يحب المفسدين) و قال أيضا : (إن اللّه لا يحب من كان مختالا فخورا) وقال أيضا : (إن اللّه لا يهدي كيد الخائنين) ونحوها من الآيات و أجمعوا على أن من شرط المحب لشيخه أن يصمّ أذنه عن سماع كلام أحد في الطريق غير شيخه ، فلا يقبل عذل عاذل حتى لو قام أهل بلدة كلهم في صعيد واحد لم يقدروا على أن ينفروه من شيخه و لو غاب عنه الطعام و الشراب أياما لا ستغنى عنهما بالنظر إلى شيخه لتخيله في باله و بلغنا عن بعضهم أنه لما دخل هذا المقام سمن و عبل من نظره إلى أستاذه }، و أقول أنّ كلام الشيخ سيّدي الشعراني رضي اللّه تعالى عنه مشاهد من واقع الملاحظة والتجربة أنّ بعض من أحبّ في الحسّ محبوبا له أو محبوبة بقي بلا أكل و لا شراب مدة من الزمن و كان كلما قرب من الطعام تخيل محبوبه فيشبع و لم يأكل لقمة واحدة هذا في الحبّ الفاني فما بالك بالحبّ الخالد السرمدي الذي هو نور على نور غير الحسي الذي هو نار على نار نعوذ باللّه من النار و من حال أهل النار ،قال الشيخ سيدي محمد معصوم بن الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السرهندي رضي اللّه

تعالى عنهما :{ إنّ المدار للوصول إلى درجة الكمال هو رابطة محبة الشيخ الذي يقتدى به و يأخذ الطالب الصادق الفيض و البركة من قلب شيخه لسبب حبه له و يتصف بأوصافه ساعة فساعة بسبب هذه المناسبة المعنوية و قد قالوا أن الفناء في الشيخ مقدمة للفناء الحقيقي و أن الذكر لا يوصل من غير رابطة و فناء في الشيخ و أن الذكر و إن كان من أسباب الوصول إلا أن رابطة المحبة و الفناء في الشيخ شرط لذلك }، وسرّ الطريق في أربعة مفاتيح و هي المحبة و الخدمة و الصّحبة و الأدب ، و وصل من وصل بالأدب و رجع من رجع بسوء الأدب وقد قيل : {من ترك الأدب في الحضرة ردّ إلى الباب ومن ترك الأدب بالباب ردّ إلى سياسة الدواب}،وتأمل لمّا تأدّب السحرة مع سيدنا موسى عليه السلام فقالوا له: (يا موسى إما أن تلقي و إما أن نكون أول من ألقى) ألقى اللّه تعالى الهداية في قلوبهم في اللحظة و التو، و ربحوا بفضل أدبهم ، و لما كان الأدب يوصل فكذلك الخدمة لها سر أيضا للوصول و تأمل أيضا سرّها و هو لما خدمت الشياطين الصالحين حفظوا و لا فتحا أعظم من الحفظ قال تعالى : (و من الشياطين من يغوصون له و يعملون عملا دون ذلك و كنّا لهم حافظين) ثم لاحظ سر الصحبة التي تلحق الخسيس بالرفيع كما قيل :

من عاشر الأشراف عاش مشرّفا ***** و معاشر الأنذال غير مشرّف

أو ما ترى الجلد الخسيس مقبّلا ***** بالثغر لما صار جار المصحف

و سرّ هذه الصحبة ألحقت القطمير بالفتية أهل الكهف و إن كان كلبا فلما صاحب الصالحين ذكر معهم و مات معهم و يحشر يوم القيامة معهم دون غيره من الكلاب الذين يصيرون ترابا و كلما ذكروا يذكر معهم كلبهم قال تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم و يقولون خمسة سادسهم

كلبهم رجما بالغيب و يقولون سبعة وثامنهم كلبهم) و هذه المعية و الصحبة و لو كانت عرضية طارئة فإنها تلحق صاحبها بأهل الفضل و تأمل ما قاله صلى الله تعالى عليه و آله وسلم : (إن لله ملائكة سيّارة وفضلاء يلتمسون مجالس الذكر في الأرض فإذا أتوا على مجلس ذكر حفّ بعضهم بعضا بأجنحتهم إلى السماء ...) الحديث و في آخره : (ثم يقول الله تعالى اشهدوا يا ملائكتي أني غفرت لهم و أعطيتهم ما سألوني و أجرتهم مما استجاروني فيقولون :ربّنا إن فيهم عبدا خطّاء جلس إليهم و ليس منهم فيقول تعالى : و هو أيضا قد غفرت له ،هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) و إن كان جلوس العاص مع الصالحين شفع له فغفر له ، فكيف بالمطيع إذا كان لا يفارقهم بقلبه و قالبه ، لا جرم أنه المفلح و الرابح ،فهذه أربعة مفاتيح لأبواب السعادة و الفضل و الفتح من ملك منها واحدا فاز و فلح و من ملكها كلها فهو النجم الثاقب و هي المحبة و الأدب و الخدمة و الصحبة ، قال سيدي الدباغ رضي الله تعالى عنه :} و اعلم أن هذا الأدب لا يتأتى من المريد ما لم يكن له من الشيخ جاذب باطني فإنّ محبة الشيخ للمريد إذا اتصلت أشعتها بالمريد تحوشه إلى الشيخ و تحوطه من كل قاطع فإذا دامت دام الاتصال وإن انقطعت وقع الانفصال حتى قال بعض الأشياخ لمريد له كان يلازمه كثيرا ويصلي معه الصلوات الخمس و لا يغيب عنه في وقت من الأوقات و ظن أن ذلك من محبته في الشيخ لا من محبة الشيخ فيه ، فقال له الشيخ : أتحبني يا فلان ؟ فقال : يا سيدي و من محبتي إليك وقع هذا الاتصال . فقال له الشيخ : ستعلم . فمن ذلك الوقت ما قدر على أن يصل إلى الشيخ حتى مرت عليه سنة كاملة و لم يقدر على مشاهدة شيخه فضلا عن ملازمته حتى عفا عنه الشيخ و سامحه .

و قال بعض الأشياخ يوما لأصحابه : أتحبونني ؟ فقالوا : نعم ،يا سيدي ما عندنا أعز منك . فقال لهم : و هل أحبكم أنا ؟ فقالوا : لا ندري .فقال : ما جئتكم بشيء إنما سبقت محبتي لكم فلما أشرقت أنوارها فيكم أنتجت محبتكم لي}، و لذلك قال تعالى : (فسوف يأتي اللّه بقوم يحبهم و يحبونه) فكانت منه تعالى ابتداء فسار تيارها في القوم فأحبوه تعالى ، و قد سئل سيدي أحمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه عن معنى الآية و قيل :{كيف محبة الخلق للحق و محبة الحق للخلق فقال رضي اللّه تعالى عنه : يحبهم بلا ملل و يحبونه بلا علل ، يحبهم بلا ملل أبد الآبدين زمانا لا ينقضي و ما له نفاد ، و يحبونه لا رغبة في الجنة و لا خوفا من النار ، يحبهم وفا و يحبونه صفا ، يحبهم بالعصمة و يحبونه بالخدمة ، يحبهم بالتوفيق و يحبونه بلا تعويق ، يحبهم هداية و يحبونه دراية ، يحبهم بالأمان و يحبونه بالإيمان }، و القوم هم الصوفية بلا ريب ، و كأن و للّه تعالى المثل الأعلى أن محبة الشيخ للمريد كالتيار الكهربائي الموصول بالأجهزة الكهربائية كالتلفاز و الراديو فما دام التيار مقطوعا فهي في عداد الموتى لا صوتا فيها فإذا اتصل بها التيار دبّت فيها الحياة فترى فيها الصوت والصورة ، فكذلك محبة المريد للشيخ يحركها ابتداء محبة الشيخ للمريد و لو تغير قلب الشيخ عن مريده لحظة لوقع الانفصال في هذه المحبة. لذلك لا ينبغي أن يدّعي المريد أنه يحب شيخه لأن لكل دعوى بيّنة و لو طلب منه بيّنة لعجز عن الإتيان بها .و كم من مريد سقط من هذه الحيثية إذ يقول للشيخ إني أحبك . لأن هذا سوء أدب في حق الشيخ ، بل ينبغي أن يقول المريد لشيخه: اسأل اللّه تعالى أن يرزقني محبتك. فيكون دعاء الشيخ مستجاب . أما قول المريد لشيخه :إني احبك ، فيتطلب ذلك بيّنة كما

قلت فإن لم تكن كان الابتلاء و الامتحان مقياسا لها ، كما يروى عن سيدي دلف الشبلي رضي الله تعالى عنه لما حبس في المشفى فدخل عليه جماعة فقال :{ من أنتم ؟ قالوا : محبوك يا أبا بكر، فأقبل يرميهم بالحجارة فهربوا منه، فقال : إن ادّعيتم محبتي فاصبروا على بلائي}.قال سيدي الجنيد رضي الله تعالى عنه :{ دفع السرّي إلي رقعة و قال هذه لك خير من سبع مائة قصة أو حديث(أي يقصد بالحديث كلام الناس ورواياتهم لا الحديث النبوي الشريف) فإذا فيها :

و لما ادّعيت الحب قالت كذبتني ***** فما لي أرى الأعضاء منك كواسيا
فما الحب حتى يلصق القلب بالحشا ***** و تذبل حتى لا تجيب المناديا
و تنحل حتى لا يبقى لك الهوى ***** سوى مقلة تبكي بها و تناجيا}

قال الشيخ سيدي أفضل الدين رضي الله تعالى عنه :{من ألطف سكرات الحبّ الشغل بالحبّ عن متعلقه كما حكي أن ليلى جاءت إلى مجنونها و هو يصيح :ليلى ليلى ، و يأخذ الجليد فيلقيه على فؤاده فيذوب من حرارة فؤاده فسلمت ليلى عليه وهو في ذلك الحال و قالت له : أنا محبوبك ،أنا مطلوبك ،أنا قرة عينك ، أنا ليلى فقال : إليك عني فإن حبك شغلني عنك }، و قال سيدي علي الخواصّ رضي الله تعالى عنه :{ ألطف ما في الحبّ ما وجدته في نفسك من العشق المفرط و الشوق المقلق حتى منعك ذلك النوم و لذة الطعام و لا يدرى ذلك الحب فيمن ؟ولا يتعين لك محبوب ،فإن من ذلك تترقى إلى محبة الله عز وجل المطلقة }،و قالوا :{و من أصعب ما في الحبّ أن يصير المريد يحب الهجر ، و يتلذذ به إذا علم أن شيخه أحبّ هجره ،لأن تخليص حظ النفس من حظ الشيخ عسير جدا ، و حاصله أن المريد يحب الهجر من حيث كونه محبوبا لشيخه لا من حيثية

أخرى لأن الحب للشيخ عمدته الوصل لا الهجر}، و قال الشيخ سيدي ابن عربي رضي الله تعالى عنه : {و من ألطف ما بلغنا عن بعض المحبين أنه دخل على شيخ فرآه يتكلم في المحبة فما زال ذلك المحب ينحل و يذوب و يسيل عرقا حتى تحلّل جسمه كله على الحصير بين يدي الشيخ و صار بركة ماء ، فدخل بعض أصحاب ذلك المحبّ على الشيخ فقال له : أين فلان ؟ فقال الشيخ :هو ذا و أشار إلى ذلك الماء و وصف له القصة فتعجب الحاضرون من ذلك }، قال سيدي ابن عربي رضي الله تعالى عنه تعليقا على هذه القصة :{ و هو تحليل غريب و استحالة عجيبة حيث تلطفت كثافته حتى صار ماء }، و الحبّ كلّه عجب فمن المحبين من لا يروى أبدا كما قيل:

وددت بأنّ الحبّ يُجمع كله *** فيُقذف في قلبي و ينغلق الصدر

فلا ينقضي ما في فؤادي من الهوى *** و من فرحي بالحبّ أو ينقضي العمر

و منهم من لا يطيق وصفه فضلا عن التحلّي به كما قيل :

كيف يُطيق الناس وصف الهوى ***** و هو جليل ما له قدر

بل كيف يصفو لحليف الهوى ***** عيش و فيه البين و الهجر

و منهم من يصفه بالداء الفاقد للدواء كما قيل :

الحب داء عضال لا دواء له ***** يحار فيه الأطباء النحارير

قد كنت احسب أن العاشقين غلوا ***** في وصفه فإذا بالقوم تقصير

و منهم من سكر بالساقي لا بالكأس كما قيل:

سقيتني خمرا و أسكرتني ***** فمنك سكري لا من الكأس

أوقعتني في قعر بحر الهوى ***** في لجج تمنع أنفاسي

و منهم من يقول المحال :

وددت بأن القلب شقّ بمُدية ***** و أُدخلت فيه ثمّ أطبق في صدري
فأصبحت فيه لا تحل في غيره ***** إلى منقضى يوم القيامة و الحشر
تعيش فيه ما حييت فإن متّ ***** سكنت شغاف القلب في ظلم القبر

و منهم من قال صوابا:

قد كنت أحسب أن وصلك يُشترى ***** بكرائم الأموال و الأشباح
و ظننت جهلا أن حبّك هيّن ***** تفنى عليه نفائس الأرواح
حتى رأيتك تجتبي و تخصّ من ***** أحببته بلطائف الأمنان
فعلمت أنك لا تُنال بحيلة ***** و لويت رأسي تحت طيّ جناحي
و جعلت في عش الغرام إقامتي ***** فيه غدوي دائما و رواحي

كراماته و دلائل علو مقامه قدّس الله سرّه و

لم تثبت عن الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه كرامات حسّيّة تواترت رواياتها إذ هي حيض الرجال كما يقال و قد طلب أحدهم من الشيخ رضي الله تعالى عنه أن يظهر له كرامة فأبى رضي الله تعالى عنه و إن كان هذا المريد قد أساء الأدب في حق شيخه كما قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه في الأنوار القدسية: }و من شأن المريد إن يلزم الأدب مع شيخه ولا يطلب منه قط كرامة و لا وقوع خارقة و لا كشفا و لا غير ذلك فمن طلب من شيخه كرامة حتى يتبعه فهو إلى الآن لم يؤمن بكون أستاذه من أهل العلم بطريق أهل الله تعالى {.و قد كان الشيخ أبو العباس المرسي رضي الله تعالى عنه يقول: }احذر أيها المريد أن تطلب من شيخك

كرامة حتّى تتبعه في أمره لك بالمعروف و نهيه لك عن المنكر فانّ ذلك سوء أدب و هو دليل شكّك في دين الإسلام لأنّ ما دعاك إليه شيخك ليس هو شرعه، وإنما هو شرع رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم .فهو تابع لا متبوع و لولا أن رحمة اللّه تعالى سبقت غضبه لكان كل من خالف أمر داعيه إلى الخير هلك من وقته }.و كان يقول :{ إياك أن تظن أيها المريد أن أستاذك لا نور له قياسا على حالك أنت فتحرم فوائده عقوبة لك فلو كشف لك عن نوره لأضاء ما بين السماء و الأرض}.و قال الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عربي رضي اللّه تعالى عنه في كتابه شرح الوصية اليوسفية :{ و يقصد جهده أن يدفع عن نفسه الخيالات الرديئة في حق شيخه كيلا يحرم المنفعة به فان الشيطان لا يزال يلقي إلى نفس المريد في شيخه ما يكرهه إليه }.لكن أكبر كرامة نطق بها الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه و كان يرددها دائما هو قوله رضي اللّه تعالى عنه : (المشايخ كُثر لكنَّ العارفين باللّه تعالى قِلَّة) و إن كانت المعرفة باللّه تعالى تعد كرامة فكفى بها الكبرى ، و كان رضي اللّه تعالى عنه في هذه المعرفة مُقتفيا أثر الحبيب صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم قدما بقدم ، و مُتخلقّا بشمائله الشريفة وأخلاقه المنيفة ، و مُتمليّا بكرة و أصيلا بأنواره و مُتحليّا بأسراره صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و ممّا يدلّ على هذه الرؤية النبوية يقظة بالبصر ما أخبرني به أحد الإخوان الثّقات أنّ الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه قال لأحدهم :{ أنّ النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أوصاني على الفقراء والمريدين }، و هذا ممّا يدلّ دلالة قطعية على مشرب الشيخ سيدي محمد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه المحمدّي الخالص كما قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى

عنه : {من صحّت تبعيته للرسول صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم ألبسه درعة و خوذة، و قلّده بسيفه و نَحَّله من أدبه و شمائله و أخلاقه، و خَلع عليه من خِلَعه، و اشتدّ فرحه به، كيف و هو من أمّته، و يشكر ربّه عزّ و جلّ على ذلك، ثمّ يجعله نائبا له في أمّته و دليلا لهم إلى باب الحق عزّ و جلّ، كان هو صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم الداعي والدّليل و لمّا قبضه الحقّ عزّ و جلّ أقام له من أمّته من يُخلفه فيهم، و هم آحاد أفراد من كلّ ألفِ ألفٍ إلى انقطاع النَّفَس واحدٌ، يدلّون الخلق و يصبرون على أذاهم مع دوام النّصح لهم، يتبسّمون في وجوه المنافقين و الفسّاق و يحتالون عليهم بكلّ حيلة حتّى يُخلّصوهم ممّاهم فيه و يَحملونهم إلى باب ربّهم عزّ و جلّ، و لهذا قال بعضهم رحمة اللّه تعالى عليه: لا يضحك في وجه الفاسق إلاّ العارف، يضحك في وجهه و يُريه أنّه ما يعرفه، وهو يعلم بخراب بيت دينه و سواد وجه قلبه وكثرة غلّه و كدره}. و ممّا يدلّ أيضا على علو مقامه و سمو جنابه عند اللّه تعالى ما حدّثني به رضي اللّه تعالى عنه مؤدبا لي ذات يوم من ربيع الأول من سنة ١٤١٩هـ الموافق لشهر جويلية ١٩٩٨م داخل خلوته وليس ثالثنا إلا اللّه تعالى فقال لي رضي اللّه تعالى عنه: {ذهب شخصان إلى أداء فريضة الحج فلما و صلا مكة المكرمة و دخلا بكة الحرم الشريف لم يجدا الكعبة الشريفة فالتفت أحدهما و كان تابعا للآخر و قال : أريد الطواف فأين هي الكعبة ؟ فأجبه : إن أردت الكعبة فهي طائفة بالشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه}. و أحسب أن لا أحدا حدثه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه بهذه الكرامة غيري فللّه الحمد و إن كانت تواترت فقد حدثت بها بعض إخواني من الفقراء. و كلام سيدي الشيخ رضي اللّه تعالى عنه

هذا إنّما يدلّ على علو مقامه الشريف الذي لا يعلمه إلا اللّه تعالى و يقال : أنّ من طافت حوله الكعبة الشريفة فقد حاز على مقام الغوثية ،كما قال سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه :

كل قطب يطوف بالبيت سبعا ***** و أنا البيت طائف بخيامي

قال الإمام الشعراني رضي اللّه تعالى عنه في الأجوبة المرضية : {أخبرني سيدي علي الخواص رضي اللّه تعالى عنه أن الكعبة طافت بالشيخ إبراهيم المتبولي حجرا حجرا ثم رجع كل حجر إلى مكانه } و قال الإمام اليافعي رضي اللّه تعالى عنه:{وقد سمعنا سماعا محققا أن جماعة من القوم شوهدت الكعبة و هي تطوف بهم طوافا محققا } و قال أيضا رضي اللّه تعالى عنه: { و رأيت من شاهد ذلك من الثقات والأتقياء العلماء}، و يدل على علو مقامه ما حدثنا به رضي اللّه تعالى عنه ذات يوم في جمع مبارك في زاويته العامرة عن شيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه بقوله :{ كان سيدي أبو مدين يقطع المسافة من الكعبة الشريفة إلى داره بمداغ المغربية في خطوة واحدة فإحدى رجليه عند الكعبة الشريفة و الأخرى في داره}،قال سيدي أحمد بن عجيبة رضي اللّه تعالى عنه في إيقاظ الهمم :{و أما طيّ المكان فمثاله أن يكون بمكة مثلا فإذا هو بغيرها من البلدان و هذا مشهور لأولياء اللّه تعالى }،و يسمّى أصحاب هذه الكرامة بأهل الخطوة. و سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه كان كلما ذكر خصلة من خصال شيخه أو كرامة من كراماته فإنما يقصد بها نفسه إذ الولد سر أبيه و ذلك تواضعا منه رضي اللّه تعالى عنه إذا كان بين مريديه ربما خشي على بعضهم أن يقيم و اهنُ الاعتقاد ميزانَ

عقله فيهلك نسأل اللّه تعالى السلامة و قوله رضي اللّه تعالى عنه ليدلّ أيضا على سموّ مقامه كما قال سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه :

مطلع الشمس للغروب بسفلى ***** خطوتي قد قطعته بلهتمام

و قال لنا أيضا رضي اللّه تعالى عنه :{ أنّ مدد سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه يبقى ساريا في مريديه بعد وفاته مائة عام }، و كأنّه رضي اللّه تعالى عنه يشير إلى قوله صلى اللّه تعالى عليه و سلم : (إنّ اللّه يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد لها أمر دينها) و إن كان هذا التجديد في أمر الشريعة في تيسير فقهها و تغيير فتواها بتغيّر الزمان و المكان يكون لفقيه مجدد على رأس كل مائة سنة فهو في أمر الحقيقة أولى لأنّ للتصوف رجالا مجددون في كل نفس و لحظة ،و كان قصد الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه عندما ذكر لنا هذه الكرامة أن يطمئن القلوب الحائرة عندما أشاع بين مريديه بعض المغرضين و المدعين أن أي شيخ عارف باللّه تعالى إذا مات انقطع إرشاده و مدده لمريديه فذكر لنا رضي اللّه تعالى عنه هذه الكرامة و كان يقصد بها نفسه لكنه عرّض بشيخه رفقا بواهن الإعتقاد و تواضعا منه رضي اللّه تعالى عنه لأنّه رضي اللّه تعالى عنه والحق يُقال كان أعلا مقاما ممن سبقه من المشايخ و العارفين باللّه تعالى بل أعلا مقاما من شيخه وذلك من واقع التجربة و المشاهدة إذْ أنه رضي اللّه تعالى عنه عاصر زمنا كثرت فيه الفتن الظاهرية و الباطنية و توجست محاريب القلوب الطيبة فضلا عن الخبيثة شياطين الإنس و الجن من كل حدب و صوب لتفسد عليها دينها و تلغ في حليب فطرتها بل أيّة همة هذه التي انتشلت شبابا من حمأة طين الشهوات في عصر يدعي قواده أنه عصر العولمة و الفتن الرقمية من قنوات فضائية و إنترنت

مخربة للعقول و القلوب و التي سمّها في دسمها قد سمّاها بالحضارة اللادينية المفكر محمد إقبال رحمه الله تعالى في الثلاثينات من القرن الماضي أي قبل شيوعها في العالم الإسلامي بحوالي ستين عاما قال رحمه الله تعالى : { إيّاك و الحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق،إنّ هذه الفتّانة تجلب فتنا و تعيد اللات و العزى إلى الحرم ، إن القلب يعمى بتأثير سحرها و إنّ الروح تموت عطشا في سرابها إنّها تقضي على لوعة القلب بل تنزع القلب من القالب إنّها لصّ قد تمرّن على اللصوصية فيغير نهارا و جهارا إنّها تدع الإنسان لا روح فيه و لا قيمة }. ثم فتنة العري التي خدّرت نسيم هواء الفطرة فعلى قارعة كل مسلك بغي و العياذ بالله تعالى ثم فتنة الدنيا و المال و سائر الشهوات بل عند كل خطوة يخطوها المسلم يجد أمامه مائة أبي جهل يتألّب وفي قلبه مائة هوى يتقلب فأيّ همّة تقدر على إحياء قلب ذلك شأنه ،لكن قالها الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه أنا له و أنا أحييه ،و كان الأمر كذلك ، أما شيخه سيدي أبو مدين بوتشيش رضي الله تعالى عنه فقد عاش و مريدوه في عصر لم تكن فيه فتن ظاهرية و باطنية كعصرنا فقد كان يعيش المريد في ذلك الوقت حياة بسيطة غير معقدة في مجتمع محافظ على دينه و حياته و بهذا الأمر نال الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه قدرا و فخرا فقد أحيا قلوبا ميتة بنظرة حب و أنطق شفاهها كافرة كلمة (لا إله إلا الله) و سما بأرواح كثيفة فوق المادة و الأغراض قال الشاعر:

في فساد الأحوال لله سرّ ***** و إلتباس في غاية الإيضاح

فتقول الجهال قد فسد الأمر و ذاك الفساد عين الصلاح

و قد أشكل قولي أنّ الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه أعلى مقاما من شيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه على ابنه الشيخ سيدي عبد الحفيظ، و لم يَستَسغِه، و بعد كلام ذكر لي أنّه سمع والده الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه يُحدّث بحادثة وقعت لشيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه، و ذلك أنّ سيدي أبا مدين نزل مع فقراءه ضيفا عند أحد أخوال الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه، و كان من بين مريديه منشدا لا يستغني عنه الجميع، فإذا غاب لا يُنشّط الجمعَ أحدٌ، ثمّ إنّ هذا المنشد استأذن من شيخه سيدي أبي مدين أن يذهب إلى مدينة وُجدة المغربية لقضاء غرضٍ، و لمّا ذهب صادف هناك وَعدةً، و أضافه أصحابها، فاستبطأه سيدي أبو مدين و انشغل بالسؤال عن سبب غيابه، و لمّا مضت هُدأة من الليل و لم يأت ظهر غضبُ سيدي أبي مدين عليه، و مع حلول الفجر جاء هذا المنشد و استأذن في الدخول على الشيخ في الجمع، و كان من عادة أيِّ فقير من فقراء سيدي أبي مدين إذا قَرُب سيره من زاوية شيخه أن يذكر الهيللة بصوت جهوري، فلمّا سمع سيدي أبو مدين صوت المنشد و هو يهلّل، قال لسيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه: قل له لا يدخل عليّ فإنّي عليه غاضب، فلم يقدر عليها سيدي محمّد الصّوفي و وقفت المحبّة على كأس الأدب فكسّرته، ثمّ توازنت المحبّة مع الأدب على لسان الميزان فثَقُلت كفّة المحبّة على كفّة الأدب، و في هذا المعنى قلت:

إذا توالت على صفحات القلب ***** أمطار المحبّة مع رعود الأدب
شرب الأمطارَ و صمّ آذانه ***** عن سماع الأدب لا يُطيقه
و خذها عبرة من حيدرو قد ***** كتب في العهد محمّدٌ رسول اللّه

فأبلها سهيلٌ بن عمرو و أمْرُ ***** الرسول لمحوها عليّ لا يُطيعه

و معنى قولي هذا أنّه إذا تساوت المحبّة مع الأدب سقط شرط الأدب ، و عبرة ذلك أنّ سيّدنا عليّ بن أبي طالب كرّم اللّه تعالى وجهه لمّا كتب شروط الهدنة مع سهيل بن عمرو أمره النّبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بأمر فأبت المحبّة تنفيذه و بيان ذلك كما جاء في السيرة النّبويّة أنّ سيّدنا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أمر سيّدنا عَلِيّا بْنَ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللّهِ تعالى عَلَيْهِ فَقَالَ : {اُكْتُبْ بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ} فَقَالَ سُهَيْلٌ لَا أَعْرِفُ هَذَا ، وَلَكِنْ اُكْتُبْ بِاسْمِك اللّهُمّ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ : {اُكْتُبْ بِاسْمِك اللّهُمّ} فَكَتَبَهَا ؛ ثُمّ قَالَ : {اُكْتُبْ هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمّدٌ رَسُولُ اللّهِ سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو} ؛ فَقَالَ سُهَيْلٌ : لَوْ شَهِدْت أَنّك رَسُولُ اللّهِ لَمْ أُقَاتِلْك ، وَلَكِنْ اُكْتُبْ اسْمَك وَاسْمَ أَبِيك ؛ فأمر سيّدنا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ سيّدنا عليّا كرّم اللّه تعالى وجهه أن يمحي { محمّدٌ رسول اللّه } و يكتب {هذا ما تصالح عليه محمّدٌ بن عبد اللّه سُهيلَ بن عمرٍو} فعصى سيّدنا عليّ أمر سيّدنا رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و أبى أن يمحي { محمّد رسول اللّه } ، فمحاها سيّدنا محمّد صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بيده الشريفة ، و هنا وقفت المحبّة من سيّدنا عليّ كرّم اللّه تعالى وجهه لسيّدنا محمّد صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم وسحقت الأدب ، فهذا سُقتُه دليلا على عدم وقوف سيّدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه لأمر شيخه سيدي أبي مدين ، و لمّا رأى سيدي أبو مدين ذلك من الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، أمر فقيرا آخر و قال له : قل له لا تدخل عليّ فإنّني غاضب عليك ، فخرج ذلك الفقير و قال للمنشد : إنّ سيدي أبا مدين لا يحبّ أن يراك و لا أن تدخل عليه

فهو عليك غاضب، ثمّ لمّا دخل ذلك الفقير خرج سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه للمنشد و قال له : وأين كنتَ ؟ و قد أغضبت الشيخ سيدي أبا مدين ؟ فلمّا أخبره المنشد بالخبر و سرّ تأخّره طمأنه سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه و هدّأ من روعه و أخذه إلى أحد جيران خاله و قدّم له الأكل و استوصاه عليه ، فلمّا سمعت هذا من سيدي عبد الحفيظ قلتُ له : تكفينا هذه القصّة لبيان علوّ مقام الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه على مقام شيخه سيدي أبي مدين ، فسيدي أبو مدين كان جلاليّ المقام سريع الغضب ، و كان بعكسه الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه جمالي المقام ، و الجمال أفضل من الجلال ، لأنّ الجلال صفة الكليم عليه السّلام و الجمال صفة الحبيب صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم .

ثم اعلم أخي الفقير مريد الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه أن مدد شيخك يستمر هاطلا هطول بركة بعد وفاته رضي اللّه تعالى عنه مائة عام و لا ريب ،و اعلم إن كنت صادقا و لم تغير بعده و حفظت على بيعتك معه أنه يرشدك و يدلك و يسير بك إلى عين المدد كما كان معك في حياته بل سره يسير إليك كأتم ما كان قبل وفاته رضي اللّه تعالى عنه لتجرد روحانيته رضي اللّه تعالى عنه قال الشيخ سيدي محمد بن إبراهيم بن عباد رضي اللّه تعالى عنه في المفاخر العلية : {اعلم أنّ عدم الاجتماع بالشيخ لا يقدح في محبته بعد أن بلغه مناقبه وطريقته بالتواتر ، فليس لقائل أن يقول : كيف يُقتدى به وهو ميّت ؟ فإنّا نقول : إنّما نقتدي بما بلغنا عنه من طريقته و أخلاقه الحميدة لا بصورته الجِسميّة و كما أنّا نحبّ رسول اللّه صلّى اللّه

تعالى عليه و آله و سلّم و أصحابه و لم نجتمع بهم و إنّما نقتدي بما بلغنا من آثارهم} و قال الشيخ سيدي محمد معصوم ابن الإمام الرباني سيدي أحمد الفاروقي السرهندي رضي اللّه تعالى عنهما: {إنّ وجود أهل اللّه تعالى في الحياة و بعد الممات رحمة ،فمن يفاد و يستفاد في حال حياتهم من الفيوض و البركات تجري بعد مماتهم أيضا وتستمر هذه الفيوضات ما لم تحدث في طريقتهم البدع كما تنقص البدع المحدثة في الدين أنوار السنة} ، و قال أيضا رضي اللّه تعالى عنه : {لا فتور في النسبة الباطنية و الرابطة المعنوية حتى أنها تتقوى يوما فيوما وحينما تتقوى هذه الرابطة لا يبقى تفاوت بين الواردات في حال الحضور و الغيبة} .قال أحد العارفين :{ قلب المؤمن لا يموت و علمه عند الموت لا ينمحي و صفاؤه لا يتكدّر و إليه أشار الحسن رضي اللّه تعالى عنه بقوله: التراب لا يأكل محلّ الإيمان } ، و قال آخر:{ لا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات : صفاء القلب أعني طهارته من أدناس الدنيا و أنسه بذكر اللّه تعالى و حبه للّه تعالى ، وطهارة القلب لا تحصل إلا بالكفّ عن شهوات الدنيا و الأنس لا يحصل إلا بكثرة الذكر و الحبّ لا يحصل إلا بالمعرفة و لا تحصل معرفة اللّه تعالى إلا بدوام الفكر}. هذا عن المؤمن فما القول بالعارف باللّه تعالى و الدّالّ عليه ؟ لا جرم أن موته كحياته في صلته باللّه تعالى بل أشد .وكم من مريد سقط من هذه الحيثية و نكص على عقبيه إذ ظن أنّ البرزخ الروحي و الحبل السري بينه و بين الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه قد انقطع بوفاته رضي اللّه تعالى عنه فراح يبحث عن مشايخ آخرين كانوا أقل مقاما من الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه . و يدل على علو مقامه رضي اللّه تعالى عنه أيضا ما قاله لأحدهم لما

استأذنه أن يذهب إلى بغداد العراق ليزور الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه :{أنا هو الشيخ سيدي عبد القادر } أو قال: {الشيخ سيدي عبد القادر فيّ }،و قال لي رضي اللّه تعالى عنه مرة في معرض تأنيب و توبيخ لما علمه من قلة اعتقادي و يقيني :{ لو تعلم من أكون في الحضرة لعرفتني حق المعرفة } و حسب عقلي القاصر فإنّه رضي اللّه تعالى عنه يكون في الحضرة محمدي المقام ويكون كل تلامذته على صفته هو و اللّه تعالى أعلم قال الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني في الأنوار القدسية :{صورة الأستاذ الناطق مرآة سر المريد الصادق إذا نظر فيها ببصيرته شهدها على صورته الباطنية فأول مبادئ أمر المريد حينئذ أن يتجلى له طويته بصفات أهل الصلاح و الولاية فإذا كشف لبصيرته عن أستاذه رأى صورة صلاحه و ولايته في صفاء مرآة صورة أستاذه هو الصالح الولي ،فيستمد من بركاته ملاحظاته المتوالية و هممه العالية ثم لا يزال يطلب من أستاذه الدعوات المنيفة و الخواطر الشريفة و يتودد إليه تودد المستأنس حتى ينفخ اسرافيل في صورة العناية صورة قلبه روح التخصيص الآدمي فهنالك يشهد أستاذه هو آدم الزمان و مالك أزمة الأكوان بحكم الإرث لصاحب ذلك المقام فيعظمه تعظيم الشابّ لأبيه المهاب إلى أن تنفر صورة الآدمية بعد رفع الحجاب عن جمال ما خصه من نفحة الروح المحمدية ، و هناك يشهد أستاذه محمدي المقام فيكون له خادما و لا يجعل له في سواه إربا إلى أن تغشى سدرة سره الأنوار الرحمانية فينظر إلى أستاذه فلا يرى إلا واحدا يتجلى له في كل مشهد على قدر طاقة الشاهد فيصير عدما بين يدي وجود و محوا في حضرة الشهود فأول أمر هذا المريد توفيق و وسطه تصديق و آخره تحقيق ، و بعد التحقيق يكون براية

السعادة و اللّه تعالى أعلم} ثمّ قال لي رضي اللّه تعالى عنه : {لو استغرقت في الحضرة لرأيت العرش و الجنان و الأملاك ، فلا السقف و لا الجدران يحجبونك عن ذلك }، و إن كان الكلام موجه إلى تلميذه المحجوب و هو رضي اللّه تعالى عنه الدليل فلا غرو أن عالم الغيب عنده كالشهادة و ذلك ممّا يدلّ على علو مقامه رضي اللّه تعالى عنه كما قال سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه :

و عاينت اسرافيل و اللوح و الرضا *** و شاهدت أنوار الجلال بنظرتي

و شاهدت ما فوق السموات كلها *** كذا العرش و الكرسي في طي قبضتي

و قوله رضي اللّه تعالى عنه أيضا :

وصلت إلى العرش المجيد بحضرة ***** فنادمني ربي حقيقا و ناجاني

نظرت لعرش اللّه و اللوح نظرة ***** فلاحت لي الأملاك و الرب سمائي

و قوله رضي اللّه تعالى عنه :

أنا في مجلسي أرى العرش حقا ***** و جميع الملوك فيه قيامي

وقال سيدي أحمد بن عاصم الأنطاكي رضي اللّه تعالى عنه: {اليقين نور يجعله اللّه في قلب العبد، حتّى يشاهد به أمور آخرته، ويخرق بقوته كل حجاب بينه وبين ما في الآخرة، حتى يطالع أمور الآخرة كالمشاهد لها } وقال أيضا: { إذا جالستم أهل الصدق فجالسوهم بالصدق، فإنهم جواسيس القلوب؛ يدخلون في قلوبكم،ويخرجون منها من حيث لا تحسون } و ممّا يدلّ على علو مقامه رضي اللّه تعالى عنه أنّه كان ينشد في جمع من الفقراء قصيدة :{أيا روضة العشاق} و لما وصل إلى قوله :

أنا عين للتحقيق يا من تطلب رؤيتي *** أنا منهج الطريق و الكون في قبضتي

فلما قال :(و الكون في قبضتي) قالها بتحقيق بصوت جهوري مرتفع و حال سطوي .و لأنّ اللعين إبليس قد يئس كل اليأس من عباد اللّه تعالى العارفين به تعالى بقوله تعالى ملقما اللعين حجرا (إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان) فقد يئس أيضا من الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه لذلك يتجلى اللعين للعارفين يقظة و يظهر لهم على صورته الحقيقية و ينصحهم بالكذب كما نصح أبانا آدم عليه السلام (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلهما بغرور) وهو عكس ما يجده سائر المؤمنين من وسوسته في قلوبهم ، قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي اللّه تعالى عنه : {إنّ المَلك و الشيطان لهما صورتان هي حقيقة صورتهما ، و لا تُدرك حقيقة صورتهما بالمشاهدة إلاّ بأنوار النبوّة ، والشيطان يُكاشفُ أهل المكاشفة من أرباب القلوب بمثال صورته ، فيمثّل لهم في اليقظة فيروه بأعينهم ويسمعون كلامه بآذانهم }، و في هذا الصدد ذكر لي رضي اللّه تعالى عنه حادثة وقعت له مع اللعين وقد عددتها من كراماته قال رضي اللّه تعالى عنه : أنّه بينا هو جالس لوحده في المسجد يذكر اللّه تعالى سحرا قبل الفجر إذ أقبل عليه اللعين إبليس على صورته الحقيقية فقد جاءه ناصحا غير يائس كذبا و غرورا كمّا فعل مع أبينا آدم عليه السلام فقال عليه اللعنة لسيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه: لماذا تتعب نفسك دائما بهذه العبادة و الناس نيام ، ألا تنام مثلهم ؟.فلم يجبه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه و إنما كان لديه سكّينة صغيرة فأخرجها من جيبه و بدأ يطعن بها اللعين و هو هارب منه حتى فر منه و ولى هاربا و اختفى ونظير هذه الحادثة ما حدث لسيدي الحسن بن مخلوف المزيلي الراشدي الشهير بأبركان المتوفى آخر شوال سنة

٨٥٧هـ الموافق لسنة ١٤٥٣م بتلمسان و هو ما ذكره العلاّمة الشيخ السنوسي رضي اللّه تعالى عنه قال :{حدثني الولي العلاّمة سيدي سعيد بن عبد الحميد العصنوني بمنزله من ونشريس وكان من أصحابه القدماء قال : دخلت في يوم حر على سيدي الحسن فوجدته في تعب عظيم و العرق يسيل عليه فقال : أتدري مم هذا التعب الذي أنا فيه ؟ قلت : لا يا سيدي ،فقال : إني كنت آنفا جالسا بهذا الموضع فدخل علي الشيطان في الصورة التي هو عليها فقمت إليه فهرب أمامي فتبعته و أنا أؤذن فما زال يهرب بين يدي و يضرط كما ذكر في الحديث إلى أن غاب عني و الآن رجعت من إتباعه }، و يقال و اللّه أعلم أنّ من يخاف الشيطان و يفرّ منه هو عُمريُّ المقام ، له من هيبة سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه كسوة على ذاته و روحه لقوله صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم :(ما سلك عمر فجّا إلا سلك الشيطان فجّا غير فجّه) ، و قال سيدنا عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنه :{ لقي رجلٌ من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم الشيطانَ في زقاق من أزقّة المدينة ، فدعاه الجِنّيّ الى الصّراع فصرعه الإنسيّ ، فقال الجنّيّ : دعني ، ففعل ، فقال له : هل لك في المُعاودة ؟ ففعل ، فصرعه الإنسيّ فجلس على صدره و قال : أراك شخيتا ضئيلا كأنّ ذراعيك ذراعا كلبٍ ، أفكذلك أنت أو الجنّ كذلك ؟ قال الجنّيّ : و اللّه إنّي منهم لضليع ، فقال : ما أنا بالذي أدعك ، تُحَدّثني ما الذي يُعيذنا منكم ؟ قال الجنّيّ : آية الكرسي، فقال رجل لسيدنا عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه تعالى عنه : و مَنْ ذلك الرجل ، أَعُمَرُهو ؟ فعبس و بسر و قال : و مَنْ عسى أن يكون إلا عمر }، و معنى الشخيت أي الدقيق الرقيق ، و الضئيل أي المهزول ، و الحقّ كذلك فإنّ آية الكرسي الشريفة هو المُغرقة و المُشرقة و المُحرقة للجنّيّ ، فلا يستطيع

على تاليها و لا يقوى أمام نورها الحارق لذاته ، كما ذكرها لي الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه لما سألته عمّاذا يحرق الشيطان ، فقال لي رضي اللّه تعالى عنه : {آية الكرسي تكفي لوحدها في حرق الشيطان }، قال سيدنا مجاهد رضي اللّه تعالى عنه : {لإبليس خمسة من الأولاد قد جعل كل واحد منهم على شيء من أمره : ثبر و الأعور و مبسوط و داسم و زلنبور ، فأمّا ثبر فهو صاحب المصائب الذي يأمر بالثبور و شق الجيوب و لطم الخدود و دعوى الجاهلية ، و أمّا الأعور فإنّه صاحب الزنا يأمر به و يزيّنه ، و أمّا مبسوط فهو صاحب الكذب ، و أمّا داسم فإنّه يدخل مع الرجل إلى أهله يرميهم بالعيب عنده و يُغضبه عليهم ، و أمّا زلنبور فهو صاحب السّوق فبسببه لا يزالون مُتظلمين }، و شيطان الصلاة يُسمى خِنزِب ، و شيطان الوضوء يسمى الولهان ، و قال وهيب بن الورد : { إنّ إبليس تمثّل ليحي بن زكرياء عليهما السلام و قال : إنّي أريد أن أنصحك ، قال : لا حاجة لي في نصحك ، و لكن أخبرني عن بني آدم ، قال : هم عندنا ثلاثة أصناف ، أمّا صنف منهم و هم أشدّ الأصناف علينا نقبل على أحدهم حتّى نفتنه و نتمكن منه فيفزع إلى الاستغفار و التوبة فيُفسد علينا كلّ شيء أدركنا منه ، ثم نعود عليه ، فيعود ، فلا نحن نيأسّ منه ، و لا نحن ندرك منه حاجتنا ، فنحن منه في عناء ، و أمّا الصّنف الآخر فهم في أيدينا بمنزلة الكرة في أيدي صبيانكم نقلبهم كيف شئنا ، قد كفونا أنفسهم ، و أمّا الصّنف الثالث فهم مثلك معصومون لا نقدر منهم على شيء }، و قال سيدي إبراهيم الخواص رضي اللّه تعالى عنه: {أعجب ما رأيت في البادية، أني نمت على حجر، فإذا بشيطان قد جاء و قال: قم من هنا، فقلت اذهب؛ فقال: إني أرفسك فتهلك؛ فقلت: افعل ما شئت، فرفسني فوقعت رجله علي كأنها خرقة،

فقال: أنت ولى اللّه. من أنت؟!. قلت: إبراهيم الخواص؛ قال:صدقت!. ثم قال: يا إبراهيم! معي حلال وحرام. فأما الحلال فرمان من الجبل الفلاني،وأما الحرام فحيتان، مررت على صيادين، فتخاونا. فأخذت الخيانة؛ فكل أنت الحلال ودع الحرام}. و قال سيدي أبو سعيد الخراز رضي اللّه تعالى عنه: {رأيت إبليس في النوم، وهو يمر عني ناحية، فقلت: "تعال!" فقال: "أيش أعمل بكم؟! أنتم طرحتم عن نفوسكم ما أخادع به الناس" قلت: "وما هو؟". قال: "الدنيا".وقال: "ورأيته مرة أخرى، وكان بين يدي عصا، فرفعتها حتى أضربه بها، فقال لي قائل:"هذا لا يفزع من العصا!". فقلت له: "من أي شيء يفزع؟". قال: "من نور يكون في القلب}.قال الشيخ عبد الحكيم الأرواسي رضي اللّه تعالى عنه في رسائله : {و إنّ كثيرا من الأنبياء عليهم السلام و الأولياء رأوا الشيطان و تكلموا معه } أقول : كما ظهر لسيدنا إبراهيم صلى اللّه تعالى عليه وسلم و لابنه سيدنا إسماعيل و أمّه السيدة هاجر عليهما السلام و كما ظهر لسيدنا رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و سلم و هو يصلي فجاءه بشعلة من نار و أراد أذاه فربطه صلى اللّه تعالى عليه وسلم بسارية المسجد ،و كما حدث لسيدي محمد بن واسع رضي اللّه تعالى عنه و كان من دعائه كل يوم : (اللهم انّك سلطت علينا شيطانا عدوا لنا بصيرا بعيوبنا مطّلعا على عوراتنا يرانا هو و قبيله من حيث لا نراهم اللهم فآيسه منّا كما آيسته من رحمتك و قنّطه منا كما قنّطته من عفوك و باعد بيننا و بينه كما باعدت بينه و بين جنّتك ورحمتك انك على كل شيء قدير) فتمثل له إبليس اللعين يوما في طريق المسجد فقال لهيا بن واسع هل تعرفني ؟ قال ،و ما أنت ؟قال ،إبليس قال ،و ما تريد ؟قال ،،أريد أن لا تعلم أحدا هذه الاستعاذة و لا أتعرض لك قال ،و

اللَّه لا امنعها من أرادها فاصنع ما شئت }، و هذه قصّة عن خُبْث الشيطان و كيف يُفكّر إذ يُحكى عن رجل إستيقظ مبكرا ليصلي صلاة الفجر في المسجد ، فلبس وتوضأ وذهب إلى المسجد وفي منتصف الطريق تعثّر ووقع وتوسخت ملابسه ، فقام ورجع إلى بيته وغيّر ملابسه وتوضأ وذهب ليصلي وفي نفس المكان تعثّر ووقع وتوسخت ملابسه ، فقام ورجع إلى بيته وغيّر ملابسه وتوضأ وخرج من البيت ، فلقي شخصا معه مصباح سأله : من أنت ؟ قال: أنا رأيتك وقعت مرتين وقلت أنوّر لك الطريق إلى المسجد ، ونوّر له الطريق للمسجد وعند باب المسجد قال له : أدخل لنصلي ، فرفض الدخول وكرر طلبه لكنه رفض وبشده الدخول للصلاة فسأله : لماذا لاتحب أن تصلي ؟ قال له: أنا الشيطان و أنا الذي أوقعتك في المرة الأولى لكي ترجع إلى البيت ولا تصلي بالمسجد ولكنك رجعت ولما رجعت إلى البيت غفر اللَّه لك ذنوبك ، ولما أوقعتك المرة الثانية ورجعت إلى البيت غفر اللَّه لأهل بيتك ، وفي المرة الثالثة خفت إن أوقعتُك أن يغفر اللَّه لأهل قريتك. فهذا تفكير الشيطان لأنّه قد يأمر العبد بطاعة لها فضل صغير لِيُصرفه عن أخرى ذات فضل كبير ، و جئته مرة لاستأذنه في أحد الأسفار نحو الصحراء قصد البحث عن عمل و أنا كذلك جالسا عنده في خلوته إذ قال لي رضي اللَّه تعالى عنه : {إنّ الفقراء قادمون }، و ماهي إلا هنيهة حتّى دُقّ على باب خلوته فخرج فإذا هم أهله يستأذنون في شأن ما فخطر لي خاطر كاد ينصب له ميزان عقلي و اكتنفتني وساوس ألم يقل لي سيدي الشيخ أنّ الفقراء قادمون لزيارته لكن ما دَق الفقراء الباب بل أهله و لم يكد هذا الوسواس ينقضي حتّى دُق باب الزاوية فأمرني رضي اللَّه تعالى عنه بفتحه فإذا هم جماعة من الفقراء جاءوا لزيارته فعلمت حينذاك مكاشفته و أن لا شيئا يغيب

عنه ، و علمت من بعد ذلك أنّ ما حدث لي من وساوسَ في هذا الأمر هو كالأدب فينبغي التسليم لما يقوله الشيخ ، و لو كان أمره في السّلوك بما يراه المريد خلاف المنطق ، و لمّا أردت الانصراف من عنده قال لي : (المسامحة) و كررها مرارا و لم أدرِ وقتها سبب هذه المسامحة و هل مثلي يقال له المسامحة و أنا الخطّاء الذي تحوجني الضرورة أن أقول لجميع خلق الله تعالى حتى للحيوان و الجماد المسامحة ثم المسامحة على ذنوبي التي تفوح مني والتي ملأت السهل و الجبل . ولم أعرف مقصوده ذلك رضي الله تعالى عنه وقتها حتى عرفته و أنا في الصحراء أقاسي آلام الغربة والفقر و المذلة مدة خمسة أشهر حتّى أحوجتني الضرورة أن أعمل في بستان يبعد ٣٠ كلم عن الناس في أرض قفر لا يسكنها أحد كنت فيه لوحدي أعمل بلا أجر إلا لأسد جوعتي .وقتها علمت أنّه رضي الله تعالى عنه طلب منّي هذه المسامحة حتّى أثبت في منعرجات السلوك وكاشفني مرة و لم تكتمل زيارتي الأولى له عند أخذ العهد شهرا بقوله رضي الله تعالى عنه :{لا تعد أبدا إلى قراءة تلك المقامات لأنها تكون لك حجابا } و كنت وقتها أطالع في كتاب الرسالة القشيرية و لم يدر أحد بي فكانت تستهويني المقامات المذكورة فيه .فعلمت حينها أنه رضي الله تعالى عنه لا يخفى عليه شيء من أمور مريديه و لو دقت .

قال الحيران :

لما رفعت ناركم للساري ***** آنست على النار هدى الأسرار

مذ جئتكم أروم منها قبسا **** نوديت بأن بورك من في النار

قال الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه : {و من شأن المريد أن لا يقنع بحكايات أهل الطريق دون منازلة مقاماتهم و يصير يحكي

المقامات حتى كأنه نزلها فان ذلك من اكبر القواطع عليه و هو من النفاق و الخيانة في الطريق ثم بتقدير انه يحفظ مثل رسالة القشيري أو عوارف المعارف عن ظهر قلب فهو صاحب علم لا صاحب سلوك فلا ينتج على يديه أحد إذا تصدر للمشيخة و هذا الأمر قد وقع فيه جماعة كثيرة من أهل عصرنا فالتبس على غالب الناس أمرهم وعدّوهم من أهل الطريق لجهل الناس بمراتب أهل الطريق و اعرف شخصا جاءني من مدة يطلب الطريق إلى الله تعالى فرددته مرارا فقال استخرت الله تعالى وما انشرح صدري إلا أني آخذ عنك الطريق فلم اقبله لعلمي بأنه لا فتوح له على يدي بقرائن وعلامات اعرفها ففارقني و ادعى أن بعض المشايخ الماضيين جاءه في المنام و لقنه و أذن له أن يسلك الناس فجمع له بعض العوام و جلس مجلس الشيوخ الصادقين و صار بعض من يجتمع به يقول ما في البلد شيخ إلا شيخنا مع أنه لم يذق مقامات الطريق شيئا}، و ممّا يدلّ أيضا على علوّ مقامه رضي الله تعالى عنه أنّه أخبرني أنّ له الإذن المطلق في تلقين أسماء الله الحسنى بأنوارها و أسرارها وهذا ممّا يدل دلالة قطعية على أنّه رضي الله تعالى عنه قد سقي بأسرارها و تعطر بأنوارها و أنّه نال مقام الغوثية، قال سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله تعالى عنه:{ إنّ السقي بأسماء الله الحسنى ينقسم إلى قسمين أحدهما في مقام الروح، فمن الأولياء من يسقى بواحد و منهم من يسقى بأكثر و لا يكمل المائة إلا الغوث و هو السقي الثاني في مقام السرّ}، ثم ذكر رضي الله تعالى عنه أيضا في الإبريز:{ أنّ الأسماء الحسنى لها أنوار من أنوار الحق سبحانه و تعالى، فإذا أردت أن تذكر الاسم فإن كان مع الاسم نوره و أنت تذكره لم يضرك و إن لم يكن مع الاسم نوره الذي يحجب العبد من الشيطان حضر الشيطان

وتسبب في ضرر العبد و الشيخ إذا كان عارفا و هو في حضرة الحق دائما و أراد أن يعطي اسما من أسماء اللّه الحسنى لمريده أعطاه ذلك الاسم مع النور الذي يحجبه فيذكره المريد و لا يضره ثم هو أي النفع به على النية التي أعطاها الشيخ ذلك الاسم بها فإن أعطاه بنية إدراك الدنيا أدركها أو بنية إدراك الآخرة أدركها أو بنية معرفة اللّه تعالى أدركها و أما إن كان الشيخ الذي يلقن الاسم محجوبا فإنه يعطي مريده مجرد الاسم من غير نور حاجب فيهلك المريد نسأل اللّه تعالى السلامة }.

و ممّا يدل أيضا على علو مقامه رضي اللّه تعالى عنه أنه ذكر لنا: { أنّ زوجة شيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه بلغت مقام سيدي عبد العزيز الدباغ رضي اللّه تعالى عنه صاحب الإبريز } و قال رضي اللّه تعالى عنه لنا ذلك لما رأى بعض مريديه متعلقين و مفتونين بمطالعة كتاب الإبريز و بصاحبه رضي اللّه تعالى عنه و إن كانت زوجة شيخه رضي اللّه تعالى عنه بلغت هذا المقام فلا شك أنّ زوجها أعلى منها مقاما ثم ذكرنا الموازنة المقامية بين الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه و شيخه آنفا و هي من أجل وأوضح الدلائل على علو مقام الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه. و قد ينكر بعض المحجوبين هذا الكلام فيقول قائلهم وهل للشيخ رضي اللّه تعالى عنه علما كالذي ذكره صاحب الإبريز و جواب ذلك أن هذا العلم اللدني الموهوب غير محجور على وليّ دون وليّ بل هو لكل من ورث سيدنا محمد رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم في مقام ولايته فيكون عنده من العلم ما لم يكن عند الأنبياء كلهم عليهم السلام في مقام ولاياتهم و أما مقامات نبواتهم ففيها من العلوم ما لا تعلمه جميع

الأولياء إذ لا ذوق للأولياء في النبوة و إنما ذوقهم في الولاية فقط ، و لمّا كان جميع من ورث سيدنا محمد صلى اللّه تعالى عليه و سلم من الأولياء في مقام ولايته صلى اللّه تعالى عليه و سلم كان لهم جميعا من العلم ما كان له صلى اللّه تعالى عليه و سلم إلا أن بعضهم أذن له في بثه كالولي سيدي عبد العزيز الدباغ رضي اللّه تعالى عنه و قد كان أميا عاميّا و منهم من لم يؤذن له لحكمة يعلمها اللّه تعالى وحده .و ممّا يدل أيضا على علو مقامه رضي اللّه تعالى عنه أنّ جميع مريديه قدحوا تحت محكّ الابتلاء و الامتحان وذلك هو ميزان الشيخ الكامل المكمل العارف باللّه تعالى كما قيل :{أنّ المريد الصادق يفتقر بعد الغنى و يذل بعد العز و يختفي بعد الشهرة و المريد الكاذب بعكس ذلك }، و من تأمّل تلامذته و مريديه في بداية أمرهم وجدهم كلّهم مصبوغين بالصفات السلبية السابقة امتحانا فلما اشتدّ عودهم في الطريق وتخلّوا ثم تحلّوا ، ردّت إليهم الصفات الإيجابية وهي الغنى باللّه الغني و العزّ باللّه العزيز و الشهرة باللّه الحق ، و ممّا يدلّ أيضا على علو مقامه رضي اللّه تعالى عنه أنّ خلوته في جلوته ،فكان شبحه مع الخلق و روحه مع الحق و من هذا المقام قولهم : (خلوة العارف في جلوته) قالت رابعة رضي اللّه تعالى عنها :

فؤادي عند محبوبي مقيم ***** يُناجيه و عندكم لساني

و قالت رضي اللّه تعالى عنها أيضا :

و لقد جعلتك في الفؤاد مُحدّثي ***** و أبحتُ جسمي من أراد جلوسي

فالجسم منّي للجليس مُؤانس ***** و حبيب قلبي في الفؤاد أنيسي

قال الشيخ العلاوي رضي اللّه تعالى عنه :

تيّهتني ذاتك و غبت فيك يا الله ***** ظهرت صفاتك منك و فيك يا اللّه

لمن نحكي سرّي لمن نريك يا اللّه ***** رجعت لسكري و حرت فيك يا اللّه

دخلت للمعنى لكي نراك يا الله ***** نديت من أنا لست سواك يا الله

و قد أنكر عليه رضي اللّه تعالى عنه بعض الجهال ذلك و أنه لا يُدخل مريده الخلوة كما يفعل سائر المشايخ فقال لهم رضي اللّه تعالى عنه :{ أنا أجعل خلوة مريدي في قلبه فيكون كائنا بائنا و خلوته في جلوته فلا يستحق بعد ذلك الدخول إلى الخلوة و الإنفراد في بيت مظلم }، و هذا شأن الشيخ العارف باللّه تعالى الكامل المكمّل فلقوّة همّته يسلّك مريده و هو مخالط النّاس يبيع ويشتري و يروح ويغدو و هو بذكر اللّه تعالى مشغول ، فلا يكون كداخل الخلوة لا يعرف اللّه تعالى و لا يذكره إلا في الخلوة أما خارجها فهو السلهي اللاهي ،قال سيدي الجنيد رضي اللّه تعالى عنه :

حاضر في القلب يعمّره ***** لست أنساه فأذكره

فهو مولاي و معتمدي ***** و نصيبي منه أوفره

و ممّا يدل أيضا على علو مقامه رضي اللّه تعالى عنه أنّ جميع مريديه جلسوا راضيين بين مطرقة الامتحان و سِنْدان الابتلاء و وقفوا فوق تنّور التّمحيص كما قيل : إن يكن يرضيك قتلي ***** فاجعل الموت في قربي

و كان إذا جاءه مريده يشكو إليه قسوة الدنيا و مرارة الفقر أمره بالصبر و كثرة الذكر (و استعينوا بالصبر و الصلاة) و لا يرضى الدعاء له بالفرج كي لا يُنقص أجر مريده عند اللّه تعالى و لو شاء لدعا له كما هو شأن بعض المشايخ الذين يخافون زوال الدنيا عن مريديهم و بزوالها عنهم يفارقونهم، و كم مرّة يجيئه مريدوه كل واحد و مسألته الدنيوية فواحد يريد الغنى مثلا و الآخر قد

طواه الفقر طيّا يريد طلاقه و ثالث يريد الزواج و رابع يريد العمل فكان يَظهر على وجهه الغضب ويقول :{ من يريد مسألتي عليه أن يسألني في شؤون الذكر و أحوال السير وعقباته}، و بهذا كان رضي اللّه تعالى عنه راضيا بقضاء اللّه تعالى و قدره في مريديه و هو شأن الكامل ، و مرة كثر في الشكوى له أحد مريديه فقال له رضي اللّه تعالى عنه : {أتصبر و أضمن لك الجنّة } ، و هذه الإجابة لا يقدر عليها إلا من بلغ مقام من (يرضى اللّه تعالى لرضاه ، و يغضب لغضبه) كما قيل :

و إن شئت شاء و إن أمرت فأمره ***** ما شاء يصنع حاسدي و معاندي

و قال آخر : إن قلت كن فيكن *** أمري بأمر الواحد

لساني هو بصري هو *** يدّي هو المفرد

سمعي هو في قلبي ***هو بدا

لا حول لي و لا قوة *** إلا به الصمد

و من دلائل علو مقامه رضي اللّه تعالى عنه أن منشدا أنشد في حضرته قصيدة سيدي العلاوي رضي اللّه تعالى عنه التي مطلعها :

أيا مريد اللّه نعيد لك قول أصغه ***** إذا تفهمه قولي به تصل للّه

و بعد الانتهاء منها بدأ أحد الحاضرين و كان غريبا عن طريقته و ليس من مريديه في شرح القصيدة المذكورة بدون إذن من الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه و ذلك غاية سوء الأدب في حضرة العارفين و بدأ في شرح ألفاظها دون معناها ومن أين لفهمه أن يرقى إلى معناها فلما وصل إلى بيت :

الملك و الملكوت كذاك الجبروت ***** فكلها نعوت و الذات مسماه

قال له الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه : {هل تعرف الملك و الملكوت و الجبروت ذوقا و حالا و مقاما ، قال ذلك الشخص : لا ، لا أعرف ، فقال له الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه : إذاً اسكت } ، و لأنّه قد قيل تحقيقا : أنّ الطريق و الوصول لمن صدق لا لمن سبق ، فإنّ الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه كان إذا وقف أمامه طالب السّلوك عرف صدقه من كذبه ، و عرف الثابت من الزّال ، و من ذلك أنّ أحد المريدين اشترى سُبحة كبيرة و ذهب لزيارة الشيخ و هي في عنقه فقال له الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه بإبتسامة : { أليست هذه السُبحة ثقيلة عليك ؟ } ، و لم يدرِ صاحبنا مدلول ذلك وقتذاك و لا الآن، لكن عرفت معنى قول الشيخ رضي اللّه تعالى عنه بعد وفاته و قد رأيتُ ذلك الشخص قد تغيّر و غيّر و نقض عهده مع الشيخ ، فصار بزعمه تيجانيا ، و كان معنى قول الشيخ رضي اللّه تعالى عنه أليست طريقتي ثقيلة عليك ؟

و لأنّه رضي اللّه تعالى عنه الدآلّ و الدّليل على الطريق فقد قال لي رضي اللّه تعالى عنه ذات خريف من سنة ١٩٩٦ : {أنّ الطريق أولها جنون و أوسطها فنون و آخرها سكون } ، و هو كلام العارف بربّه اللطيف الغارف من نبيّه الشّريف ، لأنّه قال رضي اللّه تعالى عنه : { و آخرها سكون } ، أي سكون باللّه في اللّه لأنّه رضي اللّه تعالى عنه سخي بمدده ، و بعض العارفين يقولون : { و آخرها يكون أو لا يكون} أي يكون المريد في آخرها ناجيا و مفتوحا عليه و مملوءا شهده أو لا يكون كذلك . و من دلائل عرفانه بالطريق و مسالكها و شِراكها و عقباتها أنّي كنت بالنفس أصوم يوما و أفطر يوما بدون أن يعلم بيّ أحد و أفطر على ما قلّ و كنت أذكر كل ليلة الاسم الشريف عشرة آلاف مرة قبل النوم ، فلما زرته

رضي اللَّه تعالى عنه و نظر إلى باطني فعالجني ، فلمّا عدتّ ثَقُل عليّ الصوم و الذكر وكل ّ شيء ، و عالجني لمّا رأى نفسي غارقة في حَمِئة العجب قتلها اللَّه تعالى وبعلاجه ذاك الباطني نعلم يقينا أنّه الكامل المكمل و الشيخ العارف بخبايا النفوس كما قيل : {أن الشيخ الكامل هو الذي يخرجك من تعب نفسك إلى راحتك بشهود ربك أو هو الذي يريحك من التعب لا الذي يدلّك على التعب }كما قيل :{ من دلّك على العمل فقد أتعبك ومن دلّك على الدنيا فقد غشك و من دلّك على اللَّه فقد نصحك }. فهو رضي اللَّه تعالى عنه بعلاجي لنفسي يشير إلى قول سيدي ابن مشيش رضي اللَّه تعالى عنه :{ و الدلالة على اللَّه تعالى هي الدلالة على نسيان النفس فإذا نسيت نفسك ذكرت ربك } و إلى سيدي أبي يزيد البسطامي رضي اللَّه تعالى عنه لما قال : {كابدت العبادة ثلاثين سنة فرأيت قائلا يقول لي : يا أبا يزيد خزائنه مملوءة من العبادات ،إذا أردت الوصول إليه فعليك بالذلّة و الافتقار}. و نظير هذه الحادثة أني ذكرت له كثرة نومي فأشار إلى رأسه الشريف و قال لي رضي اللَّه تعالى عنه :{ النوم مفيد للمخ ، قمْ على قدر استطاعتك و لو ساعة قبل الفجر و دم على ذلك }ثم قال لي رضي اللَّه تعالى عنه: {عليك بالهَيْللة لقوله صلى اللَّه تعالى عليه و آله و سلم : (أفضل ما قلت أنا و النّبيون من قبلي لا إله إلا اللَّه) كرّر رضي اللَّه تعالى عنه الحديث ثلاثا ، ثم قال لي:{وعليك بمداومة العمل و إن قلّ و إن قمتَ الليل فداوم عليه }. و كلامه ذاك رضي اللَّه تعالى عنه خارج من مشكاة النبوة كما قال صلى اللَّه تعالى عليه و آله و سلم : (أيها الناس إنّكم لن تُطيقوا و لن تفعلوا كُلّ ما أمرتم به و لكن سدّدوا و بشّروا) و أخشى ما كان يخشاه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللَّه تعالى عنه على مريده أن يتعوّد عبادة ثم يعود عنها لقوله صلى اللَّه تعالى

عليه و آله و سلم : (خذوا من العبادة ما تطيقون و إياكم أن يتعوّد أحدكم عبادة فيرجع عنها فإنّه ليس شيء أشدّ على اللّه من أن يتعوّد الرجل العبادة ثمّ يرجع عنها) وهو معنى قول الشيخ سيدي أحمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه: {ملتفت لا يصل و متسلّل لا يفلح}، و كان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه بهذه التربية و هذا الإرشاد بحر علوم نبوية ومشكاة معارف ربّانية، و من كراماته رضي اللّه تعالى عنه أنّ أحدهم اتّهمني بجُرْم يجرّ إلى القتل الفوري و كنت منه بريئا فشكوتُ له ذلك فأعطاني رضي اللّه تعالى عنه وردا أذكره فنجّني اللّه تعالى ببركته و بهمّته رضي اللّه تعالى عنه كما قال سيدي عبد القادر رضي اللّه تعالى عنه :

مريدي تمسّك بيّ و كن بيّ واثقا *** لأحميك في الدنيا و يوم القيامة

أنا لمريدي حافظ ما يخافه *** و أنجيه من شرّ الأمور و بلوة

و ممّا يدلّ أيضا على علو مقامه و أنّ له القدم الراسخ في الإرشاد و التّسليك أنّ أحدهم جاءه ليأخذ عليه الطريق بعد ما سار في إحدى الطرق مدّة اثنتا عشرة سنة بجدّ و اجتهاد فلم يُفتح عليه ربّما لضعف همّة شيخه ، فلمّا التقى بالشيخ سيدي محمد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه لم تمرْ عليه إلاّ أيّاما معدودة حتّى بدأت أمارات برْق الفتح تلوح في سماء سلوكه ، و ممّا يدلّ أيضا على علوّ مكانه رضي اللّه تعالى عنه أنّ بعض مريديه كانت تصدر منهم مخالفات شرعية فكانوا يتخاصمون فيما بينهم ويؤذي بعضهم بعضا و يُغيظون الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه بذلك بل منهم من كان يسيء الأدب في حضرته رضي اللّه تعالى عنه كالذي أراد خطف سبحته رضي اللّه تعالى عنه ، و هذا ممّا يدلّ دلالة قطعية على علو مقامه مقام رضا

الله تعالى عنه ، كما قال الشيخ الأكبر سيدي محيّي الدين بن عربي رضي الله تعالى عنه : { من راض نفسه ترقى لمقام رضا الله تعالى عنه ، و ذلك لأنّ الرياضة تذليل للنفس شيئا بعد شيء حتى يلتحق بدرجة العبيد الخُلّص لله تعالى ، و لذلك سُمّيتْ الأرض ذلولا يطؤها البرّ و الفاجر و لا تمييز عندها في ذلك بل تحمل البارّ حُبّا لِما هو عليه من مراضي سيّده وتحمل الفاجر حَمْلَ الله تعالى إيّاه بكونه يرزقه على كفره به وجحده إيّاها و نسيان شكر ربّ النّعمة }، و قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه تعليقا على كلام الشيخ الأكبر : { فعُلِمَ أنّه كلّما اتّسعت دائرة الشيخ في المعارف كلّما طولب بتحمّل الأذى من جميع العالم على اختلاف طبقاتهم و أنّه كلّما عَلَتْ درجة الشيخ كلّما كَثُر عصيان أتباعه له لكثرة تخلّقه بالحلم و الرحمة ، و كانوا قبل ذلك سامعين مُطيعين له لضيقه و لو أنّهم عَصَوْهُ أيّام ضيق حاله لنفر و لم يصبر و تفسّخ عزمه عن تربيتهم ، هذا مع أنّ أسباب المخالفات في زيادات لا تنفك حتى تقوم السّاعة و كلّما كثرت اتّسعت دائرة الحلم ، و العارف مُتخلّق بأخلاق الحقّ تعالى في ذلك ، و يؤيّد ما قرّرناه أنّ الحقّ تعالى حبس تسعة و تسعين جُزْءاً من الرحمة عن أهل الدنيا ثم يُنشر جميع أجزاء الرحمة في الآخرة ، فنحن كلّ قليل نقرب من نشر هذه الأجزاء علينا و ما قارب الشيء أُعطيَ حُكْمَه } ، و الذي أراه و الله تعالى أعلم أنّه زيادة على ما قرّره الشيخ الأكبر و الشيخ الشعراني رضي الله تعالى عنهما أنّ سبب تلك المخالفات و العصيان الذي كان يظهر من فقراء الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه هو لقوّة أنواره و أسراره فلم تحتملها ذواتهم و لم تسعها طاقة أرواحهم و دليل ذلك نراه في سيدنا موسى عليه السلام فلمّا طلب من الله تعالى الرؤية و قال له

تعالى (لن تراني و لكن انظر إلى الجبل فإن استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعله دكّا و خرّ موسى صعقا) من شدّة تجلّيه تعالى و قوّة أنواره و سبحات وجهه التي لم يحتملها الجبل فانهدّ و أصاب الكليم غبار التجلّي فقط ، فصاحب هذا الحال سيدنا موسى عليه السلام في حلّه و ترحاله فصار ضيق الحال سريع الغضب قال تعالى و اصفا هذا الحال :(فرجع موسى إلى قومه غضبانا أسفا) وقال تعالى أيضا(و ألقى الألواح و أخذ برأس أخيه يجرّه إليه) فردّ عليه أخوه سيدنا هارون عليه السلام في سكينة و رهبة (قال يابن أمّ لا تأخذ بلحيتي و لا برأسي) وصاحبه عليه السلام هذا الحال حتى أنّه لطم ملك الموت على عينه كما يُروى ، فمن هذه الحيثية لمّا كانت الأنوار الإلهية لا تحتملها بعض الذوات الترابية كانت أمزجتها مُستنفَرة و أحوالها غير مستقرّة ، و هو الحال عند فقراء و مريدي الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه لمّا تجلّت أنواره على أرواحهم دُكّتْ نارُ أنفسهم و انضغط حالها فأخرجت شِرارها و دخانها . و لأنّ التوكّل من أعلى مقامات العارفين إذ يتحقّق فيه العارف على أنّ النافع و الضار هو اللّه تعالى ، و في سياق هذا فقد حدث و أن لدغت عقربٌ كتف الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه و قد كان في عقده الرابع أو الخامس ، و ذلك أنّه كان ضيفا عند أحد أقربائه و كانت قديما المساكن مبنية بالحجارة و جدرانه غير مُبلّطة بالإسمنت ، فخرجت عقربٌ من جدار المنزل و لدغت الشيخ في كتفه الأيسر فطلب رضي اللّه تعالى عنه كوبَ ماء و قرأ عليه آيات من القرآن الكريم ثمّ شربه ، و كأنّ شيئا لم يحدث .

سر ظهور الكرامة من عدمها

كل الكرامات التي ذكرتها للشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللَّه تعالى عنه لم تكن حسية و إنّما كانت معنوية بل قد قيل إنّ اكبر كرامة هي الاستقامة، ذكر عند سيدنا سهل بن عبد اللَّه رضي اللَّه تعالى عنه الكرامات فقال: { و ما الآيات و ما الكرامات، شيء تنقضي لوقتها، و لكن أكبر الكرامات أن تبدل خلقا مذموما من أخلاق نفسك بخلق محمود }،وقال سيدي أبو يزيد البسطامي رضي اللَّه تعالى عنه: {كان في بدايتي يريني الحق الآيات و الكرامات فلا ألتفت إليها، فلما رآني كذلك جعل لي إلى معرفته سبيلا }، و كان الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللَّه تعالى عنه يتحاشى إظهار الكرامات الحسية أدبا مع المكرم جل سلطانه تعالى و لأنّ الكرامات من عطاياه تعالى الكريمة لذلك صارت عزيزة على الولي المكرم بها و ليست بشيء بالنسبة إلى الولي بل جرت على يديه منه تعالى و كانت الكرامات عزيزة لأنها ظهرت من العظيم و العزيز فتلقاها الولي بالإجلال و التعظيم و لو نسبها الولي إلى نفسه لكان ذلك سوء أدب في حقه تعالى و صار قبولها و استحسانها سمّا قاتلا مهلكا في حقّه لكن لماذا يتباين ظهور الكرامات و خوارق العادات من ولي إلى آخر؟ قد يقف المرء حائرا و يتساءل عن سر ظهور الكرامات و خوارق العادات من بعض الأولياء و عدم ظهورها من أولياء آخرين بل لم تظهر على بعض الصحابة و هم أكمل الناس إيمانا و أعلاهم درجة وعلى هذه المسألة يجيبنا الإمام الرباني سيدي احمد الفاروقي السرهندي رضي اللَّه تعالى عنه بقوله:{اعلم أنّ الولاية عبارة عن الفناء و البقاء و الخوارق و الكشوف و الكرامات من لوازمها

قلّت أو كثرت و لكن ليس كل من تكون خوارقه أكثر تكون ولايته أتمّ و حظه أوفر بل كثيرا ما يكون ظهور الخوارق قليلا و تكون الولاية أكمل و مدار كثرة ظهور الخوارق على أمرين احدهما كون العروج الفوق أكثر في وقت العروج و ثانيهما كون النزول إلى السفل اقل في وقت النزول بل الأصل العظيم في كثرة ظهور الخوارق هو قلة النزول على أي كيفية كان جانب العروج .فان صاحب النزول ينزل إلى عالم الأسباب و يجد وجود الأشياء مربوطا بالأسباب و يرى فعل مسبب الأسباب و الذي لم ينزل أو نزل و لكن لم يصل بعد إلى الأسباب فنظره مقصور على فعل مسبب الأسباب فقط لان الأسباب قد ارتفعت عن نظره بالتمام و قصر نظره على فعل مسبب الأسباب فلا جرم يعامل الحق سبحانه كلا منهما معاملة على حدة بمقتضى ظن كل منهما فيكل أمر من يرى الأسباب إلى الأسباب و الذي لا يرى الأسباب يهيئ أمره بدون توسط الأسباب و حديث (أنا عند ظن عبدي) شاهد لهذا المعنى و قد اختلج في الخاطر مدة كثيرة انه ما الوجه في عدم ظهور الخوارق من احد من كمّل أولياء هذه الأمة مع كثرتهم فيما مضى مثل ما ظهر من حضرة السيد محي الدين عبد القادر الجيلاني قدس الله تعالى سره ؟ فأظهر الحق سبحانه آخر الأمر سر هذا المعمى ، فاعلم أن عروج السيد محي الدين الجيلاني قدس الله تعالى سره كان أعلى من عروج أكثر الأولياء و نزل في جانب النزول إلى مقام الروح فقط الذي هو فوق عالم الأسباب و حكاية الحسن البصري و حبيب العجمي رضي الله تعالى عنهما مناسبة لهذا يعني مؤيدة و مقوية لما سبق فقد نقل عن الحسن البصري رضي الله تعالى عنه انه كان يوما واقفا بساحل النهر منتظرا السفينة ليعبر النهر فجاء حبيب العجمي رضي الله تعالى عنه ففي أثناء ذلك فسأله عن سبب وقوفه

فقال انتظر السفينة فقال حبيب ما الحاجة إلى سفينة أليس فيك يقين ؟ فقال الحسن أليس لك علم ؟فعبر الحبيب النهر يعني ماشيا على الماء بلا استعانة سفينة و بقي الحسن واقفا منتظرا السفينة و كان الحسن البصري رضي الله تعالى عنه قد نزل إلى عالم الأسباب فعُومل بتوسط الأسباب و كان حبيب العجمي رضي الله تعالى عنه قد طرح الأسباب و أزاحها عن نظره بالتمام فعُومل من غير توسط الأسباب و لكن الفضل للحسن رضي الله تعالى عنه لأنه صاحب العلم و جمع بين عين اليقين و علم اليقين و علم الأشياء كما هي ..قال الشيخ أبو القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه :{ قد مشى رجال باليقين على الماء و من مات على العطش أفضل منهم يقينا } فان القدرة جعلت في نفس الأمر مستورة فيما وراء الحكمة والحبيب العجمي رضي الله تعالى عنه صاحب سُكْر ، له يقين بالفاعل الحقيقي من غير مدخلية الأسباب و هذه الرؤية ليست بمطابقة لنفس الأمر لانّ توسط الأسباب كائن بحسب الواقع و أمّا معاملة التكميل و الإرشاد فهي على عكس معاملة ظهور الخوارق فان في مقام الإرشاد كلما كان النزول أكثر يكون الإرشاد أكمل و أوفر لأنّ حصول المناسبة بين المرشد (الشيخ) و المسترشد (المريد) لازم في الإرشاد و هو منوط بالنزول . و اعلم أن التفوق كلما كان أكثر يكون النزول أكثر في الأغلب و لهذا كان عروج النبي صلى الله تعالى عليه و سلم فوق الكل و نزل وقت النزول أسفل من الكل و لذا كانت دعوته أتم و كان مرسلا إلى كافة الأنام لأنه صلى الله تعالى عليه و سلم قد حصلت له مناسبة بالكل بواسطة نهاية النزول و كان طريق إفادته أتم . و هناك لطيفة ينبغي أن تعلم كما أن حصول نفس الولاية لا يشترط لصاحبها العلم بولاية نفسه كما هو مشهور

كذلك لا يشترط العلم بوجود خوارقه للعادات بل كثيرا ما ينقل الناس عنه خوارق و لا يكون له على تلك الخوارق اطلاع أصلا ، و الأولياء الذين هم أصحاب العلم و الكشف يجوز أن لا يكون لهم اطلاع على خوارقهم بل تظهر صورهم المثالية في أمكنة متعددة و تظهر من تلك الصور أمور عجيبة و حالات غريبة في مسافات بعيدة و لا اطلاع لصاحب تلك الصور على ذلك أصلا} انتهى كلامه رضي اللّٰه تعالى عنه بتمامه ، و كمثال على كلامه رضي اللّٰه تعالى عنه قصة سيدي عبد اللّٰه بن المبارك رضي اللّٰه تعالى عنه لمّا كان ذاهبا إلى الحج فوجد امرأة في خربة تأكل من دجاجة جيف فقال لها: أنّ الجيفة حرام أكلها ، فقالت له: دع الخلق لخالقه ، فدفع لها نفقته التي كان يريد الحج بها و رجع قافلا إلى بلاده و لم يحج الموسم ذاك و بعد انتهاء الموسم تناقل الحجيج كرامته فقالوا : جزى اللّٰه تعالى عبد اللّٰه بن المبارك رأيناه في كل موضع يحدث الناس و يعظهم فلما بلغه الخبر قال لهم : لكني لم أحج في هذا العام . إذًا من هنا نعلم سبب عدم ظهور كرامات على الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه لأنّه في مقام التربية و الإرشاد و كما كان نزوله أكثر كان إرشاده وتربيته للمريدين أكمل و أتمّ . و قد ذكر الإمام سيدي احمد الفاروقي رضي اللّٰه تعالى عنه في كلام آخر نفيس جدا و هو أنّ الولاية هي عبارة عن قرب الهي جلّ جلاله و ليست الخوارق و الكرامات من شرط تلك الولاية و أذكر كلامه هنا كاملا لنفاسته متحاشيا الاختصار لأن تحت طيّ كلّ كلمة فائدة قال رضي اللّٰه تعالى عنه: {و ليعلم أنّ ظهور الخوارق و الكرامات ليس من شرط الولاية و كما أنّ العلماء ليسوا مكلفين بحصول الخوارق ، الأولياء أيضا ليسوا مكلفين بظهور الخوارق فانّ الولاية

عبارة عن قرب الهي جلّ سلطانه يكرم به أولياؤه بعد نسيان السوى ، فشخص يعطى هذا القرب و لا يعطى الاطلاع على أحوال المغيبات و المحدثات و شخص ثان يعطى هذا القرب و يعطى الاطلاع أيضا على المغيبات و المحدثات و شخص ثالث لا يعطى من القرب شيئا و يعطى الاطلاع على المغيبات و هذا الأخير من أهل الاستدراج قد جعله صفاء النفس مبتلى بكشف المغيبات و ألقاه في الضلالة و آية (و يحسبون أنّهم على شيء ألا إنهم الكاذبون استحوذ عليهم الشيطان فأنسلهم ذكر اللّه أولئك حزب الشيطان ألا إنّ حزب الشيطان هم الخاسرون) علامة حالهم و الشخص الأول و الشخص الثاني اللذان هما مشرفان بدولة القرب هما من أولياء اللّه تعالى و لا يزيد كشف المغيبات شيئا في ولايتهم و لا ينقص عدم الكشف شيئا من ولايتهم و التفاوت بينهم إنّما هو باعتبار درجات القرب ، و كثيرا ما يكون صاحب عدم كشف الصور الغيبية أفضل من صاحب كشف تلك الصور و أسبق منه قدما بواسطة مزية القرب الحاصل له } انتهى كلامه ، و هذا الكلام هو الذي ذكره أيضا صاحب عوارف المعارف فبعد ذكره الكرامات و الخوارق قال :{ و كل هذه مواهب اللّه تعالى و قد يكاشف بها قوم و يعطوها و قد يكون فوق هؤلاء من لا يكون له شيء من هذا لأنّ هذه الكرامات كلها تقوية لليقين و من منح صرف اليقين لا حاجة له إلى شيء من هذا فكل هذه الكرامات دون ما ذكرناه من تجوهر الذكر في القلب و وجود ذكر الذات } انتهى كلام صاحب العوارف .و قال الشيخ عبد اللّه الأنصاري رضي اللّه تعالى عنه الملقب بشيخ الإسلام في كتابه (منازل السائرين) :{ إنّ الفراسة على نوعين فراسة أهل المعرفة و فراسة أهل الجوع و الرياضة فراسة أهل المعرفة في تمييزهم من يصلح لحضرة اللّه تعالى ممن

لا يصلح ومعرفتهم أهل الاستعداد الذين اشتغلوا بذكر اللّه تعالى و وصلوا إلى حضرة الجمع و فراسة أهل الرياضة و أرباب الجوع مخصوصة بكشف الصور و الإخبار عن المغيبات المختصة بالمخلوقات . و لما كان العالم أكثرهم أهل انقطاع عن اللّه تعالى و اشتغال بالدنيا مالت قلوبهم إلى أهل كشف الصور و الإخبار عما غاب من أحوال المخلوقات فعظموهم و اعتقدوا أنهم من أهل اللّه تعالى و خاصته و اعرضوا عن كشف أهل الحقيقة و العارفين باللّه تعالى و اتهموهم فيما يخبرون عن اللّه تعالى وقالوا لو كان هؤلاء من أهل اللّه تعالى كما يزعمون لأخبرونا عن أحوالنا الغيبية وأحوال سائر المخلوقات و إذا كانوا لا يقدرون على كشف أحوال المخلوقات فكيف يقدرون على كشف أمور أعلى من هذه .و كذبوهم في فراستهم المتعلقة بذات الواجب و صفاته جل و علا بهذا القياس الفاسد و عميت عليهم الأنباء الصحيحة ولم يعلموا أن اللّه تعالى قد حمى هؤلاء عن ملاحظة الخلق و خصهم بجناب قدسه تعالى و شغلهم عما سواه حماية لهم و غيرة عليهم و لو كانوا ممن يتعرضون لأحوال الخلق ما صلحوا للحق سبحانه و تعالى }. و قال الشيخ الأكبر سيدي محيّ الدين بن عربي رضي اللّه تعالى عنه :{ إنّ بعض الأولياء الكرام الذي ظهرت منه كرامات وخوارق كثيرة ندم في آخر النفس من ظهور تلك الكرامات و قال - تمنيا - يا ليت هذه الكرامات لم تظهر منّي ، فلو كان التفاضل باعتبار كثرة ظهور الخوارق لا يكون للندامة على ذلك الطور معنى } ، و هناك تساؤل قد يتبادر إلى ذهن طالب الحقيقة و هو إذا لم يكن ظهور الخوارق و الكرامات شرطا في ولاية الولي فكيف يتميز الوليّ من المدعيّ و كيف يتبين المحقّ من المبطل ؟ و على هذا التساؤل يجيبنا الإمام

السرّهندي رضي اللّٰه تعالى عنه بقوله :{ لا يلزم التمييز بل يكون المحق ممتزجا بالمبطل فانّ اختلاط الحقّ بالباطل لازم لهذه النشأة الدنيوية و العلم بولاية وليّ ليس بلازم أصلا ، و كثير من أولياء اللّٰه تعالى لا اطلاع لهم على ولايتهم فكيف يكون الاطلاع على ولايتهم لازما لغيرهم . أمّا في شأن النبيّ فلا بدّ من الخوارق ليتميز النبيّ من غير النبيّ فإنّ العلم بنبوة نبيّ واجب و الوليّ لمّا كان داعيا إلى شريعة نبيّه كفاه معجزة نبيّه فلو كان الوليّ يدعو إلى ما وراء الشريعة لما كان له بدّ من خارق و حيث كانت دعوته مخصوصة بشريعة نبيّ لا يلزم الخارق أصلا . فالعلماء يدعون إلى ظاهر الشريعة و الأولياء يدعون إلى ظاهر الشريعة وباطنها فيدلّون المريدين و الطالبين أولا على التوبة و الإنابة و يرغبونهم في إتيان الأحكام الشرعية و يهدونهم ثانيا إلى طريق ذكر الحق جل و علا و يؤكدون في استغراق جميع أوقاتهم بالذكر الإلهي جل سلطانه إلى أن يستولي الذكر و لا يبقى في القلب غير المذكور جلّ جلاله أصلا ، ليحصل النسيان عن جميع ما سوى المذكور سبحانه حتى لو كلف بتذكر الأشياء لا يكاد يتذكر . و من اليقين انّه لا حاجة للوليّ لأجل هذه الدعوة التي تتعلق بظاهر الشريعة و باطنها إلى الخوارق والكرامات أصلا و الشيخوخة و المريدية عبارتان عن هذه الدعوة التي لا تعلق لها بالخوارق و لا مساس لها بالكرامات مع أنّنا نقول أنّ المريد الرشيد و الطالب المستعد الصادق يحسّ في كلّ ساعة في أثناء سلوك الطريق خوارق شيخه وكراماته و يستمدّ منه في المعاملة الغيبيّة في كلّ زمان و يجد منه فيها مددا. وظهور الخوارق بالنسبة إلى الأغيار ليس بلازم و أمّا بالنسبة إلى المريدين فكرامات في كرامات و خوارق في خوارق . و كيف لا يحسّ المريد خوارق الشيخ فإنّ الشيخ أحيا

القلب الميّت و أوصله إلى المكاشفة و المشاهدة فإذا كان عند العوام الإحياء الجسدي عظيم الشأن فعند الخواص الإحياء القلبي و الروحي برهان رفيع البنيان}،و قال الشيخ سيدي محمد يارس البخاري رضي اللّه تعالى عنه في الرسالة القدسية :{ و لمّا كان الإحياء الجسدي معتبرا عند أكثر الناس أعرض عنه أهل اللّه تعالى و اشتغلوا بالإحياء الروحي و توجهوا إلى إحياء القلب الميّت و الحقّ أنّ الإحياء الجسدي بالنسبة إلى الإحياء القلبي و الروحي كالمطروح في الطريق وداخل في العبث بالنظر إليه فإنّ هذا الإحياء سبب حياة أيام معدودة و ذاك الإحياء وسيلة للحياة الدائمة . بل نقول أنّ وجود أهل اللّه تعالى في الحقيقة كرامة من الكرامات ودعوتهم الخلق إلى الحق جلّ سلطانه رحمة من رحمات اللّه تعالى و إحياؤهم القلوب الميتة آية من الآيات العظمى و هم أمان أهل الأرض و غنائم الأيام بهم يمطرون و بهم يرزقون قد ورد في شأنهم (كلامهم دواء و نظرهم شفاء هم جلساء اللّه تعالى و هم قوم لا يشقى جليسهم و لا يخيب انيسهم) } .

قانون المرور

قف ! حذاري منعرج خطير! ممنوع المرور .. ممنوع الوقوف ..السّرعة الأدنى مائة كلم ... طريق واحد ...إلخ ... هكذا تحفظ أخي الفقير قانون المرور لتجتاز إمتحان رخصة السّياقة ، و كذلك الشأن في طريق التّصوّف

لإجتياز إمتحان السّلوك إلى حضرة مَلِك الملوك ، ففي هذا الطريق أيضا قف ! و راجع نفسك و حاسبها ، وفيها حذار منعرج خطير و هو منعرج اليمين للنفس و منعرج الشمال للشيطان فاحذر و سر بتمهّل و حذر ، و فيها ممنوع المرور إلى حضرة الذات بدون اتّباع الدّليل صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بالحال و القال ، و فيها ممنوع الوقوف فالزمن يمرّ و لا ينتظر و عمرك واحد فاحرص على أنفاسك و عمّرها بذكر اللّه تعالى ، و عليك بالسرعة القصوى في أمر ربّك و الآخرة و لا يضرّك التواني وتخفيف سرعتك في أمر دنياك ، و فيها طريق واحد ذهاب بدون إياب ، فممنوع عليك الرجوع فاحذر التّسلّل و الإلتفات و الإنعطاف يمينا أو شمالا كما قال الشيخ سيدي أحمد الرفاعي الكبير رضي اللّه تعالى عنه : { متسلّل لا يَفلِح و مُلتفت لا يصل } و الشأن في سائر الإشارات المروريّة فاجعلها إشارات روحية تفلح و تفز إذ هناك كثير من المظاهر المغلوطة التي ظنها البعض أنّها من التصوف ، وهو بريء منها، و بعض هذه المظاهر فعلت في حصن التصوف ثغرة تسوّر منها خصومه ليُضِرّوا به و يَضرِبُوه بألسنة سِلاق ، خاصة ما ذكرته عن المحبة المحرمة فإنّ التصوف السّنّي منها براءٌ براءة الذئب من دم يوسف . ثمّ قد لا يُعجب البعض ذكر بعض هذه المظاهر و ما ذكرتها إلا بدليل و هي كالتّشذيب لما علق بالتصوف في بعض أحواله و كما أنّ التّصوّف هو طريقُ سلوك ، و لأنّ لكلّ طريق عقبات ومنحدرات و منعرجات و حُفر و مهاوي و كما أنّ الشيخ كان واجبا إتّخاذه لأنّه عارفٌ بهذه الطريق و قد سلك مسالكها و عرف منعرجاتها و كيف تتفادى و عقباتها و كيف الإجهاد في قطعها و منحدراتها و كيف الحذر من الإنزلاق منها ، و الشيخ بذلك هو كمهندسِ تعليمِ قانون المرور ، و قد نبّه الشيخ سيدي

محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه و حذّر و علّم و بيّن ، و لأنّ الزمن إذا سار و مرّ أسقط غبار النسيان على القلوب و العقول فتعود كما كانت قبل تنبيهها من الشيخ و تحذيرها ، فكان من اللازم التذكير بهذه القوانين المرورية المنسية و اللّه تعالى المستعان و عليه التكلان

خليفة الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه

قلت :

خلّف سيدي الصّوفي شيخا ***** واحدا في جمع بلسان لافظ

فقال : إذني بمُصافحة البيعة ***** ممنوع إلا لإبني عبد الحافظ

فخذها منّي و قل لمن يدّعي ***** المشيخة بلا إذن لا تتغايظ

و صرّح بها للتنبيه و الأدب ***** على رأس المجامع يا واعظ

و قلتُ :

عين مدد سيدي الصّوفي مقطوعة و غائرة

إلا من ساقية ابنه عبد الحفيظ يا باغي الشرب

فإياك أن تُلوّث ماء شيخك بمعاداة ابنه

واحذر { من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب }

كَثُرَ التّساؤل من بعض الفقراء و غشيتهم الحيرة عمّن خلّفه الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه بدله ، و لمّا لم يجد بعضهم جوابا كافيّا

وبيانا شافيّا ربّما نوى تغيير الطريق بل غيّر بعضهم و ذهبوا إلى مشائخ أقل مقاما من مقام سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و إن كان هذا الفصلُ أخطرَ موضوع أتكلّم فيه لأنّه سيُؤلّب عليّ قلوبا تُنكرُ و عقولا لها برقٌ لو كان له مطرٌ ، و لمّا كان لي الإذن و الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه بين أظهرنا في خطّ ورقات هذا الكتاب فإنّي و لا عجب و لا فخر أتكلّم بلسان الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و جوابُ حيرةٍ و تساؤل إخواني هو أنّ الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه قد خلّف إبنه الشيخ سيدي عبد الحفيظ حفظه اللّه تعالى ، بأدلّة و قرائن لا يقف لها مُنكِرًا إلا الشقيّ و المحروم ، وقبل أن أسوق تلك الدّلائل فلأتكلّم بشيء من الموضوعية و المنطق الذي لا يُنكره الفقير الصّادق ، و هو أنّ الشيخ العارف إذا توفّى و لم يُخلّف أحدا فإنّ من عادة السّابقين الصّادقين من الصّوفية الأوائل أن يُلاحظوا و يُفتّشوا في أبناء شيخهم الصلاح و التّقوى فمن وجدوا فيه الأهلية نصّبوه شيخا مكان شيخهم ، و إذا لاحظنا سيدي عبد الحفيظ وجدناه أهلا لذلك فهو جامعٍ لشتات الفقراء ، وزهرة تُزيّن المجامعَ ، فمن رآه فقد رأى الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، ووردة تفوحُ بعَبق القرابة من روح الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، فمن شمّها فقد شمّ الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، وصوتَ الخلود فمن سمعه فقد سمع الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و مع كلّ ذلك فهو برزخ التّقريب من الشّيخ المُرشد و لا زال ، و الدّال و لا حال ، و الكامل المُكمّل و لن يزول ، و هو الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، فمن أخذ عنه الطّريق إنّما أخذها على الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي

رضي اللّه تعالى عنه ، فللشيخ سيدي عبد الحفيظ إعطاء الوسيلة فقط أمّا التّسليك و التّربية و الترقية الروحية هي من الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و ذلك منه رضي اللّه تعالى عنه إعلاما وهو بين أظهرنا لمّا قال لنا أنّ مدد شيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه يدوم مائة سنة و قد ذكرت ذلك في باب كراماته ، و قال لنا ذلك و هو يشير إلى نفسه رضي اللّه تعالى عنه لمّا كاشف بعض المريدين أنّه في نيّاتهم ربّما تغيير الطريق بعد غيابه رضي اللّه تعالى عنه و رحيله ، و ذكر ذلك تلميحا و تلويحا لا تصريحا ، و تواضعا و رأفة على واهن اليقين فيه ، و قد أنكر ممّن لا يسوغ لهم ذلك ، ممّن طمعوا في المشيخة أنّ الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، لم يُخلّف ابنه الشيخ سيدي عبد الحفيظ ، وقد عرفت بقرائن و دلائل ثابتة أنّ الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه لمّح و صرّح على أنّ خليفته هو ابنه سيدي عبد الحفيظ ، و من تلك الدّلائل و القرائن أنّ أحد الأشخاص قبل انتقال الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه إلى جوار ربّه تعالى قال للشيخ : أعطيني سُبحتك ، فقال له الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه : {إنّني تاركها لابني عبد الحفيظ} ، و ترك السُبحة من العارف لأيّ شخص هو إيذان له بالخلافة من بعده ، و من الدّلائل أيضا أنّ الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه لمّا عجز في أواخر أيّامه عن التّنقّل ، لمّا كان يُدعى إلى المجامع ، كان يأمر ابنه سيدي عبد الحفيظ بالذّهاب نيابة عنه ، و لا ينوب عن الشيخ إلاّ خليفته ، و من الدلائل أيضا أنّ أحد الثّقات قد ذكر لي أنّه سمع الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه يقول و كان عنده بعض الفقراء في زاويته : { لم آذن لأحد أن يعطيَ الوسيلة و العهد بالمصافحة إلاّ

لعبد الحفيظ} ، وقصده رضي اللّه تعالى عنه أنّه لم يأذن لأيّ مُقدّم أيّا كان أن يضع يده في يد طالب السّلوك عند أخذ العهد إلاّ لإبنه سيدي عبد الحفيظ ، و ممّا يُؤكّد قولي هذا ما ذكره لي الشيخ سيدي عبد الحفيظ لمّا حلّفْتُه أن يقول لي الحقيقة بما كان قد صرّح أو لمّح له الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه في أمر الخلافة ، فأجابني على مَضض لمّا قُلت له أصدقني لأنّ الطريق قد لَعِب بها بعضهم فقال لي : {لمّا كان الوالد سيدي الشيخ يأمرني أن أنوبه في المجامع ، كان يأتيني بعضُ طالبي السّلوك الجدد فكنت لا أعرف كيفية أخذ العهد إليهم ، فذكرتُ ذلك للوالد سيدي الشيخ ، فعلّمني كيفية أخذ العهد و لقّنني ما أقوله من آيات قرآنية}، و هذا من أدلّ الأدلّة على أنّ الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه تصريحا لا تلويحا قد نصّب إبنه خليفته في حياته ، لأنّه لم يأمره بأخذ العهد بالمصافحة إلا بالإذن الخاص منه ، أمّا غيره من المقاديم فلا أحدا كان قد أذن له الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه في حياته بالإرشاد ، بل قد شدّد النّكير مرّة على أحد المقاديم لما عَلِم أنّه يأخذ العهد بالمُصافحة على داخلي الطريق الجُدُدِ ، و غضب غضبا شديدا ، وسرّ المصافحة أمر خطير وجَلل لا يعلمه إلاّ قليل ، فبمجرّد وضع المقدّم يده في يد طالب السّلوك مع عقد النيّة على الإرشاد تكون روح ذلك الطالب تابعة لروح المُقدّم لا لروح الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و روح المُقدّم جاذبة لروح الطالب ، وكيف يكون حال من هو غارق في البحر أن يُنقذ غريقا مثله ، وفاقد الشيء لا يُعطيه ، و الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه لم يُصرّح على رؤوس الأشهاد أيضا أنّ فلانا أو فلانا هم من المشايخ ، و لهم الإذن المُطلق في الإرشاد ، بل لا

يكون ذلك أبدا ، لأنّه لا يجتمع أسدان في عَرِين ، و لا سُلطانان في مملكة ، و لا قاضيان في محكمة ، لأنّه لو اجتمع شيخان في بلدة ، وظهر سوء أدب من صاحب السّرّ الصغير منهما ، قتله صاحب السّرّ الكبير ، كما قال الشيخ سيدي الشَبَلَنْجي رضي اللّه تعالى عنه في نور الأبصار في مناقب آل بيت النبيّ المختار :{ لما دخل الشاذلي رضي اللّه تعالى عنه الإسكندرية ، كان بها أبو الفتح الواسطي ، فوقف بظاهرها فاستأذنه ، فقال : طاقية لا تسع رأسين ، فمات أبو الفتح في ليلته ، و ذلك أنّ مَن دخل بلدا على فقير بغير إذن ، فمهما كان أحدهما أعلى من الآخر ، سلبه أو قتله ، فلذلك ندبوا الاستئذان } ، و قوله : على فقير ، يقصد به على شيخ عارف باللّه تعالى ، فمن حيثية هذا السّر لا يأذن المشايخ في حياتهم لمريديهم بالمَشيخة ، لا حبّا فيها و لا بُخلا بها عنهم ، وإنّما كي لا يصدر من هؤلاء سوءُ أدبٍ في حقّ شيوخهم ، فيهلكون ، لأنّ سوء أدب المبتدئ ليس كسوء أدب المتوسّط ، و المتوسّط ليس كالمنتهي ، لأنّ هذا سوءُ أدبه أخطرٌ في حقّ شيخه ، و دليل ذلك أنّني زرت الشيخ رضي اللّه تعالى عنه مع مريدَيْن من مريدي الشيخ و كان أحدهما مقدّما ، وكانت زيارتنا له محرجة و أسأنا الأدب كلّنا نحن الثلاثة ، لكن توجّه الشيخ رضي اللّه تعالى عنه باللّوم لأكبرنا مقاما وهو المقدّم فقال له الشيخ رضي اللّه تعالى عنه : { احذر ، احذر ، فإنّك تمشي على الصّابون} ومعنى ذلك : احذر الزلل لأنّك إن سقطت لن تنهض ، فهكذا يكون سوء أدب المنتهي في حقّ الشيخ أخطر من سوء أدب غيره ، و اعلم أخي الفقير أنّ الشيخ العارف باللّه تعالى لا يجلس على بساط الإرشاد ، و لا يخرج إلى تربية المريدين إلاّ بعد أن يُهدّد بالسّلب ، فيُقال له:{ أخرج إلى الخلق ، و انزل إليهم وإلاّ أخذنا ما أعطيناك} ، و لذلك فالمشيخة

تكليفٌ ، و ليست تشريفا ، و لا يُعطاها إلاّ من زهد فيها ، أمّا من سار و سلك لأجلها و رغب فيها ، فهو مخطئ ، و من نالها إنّما نالها بالتّواضع و لين الجانب ، كما قيل أنّ اللّه تعالى أوحى إلى الجبال : {أنّي مُكَلّمٌ على أحدكم نبيّا ، فتشامخت كلّها ، إلاّ الطّورَ فتواضع ، فأكرمه اللّه تعالى بالتّجلي فيه على الكليم سيدنا موسى عليه السّلام } ، و لذلك يقال إشارة إلى المشيخة أنّه لو سقطت طاقية من السّماء لا تقع إلاّ على رأس الزاهد فيها ، ثمّ اعلم أخي الفقير أنّ المؤْذَنَ بالمشيخة، و المُلبسَ حلل التشريف ، و عِمامة التّكريم، هو سيّدُ الوجود صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ليس غيره كما قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه : { من صحّتْ تَبَعِيَّتُه للنّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه وآله وسلّم ، ألبسه درعه و خوذة ، و قلّده بسيفه ، و نَحّلَه من أدبه و شمائله و أخلاقه، وخلع عليه من خِلعه ، و اشتدّ فرحه به ، كيف و هو من أمّته ! و يشكر ربّه عزّ وجلّ على ذلك ، ثمّ يجعله نائبا له في أمّته و دليلا و داعيا لهم إلى باب الحقّ تعالى ، كان صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم هو الدّاعي و الدّليل ، و لمّا قبضه الحقّ تعالى أقام له من أمّته من يخلفه فيهم ، وهم آحاد أفراد ، من كلّ ألفِ ألفٍ إلى انقطاع النّفَس واحدٌ } ، فإذا علمْتَ هذا ، فاعلم أنّ الشيخ العارف باللّه تعالى إذا أذن لأحدهم بإعطاء الوسيلة و العهد بالمُصافحة فهو خليفته من بعد وفاته ، أمّا إن لم يُعرفْ أحدٌ قد أذن له بذلك و جُهل خليفته فإنّ من عادة أولي النُّهَى و الحِلم من مقاديم و كبراء الطريق أن يجتمعوا فيما بينهم و يُعيّنوا ابن الشيخ خليفة إن كان أهلا لها و كان بالغا عاقلا ، فإن لم يكن كذلك استخاروا الحقّ تعالى بقلوبهم و اجتهدوا أن يريهم في منامهم من يكون أهلا للخلافة ، و لا يُداخلهم غلٌّ و لا حسدٌ

لو رأى أحدهم من جاءه الإذن الإلهي بالخلافة مناما ، أمّا إن كان للشيخ المُتوفّى ابنٌ بالغ وعاقل و لم يأذن له الشيخ والده بالخلافة فموافقة جميع الفقراء أمرٌ لازمٌ ليكون خليفة ليجمع شملهم فقط ، و من الأدلة و الأمثلة على ذلك أنّ الشيخ سيدي أحمد فراح رضي اللّه تعالى عنه ، و قد كان شيخا عارفا و مُرشدا كاملا ، أنّه لمّا استشهد بعد ما غدر به المُجرمون القَتلة الإرهابيون في سنة ١٩٩٤ ، لم يُخلّف أيّ خليفة بعده ، و كان عالما بقرب أجله ذلك اليوم ، و كنت عنده في يوم استشهاده و عند جُهينة الخبر اليقين ، فقد أخذتُ له أحد الأشخاص ليأخذ عليه الطريق ، و كنت زمنها آخذا الطريقة العلاوية تبرّكا ، حتّى أنّي طلبت منه أن أتوسّل عليه فأبى ، و لمّا أخذ العهد على ذلك الشخص ، قال لزوجته أنّ هذا الشخص هو الفقير الأخير في حياتي ، أي لن أعطي يد العهد لشخص آخر بعده ، و لمّح لهم بهذا الكلام أنّه ميّت في ذلك اليوم ، و كان صائما ، و اليومُ خميسٌ ، و رأيت وجهه مُغبرا ، و أعلام الموت على وجهه لائحة ، حتّى أنّني كنت آخر من ودّعه بعد ساعتين فقط من استشهاده ، وكان حاضريْن عنده إبناه ، و هو في غمرات الموت لم يُوص بالخلافة لأيّ شخص ، بل لم يكتب أيّ وصية ، و حقّ اللّه تعالى أحقّ أن يُحفظ ، وهو طريق السّلوك إلى حضرة ملك الملوك ، و الموت لا يُرُوعُه ، و بعد ما استشهد جاء أحد أبنائه و سأل أمّه في هل ترك الشيخ أيّ وصية ، أو قال أيّ شيء ، أو لمّح أو صرّح لك بمن ينوبه ؟ فأجابت في كلّ ذلك بالنفي القاطع ، ثمّ نُصّب ابنه هذا تشريفا لا تكليفا على بساط المشيخة ، و أنّى له ذلك ؟ و من أمثلة مَن تعدى على المشيخة ، أنّني كنت جالسا عند الشيخ سيدي أحمد فراح يوما ، فذُكِرَ عنده أحد الأشخاص و أنّه مريض ، و كنت أعرف هذا الشخص جيّدا ، فقال الشيخ سيدي

أحمد فراح : { أنّ سبب مرضه أنّه يُلقّن الإسم الأعظم ، و يعطي الوسيلة و العهد بالمُصافحة و هو غير مأذون ، و غير شيخ } ، و بعد أيّام رأيت هذا الشخص يسير و أطرافه ترتجف حتّى مات ، و الذي أصابه بسبب تعدّيه و ادّعائه المشيخة ، لذلك لا ينبغي لأحد أن يقول أنّني شيخ ، إلاّ إذا نصّبه سيد الوجود صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، وقلّده بسيف الهمّة ، و ألبسه عمامة العزم ، و أجلسه على بساط الوراثة المحمّديّة ، أمّا من يُنصّبه الشيخ مُقدّما ، فيُسمّى خادما ، و عن معنى الخادم و شرح حاله و من يتشبّه به ، يجيبنا الشيخ سيدي السهروردي رضي اللّه تعالى عنه في عوارف المعارف فيقول: { أوحى اللّه تعالى إلى داود عليه السلام فقال : (يا داود إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما) ، فالخادم يدخل في الخدمة راغبا في الثواب و فيما أعدّ اللّه تعالى للعباد ، و يتصدّى لإيصال الراحة و يفرغ خاطر المقبلين على اللّه تعالى عن مهام معاشهم ، و يفعل ما يفعله للّه تعالى بنيّة صالحة ، فالشيخ واقف مع مراد اللّه تعالى ، و الخادم واقف مع نيّته ، فالخادم يفعل الشيء للّه تعالى ، و الشيخ يفعل الشيء للّه تعالى ، فالشيخ في مقام المقربين ، و الخادم في مقام الأبرار ، فيختار الخادم البذل و الإيثار و الارتفاق من الأغيار للأغيار ، و وظيفة وقته تصدّيه لخدمة عباد اللّه تعالى ، و فيه يعرف الفضل و يرجّحه على نوافله و أعماله ، و قد يُقيمُ مَنْ لا يعرف الخادمَ من الشيخِ الخادمَ مقامَ الشيخ ، و ربّما جهل الخادمُ أيضا حال نفسه ، فيحسب نفسه شيخا لقلّة العلم و اندراس علوم القوم في هذا الزمان ، و قناعة كثير من الفقراء من المشايخ باللّقمة دون العلم و الحال ، فكلّ من كان أكثر إطعاما هو عندهم أحقّ بالمشيخة ، و لا يعلمون أنّه خادم و ليس بشيخ ، و الخادم في مقام حسن و

حظ صالح من اللّه تعالى ، و قد ورد ما يدلّ على فضل الخادم ما رواه سيدنا أبو هريرة رضي اللّه تعالى عنه أنّ النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أتى بطعام و هو بمرّ الظهران ، فقال لأبي بكر و عمر رضي اللّه تعالى عنهما : (كُلاَ ، فقالا : إنّا صائمان ، فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : ارحلا لصاحبيكما ، اعملا لصاحبيكما ، أدْنُوَا فَكُلاَ) ، يعني أنّكما ضعفتُما بالصّوم عن الخدمة فاجتمعتُما إلى من يخدمكما ، فَكُلاَ ، و اخدما أنفسكما ، فالخادم يحرص على حيازة الفضل ، فيتوصّل بالكسب تارة ، و باستجلاب الوقف إلى نفسه تارة أخرى ، لعلمه أنّه قَيّمٌ بذلك صالحٌ لإيصاله إلى الموقوف عليهم ، و لا يُبالي أن يدخل في كلّ مدخل لا يذمّه الشرع لحيازة الفضل بالخدمة ، و يرى الشيخُ بنفوذ البصيرة و قوّة العلم أنّ الإنفاق يحتاج إلى علم تامٍ ، ومعاناة تخليص النّية عن شوائب النّفس و الشّهوة الخفيّة، و لو خلصتْ عليه نيّتُه ما رغب في ذلك لوجود مُراده فيه ، و حاله ترك المراد وإقامة مراد الحقّ تعالى، قال الجنيد سمعت السري يقول : أعرف طريقا مختصرا قصدا إلى الجنّة ، فقلت له : ماهو ؟ قال : لا تسأل من أحد شيئا و لا تأخذ من أحد شيئا و لا يكن معك شيء تُعطي منه أحدا شيئا ، و الخادم يرى أنّ من طريق الجنّة الخدمة و البذل و الإيثار ، فيُقدّم الخدمة على النّوافل و يرى فضلها ، وللخدمة فضل على النّافلة التّي يأتي بها العبد طالبا بها الثّواب ، غير النّافلة التّي يتوخّى بها صحّة حاله مع اللّه تعالى ، لوجود نقدٍ قبل وعدٍ ، و ممّا يدلّ على فضل الخدمة على النّافلة ما رواه أنس رضي اللّه تعالى عنه قال : كنّا مع رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم فمنّا الصّائم و منّا المفطر ، فنزلنا منزلا في يوم حارٍ شديد الحرّ ، فمنّا من يتّقي الشمس بيده و أكثرنا ظلاّ

صاحب الكساء يستظلّ به ، فنام الصّائمون و قام المفطرون فضربوا الأبنية و سقوا الركاب ، فقال صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (ذهب المفطرون اليوم بالأجر) ، و هذا الحديث يدلّ على فضل الخدمة على النافلة ، و الخادم له مقام عزيز يرغب فيه ، فأمّا من لم يعرف تخليص النّيّة من شوائب النّفس و يتشبّه بالخادم و يتصدّى لخدمة الفقراء و يدخل في مداخل الخدّام بحسن الإرادة بطلب التّأسي بالخدّام فتكون خدمته مشوبة ، منها ما يُصيب فيها لموضع إيمانه و حسن إرادته في خدمة القوم ، ومنها ما لا يُصيب فيها لما فيه من مزج الهوى ، فيضع الشيء في غير موضعه ، و قد يخرج بهواه في بعض تصاريفه ، ويخدم من لا يستحقّ الخدمة في بعض أوقاته ، و يحبّ المَحمدة و الثّناء من الخلق مع ما يحبّ من الثواب و رضا الله تعالى ، و ربّما خدم للثّناء وربّما امتنع من الخدمة لوجود هوى يُخامره في حقّ من يلقاه بمكروه و لا يُراعي واجب الخدمة في طرفي الرضا و الغضب لإنحراف مزاج قلبه بوجود الهوى ، و الخادم لا يَتّبع الهوى في الخدمة و في الرضا و الغضب و لا تأخذه في الله لومة لائم و يضع الشيء موضعه ، فإذًا الشّخص الذي وصفناه آنفا مُتخادم و ليس بخادم ، و لا يُميّز بين الخادم و المُتخادم إلاّ من له علم بصحّة النّيّات و تخليصها من شوائب الهوى ، و المُتخادم النّجيب يبلغ ثواب الخادم في كثير من تصاريفه ، و لا يبلغ من رتبته لتخلّفه عن حاله بوجود مزاج هواه ، و أمّا من أُقيم لخدمة الفقراء بتسليم وَقفٍ إليه أو توفير رِفقٍ عليه ، و هو يخدم لمنالٍ يُصيبه أو حظ عاجل يُدركه ، فهو في الخدمة لنفسه لا لغيره ، فلو انقطع رِفقه ما خدم و ربّما استخدم من يُخدَم ، فهو مع حظ نفسه يخدم من يخدمه ، و يحتاج إليه في المحافل يتكثّر به و يُقيم به جاه

نفسه بكثرة الأتباع و الأشياع ، فهو خادم هواه و طالب دنياه ، يحرص نهاره وليله في تحصيل ما يُقيم به جاهه و يُرضي نفسه و أهله و ولده ، فيتّسع في الدّنيا ويتزيّا بغير زيّ الخدّام و الفقراء ، و تنتشر نفسه بطلب الحظوظ ، و يستولي عليه حبّ الرّياسة ، و كلّما كثر رفقه كثرت موّاد هواه واستطال على الفقراء و يُحْوِج الفقراء إلى التّملّق المُفرط له ، تطلّبا لرضاه و توقّيا لضَيْمه و ميله عليهم بقطع ما يَنوبهم من الوقف ، فهذا أحسن حاله أن يُسمّى مُسْتَخدِما ، فليس بخادم و لا مُتخادم ، و مع ذلك كلّه ربّما نال بركتهم باختياره خدمتهم على خدمة غيرهم و بانتمائه إليهم كما جاء في الخبر (هم القوم لا يشقى جليسهم)} . إهـ من عوارف المعارف ، فهذا مقام المُقدّم و مقام الشيخ خليفة العارف فوقه ، لأنّ لكلّ مقام اسما ، و هي ترتيبا مريدٌ ثمّ مُقدّم ثمّ شيخٌ خليفة ثمّ شيخ عارف بالله تعالى و دالّ عليه ،أمّا من ظنّ المقدّمَ مثل الشيخِ الخليفةِ، و الشيخَ الخليفةَ مثل الشيخِ العارفِ فهو مخطئ و واضع الأشياء في غير محلّها و مُسمّيها بغير أسمائها ، وللأسماء أسرار و كوامن ، يُفيضها الباطن ، فتطفوا على الظّاهر ، ولذلك كان ترتيبها تشريفا وتكريما من الرسالة إلى الولاية و ما بينهما ، و ترتيبها هو : رسول ثمّ نبيّ ، أي الرسالة أشرف مقاما من النّبوّة، ثمّ مقام الصّحابة ثمّ مقام التّابعين ثمّ مقام تابع التّابعين ، ولذلك لم يُسمّ الصّحابة الكرام بالزّهاد أو الصّوفية و هم سادة الزّهد و التّصوّف و لهم القدم الراسخ في معرفة الله تعالى و تسمّوا بصحابة رسول الله صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم و كان لهم شرفا ، فلم يرضوا بهذا الاسم بديلا ، و الشأن كذلك في ترتيب مقامي التّابعين و تابعي التّابعين فالأوّل أشرف من الثاني ، و لذلك سئل

الإمام سيدي عبد اللّه بن المبارك رضي اللّه تعالى عنه :{هل أنّ عمر بن عبد العزيز أفضل أم معاوية ؟ فقال : غبارٌ دخل في أنف فرس معاوية حين غزا في ركاب رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم أفضل من كذا من عمر بن عبد العزيز} ،و لو تأمّلت لعلمت أنّ فضائل سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي اللّه تعالى عنه لا تُحصى ، و قد سُمّي بخامس الخلفاء الراشدين و إمام الهدى ، والمحدّثون و الفقهاء يحتجّون بقوله و يُعظّمونه جدًّا ، و كان الخضر عليه السلام يزوره و هو أوّل من أمر بجمع الحديث ، لكن نال شرف الخيرية منه سيدنا معاوية رضي اللّه تعالى عنه ببركة صحبته للنّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، فإذا علمت ذلك عرفت سبب تفضيل المشايخ العارفين باللّه تعالى على سائر المشايخ و قد قالها الشّيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه : {المشايخ كثرةٌ لكنّ العارفين باللّه تعالى قلّةٌ} ، و بيان ذلك هو تفضيل المشايخ العارفين على المشايخ الخلفاء ، وتفضيل المشايخ الخلفاء على الخادمين ، وتفضيل الخادمين على المقاديم ، ثمّ تفضيل المقاديم على المريدين و التلاميذ ، فلكلّ مقامه لا يُجاوزه إلاّ بالتّرقية الروحية و الفضل الإلهي، أمّا من ادّعى ما ليس بمقامه ، فُضح من حينه ، و أختم بسرّ كان بين الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه و بين إبنه الشيخ سيدي عبد الحفيظ ، و هذا السّرّ هو مُكمّل لثالثة الأثافي التي عددتها من دلائل و براهين إذن الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه لإبنه سيدي عبد الحفيظ بالخلافة من بعده و هي : ترك سُبحته له و أمره باستخلافه لتلبية دعوة الجموع ثمّ تلقينه و إذنه رضي اللّه تعالى عنه له لإعطاء الوسيلة بالمُصافحة دون غيره ، أمّا السّرّ الرابع المُثبتُ لسيدي عبد الحفيظ لأن يجلس على بساط المشيخة خليفةً للشيخ

سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّٰه تعالى عنه فهو ما ذكره لي سيدي عبد الحفيظ من أمر كان له من أبيه سيدي الشيخ رضي اللّٰه تعالى عنه ، لكن لم يدر معناه سيدي عبد الحفيظ حتّى بيّنتُ له لغزه ، و ذلك أنّه كان جالسا مع أبيه الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّٰه تعالى عنه و لم يكن معهما أحد ، و كان الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّٰه تعالى عنه لابسا لجلاّبة قديمة من نوع { الملف } فنزعها مِن عليه و قام و ألبسها ابنه سيدي عبد الحفيظ ، فلمّا ذكر لي هذه الحادثة سيدي عبد الحفيظ قلتُ له هذه قاصمة مَن المنكر عليك ، و بُشراك بالخلافة ، بل بُشراك أن ألبسك الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّٰه تعالى عنه سرّ الخُرقة التي انقطع سرّها منذ قرون مديدة ، و سرّ الخرقة التي لها سند مُتّصل بالنّبيّ صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم ، هي أن يُلبس الشيخ العارف مريده خرقته و معنى خرقته أي سواءً كانت جلاّبة أم عباءة أم قميصا ، و يُشترط فيها أن تكون قديمة نوعا ما وأن تكون من لباس الشيخ العارف ، فإذا نزعها الشيخ و ألبسها مريده ففي التّوّ و اللّحظة يسري حال الشيخ العارف في مريده ، و قد ألّف الإمام جلال الدين السّيوطي قدّس اللّٰه روحه رسالة في بيان صحّة لبس الخرقة القادرية و الرفاعية و السهروردية ، و الخرقة هي ما يُسمّى بالدّربالة و قد اشتهر الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّٰه تعالى عنه باسم بودربالة لأنّه كان يُلبسها مريديه ، و من ألبسه الشيخ خرقته فإنّه يدرك من الفتح و البركة من الشيخ في يسير من عمره ما لا يدركه غيره في سنين متطاولة كما قال الشيخ سيدي ابن عطاء اللّٰه رضي اللّٰه تعالى عنه : { من بورك في عمره أدرك في يسير من الزمان مالا يدخل تحت دوائر العبارة و لا تلحقه الإشارة } ، فهذه أدلّة ثابتة و براهين بيّنة على أنّ الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّٰه تعالى

عنه قد خلّف تصريحا ابنه سيدي عبد الحفيظ شيخا نائبا عنه ، و إنّي أنصح لوجه اللّه تعالى ثمّ محبّة في الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه كلّ من تطاول و نصّب نفسه شيخا يُعطي الوسيلة و البيعة بالمُصافحة بدون إذن من الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه على أنّه كما يُقال يلعب بالنّار و يُخشى عليه لبس الزّنار عافانا اللّه تعالى من السّلب بعد العطاء ، و حديث الزّنار سأسوقه هنا للعبرة كي لا تتفاخر الأنفس و لا تتألى على اللّه تعالى ، فيجب على الفقير اللّبيب أن يحذر من الأمّارة لأنّها تهوى الإمارة . لأنّ من مهاوي النّفس في الهوى الإعجاب بها و احتقار سواها ، فينبغي عليك أخي الفقير أن لا تحتقر يهوديّا و لا نصرانيّا بل و لا كافرا أو مجوسيّا لأنّ قلبك و قلوب هؤلاء بيد مقلّب القلوب فقد يُخرجك من الإسلام و يسلب منك طير الإيمان و يُدخله في صدر و قلب من احتقرت من هؤلاء ، و إنّي لأعجب منك لو ذهبت تحتقر أخاك الفقير المسلم المؤمن ، بل تحتقر ابن شيخك العارف الذي أطعمك الطعام و سار بك في مفاوز السلوك و مهاوي النفوس فأنجاك فلو كانت منك ما فلحت و الذي أنفسنا بيده ، قيل أنّ أحد الصالحين سمع شخصا يغتاب أخاه المسلم ، فقال له الرجل الصالح : هل جاهدت اليهود و النّصارى ؟ قال : لا ، فقال الصالح : نجا منك اليهود و النّصارى و لم ينج منك أخاك المسلم . و قبل أن أسوق هذه القصّة أذكر سببها وهو ما قاله الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه : { فعلى رقبة رجل الخنزير} ، و ذلك ما نقله الشيخ موسى التهتوي السهروردي قدّس اللّه تعالى سرّه في كتاب المكاشفات الجُنيدية : { تجلّى اللّه تعالى على سيّد الطائفة الخلوتية سيّدنا الجنيد البغدادي رضي اللّه تعالى عنه يوم الجمعة في أثناء الخطبة و استغرق في بحر المكاشفة و الشهود و قال : {

قدمُه على رقبتي بغير جحود } و حنى رأسه و نزل مِرقاة من مراقي المنبر و بعد إفاقته و إتمام الخطبة و الصّلاة سألوا منه عن كيفية ما قال في أثناء الخطبة فقال : { كُشف لي من عالم الغيب أنّه سيظهر في وسط القرن الخامس رجلٌ من ولد سيّد المرسلين صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم يكون قطبا للعالم و مُلقّبا بمحييّ الدّين و مُسمّى بالسّيّد عبد القادر و هو الغوث الأعظم و مولده من كيلان و يكون مأمورا بأن يقول : { قدمي هذه على رقبة كلّ وليّ و وليّة للّه تعالى من الأوّلين و الآخرين سوى الصّحابة و الأئمّة من ذرّيّة خاتم النبيّين صلّى اللّه تعالى عليه و سلّم و آله و صحبه أجمعين } ، و كان بين زمن سيدنا الجنيد رضي اللّه تعالى عنه و بين زمن سيّدنا عبد القادر رضي اللّه تعالى عنه ٢٦٤ سنة ، إذ كانت وفاة سيّدنا الجنيد رضي اللّه تعالى عنه في سنة ٢٩٧هـ و وفاة سيّدنا عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه في سنة ٥٦١ هـ ، و ذكروا أنّ الغوث سيدنا عبد القادر رضي اللّه تعالى عنه لمّا قال : { قدمي هذه على رقبة كلّ وليّ و وليّة للّه تعالى من الأوّلين و الآخرين } وضع جميع الأولياء الحاضرين و الغائبين رقابهم تعظيما لجلاله و انقيادا لكماله إلاّ رجلا من أصفهان يُقال له الشيخ الصنعاني ، فكُشف للغوث عدم انقياده فقال رضي اللّه تعالى عنه في حقّه : { فعلى رقبة رجل الخنزير} و في رواية أخرى : { فعلى رقبة راعي الخنازير} ، و هذا الشيخ كان شيخا لسيدي أبي بكر الشّبلي رضي اللّه تعالى عنه علما أنّ سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه كان وفاته في سنة ٣٣٤ هـ ، و الأولياء الحاضرين أي الذين كانوا قبل زمانه فقد حنوا رقابهم في عالم الأجساد و المشاهدة و الغائبين أي الذين أتوا من بعده فقد حنوا رقابهم في عالم الأرواح و الغيب ، و إليكم قصّة هذا الشيخ الذي لم يُسلّم للشيخ

سيدي عبد القادر رضي اللّه تعالى عنه فقد حكي أنه كان بمدينة بغداد رجل يعرف بأبي عبد اللّه الأندلسي، وكان شيخاً لكل من بالعراق وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات، فخرج في بعض السنين إلى السياحة، ومعه جماعة من أصحابه مثل سادتنا الجنيد والشبلي رضي اللّه تعالى عنهما وغيرهما من مشايخ العراق، قال سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه: فلم نزل في خدمته، ونحن مكرمون بعناية اللّه تعالى إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار فطلبنا ماء نتوضأ به، فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية، وإذا نحن بكنائس وبها شمامسة، وقساقسة ورهبان، وهم يعبدون الأصنام، والصلبان، فتعجبنا منهم ومن قلة عقلهم، ثم انصرفنا إلى بئر في آخر القرية، وإذ نحن بجوار يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن ولا أجمل منها، وفي عنقها قلائد الذهب، فلما رآها الشيخ تغير وجهه، وقال: هذه ابنة من؟ فقيل له: هذه ابنة ملك هذه القرية، فقال الشيخ: فلم لا يُدللها أبوها ويكرمها ولا يدعها تستقي الماء؟ فقيل له: أبوها يفعل ذلك بها حتى إذا تزوجها رجل أكرمته وخدمته ولا تعجبها نفسها، فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لا يأكل ولا يشرب، ولا يكلم أحداً، غير أنه يؤدي الفريضة، والمشايخ واقفون بين يديه، ولا يدرون ما يصنعون، قال سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه: فتقدمت إليه، وقلت له يا سيدي إنّ أصحابك ومريديك يتعجبون من سكوتك ثلاثة أيام وأنت ساكت لم تكلم أحداً، قال: فأقبل علينا، وقال: يا قوم اعلموا أنّ الجارية التي رأيتها بالأمس قد شغفت بها حباً، واشتغل بها قلبي، وما بقيت أقدر أفارق هذه الأرض،قال سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه: فقلت يا

سيدي أنت شيخ أهل العراق ومعروف بالزهد في سائر الآفاق، وعدد مريديك اثنا عشر ألفاً، فلا تفضحنا وإياهم بحرمة الكتاب العزيز. فقال يا قوم: جرى القلم بما حكم، ووقعت في بحار العدم وقد انحلت عني عرى الولاية، وطويت عنّي أعلام الهداية، ثم إنّه بكى بكاء شديداً، وقال يا قوم: انصرفوا، فقد نفذ القضاء والقدر، فتعجبنا من أمره، وسألنا الله تعالى أن يجيرنا من مكره، ثم بكينا وبكى حتّى أروى التراب، ثم انصرفنا عنه راجعين إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، ومريدوه في جملة الناس، فلم يروه، فسألوا عنه، فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزناً عليه وأسفاً، وجعل الناس يبكون ويتضرعون إلى الله تعالى أن يرده عليهم وغلقت الرباطات، والزوايا والخوانق، ولحق الناس حزن عظيم فأقمنا سنة كاملة، وخرجت مع بعض أصحابي نكشف خبره، فأتينا القرية، فسألنا عن الشيخ، فقيل لنا: إنّه في البرية يرعى الخنازير، قلنا: وما السبب في ذلك؟ قالوا: إنّه خطب الجارية من أبيها، فأبى أن يزوجها إلا ممن هو على دينها ويلبس العباءة ويشد الزنار، ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير، ففعل ذلك كله، وهو في البرية يرعى الخنازير. قال الشبلي: فانصدعت قلوبنا، وانهملت بالبكاء عيوننا، وسرنا إليه، وإذا به قائمٌ قدام الخنازير، فلما رآنا نكس رأسه، وإذا عليه قلنسوة النصارى، وفي وسطه زنار، وهو متوكىء على العصا التي كان يتوكأ عليها إذا قام إلى المحراب، فسلمنا عليه، فرد علينا السلام، فقلنا: يا شيخ ما ذاك وماذا وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟ فقال: يا إخواني وأحبابي ليس لي من الأمر شيء، سيدي تصرف في كيف شاء، وحيث أراد أبعدني عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبابه، فالحذر الحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر

يا أهل المودة والصفاء من القطيعة والجفاء، ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاي ما كان ظني فيك هذا، ثم جعل يستغيث ويبكي ونادى يا شبلي اتعظ بغيرك، فنادى الشبلي بأعلى صوته بك المستعان وأنت المستغاث، وعليك التكلان. اكشف عنا هذه الغمة بحلمك، فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك، قال: فلما سمعت الخنازير بكاءهم، وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم وزعقت زعقة واحدة عويت منها الجبال. قال سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إنّ الشيخ بكى بكاء شديداً. قال سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك، وقد استرعيت الخنازير بعد أن كنت أرعى القلوب؟ فقلت: يا شيخ كنت تحفظ القرآن وتقرؤه بالسبع فهل بقيت تحفظ منه شيئاً. فقال: نسيته كله إلا آيتين، فقلت: وما هما؟ قال: قوله تعالى: "ومن يهن اللّه فما له من مكرم إن اللّه يفعل ما يشاء" الحج: ١٨، والثانية قوله تعالى: "ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل"، البقرة: ١٠٨. فقلت: يا شيخ كنت تحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم، فهل تحفظ منها شيئاً؟ قال: حديثاً واحداً، وهو قوله صلى اللّه عليه وسلم: " مَّن بدل دينه فاقتلوه"، قال سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه: فتركناه، وانصرفنا، ونحن متعجبون من أمره، فسرنا ثلاثة أيام وإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر وطلع، وهو يشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا، وقال: يا قوم اعطوني ثوباً طاهراً، فأعطيناه ثوباً، فلبسه، ثم صلى وجلس، فقلنا له: الحمد للّه الذي ردك علينا، وجمع شملنا بك، فصف لنا ما جرى لك، وكيف كان أمرك؟ فقال يا قوم: لما وليتم من

عندي سألته بالوداد القديم، وقلت له: يا مولاي أنا المذنب الجاني، فعفا عني بجوده، وبستره غطاني، فقلنا له: باللّه نسألك هل كان لمحنتك من سبب؟ قال: نعم، لما وردنا القرية، وجعلتم تدورون حول الكنائس قلت في نفسي: ما قدر هؤلاء عندي، وأنا مؤمن موحد، فنوديت في سري ليس هذا منك، ولو شئت عرفناك، ثم أحسست بطائر قد خرج من قلبي، فكان ذلك الطائر هو الإيمان. قال سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه: ففرحنا به فرحاً شديداً، وكان يوم دخولنا يوماً عظيماً مشهوداً، وفتحت الزوايا، والرباطات والخوانق، ونزل الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفاً، وأقام على ذلك زماناً طويلاً ورد اللّه عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك.فبينما نحن جلوس عنده في بعض الأيام بعد صلاة الصبح، وإذا نحن بطارق يطرق باب الزاوية، فنظرت من الباب، فإذا شخص ملتف بكساء أسود، فقلت له: ما الذي تريد؟ فقال: قل لشيخكم إنّ الجارية الرومية التي تركتها بالقرية الفلانية قد جاءت لخدمتك. قال: فدخلت فعرفت الشيخ، فاصفر لونه وارتعد، ثم أمر بدخولها، فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً، فقال لها الشيخ: كيف كان مجيئك، ومن وصلك إلى ههنا. قالت: يا سيدي لما وليت من قريتنا جاءني من أخبرني بك، فبت ولم يأخذني قرار، فرأيت في منامي شخصاً وهو يقول: إن أحببت أن تكوني من المؤمنات، فاتركي ما أنت عليه من عبادة الأصنام، واتبعي ذلك الشيخ، وادخلي في دينه، فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام، قلت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمداً رسول اللّه، فقلت: كيف لي بالوصول إليه. قال: اغمضي عينيك، واعطيني يدك، ففعلت، فمشى قليلاً، ثم قال: افتحي عينيك، ففتحتهما، فإذا أنا بشاطئ الدجلة، فقال:

امضي إلى تلك الزاوية، واقرئي مني الشيخ السلام، وقولي له: إنّ أخاك الخضر يسلم عليك، قال: فأدخلها الشيخ إلى جواره، وقال: تعبدي ههنا. فكانت أعبد أهل زمانها تصوم النهار وتقوم الليل حتى نحل جسمها، وتغير لونها، فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الوفاة، ومع ذلك لم يرها الشيخ، فقالت: قولوا للشيخ يدخل عليّ قبل الموت، فلما بلغ الشيخ ذلك دخل عليها، فلما رأته بكت، فقال لها: لا تبكي، فإنّ اجتماعنا غداً في القيامة في دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة اللّه تعالى، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياماً قلائل حتى مات رحمة اللّه تعالى عليه.قال سيدي الشبلي رضي اللّه تعالى عنه: فرأيته في المنام، وقد تزوج بسبعين حوراء وأول ما تزوج بالجارية، وهما مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً ذلك الفضل من اللّه، وكفى باللّه عليماً.إهـ فليعتبر أخي الفقير و يُسلّم ليَسلم .أمّا سرّ وصول المريد السّالك إلى رتبة المشيخة والإرشاد ، ليكون شيخا كاملا مكمّلا وعارفا باللّه تعالى و دالاّ عليه، فراجعه في بابه.

الردّة الباطنية عن مقصد التّصوّف

قلت :

قصدي بالردّة الباطنية للمريد عن مقصد التّصوّف

أن يبدّل غير سيدي الصّوفي و عن ورده يتوقّف

ثم يعادي إخوانه و يقع في أعراضهم و يتطرّف

فهذا إن زعم أنّه سيُفتح عليه فهو في عقله يُخرّف

وقالوا :

تعصي الإله و أنت تزعم حبّه *****هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبّك صادقا لأطعته ***** إنّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع

و من عصيان اللّه تعالى عصيان رسوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و من عصيان رسوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم عصيان خليفته الشيخ المرشد المربي الموصل لحضرة الشهود و العرفان ، و من شواهد ذلك العصيان ما صدر من بعض فقراء و مريدي الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه لمّا رحل ، فظنّ هؤلاء أنّ طريقته المرضية قد قحلت و أجدبت بعده ، و ظنّوا أنّ مدده و غيثه قد انقطعا مع رحيله ، و أنّ تربيته و إرشاده قد وقفا مع غيابه ، و لو صدق هؤلاء في طلبهم و أخلصوا نياتهم للّه تعالى لأوقع الحقّ تعالى في سرائرهم سرّ محبّة شيخهم الخالية من المآرب و الرغائب ، و أوّلها و أخصّها ملاحظة الفتح و العمل لأجله و أنّه المقصود من السّلوك ، و ذلك منافي للمقصد من التّصوّف ، وهو شرك الطريقة ، لأنّ مراد الحقّ تعالى من المريد هو إخلاص العبادة لقوله تعالى : { و ما أمروا إلاّ ليعبدوا اللّه مُخلِصين له الدّين } ، و الإخلاص في الطلب هو الموصل إلى معرفة اللّه تعالى و محبّته و رضوانه ، لأنّ من عبد اللّه تعالى طلبا للفتح وطمعا فيه فهو عبدٌ للفتح لا عبدا للّه تعالى ، و إخلاص الطلب من شوائب شِرْك الطريقة و شَرَك النّفس و الهوى و الشيطان مُتعسّر ، لأنّ أهوية الثلاثة مُتداخلة و مُتشابكة و لا يُسلم منها إلاّ من وفّقه اللّه تعالى ، و قد قال أهل التحقيق : { النّاس هلكى إلاّ العالِمون ، و العالِمون هلكى إلاّ العاملون ، والعاملون هلكى إلاّ المُخلصون ، و المُخلصون على خطر عظيم } ، وحديث أول ثلاثة تُسعّر بهم جهنّم دليل ، و قد كان أحدهم طالب علم و الآخر مُتصدّق و الثالث مُجاهد في سبيل اللّه

تعالى ، لكن كانت نيّاتهم لغير اللّه تعالى بل كانت أعمالهم مُلوّثة بالرّياء و مُلطّخة بالسّمعة كما قال النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : { :

أوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ يَوْمَ القِيامَةِ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ آتاهُ اللّه العِلْمَ فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى ما صَنَعْتَ فِيما عَلِمْتَ فَيَقُولُ: يا رَبِّ كُنْتُ أَقُومُ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرافَ النَّهارِ، فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى كَذَبْتَ وَتَقُولُ المَلائِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتَ أَنْ يُقالُ فُلانٌ عالِمٌ أَلا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللّهُ مالاً فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى لَقَدْ أَنْعَمْتُ عَلَيْكَ فَماذا صَنَعْتَ فَيَقُولُ: يا رَبِّ كُنْتُ أَتَصَدَّقُ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْرافَ النَّهارِ .فيقول اللّه تعالى كذبت وتقول الملائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فقد قيل ذلك . وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ تَعالَى فَيَقُولُ اللّهُ تَعالَى ماذا صَنَعْتَ فَيَقُولُ، يا رَبِّ أُمِرْتُ بِالجِهادِ فَقاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ. فَيَقُولُ اللّهُ كَذَبْتَ وَتَقُولُ المَلائِكَةُ كَذَبْتَ بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقالُ فُلانٌ شُجاعٌ أَلا فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ قال أبو هريرة، ثم خبط رسول اللّه فخذي وقال: يا أَبا هُرَيْرَةَ أُولَئِكَ أَوَّلُ خَلْقٍ تُسَعَّرُ نارُ جَهَنَّمَ بِهِمْ يَوْمَ القِيامَةِ . فدخل راوي هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكى حتى كادت نفسه تزهق ثم قال: صدق اللّه إذ قال: {مَنْ كانَ يُرِيدُ الحَياةَ الدُّنْيا وَزِينَتَها} الآية، و قوله تعالى : { و ما أمروا إلاّ ليعبدوا اللّه مُخلصين له الدّين } هو تخليص القلب من أيّ طلب أو طمع إلاّ في رضى الحقّ تعالى ، قال الإمام الفخر الرازي رضي اللّه تعالى عنه في تفسيرها: { اللام في قوله: {وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ اللَّهَ} تدل على مذهب أهل السنة حيث قالوا: العبادة ما وجبت لكونها مفضية إلى ثواب الجنة، أو إلى البعد عن عقاب النار، بل لأجل أنك عبدٌ وهو ربٌّ، فلو لم يحصل في الدين ثواب ولا عقاب البتة، ثم أمرك بالعبادة. وجبت لمحض العبودية، وفيها أيضاً إشارة إلى أنه من عبد اللّه للثواب و العقاب، فالمعبود في

الحقيقة هو الثواب والعقاب، والحق واسطة، ونعم ما قيل: من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثناثي ومن آثر العرفان لا للعرفان، بل للمعروف، فقد خاض لجة الوصول } و معنى قوله هذا : أي من طلب الطريق و السلوك لأجل الفتح و العرفان و الشهود و العيان فقد طلب الثنائي و البعد عن الحقّ تعالى ، لأنّ مراده غير الحضرة الإلهية و غير رضاه تعالى ، فهو عبدٌ لما طلب ، وهو عبدُ الفتح و عبدُ العرفان ، أمّا من جعل العرفان وسيلة لا غاية للوصول إلى حضرة الحقّ تعالى ورضاه فهو الموفّق ، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا : { الإخلاص هو أن يأتي بالفعل خالصاً لداعية واحدة، ولا يكون لغيرها من الدواعي تأثير في الدعاء إلى ذلك الفعل، و النكت و الوعظية فيه من وجوه أحدها: كأنه تعالى يقول عبدي لا تَسْعَ في إكثار الطاعة بل في إخلاصها لأنّي ما بذلت كلّ مقدوري لك حتى أطلب منك كل مقدورك، بل بذلت لك البعض، فأطلب منك البعض نصفاً من العشرين، وشاة من الأربعين، لكن القدر الذي فعلته لم أرد بفعله سواك، فلا ترد بطاعتك سواي، فلا تستثن من طاعتك لنفسك فضلاً من أن تستثنيه لغيرك، فمن ذلك المباح الذي يوجد منك في الصلاة كالحكة و التنحنح فهو حظ استثنيته لنفسك فانتفى الإخلاص، وأمّا الالتفات المكروه فذا حظ الشيطان وثانيها: كأنه تعالى قال: يا عقل أنت حكيم لا تميل إلى الجهل و السفه وأنا حكيم لا أفعل ذلك البتّة، فإذاً لا تريد إلا ما أريد ولا أريد إلا ما تريد، ثمّ إنّه سبحانه ملك العالمين والعقل ملك لهذا البدن، فكأنه تعالى بفضله قال: الملك لا يخدم الملك لكن (لكي) نصطلح أجعل جميع ما أفعله لأجلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ﴾ فاجعل أنت أيضاً جميع ما تفعله لأجلي ، واعلم أنّ قوله: ﴿مُخْلِصِينَ ﴾ نصب على الحال فهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من

ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، فيأتي بالفعل لوجهه مخلصاً لربه، لا يريد رياء ولا سمعة ولا غرضاً آخر، بل قالوا: لا يجعل طلب الجنة مقصوداً ولا النجاة عن النار مطلوباً وإن كان لا بد من ذلك، وفي التوراة: ما أريد به وجهي فقليله كثير وما أريد به غير وجهي فكثيره قليل. وقالوا من الإخلاص أن لا يزيد في العبادات عبادة أخرى لأجل الغير، مثل الواجب من الأضحية شاة، فإذا ذبحت إثنتين واحدة لله وواحدة للأمير لم يجز لأنه شرك، وإن زدت في الخشوع، لأن الناس يرونه لم يجز، فهذا إذا خلطت بالعبادة عبادة أخرى، فكيف ولو خلطت بها محظوراً مثل أن تتقدم على إمامك، بل لا يجوز دفع الزكاة إلى الوالدين والمولودين ولا إلى العبيد ولا الإماء لأنه لم يخلص، فإذا طلبت بذلك سرور والدك أو ولدك يزول الإخلاص، فكيف إذا طلبت مسرة شهوتك كيف يبقى الإخلاص؟ وقد اختلفت ألفاظ السلف في معنى قوله: {مُخْلِصِينَ} قال بعضهم: مقرين له بالعبادة، وقال آخرون: قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة، وقال الزجاج: أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره، ويدل على هذا قوله: {وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً} إهـ من تفسير الإمام الفخر الرازي رضي الله تعالى عنه ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله و سلّم : يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: الإِخْلاصُ سِرٌّ مِنْ سِرِّي اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أَحْبَبْتُ مِنْ عِبَادِي ، وقال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول، فإن النبي قال لمعاذ بن جبل: أَخْلِصِ العَمَلَ يَجْزِكَ القَلِيلُ ، وقال عليه السلام: ما مِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ لِلَّهِ العَمَلَ أَرْبَعِينَ يَوْماً إِلاَّ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ ، ومن لم تظهرْ تلك الحكمة من قلبه على لسانه فهو

حتما و جزما لم يُخلصْ للّه تعالى ، و الشأن لمن غيّر الطريق بعد رحيل الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه ، لأنّه لم يعرفْ مدلول السّلوك و أنّ اللّه تعالى لا يُعبد طمعا في جنّته ولا خوفا من ناره ، كما جاء في معنى الحديث القدسي لو لم يخلقْ اللّه تعالى الجنّة و النّار ألا يكون أهلا أن يُعبَدَ ، و كذلك لمن عبد اللّه تعالى للفتح فهو كمن عبده طمعا في الجنّة أو خوفا من النّار ، و لأنّ الإخلاص هو مقصد الصوفية أولا و آخرا ، فقد كانوا يتناصحون به و من حكاياتهم في ذلك وهي جُنْدٌ من جنُد اللّه تعالى أنّه كان سيدي معروف الكرخي رضي اللّه تعالى عنه يضرب نفسه ويقول: { يا نفس أخلصي تتخلصي }، وقال سيدي سليمان رضي اللّه تعالى عنه : { طوبى لمن صحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا اللّه تعالى }، وقال سيدي أيوب السختياني رضي اللّه تعالى عنه : { تخليص النيات على العمّال أشدّ عليهم من جميع الأعمال } وكان سيدي مطرف رضي اللّه تعالى عنه يقول: { من صفا صُفِي له ومن خَلّط خُلِّط عليه }، وقال بعض الصوفية: { كنت قائماً مع أبي عبيد التستري وهو يحرث أرضه بعد العصر من يوم عرفة، فمرّ به بعض إخوانه من الأبدال فسارّه بشيء فقال أبو عبيد: لا، فمرّ كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني، فقلت لأبي عبيد: ما قال لك؟ فقال: سألني أن أحج معه، قلت: لا، قلت: فهلا فعلت؟ قال: ليس لي في الحج نيّة وقد نويت أن أتمّم هذه الأرض العشيّة فأخاف إن حججت معه لأجله تعرّضت لمقت اللّه تعالى، لأنّي أدخل في عمل اللّه شيئاً غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجّة }، وقال سيدي الجنيد رضي اللّه تعالى عنه : { إنّ للّه عباداً عقلوا فلما عقلوا عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الإخلاص إلى أبواب البرّ أجمع } وقال سيدي محمد بن سعيد المروزي رضي

اللَّه تعالى عنه : { الأمر كلّه يرجع إلى أصلين: فعل منه بك، وفعل منك له، فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل ، فإذن أنت سعدت بهذين وفزت في الدارين }، وقال سيدي السوسي رضي اللَّه تعالى عنه : {مراد اللَّه من عمل الخلائق الإخلاص فقط } و قال رضي اللَّه تعالى عنه أيضا : { الإخلاص فَقدُ رؤية الإخلاص، فإنّ من شاهد في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص} وقال سيدي سهل رضي اللَّه تعالى عنه: { الإخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته للَّه تعالى خاصّة } وقال سيدي إبراهيم بن أدهم رضي اللَّه تعالى عنه : { الإخلاص صدق النيّة مع اللَّه تعالى } وقيل لسيدي سهل رضي اللَّه تعالى عنه : { أيّ شيء أشدّ على النّفس؟ فقال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب } وقال سيدي رويم رضي اللَّه تعالى عنه : {الإخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضاً في الدارين } ، و من الإخلاص في الطلب عدم الطلب ، و من الإخلاص في الدعاء عدم الدعاء ، و من الإخلاص في الفتح عدم طلبه ، يقول اللَّه تعالى في الحديث القدسي : { من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطيتُ السائلين } و في رواية أخرى : { من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته قبل أن يسألني } ، قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللَّه تعالى عنه : { مَن عرف بعين اليقين أنّ اللَّه تعالى قسّم جميع الأشياء و فرغ منها ، لا يطلب منه شيئا حياءً منه ، يشتغل بذكره عن مُطالبته ، لا يسأله قسمه و لا أن يُعطيه قَسَم غيره ، دأبه الخمول و السّكوت وحُسن الأدب وترك الاعتراض ، لا يشكو إلى الخلق لا في قليل و لا في كثير } و عودًا على بدءٍ لنرجع إلى بيت القصيد من هذا الكلام أي على مَن غيّر سلوكه من طريقة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللَّه تعالى عنه إلى طريقة أخرى ، و كأنّه فارّ و جار ، ولعمري ما برح إلاّ

القهقرَى و قد هوى من شامخ إلى قاعٍ قطيعةٍ لا يُنشله منها شيخٌ و لو أنجده بألف وِردٍ و صافحه بألف يَدٍ ، لأنّ الوردَ الذي ذكرَ و اليّدَ التي صافح بألفِ ألفٍ و هي يَد الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه و وِرده ، ومن ظنّ أنّه سيجد صِنوَ الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه في المشيخة فضلا عن العرفان فقد ظنّ المحال ، و طلبَ عنقاء مُغْرِب ، لأنّ مقام الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه في العِرفان و قد ذكرته في باب كراماته و دلائل عُلوّ مقامه مُتعذّر إلاّ على آحاد العباد كما قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّٰه تعالى عنه : {كان النبيّ صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم هو الداعي و الدّليل و لمّا قبضه الحقّ تعالى أقام له من أمّته مَن يخلفه فيهم و هم آحادٌ أفرادٌ ، من كلّ ألفِ ألفٍ إلى إنقطاع النّفَس واحدٌ } ، ومن هؤلاء الآحاد الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه و لا فخر ، وقد بحثْنا عن مثله قبل معرفته ، فما وجدناه ، و قد رأيتُ من كان سالكا على يد الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه وقد كان قابَ قوسين أو أدنى من الفتح و الوصول فغيّر سلوكه إلى طريقة أخرى فوقف به قطار السير في العقبة ، كما قيل تنكيتا : وقف حمار جدّي في العقبة ، و لمثل هذا فليسمع إذْ أدلجت قلوب و نامت نفوس أنْ:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ***** أفرسٌ تحتك أم حمار ؟ لأنّك غيّرت طائرتك بل مَكّوكك العملاق و الأسرع و الأقوى بركوبٍ على ظهر حمارٍ لا يقوى على سير فضلا عن حَملك ، فإن مشى ففي قرنٍ يخطو خطوة لا يُجاوزها ، و مَن رأى الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه و جالسه فضلا عن السّلوك على يديه و لم يربحْ فهو المغبون ، لأنّه لا يُفلح من رأى عارفا باللّٰه

تعالى إلاّ الشّاكُ و المحروم ، و قد قالها من لا ينطق عن الهوى صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : { طوبى لمن رآني و آمن بي ، و طوبى لمن رأى من رآني ، و لمن رأى من رأى من رآني و آمن بي ، و طوبى لهم و حسن مآب } و بالتسلسل المعنوي قد رأى الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم شيخا عن شيخ ، فضلا عن الرؤية المعهودة الصادقة للعارفين باللّه تعالى التي لا يشوبها شكّ و لا شبهة ، أمّا من رآه و لم يفلح فهو المغبون ، و ما أحسن ما قيل في هذا : { وَحّدَ قسٌّ و ما رأى رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و كفرَ ابن أُبَيّ و قد صلّى معه } أي أنّ قسّا بن ساعدة الإيّادي كان مُوحّدا في الفترة و لم يُبعث النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بَعدُ ، و كفر ابن سلول رأس النّفاق و قد جالس و صلّى مع النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، لذلك أقولها صراحة أنّه مَن غيّر طريقة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه إلى طريقة غيرها ، فهو نفاق الطريقة ، و كدرُ الحقيقة ، و فرضًا أنّ من غيّر و سلك أخرى ، فهل مَن وجدَ هو في مقام الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه ؟ و على يد مَن سلك ، فهل على يد عارفٍ غارفٍ أم مدّعٍ هارفٍ ؟ و دليله هل هو شيخ أم مُتَمَشّيخٌ ؟ و هبْ أنّه سلك قادرية الزمان فهل هناك ساقيٌّ فيها غير الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و هبْ أنّه سار في العلاوية و هل مَددها و اقفٌ إلاّ من الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه ؟ و قلْ أنّه صار تيجانيّا و أجازه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه و رضي له بهذا التّغيير ، أوليس وقوفه في مرتبة التلميذية و المُريدية و لو سار ذاكرا ألف عامٍ فلن يُجازوها إلى الأستاذية و المشيخة ، فإن قال وما الدّليل ، أقول له ما قاله شيخ

الطريقة التيجانية سيدي أحمد التيجاني رضي اللّه تعالى عنه : {لا وليّ بعدي !} أي لن يبلغ مَن اتّبعه مرتبته و لن يصل إلى مقامه و لو عبد اللّه تعالى بعبادة الثّقلين ، و هذا لمن كان تيجانيَّ الطريقة فقط ، لأنّ خاتم الولاية الخاصّة هو فقط مؤسس الطريقة الشيخ سيدي أحمد التيجاني رضي اللّه تعالى عنه ، و لمن انتسب إلى هذه الطريقة من مريدي الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه فإنّه واقف على عتبة التلميذية فإن صدق و برّ ثمّ وجد الشيخ التيجانيّ الكامل المكمّل فرضًا و لن يجده ، فإنّه سيترقّى فيُفتح له باب المُريدية و التلميذية فقط ، فإنْ جدّ و اجتهد و صام وقام و صلّى صلاة الاتصال لا صلاة الانفصال و فنِيَ الفناء المطلق في الشيخ الذي يسير به و الذي عاهده بالقال و الحال و جالسه وصاحبه مدّة من الزمان ، فإن فعل ذلك فسَيْرُه أمّةً من الدّهر في مقام التلميذية لن يُجاوزه و لن يبلغ مقام الشيخ المؤسس سيدي أحمد التيجاني رضي اللّه تعالى عنه لقوله رضي اللّه تعالى عنه : {لا وليّ بعدي} قياسا على قوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم :{لا نبيّ بعدي} و قد غلط من هذه الحيثية من تمسّك تمسّكا جافّا بهذه الطريقة و كان شيخه فيها الكتب التيجانية فقط ، وكأنّ الكتاب يقوم مقام الشيخ المرشد و الدّال و هذا مُحال ،لأنّ تلاقح الأرواح لا يكون إلاّ بالتلاقي و المصافحة ، لأنّ في المُلاقاة مُساقاة ، فمتى رأى مريدَ السّلوك شيخَه و تملّى بنور حضرته و أسكن نياطَ قلبه حبَّه حتّى عاد سوادَ عينِه و حبّةَ فؤادِه كما قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : { طوبى لمن رآني و آمن بي ، وطوبى لمن رأى من رآني و لمن رأى من رأى من رآني و آمن بي ، و طوبى لهم وحسن مآب } ، و بهذا السّر كان المشايخ قديما يتزاورون فيما بينهم للتّبرك بهذه الرؤية المُباركة لأنّه كما قيل :

{النظر إلى وجه العالم عبادة }، فكيف بالنظر إلى وجه العارف بالله تعالى ، الذي يَشحن الحقّ تعالى باطنه و ظاهره بأنواره و أسراره ، ثمّ يختم هذا الشحن سيّد الوجود صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم بأنواره و أسراره ، ومتى نظر الطالب الصّادق في وجه هذا العارف انعكست مرآته على روح الطالب و قلبه فكساه من تلك الأنوار و حلاّه بتلك الأسرار ، و لسرّ الرؤية طالب الكليم عليه السّلام سيّدنا محمّد صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم ليلة المعراج أن يسأل الله تعالى التخفيف من عدد خمسين صلاة ، كما قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم : { فلمّا مررت بموسى بن عمران ، و نِعم الصّاحب كان لكم ، سألني : كم فُرِض عليك من الصّلاة ؟ فقلت : خمسين صلاة كلّ يوم ، فقال : إنّ الصّلاة ثقيلة ، و إنّ أمّتك ضعيفة ، فارجع إلى ربّك فاسأله أن يُخفّف عنك و عن أمّتك ، فرجعتُ فسألت ربّي أن يُخفّف عنّي وعن أمّتي ، فوضع عشرا ، ثمّ انصرفتُ فمررت على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعت فسألت ربّي فوضع عنّي عشرا ، ثمّ انصرفتُ فمررت على موسى فقال مثل ذلك ، فرجعت فسألته فوضع عنّي عشرا ، ثمّ لم يزل يقول لي مثل ذلك ، كلّما رجعت إليه قال : فارجعْ فاسألْ ، حتّى انتهيتُ إلى أن وضع ذلك عنّي إلاّ خمس صلوات في كلّ يوم و ليلة ، ثمّ رجعت إلى موسى ، فقال لي مثل ذلك ، فقلتُ: قد راجعتُ ربّي وسألته حتّى استحييتُ منه ، فما أنا بفاعل } ، و لماذا نَصح الكليم عليه السّلام نبيّنا سيدنا محمّد صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم للتخفيف من عدد الصلوات دون نُصح غيره من الأنبياء و قد كان عليه السّلام في السّماء السّادسة ، أي لماذا لم ينصح النبيّ صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم مثلا أبونا إبراهيم صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم و قد كان في السّماء السّابعة

؟ و سرّ ذلك و الله تعالى أعلى و أعلم أنّه كان مُراد الكليم عليه السّلام زيادةً على التّصح التّملّي برؤية الحبيب صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم و قد تحلّى بأنوار و جمال الحقّ تعالى ، فكان في كلّ مرّة يشربُ الكليم عليه السّلام من كأس حضرة النّبيّ صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم ، لأنّه عليه السّلام كان عَطشا للرؤية و قد سألها فما نالها لقوله تعالى : { وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ } فلمّا عُرج بالحبيب صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم و رأى خليله تعالى طمع الكليم عليه السّلام في رؤية من رأى الحقّ تعالى ، و كان له ذلك لكنّه ما روى بل في كلّ مرّة كان يزداد عطشا للرؤية فكان منه عليه السّلام نُصح النّبيّ صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم تِلو النُّصح ، و من هذا السّرّ كان السّلف يحرصون على هذه الرؤية و الشّرب منها ، هذا عن مُلاقاة الشّيخ السّاقي الذي يُؤخذ عنه ، أمّا من زعم أنّ مُجرّد قراءة الورد و تلاوته من باطن الكتب يُفيد و يُرقّي دون مُلاقاة الشّيخ السّاقي ، فهذا هوَس وغبن في عقل صاحبه ، لأنّ سرّ حقيقة الحقّ تعالى تعجز عن حمله الصدور الحيّة فكيف بالقراطيس الميّتة ؟ و هبْ أنّه قرأ ورد الشاذلية أو القادرية أو التيجانية دون مُلاقاة مشايخ تلك الطّرق فأين سند هذا الطالب ؟ و من يكون مُلاقح روحه ؟ فإن قال بالنّفي فليعلم بأنّه لقيط في هذا الطريق ، لأنّ نسبه الروحي مبتور لا يُعلم ، و اللّقيط لا يُعتد به في الشهادة فما القول إن زعم على حمل سرّ الحقيقة ؟ بل شيخه الشيطان في الطريق كما قيل : { من لا شيخ له ، فالشيطان شيخه} ، و هناك بعض المحرومين من

جمحت بهم أنفسهم و أبت الدخول بالفقر و التّذلّل تحت الحصانة الروحية لمشايخ الطرق ، فيذهب الواحد منهم زاعما أنّه أويسيّ الطريقة ، التي تُنسب إلى سيدنا أُوَيْس بن عامر القرني رضي اللّه تعالى عنه الذي لم ير النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم وتربّى على روحانيته الشريفة صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم فبشّر به صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم كما قال سيدنا عُمَرَ بْن الْخَطَّابِ رضي اللّه تعالى عنه : { إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ: إِنَّ خَيْرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ أُوَيْسٌ، وَلَهُ وَالِدَةٌ، وَكَانَ بِهِ بَيَاضٌ، فَمُرُوهُ فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ } ، أمّا من ظنّ أنّه يُقاس كما يُقاس سيدنا أويس رضي اللّه تعالى عنه و يوزن كما يوزن ، فهو مغرور ، و أين الثرى من الثريّا ، ثمّ تأتي بعد الملاقاة المبايعة و التي ذكرت مشروعيتها و فضلها في بابها ، و هذه المبايعة تكون على السّمع و الطّاعة و مُداومة الذكر و الفكر و الصّبر تحت مطرقة البلاء و سندان الامتحان ، فهذا بالجملة سرّ ملاقاة الشيخ المرشد و سرّ مُبايعته ، ولنصحّح بعض المفاهيم الخاطئة لبعض المنتسبين إلى الطريقة التجانية إن كانوا حقّا منتسبين إليها حالا و فِعالا لا قالا و كلاما فقد ظنّوا أنّ باب الولاية الخاصّة قد غلق بعد الشيخ سيدي أحمد التيجاني رضي اللّه تعالى عنه فلا وليّ بعده و ظنّوا أنّ هذه البعدية عامّة لا خاصّة بالطريقة التيجانية ، و الصّواب أنّه لا وليّ بعد سيدي أحمد التيجاني رضي اللّه تعالى عنه في مدد طريقته فلن يبلغ من اتّبعه مقامه و لو سار ألف سنة ذاكرا ، و هذه كرامة قد منّ اللّه تعالى بها على الشيخ دون غيره من المشايخ ، لأنّ كلّ المشايخ قديما و حديثا قد تركوا أبواب الترقي مفتوحة فلم يوصدوها في وجوه تلاميذاتهم ، و سرّ قول الشيخ سيدي أحمد التيجاني رضي اللّه تعالى عنه : { لا وليّ بعدي} قد فتح اللّه تعالى لي

لكشف مغزاه و بيان معناه و هو أنّه رضي اللّه تعالى عنه لقي عدّة مشايخ فأخذ عنهم الطريقة و كلّ شيخ يأخذ عنه مدّة ثمّ يترك طريقته وهكذا مع عدّة طرق وعدّة مشايخ و مع ذلك كان مُجدّا مُجتهدا باحثا عن الحقيقة و من الطرق التي شرب من مددها و تبرّك بأسرارها و أنوارها نجد الطريقة الطيبية و الطريقة القادرية و الطريقة الناصرية و الطريقة الخلوتية و الطريقة البكرية الصديقية وغير هذه الطرق التي أخذ كثير ، و لمّا بلغ رضي اللّه تعالى عنه ستّا و أربعين سنة وقع له الفتح الكبير على يد النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، فلمّا بلغ رضي اللّه تعالى عنه أربعا و ستين سنة حلّ رضي اللّه تعالى عنه مقام القطبانية الغوثية فقال رضي اللّه تعالى عنه :{ أخذنا من مشايخ عدّة فلم يقض اللّه تعالى منهم بتحصيل المقصود ، وسندنا و أستاذنا في هذا الطريق هو سيد الوجود صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم } ، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا : { سندنا في الورد المعلوم النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم } ولمّا كان سنده و أستاذه و شيخه هو النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و هو صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم خاتم النبيين لقوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم :{ لا نبيّ بعدي} ، فمن هذه الحيثية و من سرّ هذا المشرب المحمّدي الخاصّ قال رضي اللّه تعالى عنه:{ لا وليّ بعدي} أي لا وليّ يأتي بعده و يبلغ مقام القطبانية الغوثية التي وصل وحلّ ، و هذا خاص بمريديه و ليس محجورا على سائر الطرق ، لأنّه قد وصل غيره رضي اللّه تعالى عنه من المشايخ من سائر الطرق إلى مقام القطبانية الغوثية ، و منهم شيخنا الكامل المكمّل الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه ، الذي قد يصل تلميذه إلى مقامه أو يُجاوزه لو جدّ و اجتهد و ما ذلك على اللّه

بعزيز ، و فضل اللّه لا يُحجره حاجر ، و من لقي عارفا لقي اللّه تعالى سالما ، هذا إن ثبت على سيره ، أمّا من رآه و سلك على يديه ثمّ ارتدّ ، فلن يفلح على يد شيخ آخر كما قال الشيخ سيدي أبو بكر بن حامد الترمذي رضي اللّه تعالى عنه : { من لم ترضه أوامر المشايخ و تأديبهم ، فإنّه لا يتأدب بكتاب و لا سنّة } ، و قد صرّح بسرّه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه أكثر من مرّة فقد قال رضي اللّه تعالى عنه : { المشايخ كثرة ، لكنّ العارفين باللّه تعالى قلّة } ، و قد نطق سرّ حاله كما قيل :

أحبّتي إن كنتم على صدق من أمري *** فذاك نفس السبيل ، سيروا على سيري

فلستُ على شكّ تاللّه و لا وهمٍ *** أنا العارف باللّه في السّرّ و الجهر

سُقيتُ من كأس الحبّ ثمّ ملكتُه *** فصار ملكاً لديّ في مدّة الدّهر

هذا لمن انتسب إلى الطريقة التجانية طلبا للوصول و العرفان ، أمّا من انتسب إليها طلبا للفتح الفاني و رغبة في الدّنيا لأنّه قد شاع في بعضهم أنّه من انتسب إلى التجانية جاءته الدّنيا بحذافيرها ، فإنّ مثل هذا يقاس عليه قوله تعالى :{ أولئك الذين اشتروا الحياة الدّنيا بالآخرة فلا يُخفّف عنهم العذاب ولا هم يُنصرون } فلا يُخفّف عنهم عذاب البلاء و الإمتحان في الدّنيا و لا هم يُنصرون بمَدَد و مُدَد الأنوار و الأسرار و الشهود و العرفان ، فلا يُنزل عليهم حُكم الآخرة من عذابها لأنّهم مؤمنون مُوحّدون ، فهو حكم حقيقة لا شريعة ، و اللّه تعالى أعلى و أعلم ، و أيّ طريقة يُعرف سرّ مشروبها و مَوْردها من وردِها ، فمن كان وردها عاما فهي للتّبرك ، و الورد لعام هو الأثافي الثلاث و هي الإستغفار المطهّر ثمّ الصلاة على النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و

سلّم المنوّر ثمّ ذكر الهيللة المفكّر و المذكّر ، وهذا الورد هو لزيادة الأجور و ليس لرفع السّتور ، لكن من تأمّل ورد الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه و خاصة زجره ودعاءه وجده غاية في النّفاسة و مُنطويا على سرّ الأسرار و نور الأنوار ، و هو دعاءُ الكريم المتعالي أن يصبغ الداعيَ بحُلّة و خلعة نور النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و ذلك أن يُضاعف محبّته صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في قلبه و أن يُعرّفه بحقّه و رُتبته ، و أن يُوفّقه لإتّباعه و القيام بآدابه و أداء سنّته ، و أن يجمعه معه يقظة و مناما ، و يمتّعه برؤيته في الدنيا يقظة لا مناما مِصداقا لقوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم :{من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ، فإنّ الشيطان لا يتمثّل بي} ، أمّا من قال بهذه الرؤية في الآخرة فليس محلّها لأنّ رؤيته صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في الآخرة تكون للمسلم وللكافر و للبرّ و الفاجر ، بل هي بشارة بالرؤية الدّنيوية و هو صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم لا يغيب عن بصر العارفين باللّه تعالى طرفة عين و لا أقلّ من ذلك ، و لو كانت إلاّ هذه المِزية لكفت من أراد رؤية سيّد الخلق صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و هي بُغية كلّ طالب و مُريد ، ثمّ يقول الدّاعي :{و اقربني من حضرته و اسعدني بمُكالمته و شنّف سمعي منه بلذيذ الخطاب و هيّئني للتّلقي منه و أهلني للأخذ عنه ...}، و من تأمّل هذه الدّعوات النّورانية وجدها تُسقِي بعوالي الصّبا روحَ الدّاعي إلى حضرة المُجتبى صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، وتُغرقه في طمّ الصّبابة و الشوق و في يمّ الوله و العشق لحضرة النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و ما قول الشيخ القطب سيدي عبد السّلام بن مشيش رضي اللّه تعالى عنه :{و اجمعني معه و متّعني برؤيته و أقربني من حضرته و أسعدني

بمُكالمته و شنّف سمعي منه بلذيذ الخطاب و هيّئني للتّلقي منه و أهّلني للأخذ عنه، مُستمدّا من حضرته العلية في كلّ وقت و حين ؛ إلاّ دليلا على جعل الدّاعي الصّادق صحابيا في عالم المُشاهدة، و اللّه تعالى لا يُخلف وعده و لا يُخيّب عبده، و بعد هذا فليأتينا من غيّر طريقة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه بورد كهذا يُصيّر داعيه صحابيا و هو على فراشه، ولو بحث فلا يجد، فإن وجدَ فلن يجد دليلا و مُرشدا و بابا و مفتاحا و ساقيا و مُمِدّا و مادّا و شيخا كاملا مُكمّلا مثل الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه، و لو بحث في المشرقين و المغربين، فإن وجد شيخا ألا تشفع له صحبة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه و كرمه و مَدد فضله و مُدد كرمه أن بدّل هذه الصّحبة بغيره، لكن يفعلها اللّئيم ! فلا تحزن يا شيخنا على فراق بعضهم كما قيل:

لا تأسفنّ على وِداد خِلٍّ تُفارقه *** إذا لم تجد طبع الوفاء فيه
فبعض النّاس كالتّاج تلبسه *** و بعضهم كقديم النّعل تُلقيه

التحزب و التّشيّع

قلت:

لا تتحزّب و لا تتشيّع و كُنْ أخا لكلّ فقير
و تواضعْ للكلّ و ظُنّهم شرفاء و أنت الحقير
أما ترى أنّ الماء يستقرّ في الأسفل دون الأعلى
كذا المدد يصل بالتواضع الصغير دون الكبير

قال اللّٰه تعالى : (إنّما المؤمنون إخوة) ، فما القول فيمن كانوا أشقاء من رحم طريق واحدة ، و أبوهم الروحي واحد ، كيف تختلف قلوبهم ، و يتحيّز بعضهم لبعض ، دون آخرين ، لذلك نجد أنّ من البلايا التي وُسم بها بعض الفقراء و رُسم في دائرتها بعض المقاديم التحزب و التشيّع للمقدم سيدي فلان أو سيدي علاّن ومقت غيرهما من الفقراء و المقاديم و كلّ من لم يدخل في دائرة المقدم سيدي فلان فليس بفقير صادق و هذه البلوى جرّت الحقد الدفين و فجّرت الحسد العفين فيما بين الفقراء ، و معظم من سقط في شِراك هواه و اعتز بنفسه لم يعرف مدلول المحبّة التي ذكرتُ و التي هي إكسير الوصول حيث بيّنه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه بقوله: { أحبّوا بعضكم بعضا لا ينقصكم أيّ شيء } ، و هذه المحبّة لا ينبغي التفريق فيها بين فلان و فلان بل لو وُجِد فقير عاص و مسرف على نفسه فينبغي محبّته كأشدّ ما يكون من محبّة غيره لأنّنا بحبّنا له لا نحبّه لشخصه بل نحبّه في اللّٰه ثمّ في الشيخ و إذا علم بمحبّتنا له و هو عاص قد تشفع لههذه المحبّة فيعود إلى الطريق ، و نحن إذْ أعجبنا بأحوالنا عكسنا هذه المحبّة فأحببنا منْ يُقبّل الرؤوس و يُعطي الفلوس و كرهنا من يقول أنا جائع فأطعموني و عار فاكسوني و طردنا من المجالس و الزاوية من لا يرضى ما يرضاه فلان و يكره ما يكرهه علاّن . قال سيدي علي بن وفا رضي اللّٰه تعالى عنه: { من أراد ثبات الإخوان على محبّته القاصي منهم و الداني و أن يثنوا عليه بكل لسان فليقابلهم بالحلم و الغفران و ليتأمل في قوله تعالى : (إن اللّٰه يمسك السموات و الأرض أن تزولا و لئن زالتا إن أمسكهما من أحد بعده إنه كان حليما غفورا) فأخبرك أنه ليس

بعد الحليم الغفور من يمسكهما }، و قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي الله تعالى عنه:{ المريد آثار نوره مع الفقراء بالأنس و الانبساط و يكون مع الصوفية بالأدب و الارتباط و يكون مع المشايخ بالخدمة و الاتّعاظ و يكون مع العارفين بالتّواضع و الانخفاض و مع العلماء بحسن الاستماع و الافتقار و مع أهل المعرفة بالسّكون و الانتظار و مع أهل المقامات بالتّوحيد و الانكسار }، و هذه الآداب التي ذكرها الشيخ رضي الله تعالى عنه هي آداب الوقت لقولهم رضي الله تعالى عنهم:{التّصوف كلّه أدب فمن فاتك في الأدب فاتك في التّصوف} و قولهم :{ التصوف كلّه أدب ففي كل وقت أدب و في كل مقام أدب و في كل حال أدب و من فاته الآداب فاته الصواب }، و قيل:{ من أساء الأدب في الحضرة رُدّ إلى الباب و من أساء الأدب في الباب رُدّ إلى سياسة الدواب}، و قال سيدي سفيان الثوري رضي الله تعالى عنه : {من لم يتأدّب للوقت فوقته مقت}، و قال سيدي عبد الله بن المبارك رضي الله تعالى عنه :{ نحن إلى قليل من الأدب أحوج منّا إلى كثير من العلم }، و قيل لبعضهم:{أسأت الأدب فقال : لست بمسيء الأدب ، فقيل له: و من أدّبك ؟ فقال : الصوفية }، و من هنا نتأمل أنّ أساس الطريق الذي تُبنى عليه هو الأدب و متى اختلّ الأساس اختلّ البناءُ ، لذلك من تأدّب مع من حوله فاز و غَنم و من أساء أدبه سقط و حُرِم ، و من الرجال من تأدب مع الكلاب كما ذكر ذلك سيدي يوسف القرطبي عن أبيه رضي الله تعالى عنهما أنّه رأى سيدي أبا محمد عبد الرحمن رضي الله تعالى عنه و كان فقيها و هو يمشي في يوم شتاء كثير الطين فاستقبله كلب يمشي على الطريق التي كان عليها ،قال :{ فرأيت الشيخ قد ألصق بالحائط و عمل للكلب طريقا و وقف ينتظره للجواز و حينئذ يمشي هو ، فلمّا قرب من الكلب رأيته قد

ترك مكانه الذي كان فيه و نزل أسفل و ترك الكلب يمشي فوقه فلما جاوزه الكلب وصلتُ إليه فوجدته و عليه كآبة ، فقلت له : يا سيدي إنّي رأيتك صنعت الآن شيئا استغربته ، كيف رميتَ بنفسك في الطين و تركت الكلب يمشي في موضع نقيّ ؟ فقال لي : بعد أن عملتُ له طريقا تحتي تفكرتُ فقلتُ ترفعتُ على الكلب و جعلت نفسي أرفع منه بل هو و اللّه أرفع منّي و أولى بالكرامة لأنّي عصيتُ اللّه و أنا كثير الذنوب و الكلب لا ذنب له ، فنزلت عن موضعي و تركته يمشي و أنا الآن أخاف المقت من اللّه إلا أن يعفو عنّي لأنّي رفعت نفسي على من هو خير منّي }، و نظير هذه الحادثة ما وقع لسيدي أحمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه و ذلك أنّ كلبا حصل له جذام فاستقذرته نفوس أهل بلده و صار كل واحد يطرده عن بابه فأخذه سيدي أحمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه و خرج به إلى البريّة و ضرب عليه مظلّة و صار يأكل هو و إيّاه و يسقيه و يدهنه حتى عافاه اللّه من الجذام بعد أربعين يوما فسخّن له ماء و غسله و دخل به البلد فقيل له :{ أتعتني بهذا الكلب هذا الاعتناء كلّه ؟ فقال : نعم خفتُ أن يؤاخذني اللّه يوم القيامة و يقول أما عندك رحمة لهذا الكلب ؟ أما تخشى أن أبتليك بما ابتليت به هذا الكلب ؟} فانظر رحمك اللّه إلى أدب هؤلاء الكبار كيف وصل بهم الأدب حتى تأدّبوا مع الكلاب ومنّا من يسيء الأدب مع إخوانه و شيخه بل حتى مع حضرة النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم وحضرة الحق تعالى ، و مردّ ذلك أولا إلى سوء أدبه مع إخوانه كما قيل :{ من كسّره الشيخ جَبَرَه الفقراء ، و من كسّره الفقراء لم يُجْبِره أيّ شيخ كائنا من كان}، وخَسر من خَسر و خاب من خاب و سُلب من سُلب إلا بسوء أدبه مع إخوانه و احتقاره لبعضهم و تكبره على بعضهم ، و من أكبر القواطع في الطريق أن ينظر الفقير

محاسنَ نفسه و يحتقر غيره من إخوانه و سائر المسلمين ، قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم: (لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر) هذا عن جنّة الغفران تلك التي يدخلها المطيع و العاصي فكيف بجنّة العرفان هذه التي هي معرفة اللّه تعالى فلن يشمّ رائحتها أبدا . قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي اللّه تعالى عنه :{ كان سيدي علي الخواص رضي اللّه تعالى عنه كثيرا ما يقول في مجلسه : قولوا معي : لعنة اللّه على من يُنكر على أوليائه ، فيقول الجماعة كلهم : لعنة اللّه عليه ، و يرفعون بذلك أصواتهم حتى تصير لهم ضجّة }، و كان يقول :{ما يُوقف المريد عن الترقي إلا وقوعه في غيبة أحد من المسلمين و من ابتُلي بوقوعه في ذلك فليقرأ الفاتحة و سورة الإخلاص و المعوذتين و يهدي ثوابها في صحائف ذلك الشخص ، فإنّي رأيت رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم في المنام و أخبرني بذلك و قال : إنّ الغيبة و الثواب يقفان بين يدي اللّه عز و جل يوم القيامة و نرجو أن يكون ذلك بذلك} و قال أيضا :{ احذروا أيها المريدون من إشاعة زلّة رأيتموها من أخيكم احتقارا له فربّما كانت تلك الزلّة التي وقعت منه إنّما قدّرها اللّه تعالى عليه ليسدّ ثلمة حدثت له في دينه من عُجب أو كِبر فيكون بها كماله من حيث أثرها و يؤيّد ذلك صاحب الحكم : معصية أورثت ذلا و انكسارا خير من طاعة أورثت عزّا و استكبارا . و أجمع الأشياخ كلّهم على أنّه يجب على العبد أن يرى نفسه دون سائر الخلق برّهم و فاجرهم و من يَرَ نفسه كذلك كان من المتكبّرين ، و المتكبّرون في جهنّم فإن رأى نفسه خيرا من جميع أقرانه كان في النار تحت الكلّ ، و إن أدخل الجنّة كان في الجنّة تحت الكلّ عكس من رأى نفسه دونهم }، و قال سيدي عبد العزيز الديريني رضي اللّه تعالى عنه :{ من

أراد أن يصير الوجود كلّه يُمدّه بالخير فليجعل نفسه تحت الخلق كلهم في الدرجة لأنّ المدد الذي مع الخلق كالماء ، و الماء لا يجري إلا في المواضع المنخفضة دون العالية أو المُساويّة ، فمن رأى نفسه مُساوية لجليسه فمدده واقف لا يجري إليه أو أعلى منه فلا يصعد إليه ذرّة من مدده }، و من وصية سيدي أحمد الرفاعي رضي اللَّه تعالى عنه لأصحابه و هو محتضر:{ من تمَشْيَخ عليكم فتلمذوا له فإن مدّ لكم يده لتُقبّلوها فقبّلوا رجله ، و كونوا آخر شعرة في الذنب ، فإنّ الضربة أول ما تقع بالرأس }، وقال له مرة يعقوب خادمه :{ يا سيدي أوصني ، فقال سيدي أحمد رضي اللَّه تعالى عنه : كن خادما لإخوانك ، مُؤثرا لهم على نفسك ، محتملا أذاهم بعد ذلك ، و احذر أن ترى نفسك أعلى منهم فتقع في حفرة ثمّ لا يُساعدك منهم أحد ، أي يعقوب ! انظر إلى نخلة البلح لما قامت بصدرها و تعالت على جيرانها كيف جُعل ثقلُ حملها عليها ، و لو حملت ما حملت لا يساعدها أحد ، و انظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت خدّها على الأرض و لو حملت مهما حملت لا تحس بثقله تذكرة لأولي الأبصار }،وقال أيضا رضي اللَّه تعالى عنه :{ من لم يكن له خدّ يُداس لم يصر له كف يُباس }، لذلك من أراد أن يُفتح عليه و أن يفرح به الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللَّه تعالى عنه و يُسَر، فعليه أن يحبّ سائر إخوانه لا يفرّق بينهم بين محبوب و مبغوض و لا بين غني و فقير و لا بين شريف و حقير و أن يفتح لهم صدره و بابه كما فعل شيخنا الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللَّه تعالى عنه لمن كان في قلبه له حبّ و قدر و حرمة ، و إلا فلا يدّعي الإقتداء به كما قال سيدي العلاوي رضي اللَّه تعالى عنه :

أحبّتي إن كنتم على صدق من أمري *** فذاك نفس السبيل سيروا على سيري

و السير الباطني لا يتأتى لمن كان في قلبه ذرّة حقد على إخوانه أو حسد لهم بل لو فرّق بينهم في محبته يُخشى عليه ، فعلى الصادق أن لا يتحزّب و لا يتشيّع لفقير دون فقير و لا لمقدّم دون مقدّم ، لأنّ التحزّب عند الصوفية معناه النفاق و العياذ بالله تعالى ، فهو يجرّ إلى التصنّع و التملّق و هو ما يخالف ظاهر الشريعة فضلا عن باطن الحقيقة .

المحبّة المُحْرِمة الشِرْكيّة

قلت :

ذرّه فؤادك عن محبّة شيخ غير شيخنا
سيدي الصوفي تفلح و لو كان صِنوُه
فالقلب واحدٌ و الشيخ واحدٌ أما قرأت
{ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه}

و معنى المُحْرِمَة أي تُحرم صاحبها من الوصول ، لأنّ بعضهم ادّعى محبة شيخه ثم أحبّ غيره من المشايخ بحبّة قلبه و تفانى في هذه المحبة المزدوجة و لمّا أبطأ عليه نتاج السلوك و لم يصفُ كدر نفسه ربما تساءل عن سبب ذلك و عن خطر هذه المحبة المُحرمة الشركية قال الشيخ سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه : { و من شأن المريد الصادق أن لا يشرك مع شيخه أحدا في المحبة من سائر من لم يأمره الله تعالى بمحبته فيجعل محبة الله تعالى وسط قلبه و يجعل محبة رسول الله صلى الله تعالى عليه و آله و سلم قريبة من ذلك و هكذا على اختلاف مراتب المحبوبين شرعا ممن تكون محبتهم من الإيمان }، و كان سيدي علي بن وفا رضي الله تعالى عنه يقول :

}محبة الأنبياء و الأولياء و صالحي المؤمنين لا تضر مع محبة الشيخ لأنها من جملة الشريعة ، و الشريعة نور ، والأنوار تتداخل بخلاف الأمور التي نهت الشريعة عنها فإنها ظلام كثيف لا تتداخل ، فلو وضع في البيت الواحد ألف سراج شع نورها كلها {، وكان يقول كثيرا : }إياكم أن تشركوا في المحبة مع شيخكم أحدا من المشايخ فان الرجال أمثال الجبال وهم على الأخلاق الإلهية المشار إليها بقوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم : (تخلقوا بأخلاق اللّه) فكما أن اللّه تعالى (لا يغفر أن يشرك به) فكذلك محبة الأشياخ لا تسامح أن يشرك بها و كما أن الجبال لا يزحزحها عن أماكنها إلا الشرك باللّه تعالى ما دام العالم باقيا ، فكذلك الولي لا يزيل همته عن حفظ مريده من الآفات إلا شرك موضع خالص المحبة من قلبه قال تعالى: (تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض و تخر الجبال هدّا أن دعوا للرحمن ولدا) و هو أي كلام الشيخ يحتاج إلى تعقب فاطلب يا أخي من نفسك الصدق في محبة أستاذك تنل به ما تريد ولا تطلب منه أن تشغل قلبه بك و تهمل أنت أمر نفسك فإن ذلك لا يفيد ، و قال سيدي الشعراني رضي اللّه تعالى عنه أيضا : }}و من شأن المريد أن لا يكون له إلا شيخ واحد فلا يجعل له قط شيخين لأن مبنى طريق القوم على التوحيد الخالص {، وقد ذكر الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي رضي اللّه تعالى عنه في الفتوحات:}إعلم أنه لا يجوز لمريد أن يتخذ له إلا شيخا واحدا لأن ذلك أعون له في الطريق و ما رأينا مريدا قط أفلح على يد شيخين فكما أنه لم يكن وجود العالم بين إلهين و لا المكلف بين رسولين و لا امرأة بين زوجين فكذلك المريد لا يكون بين شيخين هذا كله في مريد تقيد بشيخ بقصد سلوكه الطريق وأما من لم يتقيد فهو متبرك بالشيخ فقط فمثل ذلك لا يمنع من

الاجتماع بأحد}.وقال سيدي أبو يزيد البسطامي رضي اللّه تعالى عنه :{ من لم يكن له أستاذ واحد فهو مشرك في الطريق و المشرك شيخه الشيطان } و قال سيدي علي وفا رضي اللّه تعالى عنه : {لمّا كان الحقّ تعالى لا يغفر أن يُشرك به ، فكذلك الأشياخ لا يغفرون أن يُشرك بهم تخلّقا بنظر مُسمّى أخلاق اللّه تعالى ، فإذا رأيتَ أيّها المريد شيخك يتشوّش منك إذا أشركت في محبّته شيخا آخر ، فإيّاك أن تُسيء به الظّن ، بل اشهد أنّ ذلك من أخلاق اللّه تعالى الذي يقول : { لا يغفر أن يُشرك به } ظهر على لسان وليّه } . والمريد شأنه شأن الوردة المفتّحة الجميلة ذات الرائحة الزكية فلو شمّها جمعُ أنوفٍ و تداولتها أيدٍ كثيرة ، فإنّها لا تلبثُ أن تذبل و تسقط أوراقها و يذهب عبقها ، فكذلك المريد إذا أحب أكثر من شيخ فلا شكّ أنّ هذه المحبّة تجرّه إلى زياراتهم و التمتّع بأنوارهم و من ثمّ يتشتّت همّه في محبّتهم و ليس له إلا قلب واحد ، فكيف يجمعهم في قلب واحد و هل ترضى الأسود من يدخلها عرينها ؟ و هل تقبل الصقور من يقترب من عشّها ؟ فكذلك الشيخ الكامل و المرشد المكمّل و العارف الدّال على اللّه تعالى هو الأسد الهاصر في عرينه لا يرضى أن تُرى أشباله و هو الصقر الكاسر في عشّه لا يقبل أن يمسّ بيضه ، لا أنانية و محّبّة في الاستحواذ على قلب المريد وإنّما حرصا على ربح و فوز هذا المريد ، و سرّ السلوك هو هكذا ، و سنّة اللّه تعالى للشيخ في التربية هي كذلك ، قلب واحد و شيخ واحد و طريق واحد و نبيّ واحد و قطار واحد لمن أراد الوصول إلى الواحد الأحد ، هكذا و إلا فلا . لأنّه ما سمّي التوحيد توحيدا إلا من هذه الحيثيّة . قال الشاعر:

أمامك فانظر أي طريق تنهج ***** الطرق شتّى ، مُستقيم و أعوج

المحبة الشَّرَكِيّة المُحَرَّمَة

قلت :

المحبّة المُحرّمة مَصْيَدَةٌ و شَرَكٌ * * * * فمن جرّها إلى نفسه فحياته ضَنَك

و من ابتُلي بها فصبر محتسبا * * * * فهو بَشَرٌ و روحُه روح مَلَك

و معنى الشّرَكِيّة أي التي وُضعت مَصيدة و شَرَكا في طريق السلوك ، يُمتحن بها المريد تارة ليَعرف قدرها فيعظم حبّ اللّه تعالى وحده في قلبه ، و تارة تكون إهانة و طردا ، وقد أخطأ بعضهم في فهم المحبة التي أوصى بها كل شيخ من السلف و الخلف مريديه ومع فهمهم الخاطئ لها زين لهم الشيطان ذلك فحفّزهم في المريد منها و أنها هي سر الفتح و لست أقصد في هذا المحل المحبة الروحية للشيخ و لا المحبة القلبية بين المريد و أخيه و التي ميدان فروسيتها و قصب سبقها عدم الانتصار للنفس كما قال سيدي أبو سعيد الخراز رضي اللّه تعالى عنه : {دخلت المسجد الحرام، فرأيت فقيراً عليه خرقتان يسأل شيئاً، فقلت في نفسي: "مثل هذا كل على الناس!". فنظر إلي قال: (واعلموا أن اللّه يعلم ما في أنفسكم فاحذروه)؛ قال: فاستغفرت في سري، فناداني فقال: (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده) وقال: "صحبت الصوفية ما صحبت، فما وقع بيني وبينهم خلاف". قالوا: "لم؟". قال: "لأني كنت معهم على نفسي}. ثم الإيثار الذي بيّنه سيدي أبو حفص النيسابوري رضي اللّه تعالى عنه بقوله :{ الإيثار أن تقدم حظوظ الإخوان على حظك في أمر آخرتك ودنياك }، و بالإيثار تزيد المحبة لأنّ الإنسان عبد الإحسان و الإحسان يقطع اللسان و بالإحسان يملك

الجنان وفساد ذلك محبّة الدنيا كما قال سيدي حمدون القصّار رضي اللّه تعالى عنه :{ أصل رفع الألفة من بين الإخوان حبّ الدنيا }،وعداوة الشيطان لبني آدم أشهر من نار على علم قال تعالى : (و لا تتبعوا خطوات الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلم : (إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم) وقال الواحدي في تفسير قوله تعالى : (و كذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس و الجنّ) يعني مردة الإنس و الجنّ ، و الشيطان كل عات متمرد من الإنس و الجنّ، قالوا : إنّ من الجنّ شياطين و من الإنس شياطين وإنّ الشيطان من الجن إذا أعياه المؤمن و عجز عن إغوائه و أيِس منه ذهب إلى متمرد من الإنس وهو شيطان الإنس فأغراه بالمؤمن ليفتنه ، و يدل على هذا ما روي أن النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم قال لأبي ذر رضي اللّه تعالى عنه : (هل تعوذت باللّه من شر شياطين الإنس و الجن ، قال : قلت و هل للإنس من شياطين ؟ قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم : نعم هم شر من شياطين الجنّ) وقال مالك بن دينار رضي اللّه تعالى عنه :{ إنّ شيطان الإنس أشدّ عليّ من شيطان الجن وذلك أني إذا تعوذت باللّه من شيطان الجن ذهب عني وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي عيانا } و في تفسير الخازن في قوله تعالى : (من الجنّة و النّاس) قال :{إن الوسواس الخنّاس قد يكون من الجنّة وهم الجن و قد يكون من الإنس وكما أن شيطان الجن قد يوسوس تارة ويخنس أخرى فكذلك شيطان الإنس قد يوسوس للإنسان كالناصح له فإن قبل زاد في الوسوسة وإن كره السامع ذلك إنخنس و انقبض ، فغاية اللعين و بغيته سلب الإيمان من بني آدم باللّه تعالى أو برسله أو بشيء مما ورد عنهم من اليقينيات و لو بالتشكيك فيه ليتساوى الإنسان معه في رتبة الكفر التي هو فيها و رتبة الشكوك

و الترددات فيما هو عين الحق المبين }،قال الشيخ سيدي أحمد العلاوي رضي الله تعالى عنه:

لا تحسبنّ الشيطان أمرا محيّرا ***** فهو جزء منك آخذ بحصّه

كما أخذت الأملاك منك و الهوى ***** و الروح فجسمك لكل بسهمه

و من تلك الغايات و الغوايات و الأشراك التي يلهث اللعين بها ليفسد قلب ابن آدم محبة الغلمان و الأحداث و هذه المحبة قد جرّت بالبعض إلى البليات و الطامات و أفسدت عليهم سلوكهم و رجعت بهم انتكاسا عن الطريق و قد ظنّها بعضهم من الطريق و ما هي منها و استدلّوا على التمسّك بها بما قاله زكي مبارك في كتابه التصوف بين الأخلاق و الآداب في فصل عنوانه : {الحبّ،الحبّ،الحبّ}. وقد أجدني محرجا و أنا أدق زر الإنذار على خطر هذه المحبة ثم قد يقرض جلدي من لا يعجبهم الإنقاص من شأنها و أنّها سرّ الطريق كما يزعمون لكن لم التهيب و الشك و تقديم رجل و تأخير أخرى كأنه مشيّ على الشوك ، فالله تعالى بيننا إن أنكرت عليها و لم يحرمها الله تعالى أمّا الروايات عن تلك البليات في عشق الغلمان و الأحداث و أصل هذه البلية أنها نشأت في قوم لوط زيّنه لهم الشيطان فأخرجهم به إلى العدوان، وحكى بعضهم أن أصل ذلك من يأجوج و مأجوج ونقله بعض المفسرين في قوله عز وجل أن يأجوج و مأجوج مفسدون في الأرض فيجب على كل ذي نفس شريفة وهمة منيفة الزجر و الردع عن هذه الفعلة الخبيثة التي شجت الملائكة إلى الله منها وحسم المادة الموصلة إلى ذلك كالنظر، فلذلك حرمه النووي رحمه الله تعالى مطلقا وقد ورد :{أنه قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد وفيهم أمرد فأجلسه وراء ظهره ونهى أن يحد الرجل النظر إلى

وجه الأمرد }وعن سيدي ابن المسيب رضي اللَّه تعالى عنه: {إذا رأيتم الرجل يلح بالنظر إلى وجه الأمرد فاتهموه}، وأخرج الخطيب عن سيدنا أنس رضي اللَّه تعالى عنه موقوفاً : {لا تجالسوا أولاد الملوك فإن الأنفس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق}، وحرض ساداتنا النخعي والثوري رضي اللَّه تعالى عنهما على عدم مجالستهم وعن سيدي الخدري رضي اللَّه تعالى عنه: {قال رأيت إبليس في النوم، فقلت له تعال، فقال لا حاجة لي بمن رمى الدنيا وإن لي فيكم لطيفة فقلت وماهي ؟ قال مجالسة الأحداث فأخذت العصا لأضربه قال أنا لا تخوفني العصا وإنما يخوفني نور القلب}.وقال سيدي الموصلي رضي اللَّه تعالى عنه:{صحبت ثلاثين شيخا كانوا يعدون من الأبدال و كلهم أوصوني عند فراقي إيلهم و قالوا لي : اتق معاشرة الأحداث } وعن بعضهم قال :{نظرت إلى شاب جميل، فقلت أيعذب اللَّه هذه الصورة فقال لي أستاذي:{أو رأيته ؟ سوف ترى غبّها}، فأُنسِيتُ القرآنَ بعدَ عشرين سنة}، وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي اللَّه تعالى عنه : {و من شأن المريد الصادق أن يغض بصره عن رؤية الصور المستحسنة ما أمكن فإنّ النظر إليهم كالسهم الذي يصيبه في قلبه فيقتله لا سيّما إن نظر بشهوة فإنّه كالسهم المسموم الذيّ يذيب جسم الإنسان في لمحة }، وكان سيدي أبو القاسم القشيري رضي اللَّه تعالى عنه يقول : {من أكبر القواطع على المريد مصاحبة الأحداث و النسوان والمساكنة إليهم بميل القلب و من ابتلاه اللَّه بشيء من ذلك فبإجماع القوم أنّ ذلك عبد أهانه اللَّه و خذله بل عن مصالح نفسه شغله و لو بألف ألف كرامة أهلّه ، و لو لم يكن إلا أنه شغل قلبه بمخلوق فأدخل فيه الشيطان و حرم دخول محبة الحق قلبه ، و أقبح من ذلك كله تهوين مثل ذلك على القلب

}،ثم قال رضي اللّه تعالى عنه : }و من ارتقى عن حالة الفسق من المريدين وأشار إلى أنّ ذلك من باب محبّة الأرواح لا الأشباح قلنا له : هذا من دسائس النفوس و الشياطين فربما خيل الشيطان إلى أحدهم أنّ ذلك لا يضر و أن كل جميل في الوجود إنّما جماله من جمال الحقّ تعالى ، و قلنا له : إنّ الذي ادعيت أنك تشهد جماله هو الذي حرّم عليك ذلك الشهود {.و قد سئل سيدي علي المواريني الشاذلي رضي اللّه تعالى عنه عن النظر إلى الأمرد الجميل هل يجوز ذلك للسالك فقال :} ما دام عند الإنسان الفرق بين الصور الجميلة وغير الجميلة فهو في محو الطبيعة و الشهوة فلا يجوز له النظر إلى الصور الجميلة المحرمة شرعا ، فإذ صار يشهد جمال الخنفسة و الضفدعة كجمال أحسن الصور الإنسانية على حدّ سواء فلا يمنع من رؤية ما ذكر لأنه حينئذ ذهب تمييزه و صار مستغرقا مع الخالق لا مع المخلوق ، و هذا أمر عزيز الوجود في غالب مريدي هذا الزمان فالحذر أولى بكل عاقل {، وقال سيدي محمد الشناوي رضي اللّه تعالى عنه :}لا ينبغي لمريد أن يجالس الأمرد الجميل ولا يسكن هو و إياه في خلوة واحدة ما أمكن فليحذر العاقل من مجالسة الأحداث إلا في حلقة الذكر أو الدرس بحضرة الشيخ أو الإخوان الصالحين مثلا مع غض البصرّ ، و قد بلغنا أن الفقراء الماضين كان أحدهم لا يعرف بطلوع لحية الأمرد إلا أن يعلمه الناس بذلك و وقع ذلك لسيدي محمد بن عنان مع الشيخ سيدي مارن قال : خدمت الشيخ نحو عشر سنين فطلعت لحيتي و كملت و لم يشعر بذلك حتى أخبره الناس بذلك فنظر إلى وجهي من ذلك الوقت { ، وقال الواسطي رضي اللّه تعالى عنه :} إذا أراد اللّه هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان و الجيف ، يريد بهم الشباب المرد الذين تميل النفوس الغوية إليهم { وقال الشيخ سيدي عبد

القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه :{ يا غلام ،أنت نفس وطبع و هوى تقعد مع النسوان الأجانب و الصبيان ثم تقول لا أبالي بهم ، كذبت لا يوافقك الشرع و لا العقل تضيف نارا إلى نار ، حطبا إلى حطب ، فلا جرم يشتعل دار دينك و إيمانك ، إنكار الشرع لهذا عامّ لم يستثن فيه أحدا } ،قال أبو العيناء : {حدثنا ابن عائشة قال: قلت لطبيبٍ كان موصوفاً بالحذق: ما العشق؟ قال: شغل قلب فارغ}, و أنشد لبعضهم:

وَقَائِلَةٍ جَدِّد لِعَيْنَيْكَ نَظْرَةً ***** تُسَكِّنُ ما بِالقَلبِ مِن أَلَمِ الوَجدِ

فَقلتُ لها: يَكْفِيكِ ما بي مِن الهَوَى ***** تُرِيدِينَ أن أزْدادَ جُهداً على جُهدِ

قال أحدهم : عرفت هواها قبل أن أعرف الهوى *** فصادف قلبا خاليا فتمكن

و لولا فراغ قلوب طالبي هذه المحبة لما سكنت نياطها و لو علم أصحابها أن اللّه تعالى وملائكته يلعنون عاشق الغلمان و الأحداث لتابوا من وقتهم ، فليحذر المريد الصادق من خطرها و ليشغل قلبه عوضها بمحبة شيخه و بذكر اللّه تعالى و أن يجتهد في دعائه أن يذيقه اللّه تعالى المحبة الروحية الخالصة التي مقياسها أنّ يرى الدّميم من إخوانه كالجميل لا فرق بينهما قطّ فإن فرّق فليعلم أنّ محبته مدخولة ومن ابتلي بمثلها أن يلتجئ إلى اللّه تعالىٰ بسرّه وجهره أن يرفع عنه هذا البلاء هذا إذا كان ابتلي بها كامتحان أمّا إذا كان هو جالبها و طالبها بنفسه فإنّ غيّها ضريبة لا بدّ منه ، و غيّها نسيان الحقّ و الدّار الآخرة و التّعلّق بمخلوق كتن مع سوء الخاتمة و العياذ باللّه تعالى ، نسأل اللّه تعالى السّلامة و العافية ، كما سبق ذكره عن بعضهم قال :{ نظرت إلى شاب جميل، فقلت أيعذبُ اللّه هذه الصورة فقال لي أستاذي:{أوَ رأيته ؟ سوف ترى غبّها}، فأُنسيتُ القرآنَ بعد عشرين سنة}، بل منهم من لا يَرعوي أن يجلبها بما

يُسمّى في عُرف الحكماء بالجلب ، فيبتغي لها كتابةَ الأحجبة ليُحبّه الحدث و الغلام ، بل حرام على من يُحرّم على مأكول أو مشروب أو مشموم بعزائم الجلب و المحبّة ثمّ يُطعمها للغلام ليتعلّق به ، بل ويلٌ ثمّ ويلٌ ثمّ ويلٌ لمن يكسو مأكولا أو مشروبا بالماء الهيّن و يُطعمه للغلمان فهذا الطريق منه بريئة و التّصوّف براءٌ . ثمّ إنّ صاحب هذه المحبة قد أشعل نار الهوى في قلبه لمّا أشغله بمحبة صورة الفتنة ، و هذه الصورة هي كالنّجاسة متى لوّثت قلبا من المحال أن يحظى بمحبة المولى تعالى ، قال سيدي ابن عطاء اللّه السكندري رضي اللّه تعالى عنه :{ كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته }، قال في شرحها سيدي أحمد بن عجيبة رضي اللّه تعالى عنه :{ جعل اللّه تعالى قلب الإنسان كالمرآة الصقيلة ينطبع فيها كل ما يُقابلها و ليس لها إلاّ وجهة واحدة ، فإذا أراد اللّه تعالى عنايته بعبده شغل فكرته بأنوار ملكوته و أسرار جبروته و لم يُعلّق قلبه بمحبة شيء من الأكوان الظلمانية و الخيالات الوهمية ، و إذا أراد اللّه تعالى خذلان عبد بعدله و حكمته أشغل فكرته بالأكوان الظلمانية و الشهوات الجسمانية فانطبعت تلك الأكوان في مرآة قلبه فانحجب بظلماتها الكونية و صورها الخيالية عن إشراق شموس العرفان و أنوار الإيمان فكلّما تراكمت فيها صور الأشياء انطمس نورها و اشتدّ حجابها فلا ترى إلاّ الحسّ و لا تتفكّر إلاّ في الحسّ}، هذا و لك أن تُشبّه القلب بجهاز التلفاز يريك ما يلتقطه جهاز استقبال القنوات الفضائية ، ففي ألف قناة يريك واحدة فقط و يُحجبك عن باقيها ، فإن شاهدت قناة تلاوة القرآن الكريم أو قناة فيها موعظة أو درس شرعي زاد إيمانك و رقّ قلبك ، و إن شاهدت قناة منحلّة فاسدة و مُفسدة قلّ إيمانك و أظلم قلبك في اللّحظة و الآن ، لأنّ القلب ما سُمّي

كذلك إلاّ لأنّه يتقلّب ، و من صور الأكوان كما قال الشيخ هي محبّة الأحداث و الغلمان ، و لو لم يكن من بلاء في هذه المحبّة إلا شغل القلب بمخلوق لكفى ، قال بعضهم لمن استوصاه : { احذر أن يرى في قلبك غيره ، فإنّه غيور لا يحبّ أن يرى في قلب عبده سواه } و قد يُنكر عليّ بعضهم على أنّها جائزة وموصلة ، و يسلقوني بألسنة حِدادٍ ، و لمثل هؤلاء أقول أنّ من ذاق عرف ، وما قلتُ عنها أنّها مُحرّمة بصريح الأدلّة إلاّ لما خبرتها و ذقتُ مرارتها و ذلك في بداية التسعينيات و كنتُ وقتها مُنتسبا إلى الطريقة العلاوية تبرّكا لأنّ شيخها غير كامل مُكمّل فلا يُسلّك ، و لمّا قاسيتُ شرّها و هولها تعلّقتُ بأستار الكعبة ليُذهبها اللّه تعالى عنّي ، ثمّ زرتُ عدّة مشايخ أتذكّر منهم الشيخ سيدي محمد بلكبير رضي اللّه تعالى عنه و سيدي أحمد فراح رضي اللّه تعالى عنه لتغيير الطريق لتُرفع عنّي بليّة هذه المحبة فأبوا عليّ ، ثمّ إنّي قلت لسيدي محمد بلكبير رضي اللّه تعالى عنه: لمّا لم تُدخلني طريق السلوك فأذن لي إذاً في الهجرة إلى الهند ، وكنتُ ناويا إمّا الطريقة الجشتية أو النقشبندية ، ليُذهب سيري في إحداهما بلاءَ هذه المحبّة الخبيثة ، لكنّه طمأنني قائلا : لا تُسافر فشيخك تجده هنا ، وبعد خمس سنوات التقيت الشيخ سيدي محمد الصّوفيّ رضي اللّه تعالى عنه ، و كل ما كنتُ أطلبه هو التحرّر من قيود بليّة هذه المحبّة و قد استجاب اللّه تعالى فله تعالى الحمد و الشكر . و إنّ هناك ميزانا يعرف به المريد صدقه في المحبّة الروحية من عدمه ، فإن أحبّ غلاما و كلّما قرُب منه ثارت شهوته الجنسيّة و فار أوّارها ، فليعلم أنّ هذه المحبّة هي المُحرّمة ، أمّا المحبّة الروحية الصادقة فلا يُفرّق فيها بين جميل و ذميم من إخوانه ، و متى رأى أحدَ إخوانه رأى فيه تجلّي شيخه ، فكلّما رأى أخاه تذكّر شيخه ، فهذه هي

المحبّة الصافية الصادقة التي ينبغي للمريد ربط قلبه بها . ثمّ اعلم أخي الفقير أنّه لا محبوب و لا حبيب إلاّ اللّه تعالى فاربط به قلبك ؛ قيل ليحيى بن معاذ:{ يروى عن رجل من أهل الخير قد كان أدرك الأوزاعي وسفيان، أنه سئل: متى تقع الفراسة على الغائب؟ قال: إذا كان محباً لما أحب اللّه مبغضاً لما أبغض اللّه، وقعت فراسته على الغائب}. فقال يحيى:

كلّ محبُوبٍ، سِوَى اللّهِ، سرَفْ *** وَهُمُومٌ وَغمُومٌ وَأَسَفْ

كلّ محبُوبٍ، فَمِنْهُ خَلَفٌ *** ما خَلا الرّحمنَ ما منهُ خَلَفْ

إنّ للحُبّ دَلالاتٍ إذا *** ظهرَتْ من صَاحبِ الحبّ عُرِفْ

صَاحِبُ الحُبّ حَزِينٌ قَلْبُهُ *** دائمُ الغُصّةِ مَحزُونٌ دَنِفْ

هَمُّهُ في اللّهِ لا في غَيْرِهِ *** ذاهِبُ العَقلِ وَباللّهِ كَلِفْ

أشعَثُ الرّأسِ خَمِيصٌ بطنُهُ *** أصفرُ الوَجنَةِ و الطّرْفُ ذَرِفْ

دَائِمُ التّذكارِ مِنْ حُبّ الذي *** حُبُّهُ غَايَةُ غايَاتِ الشّرَفْ

فإذا أمعنَ في الحُبّ لَهُ *** وَعَلاهُ الشّوْقُ من داءٍ كَتُفْ

باشرَ المحرَابَ يَشكُو بثّهُ *** وَأمَامَ اللّهِ مَوْلاهُ وَقَفْ

قَائماً قُدّامَهُ مُنْتَصِباً *** لَهِجاً يَتْلو بآياتِ الصُّحُفْ

رَاكِعاً طَوْراً وَطَوْراً ساجداً *** باكياً وَالدّمعُ في الأرضِ يَكِفْ

أوْرَدَ القَلبَ على الحُبّ الّذي *** فيهِ حُبُّ اللّهِ حَقّاً، فعَرَفْ

ثمّ جَالَتْ كَفُّهُ في شَجَرٍ *** أثبَتَ الحُبَّ، فَسمّى و اقتَطَفْ

إنّ ذا الحُبَّ لمن يُعنى لَهُ *** لا لدارٍ ذاتِ لَهوٍ وَطُرَفْ

لا وَلا الفِرْدَوْسُ لا يألَفُها *** لا وَلا الحَوْرَاء من فوقِ غُرَفْ

زيارة المشايخ

قلت :

زيارة المشايخ للفقير المبتدئ لها حُجُبا *** و للمنتهي تقتضي التواضع و الأدبا
فالأوّل كشمعة أدنى نسمة تُطفيها *** و الثاني كشُعلة نار تزيدها الريحُ تلهبا

قد أنكر بعضهم نهي المريد لزيارة غير شيخه و لم يدروا سبب ذلك النهي ، فظنوا أن زيارة المشايخ لها بركة و ينقلب منها المريد بأنوار و أسرار ، و لم يفرقوا في زيارة المشايخ ما بين سالك و لا مجذوب و إنما نهى الشيخ إذا كان مربيا مريده عن زيارة غيره من المشايخ شفقة و خوفا عليه أن ينقلب عن طريق السلوك و أنّ مراد الشيخ من مريده إزالة رعونات نفسه و تربيته و ترقيته ليكون أهلا للحضرة الربانية و قد يرى المريد من شيخه بشريته فقط و تحجّب عنه روحانيته و خصوصيته فيراه كآحاد الناس فإذا ما زار هذا المريد شيخا آخرا ربما لعب به الشيطان و زين له في مقام هذا الشيخ و قد تصدر من الشيخ كرامة يفتن بها و يقول لي كذا و كذا في صحبة شيخي و لم تصدر عنه أية كرامة و يظن النقص في شيخه و متى ظهر ذلك لا ينتفع منه أبدا كما قال الغوث سيدي أبي مدين شعيب رضي الله تعالى عنه : { من ظهر له نقص في شيخه لم ينتفع به } ، و من هذه الحيثية ينكب على وجهه و يعود عن السلوك و قد

يسلب و لا ينتفع بأي شيخ بعد ذلك، و حكم المريد قبل استحكامه في الطريق و قبل رجولته الروحية و لو كان ابن التسعين هو كمثل الشمعة أدنى نسمة هواء تطفئها فروحه أدنى شيخ يملكها و سره أدنى مجذوب يسرقه و نوره أحقر سوء أدب مع غير شيخه يطفئه، أما سوء أدب المريد مع شيخه فلا يضر بل هو كالواجب أو المفروض عليه، فترى المريد يسيء الأدب في حق شيخه و هو عين أدبه و هو سرّ تربيته، و لذلك قالوا: { أنّ ترك الأدب عند أهل الأدب أدب }، أما إذا صار المريد رجلا في الطريق وتمّ أدبه فلا تضره زيارة جميع المشايخ سالكين كانوا أم مجاذيبا و صار حكمه حكم شعلة النار لا يزيدها إطفاؤها من المجاذيب إلا اشتعالا على اشتعال ،و متّى رأى المريد بشرية شيخه وخصوصية غير شيخه فقد آن أوان خسرانه و العياذ بالله تعالى، قال سيدي سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه: { كان رجل مشهور بالولاية بالبصرة و كان خبّازا فمضى إليه شخص من أصحابي يأخذ عنه فوجده ممتقعا خوفا من شرر النار فقال في نفسه: لو كان هذا وليا لله تعالى ما أحرقه شرر النار، فقال له الشيخ: يا ولدي إنك استصغرتني و ما بقيت تنتفع بكلامي، فرجع إلى سيدي سهل و ذكر له القصة فقال: ما استصغر أحد فقيرا إلا حرم فوائده أرجع إليه بالحرمة فرجع إليه فانتفع بزيارته و عقد التوبة على أنّه لا يعترض على فقير في حاله حتى يموت }.

صحبة المجاذيب

قلت:

مَن صَحِبَ مجذوبا لا يُسلِكه و لا يُنجيه

إذْ قيل : أنّ فاقدَ الشيءِ لا يُعطيه

فالفقير عطشان و مشرب المجذوب لا يُرويه

و كلّ منهما كمن رموه بحرا و قد قيّدوا يديه

و من الأمور القاطعة عن الطريق و السالبة للمريد صحبته للمجاذيب وأصحاب الحال الذين هم غير سالكين على يد شيخ مربي وقد نهى المشايخ والمربون العارفون بالله و الدالين عليه تلامذتهم عن صحبة المجاذيب لأمور وأسباب يعلمونها هم قال الشيخ سيدي عبد العزيز الدباغ رضي الله تعالى عنه : {و السالكون يتجنبون المجاذيب في أمور منها أن السالك لا يأكل مع المجذوب لأنّ المجذوب لا يبالي بما خرج على لسانه من سب أو غيره فيجب على السالك أن يتقي ذلك منه و منها أنه لا يسافر معه لهذه العلة و منها أنه لا يلبس ثوبه لأنه لا يتوقى النجاسة و منها أنّه لا يحل للسالك أن يتزوج مجذوبة و كذا العكس}، و قد عنّ لي و الله أعلم أنّ نهيهم عن لبس السالك للباس المجذوب كي لا يسري حال المجذوب إلى باطن السالك كشأن الخرقة المتعارف عليها عند الصوفية قديما و التي كان الشيخ يلبسها مريده فيسري حال الشيخ إلى باطن المريد توّا ،و عن سبب نهيهم عن صحبة المجذوب كي لا يسرق طبع السالك من طبع المجذوب لأنّ الطبع سرّاق كما يقال أمّا عن نهيهم عن زواج السالك من المجذوبة فكي لا ينتج نسل فاقد التمييز و العقل و قد { نهى النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم أن تُسْتَرضَعَ الحمقاء}أي أن تُرضِعَ لأنّ طبعها يسري إلى الرضيع من حليبها فتصير فيه شعبة من الحمق هذا إن لم يصِرْ أحمقا ، و لا

فرق بين الحمقاء و المجذوبة إلا في الاسم ، فكيف بالمجذوبة إذا ولدت و أرضعت حتما يكون ولدها مثلها ، لأنه علميا يرث الطفل من أمّه ثلاثة و أربعين صبغيا (كروموزوما) و من أبيه نفس العدد و تلك الصبغيات أو المورّثات تحمل خصائص الوالدين إلى طفلهما ، خصائصا عقلية و نفسية وروحية و جسدية ، و أنّ أخطر مراحل التكوين الإنساني هي عند التقاء نطفة الأب مع بويضة الأم و أن أي زيادة أو نقص في عدد تلك الصبغيات و لو بزيادة صبغ واحد أو نقصه يسبب خللا و خطرا على الكيان الإنساني و من المخاطر في حالة زيادة صبغي واحد أن يصير المولود قاصرا عقليا أو منغوليا لا يستفيد منه والديه إلا الإزعاج و المعاناة في تربيته كبيرا و صغيرا ، و بهذا نستدل على أنّ المجذوب إذا تزوج سالكة ولدوا مجذوبا والحال كذلك إذا تزوج سالك مجذوبة ، و قد نهوا أيضا عن محادثة السالك للمجذوب و مجالسته و مصاحبته إذ الصاحب ساحب و من القصص التي تروى في هذا الشأن أن أحدهم وجد مجذوبا مدفوعا عن الأبواب يسأل الناس فيردوه فشفق عليه و أضافه في داره وكان هذا الشخص غنيا فأكرم المجذوب غاية الكرم و في الصباح غيّر له ثيابه بأخرى جديدة و كان المجذوب بدينا فلما ألبسه الجلابة و كانت ضيقة عليه صاح المجذوب قائلا : ضيّقتها عليّ ، الله يضيق عليك ؟ ولأن المجذوب لا يعي ما يقول و دعاؤه مستجاب فقد ضاقت الدنيا على ذلك الغني وعاش في فقر حتى مات ، فلهذا السبب نهى المشايخ عن ملاقاة المجاذيب ، كما نهوا أن يطلب منهم الدعاء لأنهم فاقدون العقل و التمييز فعوضا أن يدعو المجذوب لشخص ما ، يدعو عليه .

و هناك حادثتان وقعتا لي مع مجذوبين أسردهما للعبرة و لمعرفة مقام الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه و كيف يحمي مريده من طوارق همم المجاذيب ، أولى تلك الحادثتين أنّني سايرت مجذوبا و اعتقدت فيه فكانت الضربة كبيرة و الضريبة كثيرة ، و بيان ذلك أنّني أردت زيارة الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، فمررتُ على أحد المجاذيب المُدّعين في بلدة تونان و كان موظّفا ببلديتها و كان من الثقلاء الذين لا يحتملهم سيدي الشيخ ، فقلت له : أريد زيارة الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه فهل لك في مُرافقتي ، فقال لي : نعم ، نلتقي في الزاوية عند المساء ، ثمّ ذهبت إلى زاوية الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و جلست في مسجد الحيّ حتّى جاء ذلك المجذوب فسرتُ معه لنلقى الشيخ ، و كان يومَ إثنين ، فوجدنا سيدي الشيخ صائما فأفطرنا معه ، وبتنا ليلتنا في الزاوية و قبل النوم راح هذا المجذوب المدّعي يُحدّثني عن نفسه و أنّه شيخٌ مأذونٌ من الشيخ سيدي فلان و سيدي علاّن ، و أنّه بذلك الإذن صار هو الآخر شيخ طريقة ، و ليته قال ذلك و سكت ، بل راح يفتري على الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه أقوالا يقف لها الشعر ، و يُلوّح لي بافتراءاتٍ ليُفسد عليّ إعتقادي في الشيخ و محبّتي له ، و لم يستح و هو في حرم الشيخ أن يخبّب مريدا على شيخه ، و في الصّباح ودّعنا الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و بمجرّد خروجي من عند سيدي الشيخ طرقني حالٌ لم أعهدْه ، ولم أعهد ثقلا كثقله و لا انقباضا كانقباضه و لا فتورا و كسلا كفتوره و كسله ، و بالجملة صِرتُ كأنّي أحمل جبلا و ثقلت ذاتي فسِرتُ بطيءَ الخطوة ، و طاش عقلي فصرت كالمخبول أرى النّاس فأراهم خيالا و أسمع أصواتهم

فكأنّي أسمعها في حُلم أو في خيال، و لمّا أجهدني هذا الحال طلبتُ من هذا المُدّعي أن يتركني أنام و لو في ركنة خالية من بلدة تونان لأنّه لم يتركني أسافر إلى محلّتي لأنّه يزعم استضافني إلى بيته لتناول العشاء و المبيت عنده في بلدة الغزوات، ثمّ تذكّرتُ مسجد البلدة فرُحتُ إليه لأنام و لما وقفتُ ببابه وجدته مُصفدا، فرُحتُ إلى من يسكنه من الطلبة الذين يحفظون القرآن الكريم فترجيتُهم أن يفتحوا لي الباب لأنّي مُرهق و أريد أن أنام، فتمانعوا بداية لأنّ شيخهم منعهم من فتح المسجد في غير أوقات الصّلاة، ثمّ تداركتني من الله تعالى رحمة ثمّ من سيدي الشيخ رأفة ففتحوا لي الباب فدخلت و اضطجعتُ لأنام فهرب منّي النوم لانشغال ذهني بأصوات الطّلبة و هم يقرءون القرآن الكريم، فحاولت عبثا طلب النوم فهرب منّي نهائيا، فبقيتُ هناك ساعة أترجّى في زورة النوم و أشحذه في غمضة عين، فلم أجد إلاّ الأرق، ثمّ رجعتُ إلى ذلك المُدّعي إلى البلدية بحكم عمله فيها، فأخذني إلى أحد الطُلبة الرقاة ليكتب لي حرزا يشفيني ممّا أنا فيه فكتب لي حرزا، ثمّ أخذني إلى قبّة أحد الأولياء ليُزوّرني فسرتُ معه، و أنا في كلّ ذلك كالمخبول بل كالمهبول، و عند المساء سرتُ معه إلى محلّه بالغزوات، و في الليل راح يُحدّثني عن نفسه مرة أخرى و بدأ المسلسل المكسيكي عنده و أنّه مأذون و له عشرات المشائخ و أنّ له الإذن المُطلق في ذكر و تلقين اسمه تعالى اللطيف لذكره عشرات الآلاف، فأعطاني طريقة ذكره تلك في ورقة، و نمتُ بالكاد و تركته يذكر اللطيف بالآلاف، و في الصّباح استيقظتُ و لم أجد للحال الذي طرقني أثرا، فركبتُ أقرب و أسرع سيارة و تركته ثمّ قطّعتُ الورقة التي أعطاني فيها ذكره، و لحد الآن لم أعرف سبب الحال الذي طرقني، لكنّي أراه إمّا أدبا لي

من الشيخ كي لا أصاحب المجاذيب مرّة أخرى ، أو هو كالحصن الروحاني لسرّي كي لا يقدر أن يصل له دلو المجذوب ذاك ، لأنّه كان عطشانا و الماء أمامه لكن ملّحه سيدي الشيخ بقطرة من بحاره ، فهذه حادثة أسردها عبرة لمن لازال من فقراء سيدي الشيخ يُصاحب المجاذيب ، فإن أحسّ بِحَرِّ جمرة النّهي فهو السعيد و أنّ الشيخ يُلحِظه و يُلاحظه و إلاّ فليُراجع نفسه ، و منذ تلك الحادثة صِرتُ أكره ذلك المجذوب المدّعي أشدّ الكُره ، و قد كان أثقل الخلق على سيدي الشيخ ، ثمّ أخذت بوصفة سرّيّة كنتُ أراها قنبلة ذرّيّة أفجّرها في وجه المجاذيب ، لأنّ بعضهم إن كان مُعتديّا يستحق الأذى بها حتّى أنّ نهاية كلمة المجاذيب تنتهي بكلمة ذيب ، و الذيب معروف بمكره و حيله ، و هذه الوصفة السرّيّة أنعتها و أصفها لمن إبتلي بملاقاة المجاذيب قسرا و قهرا و مُكرهًا كمن يُلاقيهم في غدوّه و رواحه و يخشى آذاهم الباطني ، لأنّ ملاقاة المجاذيب تطمس أنوار السّالك و تشوّش عليه و قد كان الشيخ سيدي محمّد الصّوفي لا يحبّ مجالستهم ويطرد المدّعيّ منهم مِن مجلسه ، فقد رأيته رضي الله تعالى عنه طرد مجذوبا في أحد المجامع ، و سرّ طرده رضي الله تعالى عنه له و خاصة المُدّعي منهم هو لمصلحة المجذوب ، كي لا يُشوّش على أنوار الحضرة و على أسرار الفقراء فتصيبه سهام الشيخ الباطنيّة فتُؤذيه وتسلبه ليصير مسلوبا فإن ادّعى و شوّش مع ذلك و هو مسلوب ، سُلب سيئه و أبدل كافًا ليصير مكلوبا ، و هذه الوصفة قد جرّبتها مع أحد المجاذيب الكبار و قد كان بعض الفقراء يخشونه أشدّ الخشية و هو المجذوب الذي ذكرت عنه أنّه كان يُكاشف بعض الفقراء بأسماء زوجاتهم ، و بيان ذلك أنّني زرت أحد الإخوان في بلدة حاسي رهانة فوجدت عنده هذا المجذوب و قبل دخولي عليهما ناديت على

الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي الله تعالى عنه بباطني ثمّ دخلت و لم أكن أعلم ما سيصير إليه أمري معه ، فجلستُ بتواضع و أدب معه واحترام ، فقال هذا المجذوب لأخي الفقير و كنّا ثلاثة فقط : لا ينبغي أن أجالس من ليس له أدب و ليس بمتواضع ، وكان يقصدني باللّوم ، فداخلني شعور بالفرح و السّرور بسرّ و قوّة همّة شيخي سيدي محمّد الصّوفي رضي الله تعالى عنه لمّا ناديت عليه فأعكست همّتُه رضي الله تعالى عنه مِرآةَ هذا المجذوب و شوّشت على جهاز استقباله كما يزعم ، ثمّ أراد الإنصراف فراح يدعو للفقير الذي استضافه ، فقلت في نفسي : اللهمّ إنّك تعلم أنّني لا أحتاج إلى دعائه ، و ناديتُ على شيخي بباطني ، و كرهت أن يدعو لي هذا المجذوب ، فجاءه الإرسال منّي مشوّشا فقال لي قد دققتُ على قلبك و دخلته فرأيتك حزنتَ لأنّني نسيتُ أن أدعوَ لك ، فراح يدعو و أنا أبتسم على سذاجته أمام نملة مثلي لكن لها رُكنٌ وثيق و هو همّة سيدي الشيخ رضي الله تعالى عنه ، ثمّ وقفنا جميعا لننصرف و كنتُ لابسا عباءة فضفاضة كبيرة عليّ تخالها خيمة ، فأدخلت رأسي في كمّي لأُخرِج سبحتي كي أذكر وردي ، فصاح المجذوب حالفا بالله : والله العظيم لن آخذ منك أيّة زيارة {أي دراهم الصّدقة} فعلمتُ حينها أنّه يُخرّف و قد تشوّش راداره بقوّة جلجلة رعود سطوة الشيخ سيدي محمّد الصّوفي رضي الله تعالى عنه و تعطّل جهاز استقباله بقوّة صواعق بروق همّة سيدي الشيخ رضي الله تعالى عنه ، فهذه وصفة قاهرة لكلّ مجذوب أيّا كان مستواه ، فعليك بها أخي الفقير إن أردت أن تُعكس مِرآة المجذوب فتُشوّش راداره وتُخلي دارَه إن أراد إذايتك .

الافتتان بأصحاب الكشف

قلت :

الفارح بكشفه مخدوع ، أحمق و مغرور

و المتّهم لنفسه في كشفه على خير و مستور

و مَن قايس صاحبَ كشفٍ مع شيخه في مقام

كمن قايس في الرهبة نملة مع أسد هصور

ومن البلايا التي غرق فيها بعضهم أن فتنوا بأصحاب الكشف و صاروا يلازمونهم أكثر من ملازمتهم لشيخهم و فنوا في حبهم و ما طلبوه هؤلاء منهم سارعوا في تلبيته و كلما كاشفوهم بأشياء دنيوية دنيئة كبروا في أعينهم و قارنوهم مع شيخهم وقالوا ماداموا أعلم من شيخنا و لهم الكشف الصريح فلما الوقوف مع شيخ ليس له كشف ففارقوا شيخهم و انتكسوا بعد ما ضحك عليهم الشيطان و إن كانوا فتنوا بأصحاب الكشف فليعلموا أن من وقف مع الكشف كسف وخسف ، كسفت شمس أنواره و خسف بدر أسراره و قالوا : (من أراد الكشف الله يكشفه) .وليعلم المفتونّ بمثل هؤلاء أن كثيرا من الحيوانات لهم المقام الأعلى منهم فمن فتن برجل يرى الروحانيين فليعلم أن الديك أفضل منه و من فتن بمن يرى الجنّ فإنّ الحمار و الكلب أفضل منه ومن فتن بصاحب كشف فليعلم أنّ الشيطان أفضل منه لأنّه يرانا هو و قبيله و يعلمون بأسرارنا و هواجس خطراتنا . و كثير من الفقراء وقفوا مع هؤلاء أصحاب الكشف و وقعوا من جرف هار فانهار بهم في قاع القطيعة و الحرمان فخسروا أنفسهم و فاتهم خير كثير لو لازموا

شيخهم و صبروا لأنّ مراد الشيخ هو تصفية بواطنهم و إصلاح ذواتهم لتكون أهلا للحضرة النبوية ثمّ للحضرة الإلهية وليس للكشف كبير خطر في نظر الشيخ . فقد قال لنا سيدي الشيخ رضي اللّه تعالى عنه ذات يوم :{ أنّ الكشف أوّل مراتب الطريق ،و ليس له أي اعتبار وفتنته أعظم لمن وقف معه }،ثمّ إنّ الكشف قد يكون ظلمانيا شيطانيا و هو أخطر على صاحبه و قد سئل الشيخ سيدي أحمد السرهندي رضي اللّه تعالى عنه عن إلقاء الشيطان هل يكون له دخل في كشف الطالبين الصادقين و شهودهم ، فإن كان فبماذا يعلم و يتضح أنّه كشف شيطاني و إن لم يكن فما السبب في وجود الغلط في بعض الأمور المهمة فأجاب رضي اللّه تعالى عنه :{ اللّه أعلم بالصواب لا أحدا محفوظا من إلقاء الشيطان كيف و إذا كان ذلك متصورا في الأنبياء بل متحقق ، فبالطريق الأولى أن يكون في الأولياء ، على أن الأنبياء ينبهون على هذا الإلقاء و يميز الباطل من الحق ، قال اللّه تعالى :(فينسخ اللّه ما يلقي الشيطان ثم يحكم اللّه آياته) هو تنبيه دالّ على هذا المعنى و في قصة الغرانيق ما يثبت ذلك و ليس هذا التنبيه بلازم في الأولياء فإنهم تابعون للنبي ، فكلما وجدوه على خلاف ما جاء به النبي يردونه و يرون بطلانه ، و أما في صورة سكتت عنها الشريعة و لم تحكم بإثباتها ونفيها فامتياز الحق عن الباطل فيها بطريق القطع مشكل ، فإنّ الإلهام ظني و لكن لا يتطرق القصور إلى الولاية بسبب عدم ذلك الامتياز أصلا فإن إتيان أحكام الشريعة و متابعة النبي متكفل بنجاة الدارين و الأمر المسكوت عنه زائد على الشريعة و نحن لم نكلف بالأمور الزائدة . و ممّا ينبغي أن يعلم أنّ الغلط في الكشف غير منحصر في إلقاء شيطاني فإنه ربما يتخيل أحكام غير صادقة في القوّة المتخيلة لا مدخل

للشيطان فيها أصلا ومن هذا القبيل رؤية النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم في المنام و الأخذ عنه بعض الأحكام ممّا ألحق في الحقيقة خلاف تلك الأحكام ، و الحال أنّ إلقاء الشيطان غير متصور في تلك الصورة فإنّ مختار العلماء أنّ الشيطان لا يتمثل بصورة خير البشر صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم على أيّ صورة يرى فليس في تلك الصورة إلاّ تصرف المتخيلة بإلقاء غير الواقعي واقعيا }، و قال الشيخ الرواس رضي اللّه تعالى عنه في فذلكة الحقيقة في أحكام الطريقة :{ ردّ ما يقع في الخاطر و يزعمه الزاعم إلهاما ولم يكن مطابقا للأحكام الشرعية ، فإن الجنيد رضي اللّه تعالى عنه قال : قد تقع في خاطري النكتة { أي اللطيفة و الفائدة } من علوم القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب و السنة ، وعدم الانصراف مع الخيال الذي ينتج عن خلوة أو كثرة جوع و سهر و الوقوف فيه عند الحد الظاهري ليكون خيال السالك تابعا لقانون الشرع و لا يكون هو تابعا لخياله } هذا عن كشف الصادقين السالكين فما بالك بكشف المدّعين البطالين الذي فُتِنوا و فَتَنوا و كانوا لصوص أسرار و طامسي أنوار و قطاع طريق السلوك على مريديها و من عجيب هؤلاء أنّ أحدهم كان ينظر إليه على أنّه أكبر وليّ و له الكشف الصحيح و الصّريح و كان مرّة جالسا في مجمع رجال فبدأ في إظهار عضلات كشفه فبدأ من أول جالس و قال له زوجتك تسمّى فلانة ثم قال لآخر و أنت زوجتك فلانة و هكذا إلى الثالث و الرابع و القوم ما بين مشدوه بقوة كشفه و بين مستحيّ و قد عُرِف اسمُ زوجته ، فهل هذا كشف؟! وهو الذي فتن به العوام و ظنوا أنّ صاحبه من كبار الأولياء بل فتن به حتى بعض الفقراء و هو كشف شيطاني من مبدئه و صاحبه إمّا دجّال أو سحّار مشعوذ. قال الشيخ سيدي أحمد الرفاعي رضي اللّه

تعالى عنه : {إياكم و الدجّاليّة إياكم و الشيطانية إياكم و الطرق التي تقود إلى كلا الوصفين ، اخجلوا الشيطان بخالص الإيمان خربوا بيع الدجل بيد الصدق }.ثمّ إنّ بعضهم قد لا يعجبه النهي عن صحبة أصحاب الكشف و الشيخ بيننا إن كان رضي اللّه تعالى عنه رضي بها ونهيتُ عنها . و هناك ميزان آخر لمعرفة هؤلاء و لو كانوا أصحاب كرامات نلهيك عن كشفهم المفضوح و هو ميزان الشريعة فإن وجدت الرجل صاحب الكرامات واقفا عند حدود الشريعة يأتمر بأوامرها و ينتهي عن منهيها فاعلم أنّه صادق كما قال سيدي أبو يزيد البسطامي رضي اللّه تعالى عنه:{ إذا أعطي الرجل من الكرامات حتّى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تروا كيف تجدونه عند الأمر و النهي وحفظ الحدود و أداء الشريعة }. و قال سيدي سهل بن عبد اللّه التسترّي رضي اللّه تعالى عنه:{ أصول طريقتنا سبعة : التمسّك بالكتاب، والاقتداء بالسّنة، وأكل الحلال، وكفّ الأذى وترك المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق } و قال سيدي أبو سليمان الداراني رضي اللّه تعالى عنه:{ قد تخطر النكتة أي{الخاطرة أو اللطيفة}من نكت القوم في قلبي أياماً فلا أقبل منه. أي من قلبي. حتّى يأتي بشاهدين عدلين من الكتاب و السنة}.و قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه :{ القدر ظلمة . أي الحياة المقدرة التي نعيش فيها ظلمة . فادخل في الظلمة بالمصباح الّذي هو الحكم، والحكم هو كتاب اللّه وسنة رسوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم لا تخرج عنهما }.وقال الشيخ سيدي شعيب أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه:{ إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات و تنخرق له العادات فلا تلتفتوا إليه و لكن انظروا كيف هو عند امتثال الأمر و النّهي}. فمن ظهرت عليه كرامة وفقدناه عند الأمر و وجدناه عند النهي فهو على خطر و

تكون كرامته استدراجا له و العياذ بالله و قد ذكرت الكرامة عند سيدي سهل بن عبد الله رضي الله تعالى عنه فقال :{ و ما الآيات و ما الكرامات ؟ و هي شيء ينقضي لوقته و لكن أكبر الكرامات أن تبدّل خُلقا مذموما من أخلاق نفسك بخُلُق محمود }، و قيل لسيدي أبي يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنه :{ إنّ فلانا يمشي على الماء، فقال : الحيتان في الماء و الطير في الهواء أعجب من ذلك }، و قال سيدي أبو العباس رضي الله تعالى عنه :{ ليس الشأن من تُطوى له الأرض إنّما الشأن من تُطوى عنه أوصاف نفسه ، فإذا هو عند ربّه}، ثم بيّن سيدي أبو مدين رضي الله تعالى عنه خطر الدعوى فقال:{ الدّعوى من رعونة النّفس و المدّعي منازع للربوبية }،و قال أيضا : {المدّعي من أشار إلى نفسه}. و قيل:{ أنّ الدّعوى فضيحة و لو كانت صحيحة }، كما قال سيدي الجنيد رضي الله تعالى عنه لشاب كان يلازمه فصاح يوما في مجلس ذكر :{ إن كنت صادقا فقد اشتهرت و إن كنت كاذبا فقد افتضحت ، لا تعد إليها و إلا فلا تصاحبني }، بل أيّ جهل ركب المدّعي حتّى أشار إلى نفسه و المدّعي فيه ثلاث صفات مذمومة فيه الأنا الإبليسية و العندية القارونية و اللّيّة الفرعونية و قد ذمّهم الله تعالى و ذمّ من يقتدي بهم في الدنيا و الدين .فالمدّعي يقول أنا خير من الشيخ الفلاني و لي ما ليس له و عندي ما لا يوجد عنده ، و إبليس قال أنا خير منه أي من أبينا آدم عليه السلام و فرعون قال و لي ملك مصر و قارون قال إنّما أوتيته على علم عندي ، فأي جهل هذا و أي فتنة طمّت قلب المدّعي و عمّت عقله حتّى تشبّه بأعداء الله لو كان يعقل !؟ قال سيدي أحمد الرفاعي رضي الله تعالى عنه : {إياكم و الكذب على الله تعالى و الخَلق فإنّ الدّعوى كذب على الله تعالى و خلقه ، كلّ العبودية معرفة مقام العبديّة ، الدين عمل

بالأوامر و اجتناب عن النواهي و خضوع و انكسار في الأمرين، العمل بالأوامر يقرب إلى اللّه تعالى و الاجتناب عن النواهي خوفٌ من اللّه تعالى، طلب القرب بلا عمل محال و أي محال؟ الخوف مع الجراءة فضيحة، اطلبوا اللّه تعالى بمتابعة رسوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم، إيّاكم و سلوك طريق اللّه تعالى بالنفس و الهوى فمن سلك الطريق بنفسه ضلّ في أول قدم}، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا: {أي بطّال! تعلّمت علم الكِبر تعلّمت علم الدّعوى تعلّمت علم التّعالي، إيش حصل لك من كل ذلك؟ تطلب هذه الدنيا الجايفة بظاهر حال الآخرة لبئس ما صنعت، ما أنت إلا كمشتري النجاسة بالنجاسة كيف تُغَفِّل نفسك بنفسك و تكذب على نفسك و أبناء جنسك؟} ثمّ يذكّر رضي اللّه تعالى عنه مريده بنفسه فيقول له: {أيّها السالك إيّاك ورؤية النفس، إيّاك و الغرور، إيّاك و الكِبْر، فإنّ كل ذلك مهلك، ما دخل ساحة القرب من استصغر الناس و استعظم نفسه، من أنا و من أنت؟ أي أخي كل واحد منّا مُسَيْكِين أوّله مضغة و آخره جيفة}، و طريق الصالحين شأنها كالبحر ينفي الزبد (فأمّا الزبد فيذهب جُفاء و أمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) و كالكير يَذهب بخبث الحديد و يُبقي جيّده لمن ادّعى و رأى نفسه عن إخوانه بل عن سائر الخلق وقد قالها سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه: {أنّ طريقنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كُنّست بأرواحهم المزابل}، و التواضع هو سرّ الوصول كما قال سيدنا رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم: (طوبى لمن تواضع في غير منقصة و أذلّ نفسه في غير مسكنة) فالتواضع هو بساط العز الدائم عليه يسير الموُفق، و التذلّل هو محو نقطة النفس ليعيش صاحبه في التدلّل، فلكي تتدلّل في نهايتك، تذلّل في بدايتك، كما قال سيدي أحمد الرفاعي رضي اللّه

تعالى عنه:{من لم يكن له خدّ يُداس لا يكون له كفّ يُباس} و قال سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّٰه تعالى عنه لمريد له :{ بك لا يجيء شيء و لا بدّ منك }، قال أحدهم :

الدّعوى من ريح النفس بادر لتركها ***** فمن حمية النفس ترك الدّعاوي

قال الشيخ العارف سيدي محمد بن عبد الجبّار النفّري رضي اللّٰه تعالى عنه في المواقف و المخاطبات :{ أوقفني في النفس فرأيت الملك و الملكوت كلّه ، أبنيتها و قصورها و رأيت العلم كله و المعرفة كلها و العقل بهُيلمانه خُدّامها و الأسماء و الحروف جنودها و أعوانها و قال لي ربي هي عدوّك ، فلا تُحاورها فإنّك لن تحاورها إلا بعلم ، و العلم جنديها و العقل خادمها و هي ناطقة لا تصمت ، ليس تصمت فتسمع ، و إذا حاورتها أوهمتك أنها تسمع و هي بالحق لا تسمع إلا نفسها و صوتها و رغائبها ،و قال لي ربي إن أردت مُلكها و مُلك بيوتها و جنودها ،إن أردت إخضاعها فلا تحاورها و أضمر جوعها كما تضمر هي من وراء ما تدعوك إليه شبعها و حينئذ سوف تراها تُفارق جندها و تخرج من قصورها و تُحاورك في الجوع لا في غيره فلا تُحاورها و لا تُجبها فإنّك إن حاورتها أو أجبتها أرغبتها فأخرجتك عن إضمارك و إذا أخرجتك عن إضمارك ظفّرت بك و لو حاورتها بالعلم غلبتك فالعلم و المعرفة جنودها ، إنّما مثَل ذلك كمُطاردة عدوّك بين يديك حتى إذا أوطئك دياره خرج من وراء ظهرك ، فاضمر جوعها و اكظم على إضمارك و لا تُضمر به منزله فتخرج من إضمارك بإضمارك ، فأضمرت جوعها فخرجتُ من كل علم و من كل معرفة و من كل مُلك و مَلكوت و أقامت على باب هذا الإضمار تُحاورني فيه لتُخرجني منه فكظمت عليه فلم تُطالبني إلا به فكظمت لأنّه حِصني الذي لا تستطيع

محاورتي فيه و لا تصل إليّ من بابه ، عاد نفسك فإنها انتصبت لمعاداتي} ، و من الدعوى المهوية صاحبها في قاع القطيعة ادّعاؤه أنّه خليفة الشيخ بلا إذن من الشيخ أصلا ، ثمّ تطاوله في إعطاء العهد و الوسيلة بغير علم و لا دراية بعواقب ذلك عليه و على السّالك الجديد ، فليحذر التّنبيه ذلك لأنّ نجاته منوطة بإخلاصه فكيف بتخليطه ، بل من نجّى رأسه يوم القيامة و قال نفسي نفسي هم الأنبياء فكيف بالحُثالة مثلنا الذين هم خِلوٌ علما و عملا ، فعلينا الحذر من الأمّارة لأنّها تهوى الإمارة ، و ما أحسن ما قاله سيّدنا حيدرة كرّم الله تعالى وجهه :

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ***** و المنكرون لكلّ أمرٍ مُنكر
و بقيتُ في خَلَف يُزين بعضهم ***** بعضا ليدفع مُعْورا عن معور
سلكوا بنيّات الطريق فأصبحوا ***** مُتنكّبين عن الطريق الأكبر

زيارة قبور الأولياء و الصالحين

قلت:

زيارة قبور الأولياء لها سرّ و نور *** فهي تُعالج النفوس و تشرح الصدّور
فمن زارها بأدب فاز و رجع بأجور *** و من زارها بغيره خاب و هو مكسور

انقسم الناس في زيارة القبور إلى ثلاثة فالقسم الأول يزور الزيارة المشروعة لقبور الأولياء المعروفين و المقطوع بولايتهم بأدب و التي أسلفت ذكرها و القسم الثاني يزور أيضا الزيارة المشروعة بأدب لكن لا يفرق في زيارته بين ولي معروف و قبة مجهولة و القسم الثالث يزور جميع القباب

الزيارة الشركية المحرمة و كلامنا هنا عن القسم الثاني و الثالث اللذين لا يفرقان في زيارتهما بين ولي معروف و قبة مجهولة و معنى القبة المجهولة، أو ما يسمى بالحويطة أو المقام كان بداية بنائهما مع حلول الاستعمار الفرنسي و ذلك أنّ الدولة الفرنسية أرسلت قبل دخولها الجزائر سنة ١٨٣٠ جواسيسها لجسّ نبض الحركة الاجتماعية و الدينية لمعرفة مكامن الضعف فيهما و من ثمّة الدخول من جانب هذا الضعف و معرفة قوة التمسك بها لحفر آبار الإيقاع بها فلمّا دخل هؤلاء الجواسيس في هيئات مختلفة بالتخفي و لسانهم عربي و جدوا أنّ المسلم الجزائري يحبّ الصالحين و يقدسهم و بحكم انتشار الطرق الصوفية بجميع مشاربها كان كلّ الناس منضوين تحت لوائها و سائرين بأوامرها فلما دخل الاستعمار الفرنسي و استوطن تراب الجزائر أول من انتفض ضده في ثورات جهادية هم مشايخ الطرق الصوفية كثورة الأمير عبد القادر الجزائري الصوفي رضي اللّٰه تعالى عنه صاحب المواقف و ثورة أولاد سيد الشيخ و ثورة الشيخ أبو عمامة و ثورة الشيخ المقراني و لالّة نسومر و غيرها من الثورات التي رفع رايتها مشايخ الصوفية فلما رأى الاستعمار ذلك حرّك النعرات الدينية بين الصوفية و بعض خصومهم من رجال الدين الجزائريين ليصرف مشايخ الصوفية عن ثوراتهم ضدّه فضرب المسلم بأخيه و الجزائري بأخيه و هو شأن الكفار و اليهود في كل زمان، و لما كان الجزائري يحترم هؤلاء المشايخ و يقدس أضرحتهم تنبّه المستعمر الفرنسي لفكرة يصرف بها محترفي اللصوصية عن مزارعه و ممتلكاته فكان أمام كل مزرعة يشيد قبة و يزينها و يدهنها باللون الأبيض أو الأخضر ثم يُشيع في الناس أنّ هذه القبة هي ضريح سيدي فلان و أنّ له كرامة

كشف السارق و له التصريف لإهلاك من يقترب من مزرعة المعمّر الفرنسي فلان فزرع الرعب بهذه الحيلة في قلوب الناس وصارت كل مزارعه و ممتلكاته في أمان و كان هذا المعمر في بعض الأحيان يدفن كلبه أو حماره في القبة التي يبنيها،و لو تأمل اللبيب و سأل نفسه هل لم يجد هذا الوليّ الصالح من مكان يوصي ليدفن فيه إلا عند كافر باللّه و عدوٍّ للدين و الوطن ؟ لقال أنّ هذا لعجباً لا يصدر من جزائري لا يصلي و لا يصوم فلا يرضى أن يدفن عند كافر فكيف يرضى به وليّ للّه تعالى؟ و يُثبتك على هذا العمل المهين المشين ما تراه حاليا أمام عدة مزارع كانت للمعمر الفرنسي عدّة قباب لا زال بعض الجهال يزورونها و هي زيارة منهيٌّ عنها من حيث الدلالة التي ذكرت و شأن تلك القباب كشأن ما يسمى بالحويطة وهي تشبه الحِجْر على شكل هلال لأنّها مجهولة و لا يدرى ما مدفون بها فالاحتراز أولى صونا للعقيدة و الدين . و هناك أمر آخر انتشرت بسببه بناء بعض القباب و شيّدت لأجله الحواويط و هو دفن الكنوز التي كان يخشى أصحابها سرقتها في ترحالهم فكان من يريد ذلك يبني قبة أو يشيّد حويطة و يدفن فيها ماله من الذهب أو الفضة إذْ كانا العملتين المتصرف بهما في ذلك الزمان ثم يضع لذلك خريطة ملغوزة على مكان هذه القبة أو الحويطة و أين تقع و ماذا يحدها من جوانبها ثم عن مكان الكنز و كم عمقه ومن هؤلاء من كان يستعين بالحكماء ليرصد له هذا الكنز و يضع عليه حراسة من عالم الجنّ ، فإذا ما رجع صاحب الكنز من رحلته استخرج كنزه و إلاّ ترك خريطته لورثته من بعده ، وهناك أيضا في العرف الشعبي ما يسمى بالمقام كمقام سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه الذي لم تطأ رجله الجزائر قط لكن يشيع بين الناس أنّ في هذا المقام صلّى سيدي عبد

القادر أو جلس و حكم زيارة تلك المقامات منهيّ عنها شرعا فإن سأل سائل أو أنكر منكر ذلك قلنا له بيّنا الدليل على ذلك ، و دليلي فعل سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه الملهم الذي كان نزول القرآن الكريم يوافق رأيه في أكثر من موطن و فعل و قول الصحابي حجة لقوله صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلم : (مثل أصحابي مثل النجوم من اقتدى بشيء منها اهتدى) و في رواية : (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) أما الذي فعله سيدنا عمر رضي اللّه تعالى عنه فهو قطعه لشجرة بيعة الرضوان التي نزل قوله تعالى فيها : (لقد رضي اللّه عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم و أثابهم فتحا قريبا) قال نافع رضي اللّه تعالى عنه :{ كان الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك سيدنا عمر بن الخطاب رضي اللّه تعالى عنه فأوعدهم فيها و أمر بها فقطعت }، فلو كان الأمر جائزا و هو التبرك لتركها سيدنا عمر رضي اللّه تعالى عنه و هو القائل رضي اللّه تعالى عنه لما نظر إلى الحجر الأسعد فقال :{ أمّا و اللّه لولا أنّي رأيت رسول اللّه قبّلك ما قبّلتك، و في رواية قال:إني لأعلم أنك حجر لا تضر و لا تنفع و لولا أنّي رأيت رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم يقبّلك و يستلمك ما قبّلتك و لا استلمتك ، فقال له سيدنا علي رضي اللّه تعالى عنه : بلى ،يا أمير المؤمنين إنّه يضر و ينفع و لو علمت تأويل ذلك من كتاب اللّه تعالى لعلمت أنّ الذي أقول لك كما أقول ،قال اللّه تعالى: (و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) ، فلما أقرّوا له بأنّه الرّبّ عز وجل و أنهم العبيد كتب ميثاقهم في رق ثم ألقمه هذا الحجر و

أنه يبعث له عينان و لسان و شفتان يشهد لمن وفاه بالموافاة فهو أمين الله في هذا المكان ،فقال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه:لا أبقاني الله بأرض لست بها يا أبا الحسن }، و إنّما قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في الحجر ما قال لأنهم كانوا أنسوا بلمس الحجارة في الجاهلية و عبادتها فأخبر أني إنما أمسّ هذا الحجر لأني رأيت رسول الله صلى الله تعالى عليه و آله و سلم يمسّه و يقبّله ، و زيادة على ذلك أنّه قطعها رضي الله تعالى عنه لأنّ النّاس كانوا حديثي عهدٍ بشركٍ و كفرٍ ، فقد عبدوا إلى عهد قريب الشّجر و الحجر ، فكيف يرضى لهم ذلك ، فهذا من أدل الأدلة على إتباع سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه سنّة النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم شبرا شبرا ، فأمر بالإتباع وزجر عن الابتداع ، و من الدلائل أيضا على نهيه الناس عن تتبع المقامات و أماكن الآثار للتبرك ما رواه المعرور بن سويد رضي الله تعالى عنه قال :{ خرجنا مع عمر رضي الله تعالى عنه في حجة حجّها قال : فقرأ بنا في الفجر ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل و لإيلاف قريش ،فلما انصرف رأى الناس مسجدا فبادروه ، فقال رضي الله تعالى عنه : ماهذا ؟ فقالوا:هذا مسجد صلى فيه النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم ،فقال رضي الله تعالى عنه: هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعا ،من عرضت له فيه صلاة فليصل ،و من لم تعرض له فيه صلاة فليمض }، فهذا من أدل الأدلة على عدم جواز اتخاذ تلك المقامات أماكن للعبادة وطلب التبرك فيها ، و إن كان هذا المسجد قد صلى فيه النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم بذاته الشريفة و وطئت أقدامه الشريفة فيه و مع ذلك نهى سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه عن تخصيصه بصلاة فما بالنا بما يسمى مقام سيدي عبد القادر رضي الله تعالى عنه أو مقام

سيدي عبد السلام أو غيرهما من مقامات الأولياء الذين لم تطؤها أقدامهم قط ، فمثلا سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه لم تطأ رجلاه أرض المغرب العربي و الجزائر خصوصا فكيف يقال عنه أنّه صلّى مثلا في هذا المقام ، و لو كان حقا صلّى فالحق أحق أن يتّبع و قول سيدنا عمر رضي اللّه تعالى عنه حجّة . و الجلوس في المساجد أفضل من تلك المقامات ، و إن كان فعل سيدنا الفاروق رضي اللّه تعالى عنه هو خشية على عقيدة النّاس و هم حديثو عهد بشرك و كفر ، لكن في زماننا التّبرك بها آكد الأشياء ، لأنّ رائحة الحبيب صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم مُعطّرتها ، أمّا التّبرّك بأماكن ما وقف عليها نبيّ و لا وليّ ، فغير جائز ، مثل مقام سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه ، أمّا القسم الثالث الذي يزور الزيارة الشركية المأثومة الأكثرية منهم الجهل و النسوان فترى الواحد منهم مثلا يطلب الولي قائلا : أعطيني يا سيدي فلان الذرية ، أو أغنيني أو ما شابه ذلك من الأدعية المأثومة ، و بعضهم يتوسل باللّه تعالى إلى الوليّ ليقضي له حاجته فيقول : قدّمت لك جاه اللّه يا سيدي فلان إلا ما قضيت لي حاجتي ، و هذا غير جائز لأن الواجب هو عكس هذا التوسّل أي أن يقلب المعنى فقط ليصح توسله فيقول : اللهمّ إني أسألك بجاه سيدي فلان أن تقضي لي حاجتي ، و هذا هو التوسل المشروع ، و قد أبان سيدي عبد العزيز الدباغ رضي اللّه تعالى عنه عن مغمى استغاثة العوام بالصالحين بالطريقة الآثمة لما سأله تلميذه قائلا :{ لِمَ كان الناس يستغيثون بذكر الصالحين دون اللّه تعالى ، فترى الواحد إذا جهد في يمينه يقول و حقّ سيدي فلان كسيدي عبد القادر الجيلاني أو سيدي يعزى أو سيدي أبي العباس السبتي و غيرهم نفعنا اللّه تعالى بهم و إذا أراد أن يحلف أحدا و يؤكد عليه

في يمينه يقول له : احلف لي بسيدي فلان ، و إذا أصابه ضر و أراد أن يسأل و يكدي من الناس صرح باسم سيدي فلان فيقول أعطيني على حقّ سيدي فلان ، و هم في ذلك منقطعون من الله عز و جل و إذا قيل لهم توسلوا بالله أو احلفوا به أو نحو ذلك لا يقع ذلك الكلام منهم موقعا فما السبب في ذلك ؟ فقال رضي الله تعالى عنه : أهل الديوان من أولياء الله تعالى فعلوا ذلك عمدا لقوة الظلام في الذوات و كثرة المنقطعين عن الله عز و جل فصارت ذواتهم خبيثة و أولياء الله تعالى يحبون الذين يذكرون سيدهم و خالقهم سبحانه أن تكون ذاته طاهرة لأنه تعالى يجيب من دعاه إذا انقطع إليه باطنا وقت الدعاء و إجابته تكون بأحد أمرين إما أن يعطيه ما سأل و إما أن يبيّن له سر القدر في المنع إذا منعه وهذا لا يكون إلا للأولياء و لا يكون للبعداء المحجوبين فلو توجهت الذات الظلمانية إليه تعالى بجميع عروقها و بكل جوارحها و سألته أمرا و منعها و لم يطلعها على سر القدر في المنع لربّما وقع لها وسواس في وجود الحق تعالى فتقع فيما هو أدهى و أمرّ من عدم قضاء حاجتها فكان من المصلحة ما فعل أهل الديوان من ربط عقول الناس بعباد الله الصالحين ،لأنه إذا وقع لهم وسواس في كونهم أولياء فإن ذلك لا يضرهم }. و عن مثل هذه الزيارة نهى النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم بقوله : (لعن الله زوّارات القبور و المتخذات عليهن السّرج) ، و هذا القسم من الناس لا يفرق في زيارته القبور بين قبر ولي معروف و بين قبّة وحويطة مجهولتين بل تراهم في زيارتهم المذمومة يشركون بالله تعالى و من النساء من تتّخذ من زيارتها فرصة لعمل طقوس سحرية و أعمال شعوذة ، بل من هؤلاء من يجترئ على محارم الله تعالى فتراه يتّخذ أيضا من زيارته مواعيد غرامية مع من يحبّ في

الحرام ، و يشهد على ذلك أناس لا خلاق لهم يزورون الوليّ سيدي يوسف رضي اللّه تعالى عنه والذي شاعت بركاته في الشرق و الغرب ، بل زيّن لهم الشيطان في المعاصي حتى زنوا في ذلك الحرم و العياذ باللّه تعالى و شربوا الخمور و لعبوا القمار ، وكان من أمر اللّه تعالى ليصون حرم وليه أن قدّر لقبته أن يهدمها الإرهابيون في سنة ١٩٩٤ ، فانتهى هؤلاء العصاة عن معاصيهم مدّة من الزمن ثم عادوا في هذه الأيام و خصوصا في يوم الجمعة حيث يفوق عدد مراكيبهم من سيارة وحافلة عن المائة كل أسبوع ، و نيتهم إلاّ في النادر ليس بقصد زيارة الوليّ سيدي يوسف رضي اللّه تعالى عنه و إنما ما ذكرته من معاصي و اختلاط بين الرجال والنساء و زياراتهم تلك ما هي إلا أوزار يَحملونها و يُحمِلونها غيرهم ، و يُؤذون بها الوليّ المذكور رضي اللّه تعالى عنه ، و من المدّعين زورا و بهتانا لطرق التّصوف أقوام لا خلاق لهم ، يُقيمون الحضرات في حرم الوليّ المذكور ، ويُدخلون النّساء و الصّبايا إلى حلق الذكر ، فينجذبن جذبة الشيطان لا جذبة الرحمن ، فلا يؤذيك إلاّ رؤية عورات مكشوفة من هؤلاء النّسوة ، و هنّ مختلطات مع الرجال ، و الداخلة لحلقة الذكر من النّسوة ، لكشف مفاتنها ، و الداخل من الرجال للنّظرة والتّملي ، فهل هذا تصوّف يا قوم ؟ أم إجتراءًا على معاصي اللّه تعالى في حرم وليّه ؟ و إن كان لَعِبَ بهؤلاء القومَ إبليسُ الشطرنجَ مع أعوانه من الشياطين ، فلا ينبغي وصفهم بالمنتسبين إلى طرق الصوفية أبدا ، لأنّ الصّوفي الصادق يَغيرُ على محارم اللّه تعالى ، و لا يتّخذ من سُبحته و مُرقّعته شِراكا و مَصْيَدة يصيد بها الغُرر و السّذج ، حتّى أنّ خادم الوليّ كما قيل لي يبيع خُرق كتّان تابوت الوليّ ، خُرقا صغيرة ، لمن يريد أخذها للتّبرك ، يصل ثمنُ الخرقة

الواحدة إلى خمسمائة دينار، فهل هذا تبرك أم تجارة يا أصحاب الشّطارة ؟ فلا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

إسقاط الأعمال و التكاليف

قلت:

إسقاط الأعمال و التكاليف ***** من أعمال الحمقى وهي بلوى
تصيب الخالي من التقوى ***** مَنْ همّته لا تقوى على الخطوا
من ابْتُلِيَ بها كمن طلبه ***** العدوّ فهرب لكن حبوا
و كمن يستقي الماء في ***** الصحراء بالغربال و عنده الدلوَ

و هذه أشنعها و أخطرها، و معنى إسقاط الأعمال و التكاليف أن يقول المغرور المُدّعي أنّه واصل: لا حاجة إلى اللّه تعالى بعبادتي و طاعتي، لأنّه لا تنفعه طاعة المُطيع و لا تضرّه معصية العاصي، و لأنّي أشاهده فلا عبادة بعد الفتح و المشاهدة، و لا طاعة بعد المنح و التّوحيد، و لعمري ما شاهد إلاّ نفسه، و لا وحّد إلاّ شيطانه، ذكر رجل عند سيدي أبي القاسم الجنيْد رضي اللّه تعالى عنه المعرفة فقال: { أهل المعرفة باللّه تعالى يصلون إلى ترك الحركات، من باب البرّ و التّقوى }، فقال سيدي الجنيد رضي اللّه تعالى عنه: { إنّ هذا قولُ قومٍ تكلّموا بإسقاط الأعمال، و هذه عندي عظيمة، و الذي يسرق و يزني أحسن حالا من الذي يقول هذا، و إنّ العارفين باللّه تعالى أخذوا الأعمال عن اللّه تعالى، و إليه رجعوا فيها، و لو بقيتُ ألف عام لم أنقصْ من أعمال البرّ ذرّة، إلاّ أن يُحالَ بي دونها، و إنّه لأوكَدُ في معرفتي، و أقوى في حالي }، و

قال رضي اللَّه تعالى عنه أيضا :{ لو أقبل صادق على اللَّه تعالى ألفَ ألفِ سنة ، ثمّ أعرض عنه لحظة ، كان ما فاته أكثر ممّا ناله }. هذا لمن أقبل عليه كلّ هذه المدّة بالطاعة ، ثمّ أعرض عنه لحظة إمّا بمعصية أو غفلة هذا شأنه ، فكيف بمن يدّعي الوصول و لم يُقبل على اللَّه تعالى لحظة ، و قد ذكر له أنّ من أسقط الأعمال و التّكاليف قد وصل أو هو واصل ، فقال رضي اللَّه تعالى عنه :{ نعم ، إنّه واصل ، و لكن إلى سقر }. لذلك من قال بإسقاط الأعمال و كان في عقله بقية ، فهو إمّا مَمْكورٌ به أو مسلوبُ ، أمّا أن يكون مجذوبا أو مغلوبا فلا ، لأنّ التّصوّف كما أجمع أقطابه هو إقتفاءٌ لأثر النبيّ صلّى اللَّه تعالى عليه و آله و سلّم شبرا بشبر ، و قدما بقدم ، كما قال سيدي الجنيد رضي اللَّه تعالى عنه :{ الطرق كلّها مسدودة على الخلق ، إلاّ من إقتفى أثر المصطفى صلّى اللَّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و إتّبع سنّته ، و لزم طريقته ، فإنّ طرق الخيرات كلّها مفتوحة عليه }. نعم ، هكذا و إلاّ فلا ، لأنّ التّصوّف هو باب اللَّه تعالى و له مفتاح واحد ، و ذاك المفتاح هو إتّباع النبيّ صلّى اللَّه تعالى عليه وآله و سلّم ، و من أراد الدخول على اللَّه تعالى من غيره ، فقد رام المحال ، لأنّ حقيقة الصّوفي هو عالِمٌ عاملٌ بعلمه بإخلاص ، قال الشيخ سيديّ أحمد الفاروقي السّرهندي رضي اللَّه تعالى عنه :{ إعلم أنّ للشريعة ثلاثة أجزاء ، العلم و العمل و الإخلاص ، و ما لم تتحقّق كلّ هذه الأجزاء الثلاثة ، لا تتحقّق الشّريعة ، و متى تحقّقت الشريعة فقد تحقّق رضا اللَّه تعالى الذي هو فوق جميع السعادات الدنيوية و الأخروية ، و رضوان من اللَّه أكبر ، فكانت الشريعة متكفّلة بجميع السعادات الدنيوية و الأخروية ، و لم يبق مطلب يقع فيه الإحتياج إلى ما وراء الشريعة ، والطريقة و الحقيقة اللّتان امتازت بهما

الصّوفية خادمتان للشريعة في تكميل جزئها الثالث الذي هو الإخلاص ، فالمقصود من تحصيل كلّ منهما تكميل الشريعة ،لا أمرا آخر وراء الشريعة ، و الأحوال و المواجيد و العلوم و المعارف التي تحصل للصّوفية في أثناء الطريق ، ليست من المقاصد ، بل هي أوهام و خيالات يتربّى بها أطفال الطريقة ، فينبغي أن يُجاوز جميع ذلك و أن يصل إلى مقام الرضا الذي هو نهاية مقامات السّلوك و الجذبة }، و قال الشيخ سيدي زروق رضي اللّه تعالى عنه : {أصول الأخلاق المذمومة ثلاثة : الرضا عن النّفس ، و خوف الخلق ، و همّ الرزق و يتولّد من الأول : الشّهوة و الغفلة و المعصية ، و من الثاني : الغضب و الحقد و الحسد ، و من الثالث : الحرص و الطّمع و البخل }، و مَنْ أسقط الأعمال و التّكاليف هو راضٍ عن نفسه ، كيف لا ؟ و هو متّبع لهواه ، غافل عن مولاه ، عاصٍ لربّه بترك طاعته ، و ممّن قال بترك الأعمال و كان له قدم راسخ في التّريّض مع الصّيام و الخلوة ، و لم يكن له شيخ مُربّي ، بل هذا الصّنف ليس لهم بتاتا أيُّ شيخٍ مربّي و مرشد كامل مكمّل ، بل شيوخهم شياطينهم ، لأنّه قيل تحقيقا و تدقيقا :{ من لا شيخ له ، فالشّيطان شيخه} ، فمن كان كذلك فإنّه حتما واصل إلى حقيقة النّفس ، و تصوّفه نفسيّ لا روحيّ قلبيّ ، و من وصل إلى معرفة حقيقة النّفس فشأنه كفرعون القائل : أنا ربّكم الأعلى ، لكن ترك قولها تارك الطاعات خوفا من الفضيحة ، و تارك التكاليف و الطاعات شرّه أكبر من إبليس اللّعين ، بل اللّعين أفضل منه قربة عند اللّه تعالى ، لأنّ إبليس ترك السّجود لمخلوق و تكبّر على مخلوق و هو سيدنا آدم عليه السّلام ، و ترك السّجود بحكم هواه ، لأنّه ظنّ نفسه أفضل من أبينا آدم عليه السّلام ، بل لو كان اللّعين مُتحقّقا لقال : أنّ السجود لغير اللّه تعالى شرك

و كفر ، أمّا تارك التّكاليف و الطّاعات فإنّه أعظم فرية من اللّعين لأنّه تكبّر على الخالق تعالى فترك السجود له ، و قياسا على ذلك فاللّعين أفضل من تارك الصّلاة و السّجود من هذه الحيثيّة ، و قال ، قال الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السّرهندي رضي اللّه تعالى عنه :{قال اللّه تعالى : (و أنّ هذا صراطي مستقيما فاتّبعوه و لا تتّبعوا السّبل) ، فسمّى ملّته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم صراطا مستقيما ، و جعل ما سواها داخلا في السّبل و منع من اتّباعها و الباطن مُتمّم للظاهر و مُكمّل له ، لا مخالفة بينهما مقدار شعرة ، مثلا عدم التّكلّم بالكذب شريعة و نفي الكذب عن الخاطر طريقة و حقيقة ، فإنّ ذلك النّفي لو كان بالتّعمّل و التّكلّف فطريقة ، و إلاّ فحقيقة ، فكان الباطن الذي هو الطريقة و الحقيقة متمّما و مُكمّلا في الحقيقة للظاهر الذي هو الشريعة }، و قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه في وصية له لأحد أبنائه :{ يا ولدي ، أوصيك بتقوى اللّه تعالى و طاعته و لزوم الشرع و حفظ حدوده ، و تعلّمْ العلم يا ولدي ، و اعلمْ أنّ طريقتنا هذه مبنيّة على الكتاب و السّنّة ، و سلامة الصّدر و سماحة النّفس و سخاوة اليد و بشاشة الوجه و بذل النّدى و كف الأذى و الصّفح عن عثرات الإخوان }، و قال الشيخ سيديّ أحمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه :{ الفقير على الطريق ، ما دام على السّنّة ، فمتى حاد عنها زلّ عن الطريق }، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا : {الطريق واضح ، صلاة و صوم و حج و زكاة و التّوحيد و الشّهادة برسالة النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أول الأركان ، و اجتناب المحرّمات حال المؤمن مع اللّه تعالى ، و هذا هو الطريق و من حال المؤمن مع اللّه تعالى أيضا ذكر اللّه تعالى كثيرا }، و قال شيخ الصّوفية سيدي أبو العباس بن عطاء الأدمي رضي اللّه تعالى

عنه :{ من ألزم نفسه آداب السّنّة ، نوّر اللّه تعالى قلبه بنور المعرفة ، و لا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في أوامره و أفعاله و أخلاقه و التّأدّب بآدابه قولا و فعلا و عزما و عقدا و نيّة }، و قال سيدي أبو سليمان الداراني رضي اللّه تعالى عنه :{ ربّما يقع في قلبي النّكتة (أي اللطيفة أو الحكمة) من نكت القوم أيّاما ، فلا أقبل منه (أي من قلبه) إلاّ بشاهدين عدلين : الكتاب و السّنّة }، و قال سيدي أحمد بن أبي الحواري رضي اللّه تعالى عنه :{ من عمل بلا اتّباع السّنّة ، فباطل عمله }، و قال سيدي حمدون القصّار رضي اللّه تعالى عنه :{ من ضيّع عهود اللّه تعالى عنده فهو لآداب شريعته أضيع ، لأنّ اللّه تعالى يقول : (و أوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولا) }، و قال سيدي أبو تراب النخشبي رضي اللّه تعالى عنه :{ الكيّسُ من عُمّال اللّه تعالى من حفظ حدّه مع اللّه تعالى ، و ترك العلم يجري مجاريه }، و قال سيدي أبو الحسن النّوري رضي اللّه تعالى عنه :{ و قد سئل عن التّصوّف ، ليس التّصوّف رسوما و لا علوما ، و لكنّها أخلاق }، و قال سيدي محمّد بن الفضل البلخي رضي اللّه تعالى عنه :{ أعرف النّاس باللّه تعالى أشدّهم مُجاهدة في أوامره و أتْبعهم لسنّة نبيه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم } ، و قال سيدي أبو بكر الورّاق رضي اللّه تعالى عنه :{ من اكتفى بالكلام من العلم دون الزهد و الفقه تزندق ، و من اكتفى بالزهد دون الفقه و الكلام تبدّع ، و من اكتفى بالفقه دون الزهد و الكلام تفسّق ، و من تفنّن في هذه الأمور كلّها تخلّص }، و قال سيدي أبو علي الثّقفي رضي اللّه تعالى عنه :{ لا يقبل اللّه تعالى من الأعمال إلاّ ما كان صوابا، و من صوابها إلاّ ما كان خالصا ، و من خالصها إلاّ ما وافق السّنّة }،و قال سيدي رويم بن أحمد البغدادي رضي اللّه تعالى عنه :{

قعودك مع كلّ طبقة من النّاس أسلم لك من قعودك مع الصّوفية ، فإنّ كلّ الخلق قعدوا على الرّسوم ، و هذه الطائفة قعدت على الحقائق ، و طالب الخلق كلّهم أنفسهم بظواهر الشرع ، و طالبوا هم أنفسهم بحقيقة الورع و مداومة الصّدق ، فمن قعد معهم و خالفهم في شيء ممّا يتحقّقون فيه نزع اللّه تعالى نور الإيمان من قلبه }، و قال سيدي عبد اللّه بن محمّد بن منازل رضي اللّه تعالى عنه :{ لم يُضيّعْ أحد فريضة من الفرائض إلاّ ابتلاه اللّه تعالى بتضييع السّنن ، و لم يُبتلَ أحد بتضييع السّنن إلاّ أوشك أن يُبتلى بالبدع }، و كلام القوم في هذا الصّدد كثير ، لكنّهم كلّهم مُجمعون على أنّ أصل التّصوّف هو متابعة النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و ملازمة طاعة اللّه تعالى ، لذلك نُسائل مدّعي ترك الطاعات و التّكاليف : أي طريق تسلك ؟ و كلّها مُجمعة على الأجتهاد في العبادة و ترك التّواني ، فإن ادّعيت التّصوّف ، فاعلم أنّ أقطابه متبرّئون كلّهم منك و من دعواك ، و قد جعلوا رضوان اللّه تعالى عليهم ميزانا يُعرف به الصّادق من الكاذب ، فقد قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه :{ إذا رأيتم الرّجل تظهر له الكرامات و تنخرق له العادات ، فلا تلتفتوا إليه ، و لكن انظروا كيف هو عند امتثال الأمر و النّهي} ، و أقول باختصار إذا أذّن المؤذن و لم يُسارع المرء إلى السّجادة ، و إن كان يتقاطر العسل من أصابعه كرامة ، فهو مدّعي كذاب ، و الحال كذلك إن لم ينته عن محارم اللّه تعالى ، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا:{ إنّما حُرموا الوصول بترك الإقتداء بالدّليل و سلوكهم إلى الهوى }، و الدّليل الهادي هو النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، فمن ادّعى الوصول و لم يستنّ بسنّته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ظاهرا و باطنا ، فهو مغرور ، حتّى أنّ رجالَ التّحقيق

قالوا أنّ الأكل بالشّمال هو مُخالف للسّنّة ، و تعمّده يُظلم الباطن ، فما القول بمن ترك الصّلاة و الصّوم و سائر العبادات ، و يدّعي التّصوّف و التّوحيد و لواحقه من الأذواق و الأشواق ، إنّه لمُبطِلٌ بطّال غرّ مغرور و ما أحسن ما قاله الشيخ سيدي أحمد العلاوي رضي اللّه تعالى عنه في شأن من هذا حاله :

و هل ينفع التّشديق بالقول و الثّنا °°°°° و هل ينفع التّزويق في تحصيل العلى

و هل ينفع المريض ما سوى طبّه °°°°° و هل ينفع الغريب شيء سوى الأهلا

فإن لَفّقْتَ الأقوال تحكي كقولهم °°°°° فهذا شهد الزّنبور ، أين عسل النّحلة

فيل ليت شعري ما الحامل و ما الذي °°°°° دعاه لهذا الزّور به تحمّلا

فيا له من أحمق قد ضاع عمره °°°°° يروم جذب النّجوم بيده الشّلاّ

ألا يعتني بما هو بصدده °°°°° و يُروي ما لديه عقلا كان أو نقلا

و ليعملْ بما عَلِمَ يرث ما لم يعلم °°°°° بهذا جاء الحديث عن النّبيّ يُتلى

و ليأتِ بيوت اللّه من مُقدّمها °°°°° و ليجنحْ عن الكذب لا يحسبه سهلا

البِطالة الباطنية و الدعوى

قلت:

البطالة في العبادة و الدّعوى بالعِرفان و السّيّادة

من أعمال الحمقى طالبي المَشْيخة و القيادة

و العاقل يقرّ بالتّقصير و لو عملُه في زيادة

و يجلس في صفّ النّعال و لو نال الرّيادة

يقال أنّه لكلّ ميدان مجالا و لكلّ مجال رجالا ، و من ميادين السادة الصوفية رضوان اللَّه تعالى عليهم ميدان السّماع ، و مجاله التغنّي بليلى و سُعدى و الكأس و الخمرة ، و رجاله أصحاب الرضا و الرضوان . و لو جُلْتُ أنا المحجوب في ميدانهم لتُهْتُ لتشابه مسالكه و عيِّيتُ لوُعورة مسالكه ، و لو سمعتُ ما سمعوا لهلكتُ و كفرتُ ، فإنْ غنّوا و أنا بينهم على ليلى تبادر إلى ذهني تلك الفتاة الممشوقة المعشوقة التي سلبتْ عقلي ، و إن كنّوا بسُعدى قلتُ ليتني معها ، فإن عرّجوا على ذكر الخمرة قلتُ ليتَ كأسا منها يُنسيني همّ المعيشة و أحبّذه بدرجة كحول ثابتة ، هذا تفكيري أنا المحجوب مع سادة رضيّ اللَّه تعالى عنهم فاصطفاهم و اجتباهم ! وهذا تساؤلي فقط لأنّي محجوب ؟ فمن يُجيبني ؟ هل قلبي الذي لم يُحبّ بَعْدُ ليلي ولم يَرَ سُعدى و لم يذقْ قط خمرا ؟ أم عقلي المحجوب المغلوب و القاصر الحاسر الذي يقف عند الكلمة و شَكْلها فلا يدري مَغامي المعاني ؟ أنا أتساءل فقط فهل من مجيب يا أصحاب المجالس و المجامع و بينكم من لا يُحسن وضوءه و منهم من لم يعرف اسم رسوله ؟ و منهم المراهق الغارق في عشقه المحسوس ؟ و منهم المثُقّف الواقف على المباني دون المعاني ، و أنّى له فهمها؟ أجيبوني كيف ترضون لمنُشدكم أن يُنشد بين أناس عوّام :

أرّقني الغرام * من حسن ليلى * و القلب في هيام * مع الجميلا

أم كيف يقول المنُشد و كيف يسمعه من تاب البارحة من ذنوبه و رجع إلى ربّه و قد كان سكِيرًا عِرْبِيدًا يُعاقر الخمرة و النساء :

ساقي الخُميْرة سقاني * يا ساقيها مهلا راحا براح

يا نديمي املأ الأواني * و دِرِ الكأس على المِلاح

ألا ترون أنّكم تُذكّرُونه بالأيام الخوالي ، فيقول يا لهم من قوم أباحوا لنا مُعاقرة الخمرة و مُعانقة النسوة ، هذا الدين و إلا فلا ! فيسكر ليُصلّي ، لأنّه سمع : اسقيني خمرا و قرّبْ لي السّجادة ؟! و هذا والله غير مُستغرب ، لأنّ هناك قصّة حقيقية تُشبه ما نحن بصدده و هي أنّ أحد العوام و أعرفه جيّدا كان جالسا أمام مسجد القرية مع جماعة ، ثم إنّه استأذنهم لإسباغ الوضوء فلمّا عاد سأله أحدهم هل أسبغت وضوءك لأنّه لم ير عليه أثر الوضوء ، فقال : نعم ، أسبغت الوضوء ، فزاد السائل في فضوله و قال له : كيف أسبغتُ وضوءك و أعضاؤك غير مبلولة بالماء ؟ فقل لي كيف أسبغت وضوءك ؟ فقال : بُلتُ فقط ! فضحك عليه الجماعة و سِنّ هذا العامي فوق الثمانين سنة ، و كان يظن هذا العامي أنّ إسباغ الوضوء ليصلي هو أن يبول فقط ! و مثل هذا كثير ، فهل يعقل لمن كان في جهل هذا أن يسمع الخمرة و ليلى و سُعدى ، فيقيس ما يسمع على ما يرى ، فإن ذُكرت الخمرة و الكأس تبادر إلى ذهنه المخمرة العمومية ، و الكلام قياس في الباقي ! كيف يسيغ ذلك و قد قال شيخ الطائفة سيدي الجنيد رضي الله تعالى عنه : { من سَمِعَ السماع يحتاج إلى ثلاثة أشياء ، و إلا فلا يسمعْ ، فقيل له : و ما تلك الثلاثة؟ قال : الزمان ، و المكان ، و الإخوان } ، و قصده رضي الله تعالى عنه بالإخوان هم الفقراء السالكين لا العوام الهالكين ، فمن لم يكن من حزب الفقراء لا ينبغي له سماع إنشادهم و أقوالهم لأنّه يسمع بأذنه لا بقلبه و يفهم بعقله لا بقلبه و يطرب بحسّه لا بمعناه و تتواجد نفسه لا روحه ، و منهم من تُسَيطر عليه الغريزة الجنسية و العياذ بالله تعالى و هو يسمع ليلى و سُعدى ، لذلك لا يجوز قطعا مجالسة العوام و

الإرشاد لهم ، و أقصد بالعوام من لم يكن في سلك السلوك مخروزا على يد شيخ عارف بالله تعالى ، و إن كان دكتورا في الشريعة أو الفقه فهو عامي ، من هذه الحيثية ، ثمّ قد يفرحْ سالك الطريق و يقول يحلّ ليّ السماع فلست من العوام الذي تقصد ، و لأنّ القلوب بيد الله تعالى و السرّ عنده تعالى كالعلانية ، فليصدق أخي الفقير في سماعه و لا يتكلّف ، لأنّ للسّماع فتنة و فيه مداخل للشيطان إلى النّفس ، فقد سُئل سيدي الشبلي رضي الله تعالى عنه عن السّماع فقال :{ السّماع ظاهره فتنة و باطنه عِبرة ، فمن عرف الإشارة حلّ له استماع العِبرة ، و إلا فقد استدعى الفِتنة و تعرّض للبليّة }، و ما دام بالفقير نَفَسٌ من نَفْسِه فالسّماع خطر عليه و لذلك سُئل سيدي ذو النّون رضي الله تعالى عنه عن السّماع ، فقال :{ واردُ حقّ يُزعِج القلوب إلى الحقّ ، فمن أصغى إليه بحقّ تحقّق ، و من أصغى إليه بنَفْس تزندق }، و هناك حكايات تُروى عن أناس سمعوا السماع في حضرة شيوخهم ، فلمّا تواجدوا كاشفوهم شيوخهم بما يَنْدَى له الجبين ، كما قال سيدي عبد العزيز الدبّاغ رضي الله تعالى عنه :{ أنّ قوما من الفقراء كانت عندهم نفاس مَبِيتة (أي وليمة اللّيْل) فكلّموا شخصا صادقا في الذهاب معهم و كان أعمى ، فذهب معهم إلى الموضع ، فَبَيْنَا هم يذكرون إذ قال الشيخ الأعمى رضي الله تعالى عنه : يا قوم قد دخل عليكم الشيطان في صورة عنزة بقرونها ، ثم قال : فمن هو صاحب الغِفارة الحمراء منكم ؟ فإنّي رأيت الشيطان يشمّه شمّا عنيفا ، ثم صاح الأعمى و قال : إنّه نطحه بقرونه حتّى غاصت فيه ! فلم يفرغ من كلامه حتّى صاح صاحب الغِفارة و خرج عن حسّه ، ثم قال الأعمى : ومن هو صاحب اللّباس الفلاني فيكم ؟ فإنّي رأيت الشيطان قد انتقل إليه يشمّه ، ثم صاح : لقد نطحه و الله

بقربه نطحة مُنكرة ! فصاح المشموم و غاب عن حسّه، فافتضحوا بحضور ذلك الصادق معهم، و كانوا قبله يحسبون أنّهم على شيء، فكانوا على جهل مُركّب }، و معنى الجهل المركب أي الرجل يكون جاهلا و يجهل أنّه جاهل، عكس الجهل البسيط الذي يكون فيه الجاهل جاهلا و يعلم أنّه جاهل، وقال أيضا رضي اللّه تعالى عنه :{ و قد اتّفق أنّه صاح بعض الناس بحضرة شيخ عارف، فقال له الشيخ : إنّي تَبِعتُ صيحتك حتّى دخلت إلى قبر بمقبرة كذا، فقال الصائح و لم يكن من مريدي ذلك الشيخ : صدقتَ يا سيدي، لمّا مررتُ بكم فوجدتُكم تذكرون محبوبكم ذكرتُ أنا محبوبتي، و كانت ابنة عمّ لي ماتت، و ذلك هو قبرها، فلمّا تذكرتُها صِحْتُ من ألم فراقها }، و يُروى عن الشيخ سيدي العلاوي رضي اللّه تعالى عنه أنّ شخصا صاح في حضرته من سماع فقال له رضي اللّه تعالى عنه :{هل تذكّرتَ التّين الذي وضعته على سطح دارك ليَيْبَسَ فبَلّه المطر، فصِحْتَ ؟ فقال الشخص : نعم يا سيدي ! و أنا تائب }، و قد يعترض مُحبّ السّماع و مُنكرُ كلامي على أنّ الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه لم يُنكر على أحد و لم يُكاشف أحدا على كذبه، و نقول لهذا أنّ حِلْمَ الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه و سماحته و حرصه على عدم إذاية مريده و تأنيبه شفع للمُدّعي من الفضيحة، و كان رضي اللّه تعالى عنه يعرف الصادق من الكاذب، و الواجد من المدّعي، لكنه حَلِمَ و ذلك من كرمه، بلى قد فضح أحد مريديه في جماعة بعدما قرؤوا جزءًا من القرآن الكريم فقال رضي اللّه تعالى عنه :{ أنّه من لم يَحفظ القرآن الكريم لا ينبغي له أن يتظاهر أنّه حافظ له عند قراءة الجماعة }، وكان ذلك المفضوح الكاذب المدّعي و المحجوب هو أنا، فلله الحمد و المنّة.

هذا و قد فُتِن بعض الفقراء بالسّماع و ظنوا أنّه سرّ الوصول ، بل زعموا أنّ التصوف هو السّماع فقط ، فمن سمع فهو ذاكر ، و من لم يسمع فلم يذكر ، فظنّوا أنّ ذكر اللّه تعالى هم ما فيه من الإنشاد و التّواجد و الحضرة ، سُئل سيدي أبو علي الروذباري رضي اللّه تعالى عنه عن السّماع فقال :{ ليتنا خَلَصْنا منه رأسا برأسٍ }، و كأنّه رضي اللّه تعالى عنه يقصد به سماع أهل البطالة و النوم ، لا سماع أهل الأذواق و الأشواق ، و لو زيّن هؤلاء مجالسهم بالتّذكير بأحوال أهل اللّه تعالى و مُجاهداتهم و قوّة هِممِهم و إخلاص عباداتهم لكان أولى من سماع النّفس و التقاط الألفاظ الجافة الخالية من زبد المعاني ، بل لو تدارسوا فيما بينهم كتاب رياض الصالحين أو أي مؤلف من مؤلفات الصوفية في تربية الأنفس و تصفية القلوب و شحذ الهمم كإحياء علوم الدين لحجّة الإسلام سيدي أبي حامد الغزالي رضي اللّه تعالى عنه أو غيره لكانت بركة المجلس مُعطّرة ، و أقول هذا و أنتظر من بعضهم قرض جلدي و أكل لحمي غيبة و انتقاصا ، و لهذا أقول له : باللّه عليك أليست الغيبة مُحرّمة على المسلم لو اغتاب يهوديا أو نصرانيا ، فكيف بمن يدّعي الانتساب إلى أهل اللّه تعالى الصالحين و لا يسلم لسانه من اغتياب أخيه الفقير و تحريم ملاقاته و السلام عليه ؟ لذلك ينقص فقراء هذا الزمان التطريق قبل الطريق أي تطريق القلوب و تمديدها و ترقيقها و تصفيتها من الغلّ و الحسد و الحقد ، و العمل على إتّباع الشيخ حالا و قالا ، و ترك الدّعوى لأنّها من قطّاع الطريق كما قال سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه : {الدّعوى من رعونة النّفس و المدّعي مُنازع للربوبية }، و قال أيضا : {المدّعي من أشار إلى نفسه }، و قيل : {أنّ الدّعوى فضيحة و إن كانت صحيحة} و أي شيء لابن آدم حتّى يشير إلى

نفسه فأوّله نُطفة مذرة و آخره جيفة قذرة و هو بين ذلك يحمل في أحشائه العَذِرة ، قال سيدي سهل رضي اللّه تعالى عنه : {يا مسكين ! كان و لم تكنْ ، و يكونُ و لا تكونُ فلمّا كنتَ اليوم صرتَ تقول أنا و أنا ، كُنِ الآن كما لم تكنْ ، فإنّه اليوم كما كان} وقال بعض السّلف رضي اللّه تعالى عنه : { رُبَّ مُستدرجٍ بِنِعم اللّه تعالى عليه و هو لا يَعلم ، و رُبَّ مَفتون بثَناء الناس عليه و هو لا يعلم ، و رُبَّ مغرورٍ بستر اللّه تعالى عليه و هو لا يعلم } ، و قال الشيخ سيدي أحمد الفاروقي رضي اللّه تعالى عنه : { إنّ السّماع و الوجد نافع لجماعة متّصفون بتقلّب الأحوال و متّسمون بتبدّل الأوقات ، ففي وقت حاضرون و في وقت غائبون و أحيانا واجدون و أحيانا فاقدون و هم أرباب القلوب ينتقلون في مقام التّجلّيات الصّفاتية عن صفة إلى صفة و يتحولون من اسم إلى اسم ، تلوّن الأحوال نقد وقتهم ، و تشتّت الآمال حاصل مقامهم ، و دوام الحال محال في حقّهم و استمرار الوقت ممتنع في شأنهم ، فزمانا في القبض و زمانا في البسط ، فهم أبناء الوقت و مغلوبه ، فمرّة يعرجون و مرّة يهبطون ، و أمّا أرباب التجلّيات الذاتية الذين تخلّصوا من مقام القلب بالتّمام و اتّصلوا بمقلب القلب و رجعوا بكلّيتهم من رقيّة الأحوال إلى محوّل الأحوال فهم ليسوا محتاجين إلى الوجد و السّماع فإنّ وقتهم دائمي و حالهم سرمدي بل لا وقت لهم و لا حال ، فهم آباء الوقت و أرباب التّمكين و هم الواصلون الذين لا رجوع لهم أصلا و لا فقد لهم قطعا ، فمن لا فقد له لا وجد له }.

قال الناصح الفاضح رضي اللّه تعالى عنه :

ليس التصوف لُبس الصوف تُرقّعه ***** و لا بكاؤك إن غنّى المغنّون

و لا صياح و لا رقص و لا طرب ***** و لا اضطراب كان قد صار مجنونا
بل التصوف أن تصفو بلا كدر ***** و تتّبع الحقّ و القرآن و الدِّينا
و أن تُرى خاشعا للّه مُكتئبا ***** على ذنوبك طول الدهر محزونا

و قال آخر :

ليس التّصوّف لبس الصّوف و الخَلِق ***** بل التّصوّف حُسن الصّمْتِ و الخُلُق
فالبسْ من اللبس ما تختار أنتَ و قُمْ ***** جنح الظلام و أجْرِ الدّمع بالغسق
فَرُبَّ من يلبس الديباج أشغله ***** حُبُّ الذي خلق الإنسان من علق
و كم فتى لابسٌ للخيش تحسبه ***** تاجا و ذلك عند العارفين شقيّ
فذا مع اللبس لم يحجبه ملبسه ***** و ذاك باللبس محجوب فلم يَفِق

قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه :{ أضرّ الأشياء صُحبة عالم غافل، أو صوفيّ جاهل ، أو واعظ مُداهن }، قال شارحها الشيخ العلاوي رضي اللّه تعالى عنه :{ و ممّا يضرّ المريد صحبة صوفي جاهل ، و هذه داهية على المريد أكبر من أختها ، و المراد به شيخ مُدّعي الطريق و كيفيات السّير إلى اللّه تعالى و ليس له من معرفة الطريق إلا مُجرّد القول ، فهذا مُنقطع و قاطع عن اللّه تعالى و ذنبه أعظم من غيره ، لقوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم : (أشدّ النّاس عذابا يوم القيامة من كان الناس يظنون فيه خيرا و هو لا خير فيه) أي مُدّعي الطريق و مُتظاهر بما للقوم من الأسرار و العلوم و المعارف و ليس له إلا مُجرّد الدّعوى فهذا هو الجاهل المراد به في قول المصنّف ، و أمّا الجاهل بأحكام الشرع فلا يغتر به المريد في الغالب ، و لا يُطلق عليه صوفي أيضا كما أخبر المصنف ، فكان تحذيره عائدا على صحبة مُدّعي الطريق الآخذ من القوم

مجرد الانتساب و اتخاذ السُّبح و العمائم و العِصيّ فيكون التّشبّه بهم في الظاهر و المُباينة لهم في الباطن }

قال أحدهم :

ليس التّصوّف عُكّازا و مِسبحة *** كلا و لا الفقر انتسابك للشّرف

و أن تروح و تغدو في مرقّعة *** و تحتها موبقات الكبر و السّرف

و تُظهر الزهد في الدنيا و أنت على *** عكوفها كعكوف الكلب في الجّيف

الفقر سرّ و عنك النّفس تُحجبه *** فارفع حجابك تجلو ظلمة السّدف

و فارق جنسك و افن نفسك في نَفَس *** و غِبْ عن الحسّ و اجلب دمعة الأسف

وقال محمود الوراق:

أظهرُوا للنَّاس دِيناً *** وعلى الدِّينار دارُوا

وله صامُوا وصلُّوا *** وله حَجوا وزارُوا

لو بَدا فوق الثّريّا *** ولهم رِيشٌ لطارُوا

وقال مُساور الوَرَّاق:

تصوَّفَ كَيْ يُقالَ له أمين *** وما يَعْنِي التَّصوفَ والأمانَهْ

ولم يُرِدِ الإلهَ بهِ ولكنْ *** أراد بهِ الطريقَ إلى الخيانَهْ

و من هؤلاء المُدّعين أعرف الكثير ، منهم من يَدّعي أنّه شيخ مأذون من سيدي فلان و سيدي علاّن و أنّه يُعطي الوسيلة و يزعم أنّه مأذون في إعطاء الذكر باسم اللّه اللطيف ، و من هؤلاء أيضا أحدهم كان يُلقّن الإسم الأعظم وهو من العوام فمرض في آخر حياته فكان يمشي و أطرافه ترتجف ، و من هؤلاء أيضا أحد أحداث السّنّ يلبس لباس الكبار من برنوس و عمامة و يدّعي المشيخة و يُعطي الوسيلة ، و بالجملة فالمدّعين زورا و بهتانا كثير .

فينبغي للمرء أن يعرف قدره ولا يُجاوز طوره، و أن لا يدّعي أنّه واصل و ذائق، لأنّ سلوكَ الطريقِ أكبرُ الهمم هي من تقوى عليه، قال الشيخ سيدي أبو بكر بن حامد الترمذي رضي اللّه تعالى عنه: { الوليّ في ستر حاله أبدا و الكون كلّه ناطق عن ولايته، و المدُّعي ناطق به و الكون كلّه يُنكر عليه} ، و من ادّعي أنّه جاز و فاز فليرسم خريطة سيره، فإن حار فليعلم أنّ مراحل الطريق و عقباتها هي أولا التوبة إلى اللّه تعالى مع شروطها ، ثم مقام الخوف ثم مقام الرجاء ثم مقام الصالحين ثم مقام المريدين ثم مقام المُطيعين ثم مقام المُحبّين ثم مقام المُشتاقين ثم مقام الأولياء ثم مقام المُقرّبين ، و لكلّ مقام عشر شرائط ، فليُثبت المدّعي مقامه بحاله لا بقاله ، بل المقصود من السلوك هو تصفية الباطن و جعله محلا لنظر اللّه تعالى كما قال سيدي عبد السلام بن مشيش رضي اللّه تعالى عنه في زجر صلاته المشيشية : {حتّى لا يبقى فيّ ربانية لغيرك و حتّى أصلح لحضرتك و أكون من أهل خصوصيتك}. و الرحلة إلى اللّه تعالى هي من أخطر الرحلات و أصعبها و من المُحال قطع فيافي مراحلها بدون دليل، و دليلها هو همّة الشيخ و ربط القلب بمحبّته، و قالوا: { أنّه إذا عزم العبد على السفر إلى اللّه تعالى و إرادته عرضتْ له الخوادع و القواطع ، فينخدع أولا بالشهوات و الرياسات و الملاذ و المناكح و الملابس، فإن وقف معها انقطع و إن رفضها و لم يقفْ معها و صدق في طلبه ابْتُليَ بوطء عقبه و السّير خلفه و التماس رضاه و تقبيل يده و التوسعة له في المجالس و الإشارة إليه بالدعاء و رجاء بركته و نحو ذلك، فإن وقف معه انقطع به عن اللّه تعالى و كان حظّه منه ، و إن قطعه و لم يقفْ معه ابتُلي بالكرامات و الكشوفات، فإن وقف معها انقطع بها عن اللّه تعالى و كانت حظّه ،

و إن لم يقفْ معها ابتُلي بالتجريد و التخلّي و لذة الجمعية وعزّة الوحدة و الفراغ من الدنيا ، فإن وقف مع ذلك انقطع به عن المقصود ، و إن لم يقفْ معه و سار ناظرا إلى مُراد اللّه تعالى منه و ما يُحبّه منه بحيث يكون عبده الموقوف على محابّه و مراضيه أين كانت و كيف كانت ، تعب بها أو استراح ، تنعّم أو تألّم ، أخرَجَتْه إلى الناس أو عَزَلَتْه عنهم ، لا يختار لنفسه غير ما يختاره له وليّه و سيّده ، واقفٌ مع أمره يُنفّذه بحسب الإمكان و نفسه عنده أهون عليه أن يُقدّم راحتها و لذّتها على مرضاة سيّده و أمره ، فهذا هو العبد الذي قد وصل و نفذ و لم يقطعْه عن سيّده شيء ألْبتّة }. فالتصوف هو المصافاة و الصّفاء كما قال أحدهم :

و لستُ أمنح هذا الاسم غير فتى ***** صافٍ فصُوفيَ حتّى سُمِّيَ الصّوفي

أمّا التطلّع إلى الكشف و مشاهدة الأنوار و جعلها هي المقصد فهذا عبث في الطريق كما قال سيدي أحمد السرهندي رضي اللّه تعالى عنه :{ ليس المقصود من سلوك طريق الصوفية مُشاهدة الصّور و الأشكال الغيبية و مُعاينة الألوان و الأنوار اللاكيفية فإنّ ذلك داخل في اللّهو و اللّعب و أي نُقصان في الأنوار و الصّور الحِسّيّتين حتّى يتركها شخص و يتمنّى الصّور و الأنوار الغيبيتين بارتكاب الرياضات و المجاهدات ، فإنّ هذه الصّور و الأنوار و تلك الصّور و الألوان كلّها مخلوقة الحقّ جلّ و علا }. و قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه :{ يا غلام ! ليكن الخرس دأبك و الخمول لباسك و الهرب من الخلق كل مقصودك ، و إن قدرت أن تُنقب في الأرض سَرَبا تختفي فيه فافعل ، يكون هذا دأبك إلى أن يترعرع إيمانك و يقوى قدم إيقانك ، و يتريّش جناح صدقك ، و تنفتح عينا قلبك ، فترفع أرض بيتك و تطير إلى جوّ علم اللّه تعالى ، تطوف الشرق

و الغرب ، البرّ و البحر ، السّهل و الجبل ، تطوف السموات و الأرضيين و أنت مع الدّليل الخفير الرفيق ، فحينئذ أطلق لسانك في الكلام ، و اخلع الخمول و اترك الهرب من الخلق و اخرج من سربك إليهم فإنّك دواء لهم غير مستضر في نفسك }، و التصوف الذي يزعمه البطّالون هو التّسوف بسوف يُفتح عليّ و لعلّ الله غفر لي.

كما يُروى أنّ أحدهم كان في رفقة في سفر فمرض و انتفخ بطنه ، فجعل يدعو ويقول : يا ربّ، ضرطة فقط تخرج منّي ، و صار يدعو بهذه الدعوة طول يومه ، فلمّا كان اللّيل أشرف على الموت فصار يدعو و يقول : اللهم أدخلني الجنّة ، فسمعه أحد الحذاق فقال له : ياهذا ما رأيتُ أحمقا مثلك ، طول يومك و أنت تطلب ضرطة ما فرحتَ بها ، رُحت تطلب الجنّة ؟ فهكذا هو تسوّف البطّالين ، و ليس التصوف الذي دُفع ثمنه بالأنفس و الأرواح و المُهج ، كما قيل :

وِصالي غالٍ عليك ***** و أنت فقير ، فما تُنفق ؟

و طريق التصوف مخوف ذو شُعب مُهلكة و مسالك صعبة ، فعلى كلّ شعبة ومسلك منها قاطع طريق أو لص سارق ، فمن سلكه ينبغي له أخذ سلاحه و زاده و مركبه ، و لا يُخاطر و لا يُجارف بروحه ، و قديما قال السالك الواصل المُتحسّر :

كيف الوصول إلى سُعاد و دونها ***** قلل الجبال و دونهنّ حُتوف
الرجل حافية و مالي مركب ***** و الكفّ صفرٌ و الطريق مَخوف

قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي الله تعالى عنه :{ ثمن التّصوّف تسليمٌ كلّه} ، قال شارحها سيدي العلاوي رضي الله تعالى عنه :{ لكلّ شيء ثمن ، و ثمن هذا الشأن بذل الكلّ ، و من ترك لنفسه أدنى شيء يستعين به في زعمه انقطع عن

ربّه ، فسلّمْ كلّك أيها المريد و لا تترك لنفسك شيئا ، فإن قبل منك هذا التسليم ، فيّا حبّذا و قل كمن قال :

مالي سوى روحي ، و باذل نفسه ***** في حبّ من يهواه ليس بمُسرفٍ

فلئن رضيتَ بها فقد أسعفتني ***** يا خيبة المسعى إذا لم تُسعف

و قد قيل : ثمرة حضرة القدوس بذل الأرواح و النّفوس ، فالعارفون لا يصحّ لهم ذلك حتّى يبذلوا الكلّ فيأخذوا و تنتذ الكلّ ، كمن قال :

فنيتُ كلّي في كلّك *****هذا جزاء من يُحبّك

عجزتُ عند خطابك ***** و الكلّ منّي جوابك

أنت تريد أن تترك شيئا لنفسك و تزعم أنّك مريد الحقّ ؟! كلا ! و لولا لطف اللّه تعالى ما كان لك شيء ، لأنّ لكلّ شيء مهرا ، تطلب ذات الحقّ و تبخل بذاتك بل بنفسك و مالك و مألوفك و مُعتادك فلا تصحّ لك ، و لا تصحّ لك الإرادة حتّى تسلم فيما تريد قال تعالى في الحديث القدسي : (عبدي تُريد و أريد ، و إنّما يكون ما أريد ، فإن سلّمتَ لما أريد كفيتُك ما تريد ، و إن لم تُسَلّمْ لِما أريد أتعبتُك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد) و قال تعالى : (لن تنالوا البرّ حتّى تُنفقوا ممّا تُحبّون)

فلا تدّعي محبّة اللّه تعالى و في قلبك حبّ غيره } ، و الدّعوى و إن كانت حقّا فمقامها ، أدنى من مقام التذلّل و إظهار المسكنة للحقّ تعالى و لخلقه ، بل مَن يكون في مقام الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه من هؤلاء المدّعين بالبطالة ، و التّكلم عن أحوال و مقامات لم يَشمّوها فضلا عن التّحقّق بها و أين ثَراها من ثريّاها ؟ فإذا قلتَ لهم أنّ مقام التّواضع أفضل من مقام الصّولة لم يُصدّقوك ، لغُبنهم و فِتنتهم بأصحاب الصّولة و إظهار

العلو ، و قال في نقض ذلك الشيخ سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله تعالى عنه : { إنّما ظهر الشيخ عبد القادر الجيلي بالتّصريف في الوجود و التّأثير و الدّعاوى العريضة ، لأنّ مشهده من الحقّ تعالى كان حضرة الاسم الظاهر ، فأعطاه مقام الصّولة و الهمّة و الشّطح وإظهار العلو على أمثاله و أشكاله ، بل على من هو أعلى منه في مقامه ، و هذا المقام و إن كان رفيعا ، فثمّ ما هو أرفع منه ، و هو مقام الأدب و إظهار الذلّ و المسكنة ، و من شطح على أحكام الله أكثر أدبا ممّن شطح على عباد الله ، لأنّ الله تعالى يقبل الشطح لوُسعه بخلاف المخلوق لضيقه ، و ثمّ أقوام يشطحون على أهل الله من شهودٍ في حضرة خيالية ، فهؤلاء لا كلام لنا معهم ، لأنّهم مطرودون عن باب الله تعالى و علامتهم أنّهم لا يرفعون بالأحكام الشرعية رأسا و لا يقفون عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التّكليف عندهم } ، و الأقوام الذين قصدهم الشيخ الأكبر هم أهل الدّعوى و البطالة ، الذين يقولون بأحوال لم يلبسوها و يدّعون مقامات لم يصلوا إليها ، و إن كانت الدّعوى فضيحة و لو كانت صحيحة ، فما القول بها إن كانت مكذوبة و صاحبها بطّال ، مُقيم على الرّسوم واضعا رجلا على رجل في مقهى من المقاهي ، يرتشف قهوة مضغوطة و ينتشي بسجارة أمريكية ، وفي زحمة القيل و القال و الكلام المشحون بالغيبة و النّميمة من حوله تسمعه يذكر أحوال الصالحين و الأولياء الذين تتنزّل عند ذكرهم البركات ، لكنه يرمي الجواهر للخنازير بقعوده ذاك ، و من مهاوي الطريق و مطبّات السّلوك التي تعود بالمريد من حيث بدأ طلب العلوّ و الإستعلاء ، و الفرح بأنّه من خواص الأولياء ، و ما يُدريه ؟ و كلّ ذلك مُنافي للمقصود الأسنى ، و هو قتل النّفس بسيوف التذلّل و التواضع

و نِصال الإفتقار و معرفة مقام النّفس الدّنيء لا إحياؤها برعود الدّعوى و بروق الصّولة، و كان من دعاء بعضهم: {اللّهم أمتْ نفسي و أحيي قلبي وروحي حتّى أحيا بك حياة طيّبة في الدّنيا و الآخرة}، لأنّ في موت النّفس حياة القلب، و في حياة النّفس موت القلب، و النّفس سيرها إبليسي فرعوني قاروني، تحبّ أنا وعندي و لي، و لأنّها سرّ من أسرار الربوبيّة، فهي تُحبّ العلوّ و الإستعلاء و مُطلق الحريّة، وتكره الدخول تحت حكم التّحجير، لذلك تثقل عليها الطاعة لأنّها لا تقبل العبوديّة للّه تعالى و فيها عزّها، ولذلك تراها تأتي الطّاعة و هي مُكرهة و مُثقلة، فإذا ماتت و فنيت و طاوعت صارتْ لها الحريّة الرابحة في الدّنيا و الآخرة، لذلك وجب على المُنتسب أن يتذلّل و يفتقر للّه تعالى و ينسى ما سواه من الخلق، لأنّ سرّ السّلوك في بداية أمر السّالك هو أن لا يَزور و لا يُزار و لا يَعرف و لا يُعرف، حتّى يتمكّن من العرفان، وقتها يحقّ له مُجالسة الخلق، لأنّ نفسه التي كانت تُنفخ عند مُلاقاتهم ماتت و فنيت. و طريق التّصوّف مبنيّة على التّسليم و التّواضع فعليك أخي الفقير أن لا تحتقر أخاك و لو كان عاصيّا، قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي اللّه تعالى عنه سمعت سيدي عليا الخواص مرة يقول: {إياكم أن تزدروا أحدا من أصحاب الحرف الدنيئة فان اللّه تعالى أعطاهم القوة على سلب إيمان العلماء و الصالحين حال رؤية العالم و الصالح نفسه عليهم فان أكبر الأولياء يقدر على سلبه أصغر الناس إذا رأى نفسه على أحد من الخلق، كما حكي عن سيدي محمد بن هارون الذي اخبر بسيدي إبراهيم الدسوقي و هو في ظهر أبيه انه كان إذا خرج من صلاة الجمعة يشيعه الناس إلى داره لا يكاد احد منهم يقدر على التخلف عنه اغتناما لرؤيته و لحظه فمر يوما على صبي تحت حائط يفلي ثوبه من القمل و

هو ماد رجليه لم يضمهما فقال سيدي محمد بن هارون في سره هذا الصبي قليل الأدب يمر عليه مثلي و لا يضم رجليه فسلب لوقته و تفرقت عنه الناس فلما وصل إلى داره معه احد فتنبه لنفسه و رجع للصبي يستغفر في حقه فلم يجده فسأل عنه أين ذهب فقالوا له هذا صبي القراد و لعله ذهب إلى الإسكندرية فسافر الشيخ إليه فلم يجده فقالوا لعله سافر إلى المحلة الكبرى فرجع إلى المحلة فلم يجده فقالوا لعله سافر إلى مصر فرجع الشيخ إلى مصر فوجده في الرميلة فلما وقف على الحلقة قال القراد الكبير للصبي أقم وجهك هذا زبونك جاء فتلاهى عن الشيخ حتى فرغ من اللعب ثم دعاه و قال مثلك في العلم و الصلاح و الشهرة ينبغي له أن يخطر في باله انه خير من احد من خلق اللّه تعالى ؟أما تعلم أن ذلك ذنب إبليس الذي طرد لأجله عن حضرة اللّه تعالى فقال الشيخ التوبة فقال القراد و كلنا نتوب عن مثل ذلك ثم نادى المعلم الصبي باسمه ،،يا قريمزان أين وضعت علمه و معارفه حين سلبته؟فقال الصبي في قلب السحلية التي كنت أفلي قميصي عند شقها في الحائط الفلاني فقال رد عليه حاله فقال قريمزان قل لها بأمارة ما وضع لك قريمزان اللباب على باب شقك ردي إلي حالي ،فذهب سيدي محمد بن هارون إلى بلده ونظر في شقها و ذكر لها الأمارة فخرجت و نفخت في وجهه فرد له عليه حاله وإذا بالخلق انقلبت إليه يقبلون أقدامه حتى آذى بعضهم بعضا من الزحام ثم اخذ الشيخ هدية لقريمزان و سافر إليه فقال له الصبي كيف ترى نفسك بعلم تستقل بحمله السحلية فمن ذلك الوقت ما ازدرى الشيخ أحدا من خلق اللّه تعالى حتى مات}، و نظير هذه الحادثة كثير لكني تعمدت ذكرها دون غيرها

لأنّه غالبا ما يظن البعض أن العوام و هم من الذين لا يؤبه لهم غير قادرين على السلب، قال أحدهم:

تواضع لرب العرش علّك ترفع ***** فما خاب عبد للمهيمن يخضع

و داو بذكر اللّه قلبك انه ***** لأشفى دواء للقلوب و انفع

البِطالة الظّاهرية و الكسل عن العمل

قلت:

البطالة تُقسّي القلبَ و تورِثُ الهموم و المآثم

و تُحوِجِ إلى تصديق المُنَجّم و تُحْوِز لحمل التمائم

فشمّر يا صاحِ عن ساعد الجِدّ بصدق العزائم

و اعلم أن الدّنيا الغَلاّبة لا تُنال إلا بالدراهم

قال اللّه تعالى: (فابتغوا عند اللّه الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون) وقال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم: (طلب الحلال فريضة بعد الفريضة) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا: (إنّ اللّه يُحبّ العبد المُحترفَ، و من كدّ على عياله كان كالمُجاهد في سبيل اللّه عزّ و جلّ) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا: (من أمسى كالاً من عمل يديه أمسى مغفورا له) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا: (إنّ من الذنوب ذنوبا لا يُكفّرها الصّلاة و لا الصّدقة و لا الحجّ، و يُكفّرها الهمّ في

طلب المعيشة) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ اللّه تعالى يُحبّ أن يرى عبده تَعِباً في طلب الحلال) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (لأن يحملَ الرّجلُ حبلا فيحتطبَ به ، ثمّ يجيء فيضعَه في السّوق فيبيعَه ثمّ يستغني به ، فيُنفقُه على نفسه ، خيرٌ له من أن يسألَ النّاسَ ، أعْطوْهُ أو مَنَعُوهُ) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ما أكلَ أحدٌ طعاما خيرا من أن يأكلَ من عمل يده) فهذه سبعة أحاديث و غيرها كثير في الحَثّ على العمل و طلب الرزق الحلال ، لأنّ الدنيا يا فقراء صارت ترى الكريم صاحب الدينار فرحم اللّه تعالى الجود و الإحسان كما قيل:

مضى الجود و الإحسان و اجتُثّتْ أهلُه °°°°° و أُخْمِدَ نيرانُ النّدى و المكارم

و صِرْتُ إلى ضَرْبٍ من النّاس آخَرٍ °°°°° يرون العُلى و المَجد جَمْعَ الدّراهم

و ليعلم أخي الفقير أنّه في هذه الأيّام لا يُساوي شيئا إلاّ إذا كان له شيء ، و ذلك الشيء هو الدينار ، و لا يكون أميرا إلاّ إذا مَلَك الأمير ؟ و هذا هو قانون الدّنيا الدّنيّة و هي دنية و لو كانت بالذهب مطليّة ، قال الحكيم :

لو كنتَ في علم موسى °°°°° و زهد عيسى بن مريم

و لم يكن لك مال °°°°° لم تَسْوَ في النّاس درهم

و قال الآخر :

فصاحة سُحبان و خطّ ابن مُقلة °°°°° و فهم بني أسد و زهد ابن أدهم

إذا جُمعتْ في المرء ، و المرءُ مُفلسٌ °°°°° و إن كان حُرًّا ، لا يُساوى بدرهم

لذلك يكون لزاما على المريد أن يتسبّب في طلب الرزق ، و لا يفعل ما يفعله مُدّعوا التصوّف من تواكل و بطالة ، و تطفّل على إخوانهم الفقراء ، و الطّمع في سائر النّاس ، لأنّ ذلك مفسدة ما بعدها مفسدة ، و هو من قواطع و

سوالب الطريق قال سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه :{ الطّمع في الخلق شَكٌّ في الخالق }، و قد سُئل النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم عن القناعة ، فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (هي الإياس ممّا في أيدي النّاس ، و إيّاكم و الطّمع ، فإنّه الفقر الحاضر) ، و قال أحدهم :{ لو سئل الطمع من أبوك ؟ لقال : الشكّ في الرازق }، قال حكيم :

لا تخضعنّ لمخلوق على طمع ◦◦◦ فإنّ ذلك وَهَنٌ منك في الدّين

و استرزق اللّه ممّا في خزائنه ◦◦◦ فإنّ ذلك بين الكاف و النّون

و استغن باللّه عن دنيا الملوك كما ◦◦◦ استغنى الملوك بدنياهم عن الدّين

و لو تأملنا أقطاب الصّوفية لوجدناهم جلّهم كانوا يأكلون من عرق جبينهم ، و يطلبون الحلال في معاشهم ، حتّى أنّ منهم من غلب عليه لقب حرفته كسيدي إبراهيم الفحّام رضي اللّه تعالى عنه و سيدي عبد الرحمن العطّار الزيّات رضي اللّه تعالى عنه و سيدي أبو سعيد الخرّاز رضي اللّه تعالى عنه الذي قيل عنه أنّه خرج سنة من السّنين من الشّام إلى مكّة المكرّمة مع القافلة ، فجلس ليلة إلى الصّباح يخرز نِعالَ أصحابه من الفقراء و الصّوفية ، و كان سيدي بشر بن الحارث رضي اللّه تعالى عنه غزّالا ، قال سيدي سهل بن عبد اللّه رضي اللّه تعالى عنه :{ من طعن على الإكتساب ، فقد طعن على السّنّة ، و من طعن على التّوكّل ، فقد طعن على الإيمان }، و سأل رجل سيدي ابن سالم رضي اللّه تعالى عنه و كان يتكلّم في فضل الكسب ، فقال له :{ أيّها الشيخ ، نحن مُستعبدون بالكسب أم بالتّوكّل ؟ فقال ابن سالم :التّوكّل حال رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و الكسب سنّته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و إنّما استنّ لهم الكسب لعلمه بضعفهم ، حتّى إذا سقطوا عن

درجة التّوكّل التي هي حاله صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم لا يسقطوا عن درجة طلب المعاش التي هي سنّته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم، و لولا ذلك لهلكوا }، و قال سيدي عبد اللّه بن المبارك رضي اللّه تعالى عنه :{ لا خير فيمن لا يذوق ذلّ المكاسب }، و قال أيضا :{ مكاسبك لا تمنعك عن التّفويض و التّوكّل إذا لم تُضيّعهما في كسبك }، و لذلك لا ينبغي للمتسبّب أن ينسى ذكر اللّه تعالى و التّوكّل عليه و تفويض أموره له، فلعلّه يغفل عن اللّه تعالى لحظة، يسقط بها عدد سنين من سلوكه، و رُبَّ كلمة في لغوه في كسبه تقطع به السّلوك من حيث لا يشعر، و ينبغي له طلب الحلال، فلا يرضى بغيره و لو أيسر من اليسير، لأنّه مهما خالط الحلالَ الحرامُ، هلك العبد و مُحقتْ بركة رزقه، قال سيدي إبراهيم بن أدهم رضي اللّه تعالى عنه :{ عليك بعمل الأبطال، الكسب الحلال و النّفقة على العيال }، و عليه بأدب الكسب الذي بيّنه سيدي أبو نصر رضي اللّه تعالى عنه بقوله:{ و من اشتغل بالمكاسب فأدبه أن لا يشتغل عن أداء الفرائض في أوقاتها، و لا يرى رزقه من ذلك، و ينوي بذلك معاونة المسلمين و يُنصفهم، فإذا فضل شيء من كسبه و نفقة عياله، لا يجمع و لا يمنع، و يُنفق على إخوانه من الفقراء الذين ليس لهم معاش و لا معلوم و لا سؤال، لأنّه و إن امتُحن بذلك، فهو واحد منهم }، و ينبغي لمن بخلت به أرض و أجدبت، أن يرحل عنها، لأنّ رزق اللّه تعالى لا تحدّه الحدود، و عليه بالحركة و الإنتقال كما قيل :

دعني أسير البلاد مُلتمسا °°°°° فضلة مالٍ إن لم يُفَرْزِانا
بيدق الرخّ و هو أيسرها °°°°° في الدُّسْتِ إن سار، صار فِرْزانًا

و البيدق هو قطعة الشطرنج المُسمّاة جِرْوًا ، و الرّخُ هي طاولة الشطرنج ، والفِرْزانُ هو الملكة في اللعبة أو ما يسمّى بالدَّامّا ، و معنى ذلك ، لولا تحرّك الجرو و سيره و مُراوغاته لما صار دّامّا ، و هذا إشارة إلى بركة الحركة ، والتّرحال لطلب الأرزاق . و طريق السّلوك تحتاج إلى مال مع حال ، لأنّ الواحد منهما دون الآخر يُطوّل الطريق على سالكها ، بل قلّة ذات اليد في هذه الأيام ، يأكل صاحبها بدينه ، و المال يُعدّ من الواجبات في تحصيله من وجه حلال لأنّ به قوام الدّين كما قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إذا كان في آخر الزّمان لا بدّ للنّاس فيها من الدّراهم و الدّنانير ، يُقيم الرّجل بها دينه و دنياه) ، أمّا القعود عن تحصيل الرّزق من حلال في حقّ السّالك فأقلّ عيوبه البطالة الّتي تُقسّي القلب كما قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (البطالة تُقسّي القلب) ، و قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى عنه : { يا غلام ، تحتاج إلى إيمان يُسَيّرُك في طريق الحقّ عزّ و جلّ ، و إلى إيقان يُثَبّتك فيها ، تحتاج في أوّل سلوكك في هذا الطريق إلى هِيمان { أي حصّالة النقود و هو إشارة إلى المال } و في آخره إلى إيمان ، بخلاف طريق مكّة ، بعضهم قال : طريق مكّة يحتاج إلى إيمان وهِميان { أي الإيمان قبل المال } و هذه الطريق الّتي قد أشرتُ إليها تحتاج إلى هِيمان و إيمان بداية و نهاية ، عن سفيان الثوري رضي اللّه تعالى عنه أنّه أوّل ما طلب العلم كان على وسطه هِيمان فيه خمسمائة دينار يُنفق منه و يتعلّم و يدقّ عليه بيده و يقول : لولاك لَتَمَنْدَلُوا بنا ، فلمّا حصل له العلم و عرف الحقّ تعالى ، أنفق ما بقي معه على الفقراء في يوم واحد و قال : لو أنّ السّماء حديدٌ لا تُمطر و الأرض صخرٌ لا تُنبتُ و اهتممتُ برزقي في الطّلب إنّي كافرٌ . عليك بالكسب و التّعلّق

بالسّبب إلى أن يقوى إيمانك ، ثمّ انتقل من السّبب إلى المسبّب ، الأنبياء عليهم السّلام اكتسبوا و تعلّقوا بالأسباب في أوّل أمرهم و في الآخر توكّلوا، جمعوا بين الكسب و التّوكّل بداية و نهاية ، شريعة و حقيقة ، يا محروم لا تُخْلِ من يدك الكسبَ ، في التّوكّل على ما في أيدي النّاس ، و تُكدي منهم فتكفر نعمة الأقدار فيمقتك اللّه تعالى و يُبعدك ، ترك الكسب و الكُدية من النّاس عقوبة من اللّه تعالى للعبد ، سليمان عليه السّلام لمّا أزال اللّه تعالى مُلكه عاقبه بأشياء من جملتها الكدية من النّاس ، كان في أيّام مملكته يكتسب و يأكل ، فلمّا ضيّق الحقّ تعالى عليه أخرجه من مملكته و ضيّق عليه طرق الأرزاق حتّى أكدى من النّاس ، و كان سبب ذلك عبادة امرأة في بيته تمثالا أربعين يوما ، فبقي في العقوبة أربعين يوما ، يوما بيوم }

التطلّع إلى الفتح و الكرامات

قلت :

كم من عابد غفل عن الذات ***** و تطلّع للذات الكرامات
فغرّه عدوّه اللّعين بتجلّيه ***** و جرّه إلى طريق أهل الكهانات
فأراه في القمامات و المزابل ***** مقامات يقظة لا منامات
و سقاه خمرا على أنّه ***** لبنا فلمّا سَكِر مات

استقيت معنى أبياتي هاته من حادثة تُروى عن أحد الفقراء بعد ما غرّه إبليس ونفخ في نفسه دخان الكِبْر و همس في خاطره أنّه مثل شيخه في مقامه ، فاستقلّ هذا الفقير و انفطم عن شيخه و زعم أنّه يصلّي كل أوقاته أمام

الكعبة المشرّفة ، ثمّ يعود في خطوة إلى بلده ، فبلغ ذلك شيخَه فعرف أنّ الشيطان قد مكر به ، فسار إليه وقال له : أنت تزعم أنّك تصلّي أمام الكعبة فهل أذهب معك لنصلّي معا ، فقال ذلك الفقير : نعم ، نذهب معا لنصلّي ، فسار و سار معه الشيخ ، حتّى تمثّلت لذلك الفقير الكعبة المشرّفة ، فقرأ الشيخ آية الكرسي ليطرد بها الشيطان ، ثمّ قال للفقير : انظر حولك ، فنظر فوجد نفسه جالسا في مزبلة ، قال مشايخ السلوك :{ ليس الطريق لمن سبق ، إنّما الطريق لمن صدق} ، و من الصدق في الطلب عدم الطلب ، و من أراد الفتح فلا يطلب الفتح ، لأنّ الفتح فتنة لمن رامه و طلبه ، قال تعالى في الحديث القدسي : (من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطيت السائلين) و في رواية أخرى : (أعطيته قبل أن يسألني) ، فمن أشغله ذكر اللّه تعالى عن طلب الفتح جاءه الفتح بفضل اللّه تعالى قال الشيخ سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه تعالى عنه :{ كنت أنا و صاحب لي قد أوينا إلى مغارة نطلب الوصول إلى اللّه تعالى ، فكنا نقول : غدا يفتح لنا ، بعد غد يفتح لنا ، فدخل علينا رجل له هيبة فقلت له : من أنت ؟ قال : عبد الملك ، فعلمنا أنّه من أولياء اللّه تعالى ، فقلنا له : كيف حالك ؟ فقال : كيف حال من يقول : غدا يفتح لي ، بعد غد يفتح لي ، فلا ولاية و لا فلاح ، يا نفس لا تعبدين اللّه إلاّ للّه ، قال : فتفطّنا من أين دخل علينا فتبنا و استغفرنا ففتح لنا }، لذلك ينبغي لك أخي الفقير أن تعبد اللّه تعالى لمراده منك لا لمرادك منه ، لأنّ مراده تعالى منك أن تكون عبدا له صرفا خالصا ، يرضى لك الحرية من سواه و لا يرضى لك العبودية إلاّ له ، فمن عبد اللّه تعالى بنيّة الفتح فهو عبدٌ للفتح لا لربّ الفتح و الشأن كذلك لطالب الكرامات و الفتح يأتي بعِوَض و غرامة ، و ليس لك ذلك ، لأنّ عبادتك اللّه تعالى هي منه تعالى أجراها فقط عليك

، كما قال سيدي ابن عطاء اللّه السكندري رضي اللّه تعالى عنه :{ لا تفرحك الطاعة لأنّها برزت منك وافرح بها لأنّها برزت من اللّه إليك (قل بفضل اللّه و برحمته فبذلك فليفرحوا هو خير ممّا يجمعون) }، ويقال أنّه لو سقطت طاقية من السّماء لم تقع إلاّ على رأس من لا يريدها و الزاهد فيها، و ذلك شأن الفتح ، فمن زهد في الفتح و عبد اللّه تعالى خالصا فُتح له و أعِين عليه ، و من دخل الطريق و عبد اللّه تعالى بنيّة الفتح و طلبه طال عليه الطريق و مال عن السلوك ، لفقده الإخلاص في عبادته و لو فُتح عليه ربّما فُتن قال تعالى : (وما أمروا إلاّ ليعبدوا اللّه مُخلصين له الدّين) ، لأنّ مبدأ التّصوّف هو كُنْ أو لا تكون ، أي كُنْ صوفي حقّا و إلاّ فلا تُشغل نفسك بتُرّهات الصوفية، لأنّ كلمة صوفي هي أربعة حروف فالصاد الصدق بينك و بين الحقّ تعالى و الصفاء بينك و بين الخلق و الواو الوفاء لحقوق الحقّ تعالى و ورع من حقوق الخلق ، و الفاء فناء في الحقّ تعالى و فرار بالقلب و السّر من الخلق ، و الياء اليقين بما في يد الحقّ تعالى و اليأس من الخلق كلّهم ، سُئل سيدي أبو الحسين بن الصائغ الدينوري رضي اللّه تعالى عنه عن صفة المريد فقال :{ صفته ما قال اللّه تعالى : (ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت و ضاقت عليهم أنفسهم و ظنوا أن لا ملجأ من اللّه إلاّ إليه) }، قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي اللّه تعالى عنه :{ومن شأن المريد أن لا يستبطئ الفتح عليه بل يعبد اللّه تعالى لوجهه الكريم سواءً أفتح عين قلبه و رفع عنه الحجاب أم لا ، فإنّ العبادة من شروط العبودية }، و قال الشيخ سيدي محيّي الدين بن عربي رضي اللّه تعالى عنه:{إياك أن تترك المجاهدة إذا لم ترَ أمارات الفتح ، بل دُمْ على المجاهدة فإنّ الفتح بعدها لازم لابدّ منه ، تطلبه الأعمال و تناله الأنفس ، و لكنّ للفتح وقت لا يتعداه ، فلا تتّهم ربّك فإنّه لابدّ

لأعمالك من الثمرة إذا كنت مُخلصا و ارفع من نفسك التّهمة لربّك جملة واحدة، وفرْ من أن تكون من أهل التّهم }، و قال الشيخ سيدي داود بن باخلي رضي اللّه تعالى عنه :{ احذر أيّها المريد أن يكون قصدك من ذكرك و عبادتك الأجر و الثواب فإنّ ذلك حاصل لك لا محالة ، و إنّما ينبغي أن تكون همّتك في التّلذذ بمناجاته }، ومناط السلوك على محو كل إرادة من القلب و شهوة من النّفس و تطلّع من السّر ،و النظر إلى الفتح من هذه الزوايا يُنافي خالص الإرادة ، لأنّ الإرادة هي أن لا تريد ، قال تعالى في الحديث القدسي : (عبدي تُريد و أريد و إنّما يكون ما أريد ، فإن سلّمت لما أريد كفيتك ما تريد ، و إن لم تسلّم لما أريد أتعبتك فيما تريد ، ثم لا يكون إلاّ ما أريد) ،هذا شأن من طلب الفتح مع كثرة عباداته و مجاهداته فكابد القيظ بالصيّام و الليل بالقيام ، كما قيل :{ من علامة المريد الصادق أن لا يقول قطّ أنا أفعل كذا من العبادات العظيمة ، فإنّ اللّه تعالى يُعجز المدّعين و إن كانوا على أعمال الثقلين هبطوا و سقطوا }، فكيف الحال بمن وضع رجلا على رجل في مقهى من المقاهي و أطلق لسانه في حصد غرس و دَرْس الغير بالقيل و القال و الغيبة و النّميمة و حصائد الألسن ، التي حرّمها اللّه تعالى على الآدمي فكيف لا يسلم منها الفقير ، يروى:{ أنّ شيخا سمع مريدا يغتاب أخاه الفقير فقال له:هل جاهدت اليهود ؟ قال : لا ، فقال : و لا النصارى ؟ قال : و لا النصارى ، فقال له : سلمَ منك اليهود و النصارى و لم يسلمْ منك أخوك الفقير} ، و كم من بليات لحقت ببعض الفقراء من اغتيابهم لإخوانهم ، فكم من فقير ضحك على أخيه فصار أضحوكة ، ومنهم من فرح ببلاء أخيه الفقير و أظهر الشماتة به فابتلاه اللّه تعالى بما ابتلى أخاه ، قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لا تُظهر الشماتة بأخيك

فيُعافيه اللّه و يبتليك) و الغيبة و النّميمة هما من المهلكات و من قواطع الطريق، و عاد من عاد و سُلب من سُلب إلاّ بسببهما نسأل اللّه تعالى السلامة، ثمّ قنع بركيعات و أذكار يقولها اللسان و يغفل عن معناها الجنان، و ظنّ أنّه شيء فتطلّع إلى الفتح و الكرامات، و لو علم معنى الكرامات لمات من حينه حياء من نفسه إن لم يستحِ من اللّه تعالى و رسوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و شيخه و سائر الصالحين، لأنّ كلمة الكرامات هي جزأين اسم و فعل فأمّا الاسم فهو الكَرى و هو الليل و الفعل هو مات، فمن أراد الكرامات فضلا من اللّه تعالى، عليه في الكرى أن يُنيم عينًا عن طلب الدنيا و الأخرى عن طلب الآخرة و يسهر قلبه و سرّه في طلب رضاه تعالى و أن يموت عمّا سوى الحقّ تعالى، إذاً فمن لزم الكرى و مات أستحق الكرامات، و الكرامات هي مِنحة من اللّه تعالى يعطيها لمن يشاء بفضله، و ليس كل من ظهرت عليه كرامة هو وليّ، كما قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه: { إذا رأيتم الرجل تظهر له الكرامات و تنخرق له العادات، فلا تلتفتوا إليه، و لكن انظروا كيف هو عند امتثال الأمر و النّهي }، و الكرامات كما يقال هي حيض الرجال، و كما أنّ المرأة تستحي بحيضها و تستخفي، فالوليّ كذلك إذا ظهرت عليه كرامة فإنّه يكتمها جهده و يستتر منها، و ليس كل من لم تظهر عليه كرامة هو وليّ ناقص بل هو الكامل، و لذلك قال الشيخ سيدي أبو القاسم الجنيد رضي اللّه تعالى عنه: { قد مشى رجال باليقين على الماء و من مات على العطش أفضل منهم يقينا }، و دليل ذلك أنّ حبيب رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم سيدنا الحسين السبط شهيد كربلاء رضي اللّه تعالى عنه و هو مَن هو في علو منزلته عند اللّه تعالى قد مات عطشا رضي اللّه تعالى عنه و أرضاه و ذلك أنّ ابن

زياد أمر بجيش فيه ألف مقاتل ما بين فارس و راجل و جعل عمرا بن سعد قائدا ، فسار الجيش و نزلوا بشاطئ الفرات و حالوا بين سيدنا الحسين رضي اللّه تعالى عنه و بين الماء فضاق الأمر على سيدنا الحسين رضي اللّه تعالى عنه وعلى أصحابه و اشتدّ بهم العطش ، و لم يزل رضي اللّه تعالى عنه عَطِشا حتّى استشهد رضي اللّه تعالى عنه ، و يُروى أنّه رضي اللّه تعالى عنه دعا على أحد أعدائه لما أراه الماء و أسكبه على الأرض ، فابتلى اللّه تعالى ذلك الشخص بالعطش الشديد ، فكان يشرب شرب البعير و لا يروى حتّى هلك . هذا عن سبط سيدنا رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، فلو حدث لأحدنا مثل ذلك لقلنا عنه أنّه محروم لأنّه استقرّ في أدمغتنا الفاسدة أنّ كلّ خير لا يصيب إلاّ الصالح و كلّ شرّ لا يصيب إلاّ الطالح ، وقد بيّن لنا اللّه تعالى أنّ هذا المقياس لا يُعوّل عليه بقوله تعالى : (فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه ربّه فأكرمه و نعّمه فيقول ربّي أكرمن ، و أمّا إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربّي أهانن ، كلاّ) ، كلاّ لأنّ مقياس العقول في نظرتها للابتلاء بالخير و الشرّ فاسد ، و لذلك إذا رأيت أخي الفقير شخصا مُبتلى فلا تظنّنّ أنّ عليه غضب اللّه تعالى ، بل الابتلاء هو تمحيص إمّا لغفران الذنوب أو لازدياد الدرجات و لذلك قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (اتّخذِ البلاء جِلبابا ، اتّخذِ الفقر جِلبابا) لرجل لما قال له : يا رسول اللّه إنّي أحبّك في اللّه تعالى . بل طريق السلوك مبنيّ أساسها على الابتلاء و التّمحيص قال تعالى : (أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا و هم لا يُفتنون و لقد فتنّا الذين من قبلهم فليعلمنّ اللّه الذين صدقوا و ليعلمنّ الكاذبين) ، و قال النبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم :{ أشدّ النّاس بلاءً الأنبياءُ ثمّ الأمثلُ فالأمثلُ ، يُبتلى الرّجلُ على حسب دينه ، فإن كان في دينه

صُلْبًا اشتدّ بلاؤه، و إن كان في دينه رقّةٌ ابتُلي على قدر دينه، فما يبرحُ البلاءُ بالعبد حتّى يتركه يمشي على الأرض و ما عليه خطيئة}، فما قول المغبون في فهمه إن كان الأنبياء أحباب اللَّه تعالى أشدّ النّاس بلاءً، فهل ابتلاهم الحقّ تعالى لغضبه أم لحبّه لهم؟ بل إنّ نظرة بعض المحرومين إذا رأى فقيرا مُبتلى و كان في قلبه عليه شيء أن يقول هي دعوتي أصابته و هو سرّي ضربه و هو سهم ذكري رُشق فيه، و من هؤلاء من يقوم الليالي الطِوال لا لذكر اللَّه تعالى و عبادته و التّهجد و المجاهدة بل ليذكر أذكارا ما أنزل اللَّه بها من سلطان كعزيمة الدهروشية أو البرهتية أو غيرهما من العزائم ليضر أخاه الفقير، و منهم من يبيت ذاكرا اسمه تعالى اللطيف و يرسل بسهامه على إخوانه الفقراء ثمّ ينتظر الصباح و هو يُبرز سبحته ليسمع من إخوانه الذين آذاهم بأذكاره مناما أو رؤية تتحدّث عن قوة سرّه و نور ذكره، و هل مثل هذا يستحق لقب فقير؟ إنّه لعمري زنديق في ثوب صدّيق، و شيطان في صورة وليّ، و هل التّصوّف هذا سِرّه؟ وهل السلوك هذا سَيْرُه؟ لذلك من طلب الكرامة فهو مُدّعي و المُدّعي فيه بقية من نفس إن لم تكن النّفس كلها، قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللَّه تعالى عنه: {الدّعوى من رعونة النّفس، و المُدّعي مُنازع للربوبية}، و قال أيضا: {المُدّعي من أشار إلى نفسه}. لذلك لا ينبغي للصادق أن يقول: أنا و أنا، أو يقول: عندي و لي. لأنّ تلك الكلمات هي أقوال إبليس القائل: أنا خير منه، و قارون القائل: إنّما أوتيته على علم عندي، و فرعون القائل: و لي ملك مصر. قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللَّه تعالى عنه: {لا تغترّ بطاعتك و تُعجب بها، اسأل الحقّ تعالى قَبولها، و احذر وخف أن يُنقلك إلى غيرها، إيش آمنك أن يُقال لطاعتك كوني معصية و لصفائك كُنْ كدرا؟

من عرف اللّه تعالى لا يقف مع شيء و لا يغترّ بشيء ، لا يأمن حتّى يخرج من الدّنيا على سلامة دينه و حفظ ما بينه و بين اللّه تعالى } ، بل ما قصد طالب الفتح و المُغترّ بالكرامات ، هل يريد العروج إلى السّماء أم التّحليق في الهواء أم المشي على الماء ؟ لا هذا و لا ذاك يُعتدّ به في مِقياس الصّلاح ، بل منهم من تستهويه مُطالعة كتب كرامات الأولياء ويكونُ جُهده يريد أن يتحلّى ببعضها بالبطالة ، كما قال الشيخ سيدي الجنيد رضي اللّه تعالى عنه : { من يتكلّم في الكرامات و لا يكون له من ذلك شيء مثله مثل من يمضغ التّبن} ، و لعمري ما يمضغ التّبن إلاّ الحمار أو البغل ، و قد كنّى وعرّض رضي اللّه تعالى عنه و أبنتُ و أفصحتُ لحجابِ الفهم عن بعض العقول ، إذًا إنّه لعارُ و شِنّار أن تدّعي الحُمُرُ أنّها أسْدٌ ، كذلك الحمار الذي لبس جلد أسدٍ و دخل الغابة ، فتفرّقتْ منه الحيوانات خوفا و فرَقًا و قد ظنّته أسدا ، فلمّا رأى ذلك حمل عليهم ، فمنهم الفّار و قد أُجْهِدَ جريًا و منهم السّاقط و قد جُرِح و منهم الجاثم و قد بلّل نفسَه ، فلمّا رأى الحمار ذلك أخذه الزّهو و العجب فنهق فرحًا ، فلمّا سمعت الحيوانات نهيقه تحقّقت أنّها خُتِلتْ ، فحملتْ جميعها على الحمار وأوسعته ضربا و رفسا حتّى قتلته ، و إن كانت هذه القصّة عبرة على لسان الحيوانات و بالمِثال يتّضح المقال ، فهي تذكرة لمن قال بما ليس فيه ، فيُفضح من حينه ، لأنّ من ادّعى طُلِب بالبيّنة ، و من أراد العسل فليصبر على لسع النّحل ، كما قيل :

لا بُدّ للشّهد من نحلٍ يُمنّعه ***** لا يجتني النّفعَ من لم يحملْ الضّرر

و قال غيره :

لم تَجْنِ وردًا لا يُصيبُك شوكُه ***** و لم تَجْنِ شهدًا لم يُصِبْكَ أذَى النّحل

و لمن أراد السّرّ فليحضر عنه في نفسه يجده ، و هذا الشيء لا يأتي بالنّوم والبطالة و القال و القيل و وضع اليمنى على اليسرى على الوثير من الأرائك بل :

بقدر الجدّ تُكتسبُ المعالي ***** و من طلب العالِ سهر اللّيالي

و من رام العُلا من غير كدّ ***** أضاع العمر في طلب المُحال

تروم العزّ ثمّ تنام ليلا ***** يغوصُ البحرَ من طلب اللآلئ

و من المغرورين من يطلب المحال و هو غارقٌ في اللّهو و البطالة كما قيل : أنّ بعض الفقراء أصابه قولنج شديد {أي ريحٌ في بطنه ، انتفخ منها} ، و هو في بعض المساجد فجعل يتكرّبُ و يقلق و يقول : يا اللّه ، ضرطةً واحدةً تخرج منّي ، و أقلق رفاقَه ، فلمّا كان الصّبحُ أشرف على الهلاك و عاين الموت فقال : يا اللّه ، أدخلني الجنّة ، فقال له بعض رفاقه : ما رأيتُ أحمقا منك ، أنت من البارحة إلى الآن تسأله ضرطةً ما فرحتَ بها ، تسأله الجنّة ؟ و مثل هذا كثير ، منهم من يظنّ نفسه فخرا ، فإن حقّقته وجدته فخرًا بغير فاءٍ ! لأنّ هذه الطريق كالبحر تنفي الزبد ولا تُبقي إلاّ الصّحيح من النّوايا في القلوب ، فمن صدق نال مُناه ، و من ادّعى و بئرُ علمه آسنٌ و ماءُ عمله راكدٌ ، فهو المغبون كما قيل : { يا مُخنّث العزم ، أين أنت و الطريق ؟ طريقٌ تعبَ فيه آدم ، و ناح لأجله نوح ، و رُميَ في النّار الخليل ، و أُضجع للذّبح إسماعيل ، و بِيعَ يوسفُ بثمنٍ بخسٍ و لبث في السّجن بضع سنين ، و نُشِرَ بالمنشار زكريا ، و ذُبحَ السّيّد الحصور يحيى ، وقاسى الضّرّ أيّوب ، و زاد على المقدار بُكاءُ داود ، و قاسى الأهوال و الخوف

موسى ، و سار مع الوحش عيسى ، و عالج الفقر و أنواع الأذى سيدنا محمّد صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و تطلب أنت ما طلبوا بالزّهو و اللّعب ؟ {

وما أحسن ما قيل :

لا تحسبِ المجدَ تمرًا أنت آكلُه ***** لن تبلغ المجدَ حتّى تلعقَ الصّبرا

القناعة بوارد الأحلام

قلت :

القناعة بوارد الأحلام ***** تغطي سماء القلب بالغمام

فلا تشرق شمس الحقيقة ***** فيه و تدعه في ظلام

و الفارح بأحلامه كالدّاخل ***** حربا و الجيوش في إلتحام

فحلم أنّه في جنّة و قد ***** رفرف الموت عليه و حام

من قنع بوارد الأحلام في طريق السّلوك و عقباته ، هو كمن دخل أرض معركة حرب ، و القذائف تُرمى من كل جانب و الرصاص طائش من أمام و خلف ، ثم أغمض عينيه و تخيّل نفسه في حديقة غنّاء أو قصر مُنيف و هو بين الحشم و الخدم مخدوما ، يُصفّق فيجد ما طلب أمامه ، فخياله في هواء و هباء ، و حقيقته في أرض قتل و دماء ، و هذا القاطع هو من المظاهر المغلوطة لدى بعض الفقراء ، و منهم من لا يفرّق بين الرؤيا و الحلم و حديث النّفس ، و كلّ ما يراه يظن رؤيا، لأنّ الرؤيا الحسنة هي من اللّه تعالى و

هي من المبشرات ، و الحلم المُحزن من الشيطان ، و ما يفعله المرء في يقظته ثم يراه في منامه هو حديث نفسٍ ، و إن كانت الرؤيا من المبشّرات كما سئل النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم عن قوله تعالى : (لهم البشرى في الحياة الدنيا) ، فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرى له) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (في آخر الزمان لا تكاد رؤيا المؤمن تكذب ، و أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزءٌ من ستٍّ و أربعين جزءًا من النبوّة) ، و حساب ذلك : أنّ عدد سنين نبوّته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ثلاثا و عشرين سنة ، أي أقام يوحى إليه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ثلاث عشرة سنة بمكّة ، و عشر سنين بالمدينة ، و كان قبل ذلك ستّة أشهر يرى في المنام الوحي ، و هذه الستّة أشهر هي جزءٌ من ستٍّ و أربعين جزءًا من النبوّة ، و متى ضربنا ثلاثا وعشرين سنة في اثني عشر شهرا و هي سنة تامّة ، وجدنا عدد الأشهر ستّةً و سبعين و مائتين شهرا ، فإذا قسّمنا عدد الأشهر هذا على سِتٍّ و أربعين وجدنا ستّة أشهر ، فهذه الستّة أشهر هي جزءٌ من سِتٍّ و أربعين جزءًا من النبوّة ، و حتّى لو كانت الرؤيا من المبشرات فلا ينبغي للسّالك أن يُعوّل عليها أو يبني عليها في مراحل سلوكه ، بل حتّى لو جاءه نبيّ من الأنبياء في رؤياه و أمره بأمر و كان خيرا و فيه صلاحه ، ثمّ أمره شيخه يقظة بأمرٍ خير خلاف ذلك و كان فيه هلاكه ، وجب عليه طاعة شيخه ، لأنّه يرى في صلاحه ، و لا يرضى لنفسه الغِنى إلاّ ليُوصلها إلى حرّيتها باللّه تعالى وحده ، كمن يأمره شيخه بإنفاق جميع ماله و لا يترك لأيّ شيء ، فمراد شيخه منه هنا هو علاج داء البخل المُستشري في قلبه و الأمثلة

في ذلك كثيرة من سير الشيخ بمريده عكس تيّار و مراد نفسه و شهوته، قال الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السّرهندي رضي الله تعالى عنه :{ لو كان للوقائع اعتبار و على المنامات اعتماد ، لا يحتاج المريدون إلى الشيوخ و يكون اختيار طريق من الطرق عبثًا ، فإنّ كلّ مريد يعمل حينئذ بما يوافق وقائعه و يطابق لمناماته ، سواء كانت تلك الوقائع و المنامات موافقة لطريقة شيخه أو لا و سواء كانت مرضية عنده أو لا ، فعلى هذا التّقدير تبطل سلسلة الشيخوخة و المريدية ، و كلّ ذلك هوَس يستقلّ بوضعه و يستبدّ بطوره ، و المريد الصادق لا يكون عنده لِألْفِ واقعةٍ صادقة مقدار نصف شُعيرة من الاعتبار مع وجود شيخه، و تكون المنامات عند الطالب الرّشيد مع دولة حضور المرشد معدودة من أضغاث أحلام ، و لا يلتفت إلى شيء منها أصلا }، و قال الشيخ سيدي الروّاس رضي الله تعالى عنه :{ عدم الإغترار بالمنامات كيف كان ، فإنّ من غرّته المنامات تحت طيّ المُنَى مات ، و حدّها التفاؤل الحسن بالرؤيا الصالحة ، و الاشتغال كل الاشتغال بالأعمال الصالحة بعدها، أخذاً بسرّ الرؤيا ، فإنّ البشارة فيها إشارة ، و الإشارة تُطوى على بشارة ، و قد يقول قائل أنّي رأيت سيّد الوجود النّبي صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم في رؤياي، فأمرني و نهاني ، فإن كان هذا الرائي من المنتهين فلا شكّ أنّ رؤياه حقّ و صدق ، و هو مصون من سلطان الشيطان ، و إن كان من المبتدئين و المتوسّطين فلا يمكنه الاعتماد على رؤياه }، فإن سأل: أنّ الشيطان لا يتمثّل بصورته صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم لقوله صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (من رآني في المنام فقد رآني حقّا ، فإنّ الشيطان لا يتمثّل بي) و بناءًا على ذلك فإنّ ما رآه صادق و محفوظ من مكر الشيطان ، و جواب ذلك ما قاله الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السّرهندي

رضي اللّه تعالى عنه :{ أنّ صاحب الفتوحات المكّيّة جعل عدم تمثّل الشيطان مخصوصا بصورته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم الخاصّة به المدفونة في المدينة و لا يجوز الحكم بعدم تمثّله مُطلقا على أي صورة كان و لا شكّ أنّ تشخيص تلك الصّورة على صاحبها الصّلاة و السّلام خصوصا في المنام مُتعسّر جدّا ، فكيف تكون مستحقّة للاعتماد ، فإن لم نجعل عدم تمثّل الشيطان مخصوصا بصورته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم الخاصّة به ، و جوّزنا عدم تمثّله به على أي صورة كان كما ذهب إليه كثير من العلماء ، و مناسب أيضا لرفعة شأنه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، نقول أنّ أخذ الأحكام عن تلك الصّورة و إدراك المرضي و غير المرضي له من المشكلات ، فإنّه يُمكن أن يكون العدوّ اللّعين متوسّطا في البَيْن و مُرئيّا لخلاف الواقع واقعيّا ، و موقعا للرائي في الاشتباه و الالتباس بتلبيس عبارته و إشارته بعبارة رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم و إشارته ، كما روي أنّ سيّد البشر صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم كان يوما جالسا و كان عنده صناديد قريش و رؤساء أهل الكفر و كثير من الأصحاب أيضا ، فقرأ النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم سورة النّجم و لمّا بلغ لذكر آلهتهم الباطلة ضمّ الشّيطانُ اللّعين كلمات في مدح آلهتهم الباطلة إلى قراءته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و بيان ذلك أنّه لمّا نزل قوله تعالى : (أفرأيتم اللاّت و العزّى) قرأها رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم فقال : تلك الغرانيق العلا و أنّ شفاعتهن لتُرجى و سجد النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و الصّحابة و سجد من حضر من المشركين و الكّفار ، فظنّها الحاضرون من قراءته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و لم يجدوا إلى تمييّزه سبيلا أصلا ، ففرح الكافرون

و قالوا إنّ محمّدا صالحنا و مدح آلهتنا ، و تحيّر منه الصّحابة أيضا ، ولم يطّلع النّبي صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم على كلام الشّيطان اللّعين هذا ، فقال صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم : (ما الواقعة ؟) فعرض الأصحاب الكرام عليه صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم أنّ هذه الفقرات قد ظهرت في أثناء قراءتك ، فحزن النبي صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم و اشتدّ عليه الأمر ، فجاء أمين الوحي جبريل عليه السّلام بالوحي لبيان أنّ ذلك الكلام كان إلقاءً شيطانيّا و ذلك قوله تعالى : (و ما أرسلنا من قبلك من رسول و لا نبيّ إلاّ إذا تمنّى ، ألقى الشّيطان في أمنيته ، فينسخ اللّٰه ما يُلقي الشيطان ثم يُحكم اللّٰه آياته) ، فإذا ألقى الشيطان اللعين كلامه الباطل في أثناء قراءته صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم في زمان حياته و في حالة يقظته و في محضر الصّحابة بحيث لا يمتاز من قراءته صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم ، فمن أين يدري الرائي أنّ تلك الواقعة المناميّة محفوظة من تصرّف الشّيطان و مصونة من تلبيسه مع كونها بعد وفاته صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم و في حالة المنام التي هي حالة تعطيل الحواس و محلّ الإشتباه و الالتباس و وجود إنفراد الرائي عن سائر النّاس ؟! ، لذلك لا ينبغي إلاّ للمنتهي أن يبني على رؤياه دون المبتدئ و المتوسّط ، و من غرائب بعض النّاس أنهم يظنّون أنّ كلّ ما يُرى في المنام هو رؤيا و لها تفسير ، بل منهم من يأتيه جاره في المنام و قد يكون خمّارا سكّيرا المهمّ أن يكون اسمه محمّدا ، ففي صباح منامه يقول جاءني رسول اللّٰه صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم في المنام ، لأنّه نُقِشَ في عقله أنّ كلّ رجل اسمه محمّدٌ يأتي في المنام فهو رسول اللّٰه صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم ، و هذا غاية الحمق و البَله ، و قسْ على ذلك سائر

الأسماء مع سائر الأولياء ، فلو جاءه رجل اسمه عبد القادر فيقول جاءني الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّٰه تعالى عنه في الرؤيا فأمرني و نهاني ، و لو تأمّل ما حدث للشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّٰه تعالى عنه لمّا ظهر له الشيطان اللّعين في صورة التجلّي الإلهي لعرف ، فقد قال رضي اللّٰه تعالى عنه : { تراءى لي نور عظيم ملأ الأفق ثمّ تدلّى فيه صورة تُناديني : يا عبد القادر ، أنا ربّك و قد حللت لك المحرّمات ، فقلتُ: إخسأ يا لعين ، فإذا ذلك النّور ظلام و تلك الصّورة دخان ، ثمّ خاطبني : يا عبد القادر نجوتَ منّي لعلمك بأمر ربّك و فقهك في أحوال منازلاتك ولقد أضللتُ بهذه الواقعة سبعين من أهل الطريق ، فقلتُ : للّٰه الفضل ، فقيل له : كيف علمتَ أنّه شيطان ؟ فقال: بقوله قد حللتُ لك المحرّمات }، و سئل رضي اللّٰه تعالى عنه عن صفات الموارد الإلهية و الطّوارق الشيطانية ، فقال :{ الوارد الإلهي لا يأتي باستدعاء و لا يذهب بسبب و لا يأتي على نمط واحد و لا في وقت مخصوص ، و الطارق الشيطاني بخلاف ذلك غالبا }، و بذلك نعلم أنّ اللّعين يتمثّل إلاّ بصورة النّبي صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم ، فإنّه لا يُطيقها فلا يتمثّل بها لسطوة نورانيتها ، و قد يتساءل البعض أنّه لماذا تمثّل اللّعين بصورة الحقّ تعالى ولم يتمثّل بصورة النّبيّ صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم ، و سبب ذلك أنّ ذات الحقّ تعالى لا كيفية ، فليس كمثله شيء ، و هو نور ، و لذلك يتشكل اللّعين على مثل ذلك النّور فقط ، و لذلك قال النّبيّ صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم لمّا سُئل : هل رأيتَ ربّك ؟ فقال صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم : (نور أنّى أراه ؟) أي كيف أراه ، هذا كلامه صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم و هو المُشرّع ، أمّا معنى ذلك و هو المُحقّق صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم : (نور إنّي أراه) و لها وجه آخر في

قوله صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (نور أنّى أراه) فقياسا على {أنّى} ظرف مكان بمعنى {أين} أكون أراه ، و هذا على وجه التّحقيق و اللّه تعالى أعلم . و أيضا لمّا تجلّى الحقّ تعالى للكليم عليه السّلام على صورة نورُ نارٍ في شجرةٍ خضراءَ لم تُحرق ، أمّا ذات النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم التي هي أصل كلّ نور ، فلا يستطيع اللّعين التمثّل بصورته و سرّ ذلك فصل فيه من لا ينطق عن الهوى صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم حيث قال : (من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ، و لا يتمثّل الشّيطان بي) و في رواية أخرى : (من رآني في المنام فقد رآني حقّا ، فإنّ الشّيطان لا يتمثّل بي) ، و كما أنّ اللّعين لا يستطيع التمثّل بصورته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في المنام و الحواس مُعطّلة و الخيال مُطلقٌ عَنَانُه ، ففي اليقظة أولى لأنّ شرف العقل باليقظة ، و حكم النّائم حكم مسلوب الإختيار .

الركون إلى قبول الخلق

قلت :

الركون إلى حبّ الخلق ***** يُعكّر للفقير ماءَ المدد

و السّكون إليهم يُذهب ***** العسل و يُخرّبُ الشّهَد

و قد قيل : من عرف أحدا ***** حُجِب عن الواحد الأحد

فكنْ بمعزل عنهم تفلح ***** و قس مهابة الأسد لمّا تفرّد

الركون إلى قبول الخلق منافي لمقاصد السّلوك ، لأنّ المراد من التربية القلبية الإرشادية هي نزع محبّة ما سوى الحقّ تعالى ، و الراكن إلى قبول

الخلق محروم ، لأنّ إرضاء النّاس غاية لا تُدرك ، و قد قالها الشيخ سيدي أبو بكر الشّبلي رضي اللّه تعالى عنه :{ لو قبلني العالم بمن فيه لكانت مُصيبة عليّ ، إذ لو لم يكنْ شربُهم شربي ، و ذوقهم ذوقي ، لم يقبلوني } ، و التصوّف كما قلت له مبدأ واحد و هو : كُنْ أو لا تكون . أي كن صوفي حقّا و صدقا و عدلا أو لا تكون و لا تُشغل نفسك، لأنّ إمساك عصا السّلوك من الوسط ، بلا بداية مُخزية و مؤلمة من ذوق للحرمان و الفقر و قهرٍ من سائر النّاس ، من القريب و البعيد ، فذلك لا يُنتج في رحم السّالك مورثًا (كروموزوما) واحدا من وراثة الوَلاية العامّة فضلا عن الخاصة . و التصوّف هو اختياران إثنان فقط ، إمّا الحقّ تعالى أو الخلق ، فالقلب لا يتّسع لهما معا بل هو شرك ، و اللّه تعالى أغنى الشركاء ، قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه :{ لا تكون له عبدا و لغيره فيك بقيّة رِقٍّ } ، و التطلع إلى الخلق فيه عبودية القلب لهم ، من تصنّع لهم ، و خوف منهم و رجاءٍ لهم ، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا :{ إيّاك أن تميل إلى غير اللّه فيسلبك اللّه لذّة مناجاته }، و الميل ولو شيئا يسيرا ، لأنّ اللّه تعالى يغير على عبدٍ إذا رأى قلبه مُتعلّقا بسواه ، و لو بذرّة من الوجود ، فكيف بمن هو غارقٌ و ثملٌ حتّى الثمالة بمحبّة السّوى ، ثم يطمع في قرب المولى تعالى ، و لذلك قال سيدي محمّد البوزيدي رضي اللّه تعالى عنه :{إذا بقيتْ للمريد شعرة من جسده خارجة عن الوجود المطلق ، بحيث لم يُثبتها باللّه تعالى،فهو محجوب عن اللّه تعالى }، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا :{ إنّ الوَلاية تمنعها شعرة }، و لأنّ كعبة شهود الذات واحدةٌ ، و بابها صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم واحدٌ ، و مفتاحُ بابِها الشيخُ و الدليلُ المرشدُ واحدٌ ، و طريق ذلك مسلكٌ واحدٌ و هو الصراط المستقيم، لزم على سالكها وحدانية

ذاته و صفاته فلا يعرف إلاّ نفسه و يُصاحبها و يبحث عمّا فيها من أسرار ليعرف ربّه كما قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من عرف نفسه ، عرف ربّه) ، أمّا من خلّط وخالط و صاحب غير نفسه ، غرق و أغرق ، وهذا ليس دعوة إلى معاداة الخلق ، بل يحبّهم و يحبّ الخير لهم ، إنّما يمحُو رسمَهم من قلبه ، و رسومهم عن قالبه ، فلا يخافهم و لا يرجوهم ، بل لا يجالسهم إطلاقا لأنّ في مجالستهم من التّصنّع ما لا يعرفه إلاّ المخلصون ، قال سيدي يوسف بن الحسين الرازي رضي اللّه تعالى عنه:{لأنْ ألقى اللّه تعالى بجميع المعاصي أحبُّ إليّ من أن ألقاه بذرّة من التصنّع }، و قال سيدي أبو سعيد بن الأعرابي رضي اللّه تعالى عنه : { أخسر الخاسرين من أبدى للنّاس صالح أعماله و بارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد } وسلامة السّالك في خلوته بربّه و عزلته عن النّاس ، ثمّ يمحو رسومهم عن قالبه ، فلا يتشبّه بهم في حرصهم على طلب الدنيا ، بل يسير أسيرا في قبضة العبودية، ورزقه مضمون فإن حارت نفسه و هاجت خوف فوت الرزق و وسوس اللّعين خشية الفقر ، قال له ما قاله سيدي حاتم الأصمّ رضي اللّه تعالى عنه لمّا وسوس له اللّعين في الرزق ، قال رضي اللّه تعالى عنه : { ما من صباح إلاّ و الشّيطان يقول لي : ماذا تأكل و ماذا تلبس و أين تسكن ؟ فأقول له : آكل الموت ، و ألبس الكفن ، و أسكن القبر } ، و يبقى كذلك حتّى تأتيه تأشيرة الخلاص و الحرية ، فيلبس وقتها ما شاء ، و يأكل ما شاء ، و يسير في الدّنيا كيف يشاء ، لأنّه مُطعّمٌ بمصل مُضاد لا يخشى به من فتنة الدنيا و النّاس ، قال سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه : {من عرف الأحد ، لم يعرفْ أحدا }، أي من عرف اللّه تعالى ، نسي ما سواه ، و كيف لا ينسلهم و هم أموات لا ينفعون و لا يضرّون، و قيل أيضا: {أنكرْ من تعرفْ ، و لا تتعرّفْ إلى من

لا تعرفْ }، و قال سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه :{ الغيرة أن لا تعرفَ و لا تُعرَفَ }، لأنّ وليّ اللّه تعالى في بداية أمره تُعاديه شياطين الإنس و الجن ، و يحسدونه و ذلك سنّة اللّه تعالى في خلقه و يستهزئون به و يؤذونه ، ليُخرجهم من قلبه و يُكبّر عليهم أربعا ، قال الشيخ الأكبر سيدي مُحيّي الدّين بن عربي رضي اللّه تعالى عنه : { لك ظاهرٌ إلى الخلق و لك باطنٌ إلى الحقّ ، فمتى ظهر الحقّ على ظاهرك سقطتْ حُرمتُك عند الخلق و فيها سعادتُك لأنّهم فرّغوك إليه } ، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا : { إذا خرج العبد من عند الحقّ خُدِم و عُظّم ، و إذا دخل إليه جُهِل و ما احتُرِم إلاّ عند خصوص الخلق } ، و العبد الخارج هو الشيخ العارف ، أمّا الداخل فهو المريد الصّادق ، لذلك يتيقّن إذا أراد الحقّ تعالى و الدّخول في حصنه أن يلبس جلباب البلاء و الأذى من الخلق إذا كان مُخالطا لهم ، أمّا إذا أراد السّلامة من شرّهم و أن يسلموا من شرّه فعليه بالعزلة عنهم حتّى يشتدّ عودُه و يقوى إيمانه فيراهم أمواتا لا ينفعون و لا يضرّون ، قال الشيخ الأكبر سيدي مُحيّي الدّين بن عربي رضي اللّه تعالى عنه : {إذا صاحب الإنسان الخلق حقّروه ، و إذا غاب عنهم اشتاقوا إليه ، إنّهم جاهلون ، إذا دخل حمار الوحش السّوقَ فمدّ فمه إلى شيءٍ يأخذه من دكّان بائعٍ يأكله ، ضحك له وفرح به و ناوله بيده و ما نفعه الحمار ، و الحمار الإنسيّ إذا مدّ فمه لدكّان البائع ليأخذ شيئا ضربه صاحب الدّكّان بالعصا و قد رفع أثقاله و دكّانه ، إنّما يَبني من على ظهره و أسباب دكّانه إنّما سيقت على ظهره ، و ما راعى هذه الحرمة ، أيّ جهل أعظم من هذا ! ما هو جهل بل هو غفلة تعقبُها حسرة ، إذا بحثت لِمَ أُهين هذا و قُرّب هذا ، وجدته للصّحبة و الخلطة ، و إن كانت معها المنافع فابْعَدْ عن الخلق ما استطعت ، تكنْ

عندهم عزيزا }، قال الشيخ سيدي محمّد النفّري رضي اللّه تعالى عنه :{ يا عبد أخرجْ من قلبك المُؤتلفَ تخرجْ من المُختلفِ، المؤتلفُ كلّ ما سلمتْ عقباه، و المختلفُ كلّ ما هلكتْ عقباه }،و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا :{أوقفني في الوحدانيّة و قال لي : أظهرتُ كلّ شيء يدلّ عليّ و يكشفُ عنّي، كما جعلته في ذات الوقت يدعو إلى نفسه و يحجبُ عنّي، فحظّ كلّ إنسانٍ من الحِجْبَة كحظّه من التّعلّق، ذكري أخصّ ما أظهرتُ، و ذكري كشفٌ كما أنّه حجابٌ، إذا بدوتُ لم تر من هذا كلّه شيئا }، و من أحبّ قبول الخلق فهو غير مخلص في سلوكه كما قال سيدي ابن عطاء اللّه السكندري رضي اللّه تعالى عنه :{ استشرافك أن يعلمَ الخلق بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في عبوديتك }، فمن أحبّ أن يسمع النّاس أنّه وليّ، و فرح بذلك فهو مُرائي، بل من النّاس من يرضى أن ينحط إلى درجة أن يذهب عند الكهّان و الكاهنات ليسألهم عن مقامه، و ماذا معه من خدّام و أعوان، وكأنّ التصوّف عنده إبراز لعضلات التّسخير و التّصريف، و هو لازال غارقا في طين شهواته و ساقطا في شِراك الشيطان و ملفوحا بنار نفسه، و قد جعل الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي اللّه تعالى ميزانا يُعرف به استقامة السّير من اعوجاجه فقال: { من فاته باب الحقّ عزّ و جلّ قعد على أبواب الخلق، من ضيّع طريق الحقّ عزّ و جلّ و ضلّ عنها، قعد على طريق الخلق، من أراد اللّه تعالى به خيرا أغلق أبواب الخلق في وجهه و قطع عطاءهم عنه حتّى يردّه بذلك إليه، يقيمه من الغدير إلى الشّط، يقيمه من لا شيء إلى شيء، ويحك ! تفرحْ بقعودك عند الغدير في الشّتاء، عن قريب يجيء الصّيف و ينشف الماء الذي عندك فتموت مكانك، الذي عند الشّط فإنّه في الصّيف ينقطع ماؤه، و في الشّتاء يزيد و يكثر، كنْ مع اللّه تعالى، تكنْ غنيّا عزيزا أميرا مؤمرا دليلا ،

من استغنى بالله تعالى احتاج إليه كلّ شيء ، و هذا شيء لا يجيء بالتّحلي و التّمني ، و لكن بشيء وقر في الصّدور صدّقه العمل ، يا غلام ، ليكنْ الخرسُ دأبك و الخمول لباسك و الهرب من الخلق كلّ مقصودك ، و إن قدرت أن تنقّبَ في الأرض سَرَبا تخفى فيه ، فافعلْ، يكون هذا دأبك إلى أن يترعرع إيمانك و يقوى قدم إيقانك و يتريّش جناح صدقك وتنفتح عينا قلبك }. و قد قالوا : { أنّ المريد الصادق يفتقر بعد الغِنى ، و يذلّ بعد العزّ ، و يخفى بعد الشّهرة ، و المريد الكاذب يستغني بعد الفقر ، و يعزّ بعد الذلّ ، و يشتهر بعد الخفاء }. قال الشيخ سيدي محمّد النّفّري رضي الله تعالى عنه في المواقف و المخاطبات : { أنا و شيء لا نجتمع ، أنت و شيء لا تجتمع }. قال سيدي الشّبلي رضي الله تعالى عنه : { الإفلاس ، الإفلاس يا ناس ، فقيل له : يا أبا بكر ما علامة الإفلاس ؟ قال : من علامات الإفلاس الاستئناس بالنّاس }. و قال سيدي يحيى بن أبي كثير رضي الله تعالى عنه :{ من خالط النّاس دَرَاهم ، و من دَرَاهم رَآهم }. و بالجملة لا يُلزم المريد نفسه مصاحبة النّاس ، لأنّهم قديما زمن الصّديق و الفاروق و القرون الثّلاثة التي تلت قرنهما كانوا وردا لا شوك فيه ، و الآن صاروا شوكا لا ورد فيه ، و لو وزنتَ من وزنتَ منهم لرأيت البخس في الميزان ظاهرًا ، قال أحدهم :

لو كان حرفا ، كان لا معنى له ○○○○○ أو كان ظرفا ، لم تكنْ إلاّ متى ؟

التّعزّز بأصحاب السّلطة و أبناء الدّنيا

قلت :

المتعزّز بدون الله بأبناء الدّنيا و أصحاب السّلط

الطريق منه بَراء و في هواه دوما يتخبّط

يدعُ اللّه و يطلب منهم مسائله و يتوسّط

فإن أعطَوْه تنشّط و إن منعوه تسخّط

و من البلايا و الرّزايا التي تُعدّ من قواطع السّلوك و سوالب سرّ المريد التّعزّز بمعرفة أصحاب السّلطات و ذوي الجاه من أبناء الدّنيا ، و إن خفي سرّ ذلك على بعض العقول ، فإنّ مبيّنه قوله تعالى : (و للّه العزّة و لرسوله و للمؤمنين) فإن عاندت هذه العقول ، فلتعلم أنّ باقي الآية الكريمة (و لكنّ المنافقين لا يعلمون) ساقطة على قلوبها ، لأنّ مادة السّلوك الأولى في مبادئ التّصوف هي أن لا تعرف ولا تُعرف ، و قد قالها أحد العارفين : { أنكرْ من تَعرف ، و لا تتعرّف إلى من لا تعرف }. هذا لمن أراد معرفة الواحد الأحد ، لأنّ معرفة سواه هي شركُ الطريق ، أمّا لمن أراد بالتّصوّف لباس الطمع و التّملق و ليس الوصول إلى اللّه تعالى ، فلا نقصده بالكلام ، فكفاه غمّة الحجاب و سُدّة الأبواب ، و من المُضحكات أنّ بعضهم ينسى التّعزّز بشيخه لأنّه باب النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و يغفل عن التّعزّز بالنّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم لأنّه مفتاح باب حضرة اللّه تعالى ، و يتكبّر على التّعزّز بالعزيز المُعزّ تعالى ، لأنّ التعزّز به تعالى غاية المطالب و مُنتهى الرّغائب ، ثمّ يذهب ليُشهر نفسه بالتّعزّز بفلان الوزير أو علاّن الجنرال ، و أنّه يعرفهم ، أو بفلان والي ولاية كذا ، أو صاحب المال و الأعمال فلان من أبناء الدّنيا و الراغبين فيها ، و يتملّق إليهم بقلبه و قالبه ، و يُلطّخ دينه و قد قالها من لا ينطق عن الهوى صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من تواضع لغني لأجل

غناه، ذهب ثلث دينه) ،هذا، إذا كان حقّا يعرفهم، بل منهم مَن رآهم فقط عن بُعد، ولم يُحادثهم و لم يُحادثونه، حتّى أنّهم لا يعرفونه أصلا، ثمّ يَدّعي أنّه يعرفهم و يشيع في النّاس أنّه من أراد الوساطة لأيّ شيء فإنّني أعرف فلانا و فلانا، ويروح يكذب صادقا، و يصدق كاذبا على نفسه و أبناء جنسه، و إن كان هذا غباءً، فهو بلاءٌ، بل حتّى و لو زعم صادقا أنّه يعرف رئيس الجمهورية، فمن هو؟ و من هو رئيس الجمهورية؟ كلاهما لا يُساويان ظفرا من قدم شيخٍ عارفٍ بالله تعالى، قال الشيخ سيدي أبو مدين شعيب رضي الله تعالى عنه: {من لم يصبر على صحبة مولاه، ابتلاه الله بصحبة العبيد} و قال في شرحها الشيخ سيدي أحمد العلاوي رضي الله تعالى عنه: { أمرٌ لازمٌ، عقوبة من الله تعالى لعبده إذا لم يصبرْ على صحبته و التّوجه إليه، فيُعاقبه بصحبة الخلق بعد صحبة الحقّ، و بالنظر إليهم بعد النظر إليه و الأخذ منه و العطاء إليه، فيعود لِما كان عليه من الغفلة و القطيعة ورؤية الخلق و يتحمّل مشاقهم و يستبدل العزّ بالذلّ، و العلم بالجهل، و كلّ ذلك عقوبة له حيث لم يصبر على صحبة الوحيد ابتلي بصحبة العبيد، ألا تصبرْ ياهذا على صحبة الحقّ! فإنّ لك و الله في صحبته خيرا كثيرا، فهو نِعمَ المولى و نعم النّصير، صاحبك و هو بعيبك عالم، و بضعفك قائم، لما في الحكم العطائية: ما صاحِبُك إلاّ من صحبك و هو بعيبك عالم، و ليس ذلك إلاّ مولاك الكريم، و هل صحبة العبيد تُغنيك عن هذا الصاحب الحليم؟ قال حكيم:

صاحب إذا أرضاك، يُغنيك فضلُه ○○○○○ لكنّه شديد الإغارة في العهد

فحافظ على صحبته، و إيّاك أن تُناقض عهده، لئلاّ تكون كقوم موسى حيث لم يصبروا على الطعام الواحد و قالوا فيما حكى الله تعالى عنهم: (فادعُ لنا

ربّك يُخرج لنا ممّا تُنبتُ الأرض من بقلها و قثّائها و فومها و عدسها و بصلها) فكذلك من لم يصبر على صحبة الحقّ تعالى و استبدلها بشهود الخلق ، فرُتبة الخلق لا تفوق عن العدس و البصل و الثوم بالإضافة إلى الحقّ تعالى ، فهذا مسلك الإسرائليين حيث يستبدلون العزّ بالذلّ ، فأين مسلك الموحدين العاملين على صحبة الحقّ ، فمن طلب شيئا زائدا على الله تعالى نادته حقائق الحضرة الإلهية (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير؟)} ، هذا عمّن صاحب و تعزّز بالخلق ، فصحبتهم ولو كانوا الثقلين ، فإنّهم لا ينفعون و لا يضرّون ، فعن سيدنا ابن عبّاس رضي الله تعالى عنه قال: (كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ يَوْماً، فَقَالَ: يَا غُلَامُ، إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: إِحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، إِحْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ) ، إذاً عليك أخي الفقير ألاّ تُصاحب إلاّ مولاك تعالى ، فهو معك في كلّ لحظة و عند كلّ نَفَس ، و مُحيطك بعنايته و حفظه ، و يفرح لقربك منه ، أمّا الخلق فهم عدم ، موتى لا ينفعون و لا يضرّون ، و لو كانوا أصدقاء ، فلا تنتظر منهم في دنياك : السّلام عليكم ، و لا في قبرك : رحمة الله عليك ، كما أوصى بعضهم إذا مات أن يُدفن على قارعة الطريق و أن يُكتب على قبره:

بقارعة الطريق جعلتُ قبري °°°°° لأحظى بالتّرحّم من صديق

فيا مولى الموالي أنت أولى °°°°° برحمة من يكون على الطريق

و قال سيدنا لقمان الحكيم عليه السلام لإبنه : (استعذ بالله من شرّ النّاس ، و كُنْ من خِيارهم على حذر) ، و قال سيدي إبراهيم بن أدهم رضي الله

تعالى عنه : (فِرْ من النّاس فِرارك من الأسد) ، و قال بعضهم : (إن استطعتَ أن تَعْرِفَ و لا تُعرف ، وتَمشي و لا يُمشى إليك ، فافعل) ، و قيل لبعضهم : (مَنْ تُجالس اليوم ؟ قال : مَنْ أبصق في وجهه و لا يغضب ، فقيل له : من هذا ؟ قال : الحائط) و قيل لأخر : (ما الوحشة عندك ؟ قال : النّظر إلى النّاس) ، ثمّ أنشأ يقول :

ما أكثر النّاس ، لا بل ما أقلّهم ◦◦◦◦◦ و اللّه يعلم أنّي لم أقلْ فَنَدا

إنّي لأفتح عيني حين أفتحها ◦◦◦◦◦ على كثير و لكن لا أرى أحدا

و قال سيدنا موسى بن جعفر رضي اللّه تعالى عنه : (اتّق العدوّ و كنْ من الصّديق على حذر ، فإنّ القلوب سُمّيَتْ قلوبا لتقلّبها) ، و يُروى أنّ رجلا أكثر على رجل بالسّلام ، و قال له : أنا صديقك ، قال : كيف ؟ قال : لأنّي أسلّم عليك ، فقال : إن كان مَنْ قال السّلام عليكم يُعَدّ صديقا ، فالصّديق كثيرٌ .

طلب الحكمة و الكنوز

قلت في شأن اللاهث على الكنوز :

البحث عن الكنوز في التراب مثل ماء السّراب

تلهث له العطشى حدّ الموت ظنّا أنّه الشّراب

و الحكيم من يحفر أرض قلبه ليستخرج

كنز القناعة بعطاء ربّه الرزّاق الوهّاب

و قلت في شأن الطامع في الرزق من الخلق بالرقية و الكتابة :

ليس الحكيم كلّ من كبّر عمامة و أطلق لحية

تحتهما قلبٌ طمّاع و نفس خبيثة كأنّها حيّة
إنّما الحكيم من يرى الأرزاق مقسومة فيرضى
و ينقش على قلبه { و في السماء رزقكم } بنيّة

و من المظاهر المضحكة المبكية التي إبتلي بها بعض النّاس ، طلب الحكمة و البحث عن الكنوز ، و لمّا أصابهم المقيمُ المقعِدُ من التّفكير و الإهتمام بالأصفر الخبيث كما قال فيه أبو القاسم الحريري :

تبّا له من خادعٍ مُماذقٍ °°°°° أصفرَ ذي وجهين كالمنافق
يبدو بوصفين لعين الرّامق °°°°° زينة معشوق و لون عاشق
و حُبُّه عند ذوي الحقائق °°°°° يدعو إلى ارتكاب سُخط الخالق
لولاه لم تُقطعْ يمينُ السّارق °°°°° و لا بدتْ مظلمة من فاسق
و لا اشمأزّ باخلٌ من طارقٍ °°°°° و لا اشتكى المَمطول مطلَ العائق
و لا استُعيذ من حسودٍ راشقٍ °°°°° و شرُّ ما فيه من الخلائق
أن ليس يُغني عنك في المضايق °°°°° إلاّ إذا فرّ فرار الآبق

التجؤا إلى الحكماء أو من يزعم أنّه حكيم ، و لمّا كان الذهب معشوق النّفوس كما قال تعالى : (زُيّن للنّاس حبّ الشهوات من النّساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب و الفضّة ، و الخيل المُسوّمة و الأنعام و الحرث) ، فقد ثار غبار طالبيه من الفقراء و الأغنياء على السّواء ، بل كأشدّ و أحرص ما كان من طالبيه هم الأغنياء قبل الفقراء ، و ذلك مُشاهد من واقع التجربة ، لأنّ الطمع و الجشع قد استولى على النّفوس المريضة ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى

عليه و آله و سلّم : (لو كان لإبن آدم وادٍ من ذهبٍ ، لإبتغى إليه ثانيّا ، و لو كان له ثانٍ ، لإبتغى ثالثا ، و لا يملأ جوف ابن آدم إلاّ التّراب ، و يتوب اللّه على من تاب) ، نعم يتوب اللّه تعالى على من تاب عن البحث عن الكنوز ، لأنّ البحث عنها من القواطع عن السّلوك ، و فيها شكّ يسوم القلوب في الرازق ، بل إنّ ذلك يُعارض المقصود ، لأنّ التّصوّف كما قيل : هو تطليق الدّنيا بتاتا و الإعراض عن منالها ثباتا ، و طلب الكنوز يُفسد على القلوب ذوق لذّة حال و مقام الزّهد الذي هو أشرف مقام نبويّ حثّ عليه سيّد الزّهاد صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بقوله الشريف : { من زهد في الدّنيا ، علّمه اللّه تعالى بلا تعلّم ، و هداه بلا هداية ، و جعله بصيرا ، و كشف عنه العمى } ، قال ابن القيم رضي اللّه تعالى عنه : {الذهب أعظم حائل بين الخليقة و بين فوزها الأكبر يوم معادها ، و أعظم شيء عُصِيَ اللّه تعالى به ، و به قُطعت الأرحام و أريقت الدّماء و استُحلّت المحارم ، و مُنعت الحقوق و تظالم العباد ، و هو المرغّبُ في الدّنيا و عاجلها و المزهّد في الآخرة و ما أعدّه اللّه تعالى لأوليائه فيها ، فكم أميت به من حقّ و أحيي به من باطل ، و نُصِرَ به ظالمٌ و قُهر به مظلوم } و الغريب أنّ طالبيه لا يَيْأسون ولا يتعبون ، و تراهم يخاطرون و يُجازفون في اللّيالي المظلمة ، سيرا على الأقدام قاطعين الفيافي و الجبال ، و يقومون اللّيالي ، ليلة بعد ليلة ، يحفرون و يُنقبون ، ولو طُلب من أحدهم قيام ساعة واحدة بين يدي اللّه تعالى في الأسحار ، لثقل عليه ذلك ، و رآه عليه كالطود العظيم ، و لأنّ الشيطان قائم على باب السّلوك ابتلاءاً من اللّه تعالى للمريد و إمتحانا ، فإنّه يزيّن له اللعين في بداية سلوكه التّطلّع إلى علم الكيمياء و الدخول إلى عالم الكنوز ، و قد رأينا من ابتلي بالبحث عن الكنوز أنّه أصيب بوسواس ، قطع

عليه هَدأة اللّيل ، و أذهب عن عينيه لذّة النّوم ، فيقوم اللّيالي مُتفكّرا عن نوع السيّارة التي سيشتريها ، و عن طراز القصر الذي سيبنيه على شاطئ البحر ، و عن كذا و كذا ، من أحلام اليقظة ، التي لا يوقظه منها ، إلاّ صوت زوجته ، وهي تناديه أن أجلب لنا ما نأكل ، أو نداء الدّائنين ، و هم يدقون بابه ، لذلك ينبغي على المريد الصادق أن لا يتطلّع أبدا للإستغناء من الكنوز ، لأنّ مبدأ سلوكه رَفضُ الدّنيّا بتاتا و تطليقها ثلاثا ، فكيف يسوغ له بعد ذلك جمع القذارة، كما قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه تعالى عنه :{ كنتُ في ابتداء أمري أطلب الكيمياء و أسأل اللّه تعالى فيها ، فقيل لي : الكيمياء في بولك ، اجعل فيه ما شئت يعود كما شئت ، فحمّيتُ فأسا ثم طفيته في بولي فعاد ذهبا ، فرجعت إلى شاهد عقلي ، فقلت : يا ربّ سألتك عن شيء لم اصل إليه إلاّ بالقذارة و محاولة النجاسة ، فقيل لي : يا علي ، الدّنيا قذرة فإن أردت القذِرة ، فلن تصل إليها إلاّ بالقذارة ، فقلت : يا ربّ ، أقلني منها ، فقيل لي : أحم الفأس يعود حديدا }، و مع أنّه رضي اللّه تعالى عنه زهد في كلّ ذلك إلاّ أنّ اللّه تعالى أكرمه بهذه الكرامة لمّا لم يقفْ معها و ردّها تأدبا ، فصَاحَبَتْه طول حياته ، فكان يأمر خادمه بالبول على الحجر العظيم فيعود ذهبا ، كما ذكرها سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي اللّه تعالى عنه في قواعد الصّوفية الصّغرى :{ أنّ سيدي أبا الحسن الشاذلي رضي اللّه تعالى عنه لمّا أتى من المغرب وكتبوا للسّلطان في شأنه مكاتيب شنيعة ، فخرج من إسكندرية و ذهب إلى السّلطان و اعتقده ، فأرسلوا له ثانيّا أنّه كيماوي فزال اعتقاده فيه ثانيّا ، و اتّفق أنّ خازن داره فعل أمرا يوجب القتل ، فخاف من السّلطان و هرب إلى الشيخ بالإسكندرية ، فحماه منه و أرسل السّلطان يُغلظ عليه و يقول : تُتْلف مماليكي ، فقال الشيخ : نحن ممّن يُصلح ،

ما نحن ممّن يُفسد ، ثمّ أخرج المملوك من الخلوة و قال له : بُلْ على هذا الحجر ، فبال عليه فانقلب الحجر ذهبا ، و كان نحو خمسين قنطارا ، فقال الشيخ : خذوا هذا للسّلطان يضعه في بيت المال ، فلمّا وصل إلى السّلطان رجع عمّا كان عليه من الإعتقاد الفاسد ثمّ نزل إلى زيارته ، و طلب من المملوك ليبول له على ما يشاء من الحجارة، فقال الشيخ : الأصل في ذلك الإذن من الله تعالى ، و لم يزل السّلطان على اعتقاده و عرض عليه الأموال و الأرزاق ، فأبى و قال له : الذي يبول خادمه على الحجر فيصير ذهبا بإذن الله تعالى ، لا يحتاج إلى أحد من الخلق ». قال العلاّمة ابن خلدون رضي الله تعالى عنه : « إعلم أن كثيرا من ضعفاء العقول في الأمصار، يحرصون على استخراج الأموال من تحت الأرض ويبتغون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الأمم السالفة مختزنة كلها تحت الأرض مختوم عليها كلها بطلاسم سحرية، لا يفض ختامها ذلك إلا من عثر على علمه واستحضر ما يحله من البخور والدعاء والقربان فأهل الأمصار بأفريقية يرون أن الإفرنجة الذين كانوا قبل الإسلام بها دفنوا أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف بالكتاب إلى أن يجدوا السبيل إلى استخراجها، وأهل الأمصار بالمشرق يرون مثل ذلك في أمم القبط والروم والفرس ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء بعض الطالبين لذلك إلى حفر موضع المال ممن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا أو معمورا بالديدان أو يشاهد الأموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين سيوفهم أو تميد به الأرض حتى يظنه خسفا أو مثل ذلك من الهذر، ونجد كثيرا من طلبه البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون إلى أهل الدنيا بالأوراق المتحزمة الحواشي إما

بخطوط عجمية أو بما ترجم بزعمهم منها من خطوط أهل الدفائن بإعطاء الأمارات عليها في أماكنها، يبتغون بذلك الرزق منهم بما يبعثونه على الحفر و الطلب، ويموهون عليهم بأنهم إنما حملهم على الاستعانة بهم طلب الجاه في مثل هذا من منال الحكام و العقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الأعمال السحرية يموه بها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بمعزل عن السحر وطرقه فتولع كثير من ضعفاء العقول بجمع الأيدي على الاحتفار و التستر فيه بظلمات الليل مخافة الرقباء، وعيون أهل الدول فإذا لم يعثروا على شيء ردوا ذلك إلى الجهل بالطلسم الذي ختم به على ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن إخفاق مطامعهم ، فإذا عجز عن الكسب بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجه في نفسه إلا التمني لوجود المال العظيم دفعه من غير كلفة ليفي له ذلك بالعوائد التي حصل في أسرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده ولهذا فأكثر من تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة } إهـ ، لذلك على من وحلت رجلاه في طين البحث عن الكنوز و الأموال المدفونة ، أن يعتقد أن اللّه تعالى هو الرزاق ، و أنّ هذا الباب من الرزق فيه من الشبهات الكثير ، خاصة المال الذي اغتصب في العشرية السّوداء ، والذي هاج و ماج الباحثون عنه شرقا و غربا ، حتّى ذاع خبره خارج الحدود ، والذين قلتُ في شأنهم :

شرقا و غربا هاجت أقوام °°°°° تطلب المغصوب من الأموال

حرثوا السّهل و الجبل و لم °°°°° يتعبوا فتحوّلوا إلى حفر الرمال

و كالشأن في طلب الكنوز قد تجد بعض من انتسب إلى الصّوفية من أقوام لهم مقاصد شتّى و نوايا شِركية في طلب حقيقة الحقّ ، أن يرى الواحد منهم قلما

وصنع دواةً وكبّر عِمامةً و ادّعى أنّه صار حكيما و راقيّا ، يكتب الأحجبة ويتحكّم في الجّان ، وبهذا الإدّعاء صار مُتواترا عند المُنكرين كلّما ذُكر التّصوّف تسوّرتْ قلوبهم طامة التّمائم و الأحجبة ، و إن كانت حكمة الصّالحين من المكنون و من الأسرار التي تُستر عن غير أهلها .

حلق اللّحية

قلت :

اللّحية من سنن النّبيّ و حلقُها على المؤمن يُحرَم

و ما رأينا عارفا باللّه أمردا و الأمر يُعلَم

و توفيرها من شِيَم المسلمين فاحذر حلقها

أن يقذفك موج :{ من تشبّه بقوم فهو منهم}

قد يظنّ بعضهم أنّ الهَوَسَ قد خالط عقلي ، أو أنّني أُنادي باللّحوق بركب أصحاب اللّحى الطويلة و ذوي تشمير القمصان ، و اللّه تعالى يعلم أنّني أبغض هذا الصّنف من النّاس في اللّه تعالى أشدّ البغض ، لكن ليس كلّ من قال بإطلاق اللّحية وعدم حلقها يُصنّف مع هؤلاء الأقوام ، بل إنّ مشايخ التّصوّف خلفا عن سلف أقرّوا بأنّ المسلم عليه بتوفير لحيته و هيّ من سنّة النّبي صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلّم ، فكيف بمن ينتسب إلى سلسلة الطريق الشريف ، و الذي مدار ارتكازه على متابعة النّبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ظاهرا و باطنا ، ولذلك فالصّوفية هم أولى بمن يُنادي بتوفير اللّحية و عدم حلقها ،

من دعوى و ادّعاء من يُسَمّوْن بالسّلفية ، و أنّى لهم اللّحوق بركبها ؟ و إنّ حلق اللّحية كان عند العرب قبل الإسلام من العار الذي يلحق بالرّجل و يطرده من مجالس الصّناديد ، و كانت الشّماتة تلحق بالمُحلّق لحيته و تُساويه بصفة النّسوة ، و لمّا جاء الإسلام حثّ عليها النّبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و شارط على توفيرها في أكثر من حديث صحيح ، ثمّ قد يُعارض كلامي مَن لا يُعجبُه إطلاق اللّحية لحاجة في نفس يعقوب و ليس يُستند إلى أي حجّة أو برهان دليله ، بل يهرف بما لا يعرف ، ثمّ قد يقول بما أنّ توفير اللّحية واجبٌ ، لماذا لم يُقرّه فيوجبها الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه على مريديه؟ و جواب ذلك أنّ الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه قد أمر بعض المقاديم بتوفير لحيته و قد كان حليقَها و أمرُه لهذا المقدّم لهو من الأدلّة الجازمة ، حيث ينشر هذا المقدّم كلام الشيخ له بين الفقراء ، و يترك حرّيّة الإتّباع للقلوب الصّافية ، ثمّ إنّ الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه قد ترك أمره بتوفير اللّحية لمريديه لأنّ انتشار طريقته ساير العشرية السّوداء ، التي كان كلّ شرّ و فتنة يُرى في اللّحية ، و كلّ مُلتحيّ كان يُجرّ به في ظلمة السّجون ، و مع كلّ ذلك كان بعض مريديه لهم لحيةٌ طويلة عريضة و لا يزالون بها ، و كانوا لا يخشون الطرفين ، و هم يقطعون مِئات الكيلومترات لزيارة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه ، و مع أنّ بعض المريدين صودرت حريّاتهم بعضا من الوقت من طرف الأمن لأنّهم كانوا مُلتحين إلاّ أنّ الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه لم يأمرهم بعد ذلك بحلق لحاهم التي سبّبت لهم المتاعب ، وكان الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي اللّه تعالى عنه يفرح كثيرا بمن يراه مُلتحيّا، و قد

زيّن وجهه بسنّة الحبيب صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و قد ذكر رضي اللّه تعالى عنه لبعضهم أنّ شيخه سيدي أبا مدين بوتشيش رضي اللّه تعالى عنه كان يفرض على مريديه شيئين و يُحبّذ فيهم ثالثا ، فقد كان يفرض على داخل طريقته أن يكون مُلتحيّا ولابسا اللّباس العربيّ المشهور في ذلك الوقت ، و هو العباءة و الجلاّبة والعمامة ، ويحبّذ له اتّخاذ عصا ، لأنّها من سنن الأنبياء و يفرق منها الشيطان فرقا ، ثمّ نقول للمنكر على هذا عيّن لنا شيخ طريقة عارفا باللّه تعالى و دالا عليه في هذا الزّمان يكون حليقَ اللّحية ، أو دليلك باطل ، و لو بحثت المشرقين و المغربين ما وجدت شيخا عارفا باللّه تعالى مُقتفيّا أثر النّبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم يكون حالقا لحيته ، و هذا من أدلّ الأدلّة على كمال اتّباعهم للنّبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم ظاهرا و باطنا ، بل كمال الإتّباع في الظّاهر هو الذي يُسهّل على الباطن زيادة الإتّباع ، قال الشيخ سيدي محمّد معصوم ابن الإمام الرّبّاني الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السّرهندي رضي اللّه تعالى عنهما : { إنّ هذا الوقت قرب من القيامة وقد تراكمت فيه الظلمات و غرق العالم في هذه الظلمات الهائلة ، و لا بدّ في مثل هذا الوقت من بطل يُحيّي السّنّة و يُميت البدعة ، و الخلاص من هذه الظّلمات مُحال من غير أن تكون أنوار السّنّة النبويّة ، والتّحرّي عن النّجاة خيال إذا لم تُلتزمْ أطوار النّبوّة ، و لا يحصل سلوك الطريقة الصّوفيّة و الوصول إلى المحبّة الذاتيّة إذا لم يكن اتّباع حبيب ربّ العالمين صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و آية { قل إن كنتم تُحبّون اللّه فاتّبعوني يُحببكم اللّه } شاهد صدق على قولنا هذا ، ويجب أن يُعرفَ بأنّ سعادة الإنسان إنّما تكون بالتّشبّه بسيّد الدّنيا و الآخرة صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم ، و لا بدّ من التّبعيّة له في

العادات و العبادات و المعاملات، إنّ مَن تشبّه بالحبيب المحبوب صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم يكون محبوبا و مُكرّما عند مُحبّه تعالى، و مَن يُبغضه فهو المبغوض لديه تعالى و المغضوب عليه و المسخوط عليه}، و معنى قوله رضي اللّه تعالى عنه: {لا بدّ من التّبعيّة له صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في العادات} إشارة إلى التّشبّه به صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في الظّاهر أي توفير اللّحية و لباس ما كان صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم يلبسه من الأقمصة و العمائم و هو لباس الإسلام، و قال الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السّرهندي رضي اللّه تعالى عنه: {شرّفنا اللّه تعالى و أمثالنا المفلسين العاجزين المُقعدين بدولة اتّباع سيّد الأوّلين و الآخرين صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم الذي أبرز كمالاته الأسمائية و الصّفاتية في طُفَيْل محبّته إلى عرصة الظّهور، وجعله أفضل جميع الكائنات عليه من اللّه تعالى أفضل الصّلوات و أزكى التّسليمات، ورزقنا الاستقامة على كمال اتّباعه، فإنّ ذرّةً من هذه المتابعة المرضية أفضل من جميع اللّذّذات الدّنياوية و التّنعّمات الأخروية بمراتب كثيرة، و الفضيلة منوطة بمتابعة سنّته و المزية مربوطة بإتيان شريعته صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم، والنّوم في نصف النّهار مثلا الواقع على وجه هذه المتابعة أفضل من إحياء ألوف اللّيالي الواقع على غير وجه المتابعة، و كذلك الإفطار في يوم عيد الفطر الذي أمرت به الشّريعة أفضل من صيام أبد الآباد الذي لم يُؤخذ من الشّريعة، و إعطاء حبلِ بأمر الشّارع صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أفضل من إنفاق جبلِ من الذّهب من قِبَل نفسه، صلّى سيدنا عمر رضي اللّه تعالى عنه مرّة صلاة الصّبح بالجماعة ثمّ تفقّد الأصحاب رضي اللّه تعالى عنهم، فلم يرَ فيهم شخصا منهم،

فسألهم عنه ، فقيل : أنّه يُحيّي اللّيالي كلّها و لعلّ النّوم غلب عليه في هذا الوقت ، فقال رضي اللّه تعالى عنه : لو نام اللّيل كلّه وصلّى صلاة الصّبح مع جماعة لكان أفضل } ، و قال رضي اللّه تعالى عنه أيضا : { شرّفكم اللّه تعالى بتشريف الميراث المعنوي من النّبيّ الأمّي القرشيّ الهاشميّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، كما شرّفكم بتشريف الميراث الصّوري ، ويرحم اللّه عبدا قال : آمينا ، و ميراثه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم الصّوري يتعلّق بعالم الخَلْق ، و ميراثه المعنوي بعالم الأمر الذي هو مقرّ الإيمان والمعرفة و محلّ الرّشد و الهداية ، و شكر نعمة الميراث الصّوري هو التّحلّي بالميراث المعنوي ، ولا يتيسّر ذلك إلاّ بكمال الإتّباع المصطفوي له صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، فعليكم باتّباعه في أوامره و نواهيه ، و المتابعة فرع كمال محبّته صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، إنّ المحبَّ لمن يُحبّ مطيع } ، و من أوامره صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم لمن اتّبعه ، أمْرُه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بتوفير اللّحية، و من الأحاديث الصّحيحة في هذا الشأن ما رواه الإمامان البخاري و مسلم و غيرهما عن سيدنا عبد اللّه بن عمر رضي اللّه تعالى عنهما قال : قال رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : { خالفوا المشركين ، وفّروا اللّحى و أحفّوا الشّوارب}، و في رواية أخرى : { أحفّوا الشّوارب و أعفوا اللّحى} ، و في رواية أخرى : {أنهكوا الشّوارب و أعفوا اللّحى} ، و التّوفير كما قال الحافظ ابن حجر {هو الإبقاء والإعفاء هو التّرك } ، و إذا كان أمره صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بتوفير اللّحى بقصد مُخالفة المشركين و المجوس و اليهود و النّصارى ، و قد كانوا يُحلّقون أو يُقصّرون لحاهم و يُطوّلون شواربهم ، فأمر صلى اللّه تعالى عليه

و آله و سلّم بمخالفة المشركين بقوله : { إنّ أهل الشّرك يعفون شواربهم و يحفّون لحاهم ، فخالفوهم فأعفوا اللّحى و أحفّوا الشّوارب } ، و أمر صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم بمخالفة المجوس بقوله : { من فطرة الإسلام أخذ الشّارب و إعفاء اللّحى ، فإنّ المجوس تُعفي شواربها و تحفّي لحاها ، فخالفوهم حفّوا شواربكم و أعفوا لحاكم } ، و أمر صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بمخالفة اليهود و النّصارى بقوله : {أعفوا اللّحى و جزّوا الشّوارب ، و لا تشبّهوا باليهود و النّصارى } ، و في رواية أخرى : {لا تشبّهوا بالأعاجم أعفوا اللّحى } ، و في رواية أخرى : { قصّوا شاربكم فإنّ بني إسرائيل لم يفعلوا ذلك فزنت نساؤهم } ، و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : { عشر خصال عملها قوم لوط بها أُهلكوا : إتيان الرّجال بعضهم بعضا ، ورميهم بالجلاهق ، و الخذف ، و لعبهم بالحمام ، و ضرب الدّفوف ، و شرب الخمور ، وقصّ اللّحية و طول الشّارب ، و الصفير بالأصابع ، و التّصفيق ، ولباس الحرير ، وتزيدها أمّتي بخلّة إتيان النّساء بعضهم بعضا } ،و أتى رجل من العجم وقد وفّر شاربه و جزّ لحيته إلى النّبيّ صلى اللّه تعالى عليه وآله و سلّم ، فقال له صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم : { و ما حملك على هذا ؟ } فقال : إنّ ربّي أمرني بهذا ، فقال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : { إنّ اللّه أمرني أن أوفّر لحيتي و أحفّي شاربي } ، و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا :{ أُمِرنا بإعفاء اللّحية } ، و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : { من لم يحلق عانته و يُقلّم أظفاره ويجزّ شاربه ، فليس منّا } ، و قد اتفقت المذاهب الأربعة على وجوب توفير اللّحية وحرمة حلقها و الأخذ القريب منها ، فمذهب السّادة الحنفية كما جاء في الدرّ المختار : {و يُحرم

على الرّجل قطع لحيته، و صرّح في النّهاية بوجوب قطع ما زاد على القبضة، و أمّا الأخذ منها و هي دون ذلك فلم يُبحه أحد ، و أخذ كلّها فعل اليهود والمجوس }، و مذهب السّادة الشّافعية :{ فقد نصّ الإمام الشّافعيّ رضي الله تعالى عنه في كتاب الأمّ على تحريم حلقها }، و مذهب السّادة الحنابلة :{ نصّ أيضا على تحريم حلق اللّحية }، و مذهب السّادة المالكية :{هو حرمة حلق اللّحية و كذا قصّها إذا كان به مُثلة ، و أمّا إذا طالت قليلا و كان القصّ لا يحصل به مُثلة فهو خلاف الأولى أو مكروه }، و المُثلة معناها التّشويه ، أي تشويه سمة الوجه كما هو الحال عند من لا خلاق لهم من مُختّثي زماننا ، الذين غلب تطبّعُهم طبعَهم ، فتشبّهوا بأعداء الإسلام من اليهود و النّصارى ، و قد تبرّأ الإسلام منهم بدليل قوله صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم :{ مَن تشبّه بقوم فهم منهم } ، إذًا كلّ مَن تشبّه بأعداء الدّين في أنواع و أشكال لحاهم و قد عددتها فوجدتها خمسة أنواع ، فهو منهم و يُحشر معهم إن لم يتبْ بدليل قول الفاروق سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه :{ مَن تشبّه بهم حتّى يموتَ حُشر معهم } ، و أقولها للمرّة الألف أنّ الإسلام بريء و النّبيّ صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم بريء ممّن تشبّه باليهود و النّصارى في لحاهم و قد صرّح بها من لا ينطق عن الهوى صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم بقوله :{ ليس منّا من تشبّه بغيرنا ، لا تشبّهوا باليهود ولا بالنّصارى } ، أمّا أشكال لحى أعداء الإسلام من اليهود و النّصارى ، و عبدة الشّيطان الكفار في أوروبا و أمريكا الذين قال فيهم الله تعالى :{ إن يدعون إلاّ شيطانا مَرِيدًا لعنه الله و قال لأتّخذنّ من عبادك نصيبا مفروضا و لأضلّنّهم ولأمنّينّهم و لآمرنّهم فليُبتّكُنّ ءاذان الأنعام و لآمرنّهم فليُغيّرُنّ خلق الله

و من يتّخذ الشيطن وليّا من دون اللّه فقد خسر خسرانا مبينا يعدهم و يمنّيهم و ما يعدهم الشيطن إلاّ غرورا أولئك مأواهم جهنّم و لا يجدون عنها محيصا ؛ فقد اتّخذوا الشيطان وليّا ، فأضلّهم و أمناهم و أمرهم فغيّروا خَلقهم من وشم و حلق للّحى و الذين تشبّه بهم بعض شباب المسلمين في تصفيف وتصنيف تلك اللّحى و هي ستّة أنواع : فالنّوع الأول أنّهم يُحلّقون لحاهم و يتركون خطّا رقيقا دقيقا من الشّعر ينزل من تحت الأذنين إلى الذقن ثمّ يرسمون شكل صليب على الذّقن ، و النّوع الثّاني أنّهم يُحلّقون لحاهم ويتركون شعرا كثيفا على الصّدغين ، و النّوع الثّالث أنّهم يُحلّقون شواربهم و لحاهم و يتركون فقط على الذّقن شعرا ، و النّوع الرابع يُحلّقون جميع اللّحية و يرسمون بشعر دقيق شكل صليب على الذّقن ، و النّوع الخامس يُحلّقون لحاهم و شواربهم ويتركون فقط الشعر الذي تحت الشّفة ، أمّا النوع السّادس فمُضحك لأنّ أصحاب هذه اللّحى تخال الواحد منهم عنزة و لا فرق ، و هو أنّهم يُحلّقون شواربهم و لحاهم و يتركون شُعيْرات طويلات مُنسدلات تحت الذّقن ، فإذا رأيته وهو مُختّث حسبته عنزة ، فإن ادّعى الفحولة فهو جدي ، و ترى الواحد منهم وهو مزهوًا بنفسه قائلا قد صار فخرا بغير فاءٍ ، و مُعجبا غرورا يدّعي أنّ ما هو فيه خيرا بغير ياءٍ ، و قد تشبّه بفلان الكافر الممثّل أو علاّن الفاسق المغنّي أو اللاّهث الكافر لاعب كرة القدم ، فإن قيل له تشبّه بنبيّك صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم خجل ، و قال لك أتريد أن يضحك النّاس عليّ ؟ لكن نسي أنّ خلق اللّه تعالى كلّهم يضحكون عليه ، حتّى من تشبّه به ضَحك عليه ، لأنّه إمّعة الظّهر ، و ذيل المظهر و ليس بمُستقِلّ الشخصية ، تلعب به رياح التغريب و العصرنة أنّى شاءت ، و هو المغلوب نفسيّا ، لأنّه يُقلّد

غالَبه الكافر عدوّ الإسلام و المسلمين ، لذلك على مَن غرّر بنفسه و راح يتشبّه بالكفار أن يتوب إلى لبّه ويتوب إلى ربّه قبل أن يُغرغر فيُحشر معهم و بئس المصير ، و أكرّر الأدلّة السّابقة فقد قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم : { ليس منّا من تشبّه بغيرنا ، لا تشبّهوا باليهود و لا بالنّصارى } ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : { مَن تشبّه بقوم فهم منهم } ، و من مات ولم يتبْ حشر معهم لقول الفاروق سيدنا عمر رضي اللّه تعالى عنه :{ مَن تشبّه بهم حتّى يموت حُشر معهم } ، روى وَكِيعٌ عَنْ زَكَرِيَّاءَ بْنِ أَبِي زَائِدَةَ عَنْ مُصْعَبِ بْنِ شَيْبَةَ عَنْ طَلْقِ بْنِ حَبِيبٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ عَائِشَةَ رضي اللّه تعالى عنها، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : عَشْرٌ مِنَ الْفِطْرَةِ: قَصُّ الشَّارِبِ، وَإِعْفَاءُ اللِّحْيَةِ، وَالسِّوَاكُ، وَاسْتِنْشَاقُ الْمَاءِ، وَقَصُّ الأَظْفَارِ، وَغَسْلُ الْبَرَاجِمِ، وَنَتْفُ الإِبِطِ، وَحَلْقُ الْعَانَةِ، وَانْتِقَاصُ الْمَاءِ ، قَالَ زَكَرِيَّاءُ: قَالَ مُصْعَبٌ: وَنَسِيتُ الْعَاشِرَةَ. إِلاَّ أَنْ تَكُونَ الْمَضْمَضَةَ ، قَالَ وَكِيعٌ: انْتِقَاصُ الْمَاءِ يَعْنِي الإِسْتِنْجَاءِ ، و لو تأمّلنا هذه السّنن لوجدناها غاية في النظافة و طفرةً صحّية نبوية ، لم يكتشف العلم الحديث سرّها إلاّ في هذه الأيام من الألف الثانية فقط ، لكن نطق بها مُعلّم الإنسانية وطبيبها و سيّد النّظافة و ناشرها في زمان كان الجهل هو السّائد في الرّوم ، بل في العصر الذهبي للأمّة الإسلامية أي في العصر العبّاسي ، كانت أوروبا تغرق في دامس ظلام الجهل و الغباء و نتانة الأجساد وانعدام النّظافة ، حتّى أنّ ألبستهم كانت قذرة و وَسخة و أجسادهم كانت نتنة ، وأنّ جيشهم كان قذرا إلى حدّ أنّ اخترعوا لجنودهم لباسا خاصّا ، وهو أن غطّوا أكمام مَعَاطِفِهِم بالأزرار ، فإذا أراد الجندي أن يمسح مُخاط أنفه على كُمّه آذته تلك الأزرار ، ولمّا تطوّروا بفضل

حضارة المسلمين ، لم ينسوا تلك الأزرار ، لكن وضعوا ثلاثة أو أربعة على أكمام المَعاطف كذكرى لتلك الألبسة ، و هي ما نراه على جميع المعاطف الآن ، و في عصرنا الذّهبي داهمتهم مجاعة أكلوا على إثرها الفئران و الجرذان و القطط و الكلاب ، ثمّ تبجّحوا لما تعلّموا من ساداتهم المسلمين في قرطبة مبادىء النّظافة ، و العلم الحديث قد خرج لنا يصدق أقواله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، و مع إكتشاف اليابان للمجهر الرقمي المسمّى بالنانومتر ، و الذي استطاعوا به أن يروا أجزاء الذرّة ، وجدوا بلايين المجهريات و الميكروبات الدّقيقة تعيش على سطح جسد الإنسان فضلا عن عيشها داخله ، وأمره صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بقصّ الشّارب ، فلأنّ الشّارب و هو مُستقرّ الجراثيم لقربه من الأنف ، فكلّما تنفّس الإنسان استقرّت ملايين الجراثيم من أنفه على شاربه ، فضلا عن اصطياده لملايين الجراثيم والميكروبات من الجوّ المحيط به ، فإذا أكل أو شرب لامس شاربَه مأكوله أو مشروبه ، فتدخل تلك الجراثيم إلى بطنه و تفعل أفاعيلها من شتّى الأمراض ، و قد بيّن لنا العلم الحديث خطر تلك الجراثيم الخارجة من الأنف و التي إن دخلت إلى الجهاز الهضمي أضرّت به فإن دخلت إلى الجهاز التنفّسي قد تُصيبه بالسّل ، و الإنسان إذا عطس خرجت من أنفه ملايين الجراثيم بسرعة مائة كيلومتر في السّاعة ، و قد بيّن خطرها طبيب الأمّة النّبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم حيث قال صلّى اللّه تعالى عليه وآله و سلّم : { إذا شرِبَ أحدُكم فلا يتنفّسْ في القدح ، و لكن لِيُبِن الإناءَ عن فيه } ، وقد قيل في سبب النّهي أنّ تردّد أنفاس الشّارب فيه يُكسبه زهومة ورائحة كريهة يُعاف الماءُ لأجلها ، لكن الصّواب هو دخول الجراثيم كما ذكرت ، و هناك سرّ طبّيّ نبويّ قد كشف

العلم الحديث عن مغماه ، و هو أمره صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم بتحنيك المولود بتمرة على شرط أن يكون المُحنّك والدَ الطفل أو أحدا من أقاربه العَظميّين أي أقرَبهم إليهم نسبا ، و سبب هذا التّحنيك كي يرث المولود نوع البكيتريا التّي يُنتجها لُعاب والده ، حتّى يعيش في جوّ له نفس البكتيريا ، فلا يتضرّر بعد ذلك إذا عطس أمامه والده ، بخلاف ما لو عطس أمامه شخص آخر له بكتيريا من نوع مُختلف ، فإنّ ضرر عَدْواه يكون شديدا ، كما نهى صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم عن النّفخ في الطّعام و الشّراب بقصد تبريده بهواء زفير الفم كما رواه سيدنا ابن عبّاس رضي اللّه تعالى عنه حيث قال : { نهى النّبيّ صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم عن النّفخ في الطّعام و الشّراب } ، و علّة ذلك أنّ النّفخ من الفم تخرج مع زفيره الجراثيم و البكتيريا اللاّهوائية ، فإذا لامست تلك الجراثيم الهواء و قد كانت كامنة ، فإنّها تنشط و تتكاثر في الإناء المنفوخ فيه لأنّها تحبّ العيش و تنشط في الوسط الحار ، هذا عن أمره صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بقصّ الشّارب ، أمّا عن أمره صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بإعفاء اللّحية ، التّي إعفاؤها من العبادات و ليس من العادات كما يظن بعضهم ، فقد قال الشيخ محمد الحامد رحمه اللّه تعالى في رسائله : { إنّ إعفاء اللّحية من مطلوبات الإسلام و أعماله التّي أمر بها ، و لو أنعم المرء النظر لرأى أنّ جمال الرّجولة و كمالها في إعفائها ، فإنّ اللّه تعالى زيّن الرّجال باللّحى ، وحلقها تشويهٌ و إطاعة للشّيطان في أمره أتباعه بتغيير خلق اللّه تعالى ، واتّهام للّه تعالى في حكمته ، ورميّ له بالعبث ، و هو سبحانه و تعالى العليم الحكيم المتنزّه عن اللّعب و العبث ، أمّا إحفاء الشّارب فحكمته واضحة ، فإنّه يُضايق المرءَ في أكله و شربه فيتلوّث بالطّعام و

الشّراب، و ذلك يُزري بالكرامة كما يُقبّح في النظر، ألست ترى أيّها المنصف أنّ الهيبة و الوقار همها وِشاحُ المُلتحيّ و أنّ المحلوق ليس له منهما نصيب، على أنّ هناك فوائد صحّيّة في إعفائها، فإنّ هذا الشّعر تجري فيه مُفرزات دهنية من الجسد يَلين بها الجلد و يبقى نضرا، فيه حيوية الحياة و طراوتها، كالأرض المُخضلّة المبتلّة النابتة بالعشب الأخضر الذي يُعاوده الماءُ بالسّقيّ فهي به حيّة، و حلق اللّحية يُفوّت هذه الوظائف الإفرازية على الوجه فيبدو قاحلا يابسا، زيادة عمّا في حلقها من تخريش لجلدة الوجه، بحيث يكون عُلوق الجراثيم بها سهلا ميسورا، و جلدة الوجه أكثر تعرّضا لهذا العُلوق من جلدة العانة التي نحن مأمورون بحلقها إذ هي مستورة باللّباس، و في إعفاء اللّحية حماية للثّة الأسنان من العوارض الطبيعية فهي لها وقاء منها، كشعر الرأس للرأس }، أمّا أمره صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم بالسّواك و الإعتناء بنظافة الفم كما قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم: { إنّ أفواهكم طرقٌ من طرقِ ربّكم فنظّفوها }، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا: { ما زال جبريل يوصيني بالسّواك حتّى خشِيتُ أن أُدْرَدَ و أُحْفَى } و معنى أُدْرَد أي تسقط أسناني و أحفى أي أبقى بلا أسنان، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم: { حقّ على كلّ مسلم: الغُسل و الطّيب و السّواك يوم الجمعة } لأنّ الإسلام دين الفطرة و دين النّظافة، و السّواك أشهر من نار على عَلَم في حفظه لصحّة الفم و اللّثة و الأسنان، و هناك أمر ينبغي التّنبيه عليه في معنى حرصه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم على السّواك وهو غرس هذه السّنّة الكريمة في قلوب و نفوس و عقول أمّته، فمن اتّبعه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في إيمانه من القلوب و إيقانه من النّفوس، أخذ بالسّواك بلا جدال، فإن أرادت

العقول الوقوف على فضائله الطيبّة، فلها ذلك و ستقتنع، أمّا مَن ظنّ أنّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم كان يحرص عليه ليُغيّر خلوف فيه، فقد ظنّ خطرا ينبغي الإستغفار منه، لأنّ فاه الشريف لا يتغيّر ببخر و لا خلوف، بل يتغيّر فقط إذا أكل بصلا فقط، روى أبو داود في سننه عن السيّدة عائشة رضي اللّه تعالى عنها، أنّها سُئلت عن البصل، فقالت: { إنّ آخر طعام أكله صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم، كان فيه بصل }، و لذلك إستاك صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم قبل وفاته كما قالت السيّدة عائشة رضي اللّه تعالى عنها: { رجع إليّ رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في ذلك اليوم حين دخل من المسجد، فاضطجع في حجري، فدخل عليّ رجل من آل أبي بكر و في يده سواك أخضر، فنظر رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم إليه في يده نظرا عرفتُ أنّه يُريده، فقلت: يا رسول اللّه أتحبّ أن أعطيك هذا السّواك ؟ قال: نعم، فأخذته فمضغته حتّى ليّنته ثمّ أعطيتُه إيّاه، فاستنّ به كأشدّ ما رأيته يستنّ بسواك قطّ، ثمّ وضعه، و وجدته صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم يثقل في حجري، فذهبت أنظر إلى وجهه، فإذا بصرُه قد شخص و هو يقول: { بل الرفيقَ الأعلى من الجنّة }، فقلتُ: خُيّرتَ فاخترتَ، و الذي بعثك بالحقّ، و قبض رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم}، و كان يأمر آكل البصل و الثوم بإماتتهما طبخا لأجل رائحتهما الكريهة إن أكلا نيّئين كما جاء في السّنن: { أنّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أمر آكله و آكل الثوم أن يُميتهما طبخا }، هذا عن البصل أمّا الثوم فإنّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم كان يكره أكله فقد أُهدي إليه طعامٌ فيه ثومٌ، فأرسل به إلى سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي اللّه تعالى عنه، فقال: يا رسول اللّه، تكرهه و تُرسل به إليّ ؟

فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : { إنّي أُناجي مَن لا تُناجي } ، لذلك لا ينبغي الظنّ أنّ فمه الشريف صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم هو كأفواهنا البَخرة ، لأنّ ذلك هو كالإنتقاص لحضرته الشريفة صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم وذلك محض الكفر و العياذ باللّه تعالى ، بل لو قال المرء في معرض استهزاء و تنقيص لحضرة شعرته الشريفة فقال شُعيرة ، فهو كافر بالإجماع ، لهذا الخطر العظيم لا ينبغي أبدا الظّنّ أنّ حرصه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم على السّواك من حيثية بخر الفم ، بل ليغرس فينا نحن محبّة السّواك ، حتّى لا يبقى في المسلمين أبخرٌ و لا بخراء ، و لا قَلِحٌ و لا قلحاء ، و قد كان صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم يكره قُلحة الأسنان و بخر الأفواه و لذلك قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم لأَصحابه:{ ما لي أَراكم تدخلون عليَّ قُلحاً؟ } أي صفراءٌ أسنانكم ، و عدم وجود حتّى خلوفٍ لفيه الشريف صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم عند صومه هو كرامة له من اللّه تعالى و من خصائص ذاته الشريفة صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، بل مَن تبرّك بأكل مَضغته الشريفة صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم لم يبخر له فم ، و دليل ذلك ما رواه الطبراني :{ عندما دخلت عليه صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلم عميرة بنت مسعود هي و أخواتها يبايعنه و هن خمس فوجدنه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم يأكل قديدا فمضغ لهن قديدة فمضغنها كل واحدة قطعة فلقين اللّه تعالى و ما وجد لأفواههنّ خلوف } ، و معنى ذلك أنّهنّ ما وُجد لأفواههن خلوف و هنّ صائمات ، و هذا الخلوف يكون مصدره من الجوف أي من المعدة ، بخلاف البخر الذي يكون من بقايا الأكل أو عدم نظافة الفم بالسّواك ، و إن كنّ رضي اللّه تعالى عنهنّ تبركنّ به صلّى اللّه تعالى عليه و آله و

سلّم فما وُجد لهنّ خلوف ، فكيف يكون عنده ذلك صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ، حشاه من ذلك ، لأنّه خُلق كيف يشاء ، هذا عن السّواك الذي كان يحبّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أن يغرس محبّته في أمّته حتّى قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : { لولا أن أشقّ على أمّتي لأمرتهم بالسّواك عند كلّ صلاة } ، أمّا السّنّة الرابعة من سنن الأنبياء فهي استنشاق الماء عند الوضوء و المُبالغة فيه إلاّ أن يكون صائما ، و سرّ هذه السّنّة الحميدة قد أزال علم طب الجراثيم الغبار عن علّتها ، و هي أنّ الأنف وكرٌ دافئ و مغارة مُكيّفة لملايين الجراثيم ، بل إنّ مخاط الأنف يحوي أنواعا لا تُحصى من تلك الجراثيم ، و قد قام علماء طب الجراثيم بتجارب على أنوف المتطوّعين ، فوجدوا أنّ أنف الذي لا يُصلّي مأوى رهيب و مغارة مُخيفة لملايين شتّى الجراثيم ، و وجدوا أنّ أنفَ المتوضئ خاليٌّ تماما من تلك الجراثيم أمّا السّنّة الخامسة فهيّ قصّ الأظفار ، قال الإمام أحمد رضي اللّه تعالى عنه : قال النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : { يا أبا هريرة قلّمْ أظفارك ، فإنّ الشّيطان يَعْقِدُ على ما طال منها } ، و الشيطان هو بلغتنا الحاضرة هو جحافل الجراثيم و الميكروبات الفاتكة الهاتكة بصحّة الإنسان ، و تقليم الأظفار يمنع تلك الجراثيم من الإستطان تحتها ، أمّا غسل البراجم التي هيّ مفاصل الأصابع كما قال ثعلب عن ابن الأعرابي، قال: البراجم هي المُشَنّجاتُ في ظهور الأصابع و الرواجب ما بينهما، وفي كل إصبع برجمتان ، و ثنايا هيّ مستوطن الجراثيم ، و غسلها يكون بالوضوء مع الدّلك ، أمّا نتف الإبط فقد خرج علينا طب علم الجراثيم بسرّ النّتف ، الذي كان باليدّ عند السّلف لكن في عصرنا مع التّطوّر العلمي صارت هناك مراهم خاصة توضع على الشعر لوقت محدود ،

فيزول الشعر بمسح خفيف ، و العلماء قالوا أنّ حلق الإبط غير صحّي ، أمّا نتف شعره و إزالته بالمراهم فهو الصّحّي ، لأنّ في الإبط و هو حشرٌ للميكروبات توجد جراثيم لاهوائية ، فإذا نُتف الشّعر دخل الهواء إلى مسّام الشّعر فتموت تلك الجراثيم ، أمّا عند الحلق فلا يُمكن للهواء أن يدخل إلى مسّام الشّعر ، فتبقى تلك الجراثيم ، فسبحان الذي علّم طبيب البشر صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم أنواع الجراثيم و كيفية القضاء عليها ، أمّا السّنّة الثّامنة فهي حلق العانة ، و حلقها يمنع تكوين الفطريات و في حلقها فوائد صحّيّة من نشاط جنسي و غلمة أمّا انتقاص الماء أي الإستنجاء ، فهو ظاهرة صحيّة لا يعلم سرّها إلاّ المسلمون بخلاف اليهود و النّصارى الذين هم قذرون باطنا و ظاهرا ، و تعمّدت تبيان هذه السّنن مع ما أكّده علماء طبّ الجراثيم عن أسرارها ، لأنّها من سنن النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و سنن الأنبياء قبله ، ليأخذ بها متابِعُه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم .

شرب الدّخان و أكل الشّمّة

قال الشاعر :

في النّاس قومٌ سِخافٌ لا عقول لهم *** استبدلوا عِوَض التّسبيح دخّانا

أنبوبة بفمٍ و النّار داخلها *** تجرّ للجوف دخانا و نيرانا

و قلت في شرب الدّخان :

من شَرِب الدّخان كمن حقن نفسه بسُمّ ثعبان

و العلماء كلّهم أجمعوا على حرمته بدليل القرآن
و قالوا أنّ الميّت بالدّخان و القاتل نفسه سيّان
و طعامه {شجرة الزقوم} جزاؤه في سورة الدّخان
و قلت في أكل الشّمّة:
يزعم الشّام أنّ شمّة عنده و هو شبعان
تُحلّق به في أركان الإيوان كأنّه سلطان
و تُريه من غرائب الأفكار ألوانا بعد ألوان
و ما دري بوسواسها لأنّها بول الشيطان

ومن الأخطاء التي وقع و يقع فيها بعض الفقراء و المريدين شرب الدّخان وأكل الشّمة و لا أقصد بأكلها بلعها إنّما وضعها في الفم تحت الشّفة، حتّى أنّ اسمها الصّحيح هو { ماكلة } ، و تعاطي الدّخان و الشّمة من الأمور المحرّمة بصريح الأدلّة من القرآن الكريم و أقوال النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم وفتاوى العلماء قديما و حديثا ، و كما تقول القاعدة الفقهية :{ أنّ التّحريم يتبع الخبث و الضرر } ، وطالما أنّ الدّخان و الشّمة من الخبائث و مضرّتهما كبيرة ، و ليس لهما أيُّ نفع و لو طبّيٍّ ، فهما مُحرّمان من حيثيّة هذه القاعدة ، و اللّه تعالى ورسوله صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم قد نهيا عن إضاعة المال و التّبذير ، و في شرائهما إضاعة للمال وتبذير ، و نهى اللّه تعالى عن الانتحار و قتل الإنسان نفسه بقوله تعالى :{ و لا تقتلوا أنفسكم إنّ اللّه كان بكم رحيما } و بقوله تعالى :{ و لا تُلقوا بأيديكم إلى التّهلكة } أي لا تلقوا أنفسكم بأيديكم إلى التّهلكة ، و قال النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله

و سلّم :{لا ضَرر و لا ضِرار} ، و في تعاطي الدّخان و الشّمة من الأمراض الوبيلة القاتلة ، و لو كان إلاّ مرض السّرطان لكفى ، فكيف بالضغط الدّموي ، و ارتفاع الدهون في الدّم ، و أمراض القلب ، و التهاب الشّعب الرئوية ، و سرطان الرئة ، حتّى أنّ من الفقهاء من قال أنّ الميّتَ بمرض السّرطان بسبب الدّخان و الشّمّة يُصنّف في خانة القاتل لنفسه و المنتحر ، قال الشيخ سيدي محمّد أبو راس الجزائري في فتح الإله و منّته : { و أمّا الدّخان و سفّه و شمّه ، فقال الشيخ إبراهيم الجولاني : عُلِق بحفظي من كرّاسة كانت بين يديّ مولاي عبد اللّه بن طاهر الحسني أنّها أي { طابة } أي { المسماة عندنا بالشّمّة } مندرجة تحت المفسدات للعقول ، لإحداثها سببا و أنّ أكل المحروق لا يجوز ، و لو خبزا ، و أنّ فيها إضاعة مال ، و يتعاطاها الأشرار ، لقلّة حيائهم ، و أنّ تسمية الفسقة لها باسم { طابة } ، حرامٌ عليهم ، لتشريفهم لها به ، كما سمّوا الخمر بأسماء شريفة ، و كان السّلطان أحمد الذّهبي أمر بإحراقها بفاس الجديد ، لأنّها ضاع فيها مال عظيم ، و قال أحمد المقرّي الذي ألّف { نفح الطّيب } لمّا سُئل عنها قال : { لا نصّ عندي فيها صريح ، و أدلّة تحريمها مبحوث في بعضها } ، و قال الشيخ عبد الرحمن الفاسي : الذي ينبغي اعتماده تحريم الدّخان ، لإعتراف كثيرٍ أنّه يحدث تفتيرا ، فيُشارك الخمر في نشوته ، و يُرخي الأطراف و يوهنها ، حتّى أنّه كالمُسكر القليل من الخمر ، فلولا أنّه فيه ذلك ما وُلع به ، و يتضرّر البدن عند تركه جدًّا ، و قال الأطباء : أنّه يُميت القوّة { الجنسية } ، و صرّح بعض التونسيين بحرمته لكونه يُضعف الجماع ، و الحاصل أنّ مفاسده كثيرة ، و بالحرمة جزم أبو السّعود عالم اسطنبول حيث قال :

حرامٌ شُربُه لا شكّ فيه ***** فَحال منعُه بين المُحال

تيقّنْ ليس فيه غير ضُرٍّ ***** و ما فيه سوى إتلاف مال

و يقال أنّ الشيخ أحمد بن النّاصر أفتى بحرمته ، و أحسب أنّ الشيخ الفكّون القسمطيني تلميذ الوزّان ألّف رسالة في حرمته ، و سُئل بعضهم عن سفّ الدّخان و {الشّمّة} ، فقال : أنّه فعل السّفهاء ، و قال الشيخ عبد القادر الفاسي { في الغبار المجعول في الأنف عند سفلة النّاس } : فهو في أصله نبات طاهر إذا سلم من العوارض ، لكن قال الشيخ إبراهيم اللّقّاني : فالمجلوب منه من بلاد النّصارى يرشّونه بالبول و الخمر ، فهو نجس لذلك ، و تعاطيه قادح في الإمامة و الشّهادة ، و أنّه خارمٌ للمروءة ، و قال بحرمة الدّخان أيضا الشيخ أحمد بن محمّد بن ناصر الدراوي ، و العارف باللّٰه القطب الشيخ محمّد بن سعيد الهبري نسبا الطرابلسي مدفنا ، حسبما نقله عنه تلميذه الشيخ محمّد بن عبد الرحمن ، و ذكر الشيخ الفِيشي : أنّ شراءه يُفسخ عند قول خليل :{ و انتفاع به ...} إنتهى من كتب : فتح الإله و منّته، و قال الشيخ سيدي عبد العزيز الدبّاغ رضي اللّٰه تعالى عنه : { الدّخان المعروف بطابة ، حرام لأنّه يضرّ بالبدن ، و لأنّ لأهله ولاعة به تُشغلهم عن عبادة اللّٰه تعالى و تقطعهم عنه ، و لأنّا إذا شككنا في شيء أحرام هو أم حلال و لم نجد فيه نصّا عن النّبيّ صلّى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم ، نظرنا إلى أهل الدّيوان من أولياء اللّٰه تعالى ، و هم أهل الدائرة و العدد ، فإن وجدناهم يتعاطون ذلك الشيء علمنا أنّه حلال ، و إن وجدناهم لا يتعاطونه و يتحامون عنه علمنا أنّه حرام ، و إن كان بعضهم يتعاطاه و بعضهم لا يتعاطاه نظرنا إلى الأكثر فإنّ الحقّ معه ، و أهل الدّيوان لا يتعاطون هذا الدّخان ، و لأنّ الملائكة تتأذى بريحه ، ثمّ حكى لنا حكاية عن مدينة متعفّنة لاجتماع فضلات بني آدم فيها ، و زبل الدّواب مع قلّة المياه لذلك و

أطال في وصف المدينة و كيفية شكلها و أين هي و الغرض حاصل بهذا الذي قلناه، فلذا لم نكتب كيفية وصفه لها، قال: فتجتمع فيها روائح كريهة فوق ما يُظنّ، قال: فدخلها ذات يوم ثمانية من أولياء اللّه تعالى من أهل التّصرّف، فلمّا توسّطوها خرجوا منها مسرعين، و سبب إسراعهم أنّ ملائكة ذواتهم نفرت من تلك الرّوائح الكريهة، فنفر الأولياء لذلك، لأنّه لا يعلم خطر نفور الملائكة عن الذّات إلاّ من له بصيرة، و ما مثاله إلاّ كمن جيء به إلى موضع العدوّ و بلاد اللّصوص ثمّ عُزل عن سلاحه، فبأيّ شيء يلقى العدوّ حينئذ؟ فقلت: فالثوم و البصل ونحوهما له رائحة كريهة و أكلهما ليس بحرام، فقال رضي اللّه تعالى عنه: إذا اجتمع حقّ الآدميّ و حقّ الملَك، قُدّم الآدميّ لأنّ كلّ شيء إنّما خُلق من أجل بني آدم، فما فيه منفعة لبني آدم لا يُحرم، و إن كان فيه مضرّة للملَك، و في الثوم و البصل منافع لا تخفى، بخلاف الدّخان فإنّه لا منفعة فيه} انتهى من كتاب الإبريز، و بعد هذا، أليس مقصود السّلوك هو مُخالفة النّفس في شهواتها، و تعاطي الدّخان و الشّمّة من شهواتها، فكيف يكون وصول مَن غلبته نفسه على ما حرّم اللّه تعالى؟ فقد وقف مع نفسه في مقام المُخالفة فما قدر عليها، فكيف به في مقام المُجاهدة؟ و هذا في المُجاهدة أفضل منه مُترّيضو البوذية و الهندكوية في مُخالفاتهم لأنفسهم و مُجاهداتهم لها مع خسرانهم الظاهر في الدّنيا و الآخرة، فقد رأيتُ على إحدى القنوات شريطا وثائقيا يحكي مُجاهدات هؤلاء البوذيين لأنفسهم، رأيت واحدا عاهد نفسه أن يبقى واقفا لمدّة اثني عشر سنة، و قد أتمّ سبع سنين و بقي له خمسا، و رأيته وهو واقفٌ مُستندٌ على حبلٍ ممدود، و هو في كلّ ذلك فرح مغرور بنفسه، و رأيتُ آخرا و قد قطع مسافة ألف كيلومتر

و هو يتدحرج على جنبه في كلّ ذلك ، فإن كان هؤلاء الكفّار يُجاهدون أنفسهم بهذه الطرق و مصيرهم إلى خسران ، ألا يستطيع الفائز هنا و هناك و هو خليفة اللّه تعالى أن يُجاهد نفسه على ترك ما حرّم اللّه تعالى ؟ قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي اللّه تعالى عنه في الأنوار القدسية : { و من شأن المريد مخالفة هوى نفسه فلا يُوافقها قطّ فيما تهواه ، و قد أجمع الأشياخ على أنّ رأس مال المريد مخالفة نفسه ، و من أطلق عنان نفسه فيما تهواه فقد أهلكها ، و كان أبو حفص رحمه اللّه تعالى يقول : من لم يتّهم نفسه على دوام الحالات و لم يُخالفها في جميع شهواتها و لم يَجُرّها إلى مكروهها في سائر الأوقات فهو مغرور في سائر الحالات ، و قال غيره : أعظم حجاب بينك و بين ربّك موافقة نفسك ، و قال ابن شيبان رحمه اللّه تعالى : ما أكل عبد شهوة إلا حُجِبَ عن شهود ربّه ، قال : و لقد مكثت عشرين سنة أشتهي أكلة عدسٍ فلم يتّفق لي أكلها ثمّ أتي أكلتها و خرجت فأخذني أعوان السّلطان و قالوا : هذا قال أنّ الخمر حرام وكسّر جِرارها بالأمس ، فضربوني مائة خشبة ، ثمّ مرّ عليّ أستاذي أبو عثمان المغربي فقال : ماذا صنعتَ حتّى وقع لك هذا ؟ فقلتُ : أكلتُ شهوة ، فقال الشيخ : أطلقوه ، فأطلقوني ، و قال لي : نجوتَ إن شاء اللّه مجانا } ، و كان السّري السّقطي رحمه اللّه تعالى يقول لي : أكثر من أربعين سنة و نفسي تُطالبني أن أغمس جزرة في دبس فلم أطعمها ذلك ، و كان يقول : من صدق في ترك شهوة كفاه اللّه تعالى موتها ، و أوحى اللّه تعالى على داود عليه السّلام : { يا داود حذّر و أنذر قومك أكل الشهوات ، فإنّ القلوب المتعلّقة بشهوات الدّنيا عقولها محجوبة عنّي } وفي رواية { يا داود إنّ أهون ما أنا صانع بعبدي إذا آثر هواه على طاعتي أن أحرمه لذيذ مناجاتي} و من اتّباع الهوى إيثار

النّوم على قيام اللّيل في مثل ليالي الصّيف و ذلك دليل على عدم محبّة اللّه تعالى ، و من لا يحبّ اللّه فهو عدوّ اللّه ، لأنّ اللّه تعالى قد أوحى إلى داود عليه السّلام : { يا داود كذب من ادّعى محبّتي فإذا جنّه الليل نام عنّي } فشهد الحقّ على أنّ من ينام من غير غلبة بأنّه كاذب في محبّته} انتهى من الأنوار القدسية ، و للأمانة العلمية أنّني لما سمعت هذا الكلام أشهد أنّني أكبر كاذب طلعت عليه الشمس و غربت عنه ، لكنّي أنتظرها من الصّادق المبتلى أن يعاهد نفسه على الانتهاء من تعاطي الدّخان و الشّمّة ، و أن يفطم نفسه من شهواتها ، و أن يُقارن الأسمطة و عليها ألوان الأطعمة و هو يأكل كيف اشتهى سيدي ابن شيبان رضي اللّه تعالى أن يأكل عدسا منذ عشرين سنة ، وكيف اشتهى سيدي السّري رضي اللّه تعالى عنه منذ أربعين سنة أن يغمس جزرة في عسل فلم يُوافق نفسه على هذا ، فكيف ندّعي نحن التأسّي بأحوال أهل اللّه تعالى و قد غرقنا في الأكل و الشرب حدّ التّمالة ثمّ نقنع برُكيعات و أذكار يقولها اللسان وغافل عنها الجَنان ثمّ نطلب العوض على هذه العبادة النّاقصة ، قال سيدي ابن عطاء رضي اللّه تعالى : { من طلب عوضا من اللّه تعالى على عبادته استحقّ الطّرد و المقت } و قال سيدي إبراهيم الخواص رضي اللّه تعالى عنه : { منّ إتّباع الهوى أن يعبد العبد ربّه لطلب ثواب أو خوفا من عقاب فلا يزداد صاحب هذا القصد على مرور الزمان إلا إدبارا} ، و أخير لو علم من يتعاطى الدخان و الشّمّة متى وُجِدا ، لانتهى فورا ، و متى وُجدا كما يُقال : أنّ إبليس اللّعين لمّا طُرد من رحمة اللّه تعالى و خرج من الجنّة ونزل إلى الأرض بال ، فنبت من بوله حشيشة الدّخان و الشّمّة ، و ذلك معنى قولي : و ما درى بوسواسها لأنّها بول الشيطان

العلائق و العوائق و الوسائط و الحجب

إنّ رحلة السلوك و السّفر إلى اللّه تعالى تعترِيها عدّة علائق و عوائق و وسائط و حجب ، كأنّ طريق السلوك و للّه تعالى المثل الأعلى شبيه برحلة حجّ ، فمن سلك بنفسه بدون اتّخاذ شيخ له يريه رعونات نفسه و يطير به بجناحي سطوة همّته و كمال عرفانه فهو كمن حجّ على رجليه و قطع الفيافي مع ما فيها من لصوص و قطاع طريق و وحوش و سباع ، فإن نجا من هؤلاء وقع في هؤلاء ، فإن نجا منهم كلّهم أهلكه نفاد الزاد و رؤية سراب الماء ، فإن نجا مع كلّ تلك المهالك فإنّه يقطع سيره أضعاف ما يقطعه الراكب الآمن ، و سلوك الطريق كذلك ، على كلّ شعبة منها شيطان مُضِلّ ، و في كلّ وادٍ منها هوًى مُزِلّ ، و على كلّ رابية منها شرٌّ من النفس مُذِلّ ، و حتّى لو اتّخذ المريد له شيخا يقوده فإنّه لا يسلم من تلك العوائق و العلائق ، لأنّ طريق اللّه تعالى عزيزة و سِرُّها عزيز و سَيْرُها عزيز فلا يسير فيها إلا عزيز ، و لا يصل فيها إلا عزيز ، و في ألف غافل يسلكها واحدٌ ، وفي ألف سالك يصل فيها واحدٌ ، و ما ذلك إلا لعزّة العزيز :

لا بُدّ للشهد من نحل يُمَنّعُه ***** لا يجتني النّفع من لم يحمل الضرر

و لخطر تلك العوائق و العلائق على سير السالك قال سيدي عبد السلام بن مشيش رضي اللّه تعالى عنه : { و ادفع عنّي العلائق و العوائق و الوسائط و الحُجُب } ، فالعلائق ظاهرية تمس نفس السائر و العوائق باطنية تمس قلبه ، و الوسائط تمس روح السالك ، و الحُجُب تمس سرّه ، و اللّه أعلم ، و تِبيان ذلك أنّ العلائق هي كلّ

ما تعلّقت به النّفس ، من ملاذ الدنيا و شهواتها و هو ما زُيِّن لها بالفطرة قال تعالى: (زُيِّنَ للناس حُبُّ الشهوات من النساء و البنين و القناطير المُقنطرة من الذهب والفضّة و الخيل المُسوّمة و الأنعام و الحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، و اللّه عنده حُسنُ المآب) ، و سُمِّيتْ علائقُ لتعلّق النّفس بها بالفطرة ، و لا يسلم من محبّتها إلا من شاء اللّه تعالى له ذلك، و زُيّنت تلك الشهوات لسائر الخلق إلا للنبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم فإنّها لم تُزَيّنْ له ، لقوّة اتصاله بالحق تعالى و شهوده له و ملأ قلبه بحبّه تعالى فلمّا كان الحقّ تعالى هو الأول و الآخر و الظاهر و الباطن في قلب النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم جزاه اللّه تعالى بتحبيب أمور ثلاثة له صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم ، فقد قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم : (حُبِّبَ إليّ من دنياكم ثلاث : النّساءُ ، و الطّيبُ ، و جُعلتْ قُرّة عيني في الصلاة) ، و قد كان يحسّ الصحابة الكرام عليهم رضوان اللّه تعالى ببعضٍ من تلك الحجب المانعة للقلب من مزيد الصفاء كما روى أبي أمامة رضي اللّه تعالى عنه قال : (مرّ رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم في يوم شديد الحرّ نحو بقيع الغرقد ، قال: و كان الناس يمشون خلفه ، قال : فلمّا سمع صوت النّعال وقر ذلك في نفسه فجلس حتّى قدّمهم أمامه فلمّا مرّ ببقيع الغرقد إذا بقبرين قد دَفنوا فيهما رجلين ، قال: توقف النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم فقال : من دفنتم ههنا اليوم ؟ قالوا : فلانا و فلانا ، قالوا : يا نبي اللّه و ما ذاك ؟ قال : أمّا أحدهما فكان لا يتنزّه من البول و أمّا الآخر فكان يمشي بالنّميمة ، و أخذ جريدة رطبة فشقّها ثم جعلها على القبرين ، فقالوا : يا نبي اللّه ، لِمَ فعلت هذا ؟ قال : ليُخفّف عنهما ، قالوا : يا رسول اللّه حتّى متى يُعذّبان؟ قال : غيبٌ لا

يعلمه إلا اللّه تعالى ، و لولا تمرّغ قلوبكم ، و تَزَيّدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع) ، و معنى قوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم : (لولا تمرّغ قلوبكم و تزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع) يدلّ على الحجب المانعة من الكشف و الرؤية من وراء الغيب ، و هذا مع قوّة إيمانهم و علو مقاماتهم بصحبة خير البشر صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم ، فما قولنا بمن هو مُتلوّث طول دهره بمّا حرّم اللّه تعالى من معاصي بدنية و قلبية و يتطلّع إلى أن يكشف اللّه تعالى عن قلبه الحجب ؟ و من العلائق التي كان يحسّها كبار الصّحابة رضي اللّه تعالى عنهم مع نورانيتهم المُطلقة و قوّة إيمانهم ما قاله سيدنا حنظلة بن الربيع الأسيدي رضي اللّه تعالى عنه :{ لقيني أبو بكر فقال : كيف أنت يا حنظلة ؟ قلت : نافَقَ حنظلة ! قال : سبحان اللّه ما تقول ؟ قلت : نكون عند النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم يُذكّرنا بالنّار و الجنّة كأنّا رأي عين و إذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج و الأولاد و الضيعات و نسينا كثيرا ، قال أبو بكر : فو اللّه إنّا لنلقى مثل ذلك ، فانطلقتُ أنا و أبو بكر حتّى دخلنا على النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم فقلتُ : نافَق حنظلة ، يا رسول اللّه ! فقال : و ما ذاك ؟ قلت : نكون عندك تُذكّرنا بالنّار و الجنّة كأنّا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج و الأولاد و الضيعات و نسينا كثيرا ، فقال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم :{ و الذي نفسي بيده لو تدومون على ما تكونون عندي و في الذكر لصافحتكم الملائكة على فُرُشِكم و في طرقكم ، و لكن يا حنظلة ساعة و ساعة ثلاث مرات) } و قد كرّر صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم قوله ساعة و ساعة ثلاثا على المراتب الثلاثة للدّين و هي الإسلام و الإيمان و الإحسان ، ففي كلّ مرتبة توجد غفلة و يقظة ، و

كما أنّ للشريعة إسلام و إيمان و إحسان فالحقيقة أيضا لها إسلام و إيمان و إحسان و في رواية سيدنا أنس رضي اللّٰه تعالى عنه :{أن أصحاب النبي صلى اللّٰه عليه و سلم قالوا للنبي صلى اللّٰه عليه و سلم إنا إذا كنا عندك فحدّثتنا رقت قلوبنا فإذا خرجنا من عندك عافسنا النساء و الصبيان و فعلنا و فعلنا فقال النبي صلى اللّٰه عليه و سلم : {إن تلك الساعة لو تدومون عليها لصافحتكم الملائكة}. و لكن لا ينبغي للمريد و لو كان من المفتوح عليهم و نال مقاما عاليّا أن يقيس حاله على حال الصحابة رضي اللّٰه تعالى عنهم. فالعلائق التي كانت عندهم هي صورية لقوة محبّتهم للنبي صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلم ، أمّا ما عداهم فهي حقيقية ساكنة شغاف القلوب ، و حسنات الأبرار سيئات المُقرّبين ، فإذا علمت أنّ العلائق هي كلّ ما تعلّقت به النّفس من ملاذ و شهوات الدنيا و لا سبيل إلى تركها ذلك إلا بتعريفها مقصودها الأسنى و هو طلب رضوان اللّٰه تعالى ، و متى عرفتْ ذلك و اتّصلتْ بحبل السلوك سَهُل على المريد فِطامها تدريجيّا ، و لذلك جاء في القرآن الكريم التعريف بالقصور و الحور و الجِنان و الولدان المُخلّدون و الأنهار و غير ذلك ممّا لم تره عين و لا سمعته أذن و لا خطر على قلب بَشَرٍ ، فإذا سمعت النّفس ذلك سَهُل تركها لذّات و شهوات ساعة للتمتع بلذات و شهوات الخلود ، و أمّا العوائق فهي ما يمسّ القلب من أصولِ شرٍّ ثلاثة تتفرع منها سائر الشرور و المعاصي و هي الشرك و البدعة و المعصية ، فهذه تعوق القلب عن سيره إلى اللّٰه تعالى و تقطع عليه طريق الوصول ، و لا يستطيع إزالة هذه العوائق الثلاثة إلا بتحقيق أضدادها الإيجابية و هي تجريد التوحيد الخالص للّٰه تعالى ، و تحقيق السنّة ، و تصحيح التوبة، و

تجريد التوحيد لا يكون إلا بالتحقّق بمقامات كلمة التوحيد الأربعة عشر التي ذكرها الشيخ الأكبر سيدي محييّ الدين بن عربي رضي اللّه تعالى عنه و هي :

- لا خالق إلا اللّه * لا رازق إلا اللّه .
- لا محيّ إلا اللّه * لا مميت إلا اللّه.
- لا مُعطي إلا اللّه * لا مانع إلا اللّه .
- لا مُعزّ إلا اللّه * لا مُذلّ إلا اللّه .
- لا نافع إلا اللّه * لا ضار إلا اللّه .
- لا هادي إلا اللّه * لا مُضلّ إلا اللّه .
- لا مُبدىء إلا اللّه * لا مُعيد إلا اللّه .

و قال:{ أنّه من لم يعرفها فهو كافر} أي كفر حقيقة لا كفر شريعة، و هو الذي عناه سيدي عبد السلام بن مشيش رضي اللّه تعالى عنه بقوله : {و اجعل صلاتي عليه نورا ناثرا كاملا طاهرا مطهرا ماحيا كلّ ظلم و ظلمة و شكّ و شرك و كفر وغفلة}، و هذا الظلم ليس ظلم شريعة إنّما ظلم حقيقة و كذلك الشأن للظلمة و الشكّ و الشرك و الكفر و الغفلة، و إن كان الكفر أخطرها عند سماعه قبل فهمه فقد بيّنه سيدي أحمد الفاروقي السرهندي رضي اللّه تعالى عنه بقوله:{ كما أنّ في الشريعة كفرا و إسلاما ، في الطريقة أيضا كفر و إسلام ، و كما أنّ كفر الشريعة شرّ ونقص و الإسلام كمال كذلك كفر الطريقة أيضا نقص و شرّ و إسلامها كمال ، وكفر الطريقة عبارة عن مقام الجمع الذي هو محلّ الاستتار و تميّز الحقّ من الباطل مفقود في هذا الموطن فإنّ مشهود السالك فيه في المرايا الجميلة و الرذيلة هو جمال وحدة المحبوب ، فلا يجد الخير و الشرّ و الكمال و النّقص غير مظهر لتلك الوحدة و ظلالها ، فلا

جرم يكون نظر الإنكار الذي ناشئ عن التمييز معدوما في حقّه ، فبالضرورة يكون مع الكلّ في مقام الصلح و يجد الكلّ على صراط مستقيم و يترنّم بهذه الآية الكريمة (و ما من دابة إلاّ هو آخذ بناصيتها إنّ ربّي على صراط مستقيم) و أحيانا يرى المظهر عين الظاهر فيظنّ الخلق عين الحق و المربوب عين الربّ و كلّ هذه أزهار تتفتّق من مرتبة الجمع ، قال الحلاج رضي الله تعالى عنه في هذا المقام :

كفرت بدين الله و الكفر واجب °°°°° لديّ ، و عند المسلمين قبيح

و لكفر الطريقة هذا مناسبة تامّة بكفر الشريعة ، و إن كان كافر الشريعة مردودا و مستحقا للعذاب و كافر الطريقة مقبولا و مستوجبا للدّرجات ، فإنّ هذا الكفر و الاستتار ناشئ من غلبة محبّة المحبوب الحقيقي و نسيان غيره كلّه فيكون مقبولا، وذاك الكفر حاصل من استيلاء الجهل و التمرّد فيكون مردودا بالضرورة ، و إسلام الطريقة عبارة عن مقام الفرق بعد الجمع الذي هو مقام التمييز ، و الحقّ و الخير متميزان هنا من الباطل و الشرّ ، و لإسلام الطريقة هذا مناسبة تامّة بإسلام الشريعة ، بل إذا بلغ إسلام الشريعة كماله تحصل له نسبة الاتّحاد بهذا الإسلام ، بل كلا الإسلامَين إسلام الشريعة ، و الفرق بينهما بظاهر الشريعة و باطن الشريعة و بصورة الشريعة و حقيقة الشريعة ، و مرتبة كفر الطريقة أعلى من مرتبة إسلام صورة الشريعة و إن كانت أدون بالنسبة إلى إسلام حقيقة الشريعة قال الشاعر :

متى قسنا السّما بالعرش ينحطّ °°°°° و ما أعلاه إن قسنا بأرض

و كلّ من تكلّم من المشايخ قدّس الله تعالى أسرارهم بالشطحيات من الكلمات المخالفة لظاهر الشريعة كل ذلك في مقام كفر الطريقة الذي هو

موطن السّكر و عدم التمييز ، و الكبراء الذين تشرّفوا بدولة إسلام الحقيقة هم منزّهون و مبرؤون من أمثال هذه الكلمات و مقتدون بالأنبياء و متابعون لهم ظاهرا و باطنا ، فالشخص الذي يتكلّم بالشطحيات و يكون في مقام الصّلح مع الكلّ و يظنّ الجميع على صراط مستقيم و لا يثبت التمييز بين الحقّ و الخلق و لا يقول بوجود الإثنينية ، فإن وصل هذا الشخص إلى مقام الجمع و تحقّق بكفر الطريقة و نسي السّوى فهو مقبول وكلماته ناشئة من السّكر و مصروفة عن الظاهر ، و إن تكلّم بهذه الكلمات بدون حصول هذا الحال وبلا وصول إلى الدرجة الأولى من الكمال و زعم أنّ الكلّ على حقّ و على صراط مستقيم و لم يميز الباطل من الحقّ فهو من الزنادقة و الملاحدة الذين مقصودهم إبطال الشريعة و مطلوبهم رفع دعوة الأنبياء الذين هم رحمة للعالمين عليهم الصلوات و التحيات ، فهذه الكلمات الخلافية تصدر من المحقّ وتصدر من المبطل و هي للمحقّ ماء الحياة و للمبطل سمّ قاتل كماء النّيل حيث كان لبني إسرائيل ماء زلالا و للقبط دما و نكالا ، و هذا المقام من مزلّة الأقدام قد انحرف جمّ غفير من أهل الإسلام عن الصراط المستقيم بتقليد كلمات أكابر أرباب السّكر و وقعوا في بوادي الضلالة و الخسارة و جعلوا دينهم هباء منثورا و لم يعلموا أنّ قبول هذا الكلام مشروط بالشرائط و هي موجودة في أرباب السّكر و مفقودة في هؤلاء ، و معظم هذه الشرائط نسيان ما سوى الحقّ سبحانه الذي هو دهليز القبول ومصداق امتياز المحقّ من المبطل الاستقامة على الشريعة و عدم الاستقامة عليها ، و الذي هو محقّ لا يرتكب خلاف الشريعة مقدار شعرة مع وجود السّكر و عدم التمييز ، كان الحلاج رضي الله تعالى عنه مع صدور

قوله : أنا الحقّ ، يصلّي كلّ ليلة في السّجن خمسمائة ركعة مع قيد ثقيل و كان لا يأكل الطعام الذي مسّه يد الظلمة و لو كان من وجه حلال ، و الذي هو مبطل يكون إتيان الأحكام الشرعية ثقيلا عليه مثل جبل قاف (كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) علامة حالهم }. إهـ من المكتوبات ، و الإخلاص هو مقصد السلوك لقوله تعالى : (و ما أُمِروا إلا ليعبدوا اللّه مُخلصين له الدّين حُنفاء) و قال تعالى في الحديث القدسي : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عَمِل عملا أشرك فيه معي غيري تركتُه و شِركه) و قال سيدي ابن عطاء اللّه السكندري رضي اللّه تعالى عنه :{ الأعمال صُوَرٌ قائمة و أرواحها وُجود الإخلاص فيها }، و قال أيضا :{ ما أرادت همّة السّالك أن تقفَ عندما كُشِفَ لها إلاّ و نادته هواتف الحقيقة : الذي تطلبُ أمامك و لا تبرّجتْ له ظواهر المُكوّنات إلاّ و نادته حقائقها (إنّما نحن فتنة فلا تكفر) }و قال أيضا :{ كيف تطلب العِوَض على عمل هو مُتصدّق به عليك ؟ أم كيف تطلب الجزاء على صدق هو مُهديه إليك ؟} و حكمه رضي اللّه تعالى عنه في الصدق كثير ، و إن كان مَطلب المسلم في تحقيق إخلاص عباداته من صلاة و زكاة و صيام و حج و سائر المُعاملات ، فإنّ الصوفي مُطالب بتحقيق الإخلاص في تلك العبادات و يزيد عليها في إخلاص النيّات و الحركات و السكنات و الخطرات و اللحظات و إخلاصه في الأنفاس سرّا و جهرا ، سئل النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم عن الإخلاص ما هو ؟ قال : (سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سألت ربّ العزّة عن الإخلاص ما هو ؟ قال : سرّ من سرّي استودعته قلب من أحببته من عبادي) و قال سيدي ذو النون المَصري رضي اللّه تعالى عنه :{ ثلاث من علامات الإخلاص استواء المدح و الذم من العامة ، و نسيان رؤية

الأعمال في الأعمال ، ونسيان اقتضاء ثواب العمل في الآخرة }، و قال سيدي أبو يعقوب السوسي رضي اللّه تعالى عنه :{ متى شهدوا الإخلاص في إخلاصهم احتاج إخلاصهم إلى إخلاص }، و قالوا :{ الإخلاص إفراد الحقّ تعالى في الطاعة بالقصد و هو أن يريد بطاعته التقرّب إلى اللّه تعالى دون شيء آخر من تصنّع لمخلوق أو اكتساب صفة حميدة عند الناس أو محبّة مدح من الخلق ، أو معنى من المعاني سوى التقرّب إلى اللّه تعالى }، قال بعضهم :{ قضيتُ صلاة ثلاثين سنة كنتُ أصلّيها في الصّف الأول ،لأنّي تأخرتُ يوما فصليتُ في الثاني فخجلتُ من النّاس حيث رأوني فعلتُ ، لأنّ نظر الناس إلى الصّف الأول كان يُعجبُني} ، و قال بعضهم :{ دخلت على سهل بن عبد اللّه يوم الجمعة قبل الصلاة ، فرأيت في البيت حيّة ، فجعلت أقدّم رجلا و أؤخّر أخرى ، فقال : ادخل ، لا يبلغ أحد حقيقة الإيمان و على وجه الأرض شيء يخافه ، ثم قال :هل لك في صلاة الجمعة ؟ فقلت : بيننا و بين المسجد مسيرة يوم و ليلة فأخذ بيدي ، فما كان إلاّ قليل حتّى رأيت المسجد فدخلناه و صلّينا الجمعة ، ثم خرجنا فوقف ينظر إلى الناس و هم يخرجون ، فقال : أهل (لا إله إلا اللّه) كثير ، و المخلصون منهم قليل }، قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم :(استعيذوا باللّه من جُبّ الحَزَن ، قيل : و ما هو ؟ قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم : واد في جهنّم أعدّ للقرّاء المُرائين) و قال الإمام حجّة الإسلام سيدي أبو حامد الغزالي رضي اللّه تعالى عنه :{ اعلم أنّ بعض الرياء جليّ وبعضه أخفى من دبيب النمل ، أمّا الجليّ فما يبعث على العمل حتّى لولاه لم يرغب في العمل و أخفى منه أن لا يستقلّ بالحمل عليه ، و لكن يخفّف العمل و يزيد في نشاطه كالذي يتهجّد كلّ ليلة و إذا كان عنده ضيف زاد نشاطه ، و أخفى منه أن

لا يزيد نشاطه و لكن لو اطّلع غيره على تهجّده قبل فراغه أو بعده فرح به و وجد في نفسه هزّة، و ذلك يدلّ على أنّ الرّياء كان مُستكنّا في باطن القلب استكنان النّار تحت الرماد حتّى ترشّح منه السرور عند الإطلاع، و قد كان غافلا عنه قبله، و أخفى منه أن لا يُسَرَّ بالاطلاع لكن يتوقّع أن يُبدأ بالسلام و يُوَقّر و يتعجّب ممن يسيء إليه و لا يُسامحه في المُعاملة و لا يحترمه، و ذلك يدلّ على أنّه يمنّ على النّاس بعمله، فكأنّه يتوقّع احترامهم و توقيرهم بعبادته مع إخفائه عنهم، و أمثال هذه الخفايا لا يخلو منها إلاّ الصدّيقون، و جميع ذلك إثم و يُخافُ منه إحباط العمل، فاجتهد إن أردت الخلاص أن يكون النّاس عندك كالبهائم و الصّبيان، فلا تُفرّق في عبادتك بين وجودهم وعدمهم و علمهم بها أو غفلتهم عنها، و تقنع بعلم اللّه تعالى وحده، وتطلب الأجر منه تعالى، فإنّه لا يقبل إلاّ الخالص كي لا تُحرَم من فائدته في أحوج أوقاتك له. وعلاج الرّياء في دفع الأسباب الباعثة عليه و هي ثلاث: حبّ المدح، و خوف الذمّ، و الطمع }. و قال سيدي أحمد الفاروقي السرهندي رضي اللّه تعالى عنه:{قد صار معلوما لي بعد طيّ منازل السّلوك و قطع مقامات الجذبة أنّ المقصود من هذا السّير و السّلوك تحصيل مقام الإخلاص المربوط حصوله بفناء الآلهة الآفاقية و الأنفسية، و هذا الإخلاص جزء من أجزاء الشريعة، فإنّ للشريعة ثلاثة أجزاء: العلم و العمل و الإخلاص، فالطريقة و الحقيقة خادمتان للشريعة في تكميل جزء الإخلاص و هذا هو حقيقة الأمر، ولكن لا يدرك فهم كلّ أحد ذلك، و أكثر خلق العالم قد اطمئنوا بالمنام و الخيال و اكتفوا بالجوز و الموز، فماذا يُدركون من كمالات الشريعة و أنّى يصلون إلى حقيقة الطريقة و الحقيقة، فيزعمون الشريعة قشرا و الحقيقة لُبّا

و لا يدرون ما حقيقة المُعاملة ، بل يغترّون بتُرّهات الصوفية ويَفتَتِنون بالأحوال و المقامات السّفلية ،هداهم اللّه تعالى سواء الطريق }. أمّا العائق الثّاني لقلب السّالك فهو البدعة و علاجه بتحقيق السّنّة على صاحبها الصلاة والسلام ، و لا سير للقلب إلاّ باقتفاء أثر النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم في أقواله و أفعاله و سائر أحواله ، و قد ذكرتُ سرّ الطريق في باب متابعته و محبّته صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلم فلا داعي للتّكرار. أمّا الوسائط فهي حجب الأرواح و ذلك و اللّه تعالى أعلم أنّها سائر العبادات و الأذكار المقرّبة فرؤيتها سمّ قاتل و من الوسائط أيضا رؤية الدليل و الوقوف معه عند الوصول و أقصد بالدّليل هو الشيخ المرشد الذي مهمّته تنتهي مع مريده عند وصوله فيُودّعه و يقول له :ها أنت وربك. و من الوسائط أيضا الملائكة النافثة في الروع و المثبّتة الروح ، و من الوسائط أيضا العلماء و المشايخ الأكابر من المقربين ، و من الوسائط أيضا الوقوف مع الروح في نورانيتها و اللّه تعالى أعلم. كما قال الشيخ سيدي أحمد الفاروقي رضي اللّه تعالى عنه :{ و طائفة من الصوفية لما وصلوا إلى التنزيه الروحي ووجدوها فوق العرش تخيلوه تنزيها إلهيا جلّ شأنه و ظنوا علوم ذلك المقام ومعارفه من غوامض العلوم و حلّوا أسرار الاستواء في هذا المقام و الحق أنّ ذلك النّور نور الروح}. أمّا الحجب فهي التي ذكرها الخليل سيدنا إبراهيم صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم كما قال تعالى حاكيًا عنه : {فلمّا جنّ عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربّي ، فلمّا أفل قال لا أحبّ الآفلين ، فلمّا رأى القمر بازغا قال هذا ربّي ، فلمّا أفل قال لئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من القوم الضالين ، فلمّا رأى الشمس بازغة قال هذا ربّي هذا أكبر ، فلمّا أفلت قال يا قومي إنّي بريء ممّا تشركون ،

إنّي وجّهت وجهي للذي فطر السموات و الأرض حنيفا و ما أنا من المشركين)
و لا تظنّنّ أنّ الكوكب الذي رآه سيدنا إبراهيم عليه السلام هو نجم السماء المشعّ نورا ليلا و لا القمر و الشمس المعروفين ، بل هي أنوار لا كيفية رآها عليه و على نبيّنا الصلاة و السلام ، لأنّ ذلك لا يظنّه و لا يقرّه كافر فكيف بالموحّد ، بل مُشركوا قريش و كُفارها كانوا يُقرون بوجود اللّه تعالى و أنّه خالق الأكوان قال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السّموات و الأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم) ، فكيف يظن أب الموحدين سيدنا إبراهيم صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أنّ النّجم و القمر و الشمس هي اللّه تعالى ، بل هي كما قلت أنوار لا كيفية يراها السالك لطريق التوحيد في سرّه ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ للّه سبعين حجابا من نور لو كشفها لأحرقتْ سُبُحاتُ وجهه كلَّ ما أدرك بصرَه) و هذا هو شرك الطريقة الذي ذكره سيدي عبد السلام بن مشيش رضي اللّه تعالى عنه و اللّه تعالى أعلى و أعلم . قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه :{ ما بان عنه أحد ، و لا اتّصل به أحد }، و قال شارحها الشيخ سيدي أحمد العلاوي رضي اللّه تعالى عنه :{ ما انفصل عنه شيء ولا اتّصل به شيء ، أو تقول : ما زاد عنه شيء و لا نقص منه شيء ، لعدم وجود الشيء في الحقيقة فمن أين يطرأ هذا الشيء و الحال لا شيء ، ثم اعلم أنّ الحضرة الأحدية تأبى كلاّ من الجهات و الزوائد و النقصان ، بل كلّ شيء له إثبات دون إثباتها لأنّها كنز غميض و بحر لا موج فيه ، و لا فسحة لديه ، لا يمين و لا شمال ولا كيف و لا مثال }، قال الشيخ سيدي محمد النّفري رضي اللّه تعالى عنه :{ وجه ما له سمت ، و عين ما لها طرف ، و

نطق ما له حرف، و علم ما له صحف، وقرب ما له أين، و بُعد ما له خلف}، و قال الشيخ العارف بالله سيدي عبد الكريم الجيلي رضي الله تعالى عنه:

عزّت مداركه °° غابت عوالمه °°° جلّت مهالكه °° أصمت صوارمه
لا العين تبصره °°° لا الحد يحصره °°° لا الوصف يحضره °°° من ذا يُنادمه
كلّت عبارته °° ضاعت إشارته °°° هدّت عمارته °°° قلبا يُصادمه
عال و لا فلك °° روح و لا مَلَك °°° مَلِك له مُلك °°° عزّت محارمه
عين و لا بصر °° علم و لا خبر °°° فعل و لا أثر °°° غابت معالمه
ذات مجرّدة °° نعت مُفردة °°° آيٌّ مُسردة °°° يقرأه راقمه

القواطع و السوالب

القواطع هي فِخاخ و مصائد الطريق، من وقع في إحداها انكسر قدم سيره، وهي مقصّ الرقابة الربانية لشريط السلوك لقصّ ما منه حرام و مكروه و السوالب هي تيّار القطيعة عن الحق تعالى من صعقه تشتّت همّه عزمه و سُلِب سرّه، قال سيدي أبو عثمان سعيد الحيري النيسابوري رضي الله تعالى عنه:{ الخوف من الله تعالى يوصلك إلى الله تعالى، و الكِبْر و العُجب في نفسك يقطعك عن الله تعالى، و احتقار النّاس في نفسك مرض عظيم لا يُداوى}، و لئن كان الكِبْر و العجب من القواطع و السوالب و كان للقواطع و السوالب علاج و هو التوبة و الاستغفار مع تعليق القلب بالشيخ بدوام الحزن على ما فات، فكيف باحتقار النّاس في السرّ؟ الذي شبّهه الشيخ بالمرض العظيم الذي لا يُداوى و لو بإعادة السلوك على ألف شيخ والقواطع هي كلّ ما نهت عن فعله و قوله

الشريعة من منكرات و آفات ، و هي قواطع و سوالب لمعاصي و ذنوب تخصّ القلب و اللّسان و الأذن و العين و اليد و الرجل و البطن و الفرج و آفات عامّة تخصّ الذات الآدمية و هي قواطع تقطع المريد عن سلوكه و العبد عن ربّه ، و هي لا تخصّ السالك فقط إنّما كل مسلم انغمس في حمأة إحداها ، قُطع به ، و قد سرت في ترتيبها أن جمعتها من بواطن الكتب مثل كتاب إحياء علوم الدين و كتاب الكبائر و كتاب الطريقة المحمدية و من منثور كلام رجال التحقيق ثمّ بحثت عن الآيات القرآنية و الأحاديث النبويّة الشريفة مستشهدا بهما ، و زيّنتها ببعض الحكم و الأشعار ليُفهم معناها بالإشارة إن غابت العبارة و صُعب فهمها ، و بالله التوفيق .

<u>قواطع و سوالب القلب :</u> فمن القواطع و السّوالب الّتي تقطع العبد عن ربّه معاصي و ذنوب قلبية مثل : الكفر بالله تعالى قولا أو فعلا و الشرك بالله تعالى ظاهرا و باطنا قال تعالى : (إنّ الله لا يغفر أن يُشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء) و قال أيضا : (إنّه من يُشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنّة و مأواه النّار) و اعتقاد البدعة و ضدّه اعتقاد أهل السّنة و الجماعة و هو اعتقاد أنّ العالم حادث و الصّانع تعالى قديم مُتّصف بصفات قديمة ليست عينه و لا غيره ، واحد لا شبيه له ، و لا ضدّ له ، و لا بداية له ، و لا نهاية له ، و لا صورة له ، و لا حدّ له ، و لا يَحلّ في شيء ، و لا يقوم به حادث ، و لا يصحّ عليه الحركة و الانتقال ، و لا الجهل و لا الكذب و النّقص ، و إنّه يُرى في الآخرة ، و ليس في مكان و لا جهة ، ما شاء الله كان ، و ما لم يشأ لم يكن ، لا يحتاج إلى شيء ، و لا يجب عليه شيء ، كلّ المخلوقات بقضائه و قدره و إرادته و مشيئته ، لكن القبايح منها ليست برضائه و أمره و محبّته ، و أنّ المعاد جسماني و سائر ما

ورد به السّمع من عذاب القبر و الحساب و الصراط و الميزان و غير ذلك حقّ، و أنّ الكفار مُخلّدون في النّار دون الفسّاق، و أنّ العفو و الشفاعة حقّ، و أنّ أشراط السّاعة من خروج الدجّال ويأجوج و مأجوج، و نزول عيسى عليه السلام و طلوع الشّمس من مغربها، و خروج دابة الأرض حقّ، و أوّل الأنبياء آدم عليه السلام و آخرهم سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم، و أوّل الخلفاء ساداتنا أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله تعالى عنهم، و الأفضلية بهذا الترتيب، فهذه عقائد أهل السّنة و الجماعة، وغير ذلك هو بدعة، و من القواطع أيضا الإصرار على المعاصي قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم: (لا تنظر إلى صغر الخطيئة، و لكن انظر إلى من عصيتَ) و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم أيضا: (ويلٌ لمن يُكثر ذكر الله تعالى في لسانه و يعصي الله تعالى في عمله) و من القواطع أيضا الريّاء و هو العبادة بنيّة إدراك الدنيا و العمل لأجل النّاس قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم: (استعيذوا بالله من جُبّ الحَزَن، قيل: و ماهو؟ فقال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم: واد في جهنّم أعدّ للقرّاء المُرائين) و قال صلى الله تعالى عليه و آله أيضا: (إنّ المُرائي يُنادىٰ يوم القيامة بأربعة أسماء: يا مُرائي، يا غاوي، يا فاجر، يا خاسر، اذهب فخُذ أجرك ممّن عمِلت له، فلا أجر لك عندنا) و قال سيدنا قتادة رضي الله تعالى عنه: إذا راءى العبد يقول الله تعالى: (انظروا كيف يستهزئ بي) و من القواطع أيضا الكِبر و هو رؤية النّفس فوق الآخرين قال تعالى: (كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبّار) و قال تعالى أيضا: (فبئس مثوى المتكبّرين) و قال تعالى أيضا في الحديث القدسي: (العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني فيهما

قصمته) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم : (لا يدخل الجنّة من كان في قلبه مثقال حبّة من خردل من كِبْر) و إن كان المراد بها جنّة الحور و القصور ، فكيف بجنّة القرب و رفع السّتور ، و جنّة المعارف و الأسرار و الأنوار ؟ و قال تعالى في الحديث القدسي : (إنّما أتقبّل الصلاة ممّن تواضع بها لعظمتي و لم يستطل على خلقي و لم يبت مُصرّا على معصيتي و قطع نهاره في ذكري و رحم المسكين و ابن السّبيل و الأرملة و رحم المُصاب ، ذلك نوره كنور الشّمس أكلؤه بعزّتي و أستحفظه بملائكتي ، أجعل له في الظلمة نورا و في الجهالة حِلما و مثله في خلقي كمثل الفردوس في الجنّة) و من القواطع أيضا و العُجب و هو استعظام العمل الصالح و ذكره لحصول شرفه من الخلق دون الحقّ تعالى ، و قد يُطلق على مُطلق استعظام النّعمة و الرّكون إليها مع نسيان إضافتها إلى المُنعم تعالى ، قال اللّه تعالى يذمّ أصحاب العُجب: (و هم يحسبون أنّهم يُحسنون صُنعا) و قال تعالى أيضا : (و لا تُزكّوا أنفسكم هو أعلم بمن اتّقى) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (ثلاث مُهلكات : شحّ مُطاع ، وهوى مُتّبع ، و إعجاب المرء بنفسه) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ العُجْبَ ليُحبط عمل سبعين سنةً) و قال سيدنا ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه : {الهلاك في إثنين : القنوط و العُجب} ، و إنّما جمع بينهما لأنّ القانط لا يطلب السّعادة لقنوطه ، و المُعجب لا يطلبها لظنّه أنّه قد ظفر بها ، و قيل للسيّدة عائشة رضي اللّه تعالى عنها متى يكون الرجل مسيئا ؟ فقالت:{إذا ظنّ أنّه مُحسن} . و نظر رجل إلى سيدي بشر بن منصور رضي اللّه تعالى عنه و هو يُطيل الصلاة و يُحسن العبادة فلمّا فرغ قال :{ لا يغرّنك ما رأيتَ منّي ، فإنّ إبليس عَبَدَ اللّهَ تعالى و صلّى آلاف السّنين ، ثمّ صار

إلى ما صار إليه} . و من القواطع أيضا الحسد و هو إرادة زوال نعمة الله تعالى عن أحد ممّا فيه صلاح ديني أو دنيوي ، أمرنا تعالى أن نتعوّذ به من شر الحاسد فقال تعالى : (و من شر حاسد إذا حسد) ، و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب) و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ثلاث لا ينجو منهنّ أحد : الظنّ ، و الطيرة، و الحسد ، و سأحدّثكم بالمخرج من ذلك ، إذا ظننت فلا تُحقّق ، و إذا تطيّرت فامْض ، و إذا حسدت فلا تبغ) و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (دبّ إليكم داء الأمم قبلكم ، الحسد و البغضاء) ، و من القواطع أيضا الغش و الغلّ و هما عدم تمحيض النّصح قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (من غشّنا فليس منّا) و من القواطع أيضا الحقد و هو أن يُلزم نفسه استثقال أحد و النّفار عنه و البغض له بدون ذنب أو ظلم صدر من هذا المحقود عليه ، و من القواطع أيضا الشماتة و هي الفرح و السّرور ببليّة العدوّ و هي مذمومة جدّا ، خصوصا إذا دعا عليه و حمله ذلك انتصارا لنفسه وصونا لكرامته ، بل عليه أن يخاف أن يكون ذلك مكرا له حيث أجاب الله تعالى دعاءه انتصارا لنفسه ، كبعض الفقراء إذا كابره أخوه الفقير و غلط في حقّه ، قد يدعو عليه ثمّ يتحسّس عن أحواله إن أصابه مكروه ليظهر الشماتة به ، أو لا يقبل نُصحه فيتحيّن سقوطه ليُشمت به و يقول لو سمعت كلامي لكان خيرا لك ، و يكون آثما في كلّ ذلك ، لأنّ النّصح يكون لله تعالى لا حبّا في الشهرة أو لبيان علو مقامٍ ، و من القواطع أيضا البغيّ و هو الظلم و شرّه وبيل و هو من الأمور التي يغضب لأجلها الجبار المنتقم جلّ سلطانه و نصرة الله تعالى للمظلوم محقّقة و لو كان المظلوم كافرا ، قال تعالى : (إنّما السّبيل على الذين

يظلمون النّاس و يبغون في الأرض بغير الحقّ أولئك لهم عذاب أليم) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم: (إنّ اللّه تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتّى لا يبغي أحد على أحد و لا يفخر أحد على أحد) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (سيُصيبُ أمّتي داءُ الأمم : الأشر و البطر و التّكاثر و التّشاحن في الدّنيا و التّباغض و التّحاسد حتّى يكون البَغْيُ) و جاء في الأثر : (لو بغى جبل على جبل لجعل اللّه الباغي منهما دكّا) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم: (ما من ذنب أجدر أن يُعجّل اللّه لصاحبه العقوبة في الدّنيا مع ما يدّخره له في الآخرة، من البغي و قطيعة الرّحم) و قد خسف اللّه تعالى بقارون الأرض حين بغى على قومه قال تعالى : (إنّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم) و كان جزاؤه (فخسفنا به و بداره الأرض) و من القواطع أيضا المكر و الغدر قال تعالى : (ولا يحيق المكر السيئ إلاّ بأهله) و قال تعالى أيضا : (وما يمكرون إلاّ بأنفسهم وما يشعرون) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا: (المكر و الخديعة و الخيانة في النّار) أي تجر صاحبها فتدفعه في النّار و من القواطع أيضا الخديعة وهي الحيلة يتوصّل بها لجلب المنافع و هي مُحرّمة قطعا ومن القواطع أيضا الخبث و هو فساد القلب بحبّ المكر و الخديعة مع إظهار الصّلاح كالنّفاق و عادة ما يُضرب المثال به فيقولون خبث و مكر كخُبث الثّعلب و مكره كما قيل :

يُعطيك من طرف اللّسان حلاوة °°°°° و يروغ منك كما يروغ الثّعلب

و من القواطع أيضا التّخبيب و هو إفساد قلوب الأحباب لقوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (ملعون من خبّب امرأة على زوجها) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من خَبَّبَ امرَأَةً ومَمْلوكاً على مُسْلِمٍ فلَيس منّا)

أَي خدَعَه و أَفسده؛ ورجل خَبٌّ ضَبٌّ، و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (المؤْمِنُ غِرٌّ كَرِيمٌ، و الكافِرُ خَبٌّ لَئيمٌ) فالغِرُّ الذي لا يَفْطُن للشَّرِّ، و الخِبُّ: ضِدُّ الغِرِّ، وهو الخَدَّاعُ المُفْسِدُ. وقال سيدي ابنُ سيرين رضي اللّه تعالى عنه : إنِي لَسْتُ بِخِبٍّ، ولكِنّ الخِبَّ لا يَخْدَعُني. و من القواطع أيضا المنّ قال تعالى : (يا أيّها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ و الأذى كالذي يُنفق ماله رئاء الناس) لأنّ المنّ يجر إلى النّفاق بصريح الآية . و من القواطع أيضا الهجر و العداوة و الخصومة قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ اللّه يُبغض المُعبِّس في وجوه إخوانه) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ أبغض الرجال إلى اللّه الألدّ الخَصِم) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من جادل في خصومة بغير علمٍ لم يزلْ في سخط اللّه حتّى يَنْزِعَ) و قيل : إيّاك و الخصومة فإنّها تمحق الدّين . ومن القواطع أيضا الخيانة قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لا إيمان لمن لا أمانة له ، و لا دين لمن لا عهد له) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (أدّ الأمانة إلى من ائتمنك و لا تخن من خانك) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (صنفان من أمّتي لن تنالهم شفاعتي : إمام ظلوم غشومٌ و كلّ غالّ سارق) لأنّ الحاكم مؤتمن على رعيته فإن غشّهم دخل في الصنفين ، و الغالّ السارق لقوله تعالى : (و من يغلل يأت بما غلّ يوم القيامة) و معنى الغلول السرقة من المال العام و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول اللّه أغثني ، فأقول : لا أملك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحَمَة فيقول : يا رسول اللّه أغثني فأقول :

لا أملك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول : يا رسول اللّه أغثني ، فأقول : لا أملك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح فيقول : يا رسول اللّه أغثني فأقول : لا أملك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رُقاع يخفق فيقول : يا رسول اللّه أغثني ، فأقول : لا أملك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت فيقول : يا رسول اللّه أغثني ، فأقول : لا أملك لك من اللّه شيئا قد أبلغتك) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (لا يزني الزاني حين يزني و هو مؤمن ، و لا يسرق السارق حين يسرق و هو مؤمن ، و لكن التّوبة معروضة) فقد نفى صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم الإيمان عن الزاني و السّارق لحظة تلبّسهما بالإثم ، قال تعالى : (و السّارق و السّارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالا من اللّه و اللّه عزيز حكيم) و إن كان القطع في الظاهر واجبا فهو بالباطن عن القلب أوجب و شرّ الخيانة و السّرقات من يخون في دينه و يسرق في عبادته و صلاته قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (أسوأ النّاس سرقة من يسرق من صلاته) ، و من القواطع أيضا تتبع عورات النّاس قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من تتبّع عورة أخيه المسلم تتبّع اللّه عورته ، و من تتبّع اللّه عورته يفضحه و لو في جوف رحله) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّك إن اتّبعت عورات النّاس أفسدتهم أو كدت أن تُفسدهم) و من القواطع أيضا حبّ الفسقة و الكفار و التّشبّه بهم في هيئتهم و زيّهم و كلامهم قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من تشبّه بقوم فهو منهم) لأنّ التّشبّه بقوم يجرّ حتما إلى التخلّق

بأخلاقهم ، و لذلك كان الصّحابة و من تبعهم و الأولياء و الصالحين يحرصون على التّشبّه بالنبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في ظاهره لتسري من باطنه إليهم أحواله و أنواره و أسراره ، حتّى أنّه يُروى عن الإمام سيدنا أحمد بن حنبل رضي اللّه تعالى عنه أنّه لم يأكل في حياته بطيخا لأنّه لم يروى له حديث عن أكله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم للبطيخ ، و الآن مع شرّ العولمة ترى الشاب المسلم يَحلق ذقنه و يترك شعرات كأنّها لحية عنزة أو يُحلّق رأسه و يترك فيه قزعا كأنه خريطة جزيرة ، ثم هو يمشي في النّاس مزهوًّا بحاله ، و كلّه فخرا فلا فاء ، لأنّه تشبّه بالممثل الأمريكي فلان أو لاعب الكرة علاّن ، و منهم من حلّق ذقنه على شكل صليب ثم يتختّم بسلسلة و خاتم من ذهب ، و كل ذلك نهى عنه النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم فقد نهى عن القزع و هو حلق بعض الشعر و ترك باقيه وكانت تُسمى قديما القُطّاية و يُسميها غلمان اليوم بالقبّاعة و نهى صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا عن التختّم بالذهب ، و من القواطع أيضا تشبّه النّساء بالرجال و الرجال بالنّساء قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لعن اللّه المُتشبّهات من النّساء بالرّجال ، و المُتشبّهين من الرّجال بالنّساء) و من القواطع أيضا البخل و الشحّ قال تعالى : (و من يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون) و قال تعالى أيضا : (و الذين يكنزون الذهب و الفضّة و لا يُنفقونها في سبيل اللّه فبشّرهم بعذاب أليم يوم يُحمى عليها في نار جهنّم فتُكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (السّخاء شجرة تنبت في الجنّة فلا يلج الجنّة إلاّ سخيّ ، و البخل شجرة تنبت في النّار فلا يلج النّار إلاّ

بخيل) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ اللّه يمقت البخيل في حياته ، و يحبّ السخيّ عند موته) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (يأتي على النّاس زمان همّتهم بطونهم و شرفهم متاعهم ، و قبلتهم نساؤهم ، و دينهم دراهمهم و دنانيرهم ، أولئك شرّ الخلق ، لا خلاق لهم عند اللّه) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله أيضا : (السخيّ الفاجر أحبّ إلى اللّه من العابد البخيل) و قيل : أقبح من كلّ قبيح صوفي شحيح ، و من القواطع أيضا الجرأة على اللّه تعالى و الأمن من عذابه و سخطه قال تعالى : (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ) ومكر اللّه: استعارة لأخذه العبد من حيث لا يشعر، ولاستدراجه. فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر اللّه، كالمحارب الذي يخاف من عدوّه الكمين و البيات و الغيلة. وسيدي عن الربيع بن خثيم رضي اللّه تعالى عنه :{ أن ابنته قالت له: ما لي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام، فقال: يا بنتاه، إنّ أباك يخاف البيات}، أراد قوله: (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون) و من القواطع أيضا اليأس من رحمته تعالى و سوء الظنّ باللّه تعالى ، و اليأس من رحمة اللّه تعالى هو تذكر فوات رحمته و فضله تعالى و قطع القلب عن ذلك و هو كفر بدليل قوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ) و من القواطع أيضا الرّكون إلى الظلمة لقوله تعالى : (و لا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسّكم النّار) و من القواطع أيضا الركون إلى أبناء الدنيا لأنّ ذلك يجر المريد إلى التّشبّه بهم و منافستهم على طلب الدنيا فيعود أدراج السلوك ، قال سيدي أحمد الرفاعي رضي اللّه تعالى عنه : {مُلتفت لا يصل و مُتسلّل لا يُفلح} ، و من القواطع أيضا الدخول في سلك السيّاسة و الاهتمام بشؤونها ، لأنّ السيّاسة نوع من النّفاق

في هذه الأيّام قال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم : (الزعيم غارم) و قال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (الإمرة أمانة و هي يوم القيامة خزي وندامة إلاّ من أخذها من حقّها و أدّى الذي عليه فيها) و من القواطع أيضا العمل في البنوك الرّبويّة قال الإمام سيدنا أحمد بن حنبل رضي اللّٰه تعالى عنه :{ لعن رسول اللّٰه صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم آكل الربا و موكّله و شاهديْه} ، و قال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم : (هم سواءٌ) و لا ريب أنّ العامل في البنك الرّبوي يكون حتما شاهدا لملأه الوثائق الإدارية و إمضاءه و شهوده لها ، و من القواطع أيضا صاحب المُكس و هو العامل في جمع الضرائب ، فيجول في الأسواق ليأخذ على التجّار الضريبة المباشرة ، قال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله وسلّم : (المكّاس لا يدخل الجنّة) و قال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله وسلّم أيضا : (لا يدخل الجنّة صاحب مُكْسٍ) و المكّاس داخل في قوله تعالى : {إنّما السّبيل على الذين يظلمون النّاس و يبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم } لأنّ المكّاس مثل قاطع الطريق و هو من اللصوص ، و من القواطع أيضا الرشوة قال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم : (لعن اللّٰه الرّاشي و المُرتشي و الرّائش الذي يمشي بينهما) و من القواطع أيضا حبّ الجاه قال تعالى : { تلك الدّار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون عُلوّا في الأرض و لا فسادا } ، قال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله وسلّم : (حبّ الجاه و المال يُنبتان النّفاق في القلب كما يُنبت الماء البقل) و قال صلى اللّٰه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة غنم بأكثر فسادا من حبّ الجاه و المال) و قال صلى اللّٰه تعالى عليه وآله و سلّم أيضا : (حسب إمرءٍ من الشرّ إلاّ من عصمه اللّٰه تعالى أن يشير النّاس إليه

بالأصابع في دينه و دنياه) ، و قال صلى اللَّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ اللَّه تعالى ليَنظر إلى الكافر ، و لا ينظر إلى المزهي ، و لقد حملت سليمانَ بن داود الريحُ و هو متكئ ، فأُعجب و اختال في نفسه فطُرح على الأرض) و قال سيدنا علي كرّم اللَّه تعالى وجهه :{ تبَذّل و لا تُشهَر و لا ترفع شخصك لتُذكر بعلم و أكتُم و أصمت تسلم ، تسرّ الأبرار و تغيظ الفجّار} ، و من القواطع أيضا إتّباع الهوى قال اللَّه تعالى : (أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه و أضلّه اللَّه على علم و ختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد اللَّه) و من القواطع أيضا طول الأمل قال صلى اللَّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من أُشرِبَ حبّ الدنيّا إلتاط منها بثلاث : شقاءٍ لا ينفد عناه، وحرصٍ لا يبلغ غِناه ، و أملٍ لا يبلغ منتهاه) ، و من القواطع أيضا الطمع لما رواه سيدنا أبو أيوب الأنصاري رضي اللَّه تعالى عنه أنّ أعرابيا أتى النبي صلى اللَّه تعالى عليه و آله و سلّم فقال : يا رسول اللَّه عظني و أوجز ، فقال صلى اللَّه تعالى عليه وآله و سلّم : (إذا صلّيتَ فصلّ صلاة مُودّع ولا تُحدِّثنّ بحديث تعتذر منه غدا ، و أَجْمِعِ اليأس ممّا في أيدي النّاس) و قال سيدنا عمر رضي اللَّه تعالى عنه :{ إنّ الطمع فقر و إنّ اليأس غِنى ، و إنّه من ييأس عمّا في أيدي النّاس استغنى عنهم}، و قيل :{إنّ الحرّ عبدٌ إنْ طمع ، و العبدُ حرٌ إنْ قنع}،ومن القواطع أيضا العجلة والسّفه و هو ضعف العقل و خفّته و سخافته وركاكته و هو نوع من الحمق كما قيل :

لكلّ داءٍ دواءٌ يُستطبّ به °°°°° إلاّ الحماقة أعيتْ من يُداويها

لأنّ طريق السلوك مبنية على صحّة العقل الذي هو أشرف و أكرم ما خلق اللَّه تعالى لقوله صلى اللَّه تعالى عليه و آله و سلّم : (أول ما خلق اللَّه تعالى

العقلَ فقال له : أقبلْ ، فأقبلَ ، ثمّ قال له : أدبرْ ، فأدبرَ ، ثمّ قال اللّه تعالى : و عزّتي و جلالي ما خلقتُ خلقاً أكرم عليّ منك ، بك آخذ و بك أعطي و بك أثيب و بك أعاقب) و سيدنا أنس رضي اللّه تعالى عنه قال : (أثنى قوم على رجل عند النبي صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم حتّى بالغوا ، فقال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (كيف عقل الرجل ؟) فقالوا : نُخبرك عن اجتهاده في العبادة و أصناف الخير و تسألنا عن عقله ؟ فقال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ الأحمق يُصيب بجهله أكثر من فجور الفاجر ، و إنّما يرتفع العباد غداً في الدّرجات الزّلفى من ربّهم على قدر عقولهم) ومن القواطع أيضا التطيّر و الطّيرة و هو التّشاؤم و هو حرام و شرك لقوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من ردّته الطّيرة من حاجة فقد أشرك، قالوا : يا رسول اللّه ما كفّارة ذلك ؟ قال : أن يقول أحدهم : اللهمّ لا خير إلاّ خيرك و لا طير إلاّ طيرك و لا إله غيرك) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم أيضا: (الطيرة شركٌ (قالها ثلاثا) ، و ما منّا إلاّ ، و لكنّ اللّهَ يُذهبُه بالتّوكّل) ومعنى قوله صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم (و ما منّا إلاّ) أي إلاّ و يخطر ببالنا شيءٌ منها ، و من القواطع أيضا حبّ المال قال اللّه تعالى : (يا أيّها الذين آمنوا لا تُلهكم أموالكم و لا أولادكم عن ذكر اللّه و من يفعلْ ذلك فأولئك هم الخاسرون) وقال تعالى أيضا : (إنمّا أموالكم و أولادكم فتنة و اللّه عنده أجر عظيم) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (حبّ المال و الشّرف يُنبتان النّفاق في القلب كما يُنبت الماءُ البقلَ) ، و قيل : يا رسول اللّه أي أمّتك شرّ ؟ فقال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (الأغنياء) و قال الحواريون لسيدنا عيسى عليه السلام : { مالك تمشي على الماء و لا نقدر على ذلك؟ فقال لهم : ما

منزلة الدينار و الدرهم عندكم ؟ قالوا : حسنة ، قال : لكنّهما و المدر عندي سواء }، و قصدي بحبّ المال حبّ ادّخاره و كنزه و عدم إنفاقه لقوله تعالى : (بل لا تُكرمون اليتيم و لا تحضون على طعام المسكين و تأكلون التّراث أكلا لمّا و تُحبّون المال حبّا جمّا) و حبّ المال يُنافي الزهد لأنّ الزهد ليس أن لا تملك شيئا ، بل الزهد أن لا يملكك شيء و متى أحببت المال فقد ملكك هذا الحبّ و استولى على عرش قلبك ، و من القواطع أيضا حبّ الدنيا و هي أكثر القواطع عن الطريق ، فلا يستوي الفقر للّه تعالى مع حبّ رأس الخطايا ، قال اللّه تعالى : (إنّما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلنه من السماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل الناس و الأنعام حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها و ازّيّنتْ و ظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتيها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكّرون) و قال تعالى أيضا : (و ما الحيوة الدنيا إلاّ متاع الغرور) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (حبّ الدّنيا رأس كلّ خطيئة) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته و من أحبّ آخرته أضرّ بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى) وقال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (يا عجبا كلّ العجب للمصدّق بدار الخلود و هو يسعى لدار الغرور) و قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ اللّه تعالى لم يخلقْ خلقا أبغض إليه من الدّنيا و أنّه منذ خلقها لم ينظرْ إليها) و من القواطع أيضا الكسل و البطالة و التّسويف لأنّ طريق السلوك مبنيّة على الجدّ و الاجتهاد و الكدّ و المكابدة و المبادرة و المجاهدة و المسارعة و المسابقة قال تعالى : (سابقوا إلى مغفرة من ربّكم و جنّة عرضها كعرض السّماء و الأرض) و المنافسة قال تعالى : (و في ذلك فليتنافس

المتنافسون) و من القواطع أيضا الفظاظة و غلظ القلب قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ اللّه يُبغض كلّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ صخّاب في الأسواق ، جيفة بالليل حمار بالنّهار ، عالم بأمر الدّنيا جاهل بأمر الآخرة) و معنى الجعظري الفظّ الغليظ القلب ، و الجواظ المتكبّر ، ومن القواطع أيضا الوقاحة قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ اللّه يُبغض الفاحش البذيء و السّائل المُلحف) و من القواطع أيضا الحزن في أمر الدنيا و الخوف في أمر الدنيا قال تعالى : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم و اللّه لا يحبّ كلّ مُختال فخور) لأنّ سمّ القلب في الأسى و الفرح فكلاهما مُفسدان للباطن و الظاهر ، فأمّا الباطن فيُشتّتان قلب السالك و يُخذّلانه بجُند الشياطين من الإنس و الجنّ ، فشياطين الإنس يُفسدون قلبه عند الفرح و شياطين الجنّ يُفسدونه عند الأسى و الترح و أمّا في الظاهر كما هو مشاهد بالتّجربة فإنّ الفرح و الأسى يجرّان إلى ذات الإنسان من الأمراض الوبيلة و المستعصية العلاج كالسّكري و الضغط الدموي و أمراض القلب و غيرها من الأمراض و لست أقصد في هذا الموطن بالفرح و الأسى القلبي الروحي لأنّ السالك هو متقلّب في كلّ لحظة بين قبض و بسط ، و هما حالان معروفان يعتريان المريد قال الشيخ العارف سيدي عبد الكريم القشيري رضي اللّه تعالى عنه : {القبض و البسط حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف و الرجاء }، و قال سيدي الجنيد رضي اللّه تعالى عنه : { الخوف من اللّه تعالى يقبضني ، و الرجاء منه يبسطني ، و الحقيقة تجمعني ، و الحقّ يُفرّقني ، إذا قبضني بالخوف أفناني عنّي ، و إذا بسطني بالرجاء ردّني عليّ و إذا جمعني بالحقيقة أحضرني و إذا فرّقني بالحقّ أشهدني غيري فغطّاني ، فهو تعالى في ذلك كلّه مُحرّكي غير مُمسكي ، و

موحشي غير مؤنسي ، فأنا بحضوري أذوق طعمه وجودي ، فليته أفناني عنّي فمتّعني ، أو غيّبني فروّحني }، و إنّما الفرح و الحزن المذمومان هما الفرح النّفسي بإقبال الدنيا و الجاه و كلّ ما سوى الحقّ تعالى و الحزن على فقد ذلك ، و قوله تعالى (لكيلا تأسوا على ما فاتكم و لا تفرحوا بما آتاكم و اللّه لا يحبّ كلّ مُختال فخور) فهذه الآية وردت وحيدة في جميع آي القرآن في سورة الحديد ليُشعرنا تعالى أن تكون قلوبنا كالحديد عند الأسى و الفرح ، فلا تهزّها عواصف الأسى و لا تُطمرها زلازله ، كما لا تُحرقها أو تُذيبها شموس الفرح ، لأنّ الفرح يجرّ إلى البطر و التّكبّر ، و الأسى يدعو إلى القنوط من رحمة اللّه تعالى و قد أكّد الأطباء خطر الفرح و الحزن على صحّة المرء ، فهما يُصيبانه بشتى الأمراض من ضغط و سكري و أمراضا أخرى لا يرجى برؤها ، و من القواطع أيضا الفتنة ، و الفتنة شأن المنافقين قال تعالى : (لقد ابتغوا الفتنة من قبلُ و قلّبوا لك الأمور حتّى جاء الحقّ و ظهر أمر اللّه و هم كارهون) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (الفتنة نائمة لعن اللّه من أيقظها) و من القواطع أيضا المداهنة و هي الفتور و الضعف في أمر الدّين كالسّكوت عند مشاهدة المعاصي و المناهي مع القدرة على التّغيّير بلا ضرر ،قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (بئس القوم قومٌ يمشي المؤمن فيهم بالتّقيّة و الكِتمان) و من القواطع أيضا الأنس بالناس و الوحشة لفراقهم و هو مناقض تماما لسرّ السّلوك لأنّ الطريق مبنيّة على طلب الوحدة للوصول إلى الوَحدة ، لأنّ الأنس بالخلق يمنع الأنس بالحقّ تعالى و الأنس بذكره تعالى و طاعته ، يُروى أنّ سيدي مطرف بن الشخير رضي اللّه تعالى عنه كتب إلى سيدي عمر بن عبد العزيز رضي اللّه تعالى عنه :{ ليكن أنسك باللّه و انقطاعك إليه ، فإنّ للّه تعالى

عبادا استأنسوا بالله فكانوا في وَحدتهم أشدّ استئناسا من النّاس في كثرتهم ، و أوحش ما يكون النّاس آنس ما يكونون ، و آنس ما يكون النّاس أوحش ما يكونون }، و من القواطع أيضا و العناد و مُكابرة الحق و التّمرّد و الإباء و الصّلف و هو الدّعوى الكاذبة و تزكية النفس و الإخبار عن الأمور الغريبة مع عدم المبالاة عن الكذب وعدم التّصديق و الكلام بالدّعوى الطويلة العريضة عن نفسه و أنّ له كذا و كذا و له السّيف القاطع و النور السّاطع ، قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (بئس العبدُ عبدٌ تخيّل و اختال ، و نسي الكبير المُتعال ، بئس العبدُ عبدٌ تجبّر و اعتدى ، و نسي الجبّار الأعلى ، بئس العبدُ عبدٌ سها و لها و نسي المقابر و البِلى ، بئس العبدُ عبدٌ عتا و طغى ، و نسي المُبتدأ و المُنتهى ، بئس العبدُ عبدٌ يَختل الدّنيا بالدّين ، بئس العبدُ عبدٌ طَمَعٌ يقوده ، بئس العبدُ عبدٌ هَوًى يُضلّه ، بئس العبدُ عبدٌ رَغَبٌ يُزِلّهُ) ومن القواطع أيضا النفاق و الرّياء بل هما من السّوالب و العياذ بالله تعالى قال صلى الله تعالى عليه و آله وسلّم: (الرّياء يُحبِط العملَ كما يُحبطه الشّركُ) و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم أيضا: (للمُرائي ثلاثُ علامات : ينشط إذا كان مع النّاس ، و يكسل إذا كان وحده ، و يُحبُّ أن يُحمدَ في جميع أموره ، و للمنافق ثلاث علامات : إذا حدّث كذب ، و إذا وعد أخلف ، و إذا ائتُمن خان) ، و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (أكثرُ مُنافقي أمّتي قرّاؤها) و من القواطع أيضا الشرّة و هي ملكة بها يتناول جميع المُشتهيات قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (المؤمن يأكل في معيّ واحد و المنافق يأكل في سبعة أمعاء) أي تكون شهوته سبعة أضعاف شهوة المؤمن و ذكر المعي كناية عن شهوة الطّعام ، و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (الفكر نصف العبادة و قلّة الطعام هي العبادة

) و من القواطع أيضا الفجور قال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (كلّ أمّتي مُعافى إلاّ المجاهرين ، الذي يعمل العمل بالليل فيستُرُه ربُّه ثمّ يُصبح فيقول يا فلان إنّي عملتُ البارحة كذا و كذا ، فيكشفُ ستر اللّه تعالى)

<u>قواطع و سّوالبِ اللسان</u> :يقول اللّه تعالى : (ما يلفظ من قول إلاّ لديه رقيب عتيد) ، و قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من يتكفّلُ لي بما بين لِحْيَيْه و رجليه أتكفّلُ له بالجنّة) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (مَن وُقي شرَّ قَبْقَبِه و ذَبْذَبِه و لَقْلَقِه فقد وَقِيَ الشّرَّ كُلَّه) و القبقب هو البطن و الذبذب الفرج و اللّقلق اللّسان ، و قال سيدنا عقبة بن عامر رضي اللّه تعالى عنه قلت :{ يا رسول اللّه ما النجاة ؟ فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (أمْسِكْ عليك لسانك و لْيَسَعْكَ بَيْتُك و ابْكِ على خطيئتك) }، و قال سيدنا معاذ بن جبل رضي اللّه تعالى عنه قلت :{ يا رسول اللّه ، أنُؤاخَذُ بما نقول ؟ فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله وسلّم : (ثَكلتْك أمُّك يا بن جبل ، و هل يَكُبُّ النّاسَ في النّار على مناخرهم إلاّ حصائدُ ألسنتهم)} و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من صمتَ نجا) و الأحاديث في فضل الصّمت كثيرة من أن تُحصى ، و يكفي اللّبيب ما سبق ، ولسرّ الصّمتِ أخذ به السّلف الصالح فكانوا يَعُدّون كلامهم كما نَعُدُّ نحن المحرومون دراهمنا و دنانيرنا ، فقد كان سيدنا أبو بكر رضي اللّه تعالى عنه على تقواه و إيمانه و تبشير النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم إيّاه بالجنّة ، يضع حصاةً في فيه يمنعُ بها لسانه من الكلام ثمّ يُشيرُ إليه و يقول :{هذا الذي أوردني الموارِدَ }، فما بالنا و نحن المحرومون ؟ و قد أطلقنا العنان للّسان ، ثمّ ندّعي الصّلاح و التّقوى ، ونتطاول بالخصوصية و الدّعوى ، و لمْ نشمْ رائحتها ، و قد أكّد مشايخ

الطّرق على أنّ سرّ السّلوك في الصّمت ، لذلك من المحال على من جعل حصانُ لسانه أن يجدَ صفاءَ قلبه ، و قد قيل أنّ سيدي المنصور بن المُعتز رضي الله تعالى عنه لم يتكلّم بكلمةٍ بعد العشاء الآخرة أربعين سنةً ، و قيل ما تكلّم سيدي الربيع بن خيثم رضي اللّه تعالى عنه بكلام الدّنيا عشرين سنة ، و كان إذا أصبح وضع دواة و قرطاسا وقلما ، و كلّ ما تكلّم به كتبه ، ثمّ يُحاسبُ نفسه به عند المساء ، قال الإمام سيدي محمّد الشافعي رضي اللّه تعالى عنه :

وجدتُ سكوتي مَتجرا فلزِمتُه °°°°° إذا لم أجدْ ربحا فلستُ بخاسرِ

و ما الصّمتُ إلاّ في الرّجال مُتاجرٌ °°°°° و تاجرُهُ يعلو على كلّ تاجر

و من القواطع و السّوالب التي تأتي من معاصي و ذنوب الإنسان على اللّسان كلمة الكفر و ما فيه خوف الكفر و قد ألّف الشيخ الإمام سيدي أحمد بن حجر المكّي الهيثمي رضي اللّه تعالى عنه رسالة سمّاها الإعلام بقواطع الإسلام و لو تأمّلها اللّبيب لوجد فيها كلاما ككلامنا في الأسواق و المجالس أعدّه المصنّف كُفرا مُخرجا من الملّة في بعض أحواله ، كمن يمرّ مثلا على تاجر و يقول له : أعطيني شيئا في سبيل اللّه ، فيردّ عليه : في سبيل اللّه لا تُعمّرُ الجيب ، أخرج الدراهم أعطيك ، و أيضا لو تنازع اثنان فقال أحدهما : لا حول و لا قوّة إلاّ باللّه ، فردّ الآخر : لا حول لا يُغني من جوع كَفَر ، و كذلك لو سمع آذان المؤمن فقال : إنّه يكذب كَفَر ، و كقول بعضهم في عدوّه : لو دخل الجنّة فلن أدخلها كَفَر ، أو ضرب ولده ضربا شديدا فقال له رجل : لست بمسلم ؟ فقال : لا ، مُتعمّدا كَفَر . و عقيدة الصّوفية أنّهم لا يُكفّرون أحدا من أهل القبلة لكنّ الحذر أولَى من زلاّت اللسان و زلقات الجنان ، و من القواطع المُهلكات و السّوالب الحالقات بغض أحد الصحابة و سبّه قال النّبي

صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (اللّهَ اللّهَ في أصحابي لا تتّخذوهم غرضا بعدي ، فمن أحبّهم فبحُبّي أحبّهم ، و من أبغضهم فبِبُغضي أبغضهم ، و من آذاهم فقد آذاني ، و من آذاني فقد آذى اللّه تعالى ، و من آذى اللّه تعالى يوشك أن يأخذه) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من سبَّ أصحابي فعليه لعنة اللّه و الملائكة و النّاس أجمعين ، لا يقبل اللّه منه صرفا و لا عدلا) أي لا نفلا و لا فرضا ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ اللّه تعالى اختار أصحابي على جميع النّبيين و المرسلين و اختار لي منهم أربعة : أبا بكر و عمر و عثمان و علي ، فجعلهم خير أصحابي ، و في أصحابي كلّهم خير) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (احفظوني في أصحابي و أصهاري ، فإنّه من حفظني فيهم حفظه اللّه في الدّنيا و الآخرة ، و من لم يحفظني فيهم تخلى اللّه عنه ، و من تخلى اللّه عنه يوشك أن يأخذه) و من القواطع أيضا الكذب و البهتان قال النّبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم: (إيّاكم و الكذبَ ، فإنّ الكذب يهدي إلى الفجور ، و إنّ الفجور يهدي إلى النّار ، و ما يزالُ الرجل يكذبُ و يتحرّى الكذبَ حتّى يُكتبَ عند اللّه كذّابًا) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ويلٌ للّذي يُحدّثُ القومَ ثمّ يَكذِبُ ليُضحكَهم ، ويلٌ له ، ويلٌ له) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، و إذا وعد أخلف ، و إذا اتُمن خان) ، أمّا التعريض و هو إرادة غير الظاهر المتّبادر من الكلام و هو المسمى في لغة العوام الكلام بالمعاني و إن كان مُرخّصا فيه إلاّ أنّ اجتنابه أولى قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ في المعارض لمندوحة عن الكذب) ، و هو جائز في بعض الأحوال كذلك الشيخ الذي كان يكره الثقلاء من

جلسائه ، فكانوا يُشغلونه عن طاعة اللّه تعالى ، فكان إذا سأل عنه أحد منهم يخطُّ دائرةً و يأمر ابنته أن تضع يدها فيها و تقول : إنّه ليس ههنا . فهي تقصد في الدائرة ، و السائل يظنّ في الدار ، قال سيدنا عمر رضي اللّه تعالى عنه : { أمَا في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب !} و من القواطع أيضا السخرية و الهمز و اللمز و الغمز و التنابز بالألقاب و سوء الظنّ بالمسلمين و التّجسّس و التحسّس و الغيبة قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قومٍ عسى أن يكونوا خيرا منهم و لا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيرا منهنّ ، و لا تلمزوا أنفسكم و لا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان و من لم يتب فأولئك هم الظالمون ، يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظنّ إنّ بعض الظنّ إثم و لا تجسسوا و لا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميّتا فكرهتموه و اتّقوا اللّه إنّ اللّه تواب رحيم) فأمّا السّخرية فهي الضحك على النّاس و الاستهزاء بهم و يكون ذلك بالقول أو الفعل أو الإشارة قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ المستهزئين بالنّاس يُفتح لأحدهم بابٌ من الجنّة فيُقال : هَلُمَّ هَلُمَّ ، فيجيء بكربه و غمّه ، فإذا أتاه ، أُغلِقَ دونه ، ثم يُفتح له بابٌ آخرٌ فيُقال : هَلُمَّ ، فيجيءُ بكربه وغمّه ، فإذا أتاه ، أُغلِقَ دونه ، فما يزال كذلك حتّى إنّ الرجلَ لَيُفتَحُ له البابُ فيُقالُ له : هَلُمَّ هَلُمَّ ، فلا يأتيه) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (مَنْ عَيّرَ أخاه بذنبٍ قد تاب منه لم يمتْ حتّى يعمله) ، أمّا الهمز و اللّمز كما جاء في تفسير الرازي: الهمز الكسر قال تعالى: {هَمَّازٍ مَّشَّاء} و اللمز الطعن و المراد الكسر من أعراض الناس و الغض منهم و الطعن فيهم، قال تعالى: {وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ} و نحوهما اللعنة و الضحكة، وقرئ:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ بسكون الميم وهي المسخرة التي تأتي بالأوابد والأضاحيك فيضحك منه ويشتم وللمفسرين ألفاظاً أحدها: قال ابن عباس: الهُمَزَة المغتاب، واللُّمَزَة العَيّاب وثانيها: قال أبو زيد: الهُمَزَة باليد واللّمَزَة باللسان وثالثها: قال أبو العالية: الهُمَزَة بالمواجهة واللّمَزَة بظهر الغيب ورابعها: الهُمَزَة جهراً واللّمَزَة سراً بالحاجب والعين وخامسها: الهُمَزَة واللّمَزَة الذي يلقب الناس بما يكرهون وسادسها: قال الحسن: الهُمَزَة الذي يهمز جليسه يكسر عليه عينه واللّمَزَة الذي يذكر أخاه بالسوء ويعيبه وسابعها: عن أبي الجوزاء قال: قلت لابن عباس: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ من هؤلاء الذين يذمهم الله بالويل فقال: هم المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة واعلم أن جميع هذه الوجوه متقاربة راجعة إلى أصل واحد وهو الطعن وإظهار العيب، ثم هذا على قسمين فإنه إما أن يكون بالجد كما يكون عند الحسد والحقد، وإما أن يكون بالهزل كما يكون عند السخرية والإضحاك، وكل واحد من القسمين، إما أن يكون في أمر يتعلق بالدين، وهو ما يتعلق بالصورة أو المشي، أو الجلوس وأنواعه كثيرة وهي غير مضبوطة، ثم إظهار العيب في هذه الأقسام الأربعة قد يكون لحاضر، وقد يكون لغائب، وعلى التقديرين فقد يكون باللفظ، وقد يكون بإشارة الرأس والعين وغيرهما وكل ذلك داخل تحت النهي والزجر إهـ من تفسير الشيخ الرازي رضي الله تعالى عنه ، و من القواطع أيضا التنابز بالألقاب و هو مُحرّم بصريح قوله تعالى : (و لا تنابزوا بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان و من لم يتب فأولئك هم الظالمون) و التنابز هو التنادي بالألقاب القبيحة ، خصوصا إذا كان اللّقب يُحزن المُنادَى به ، أمّا إذا كان اللّقب لا يُعرف صاحبُه إلاّ به و كان لا يُحزنه

فلا شيء في مناداته به ، و من القواطع أيضا سوء الظنّ بالمسلمين قال النبيّ صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إيّاكم و الظّنّ ، فإنّ الظّنّ أكذبُ الحديث) ، و من القواطع أيضا التحسّس و التّجسّس ، و قد جاء في لسان العرب الفرق بينهما فالتَحَسَّسَ هو تَطَلُبُ الخبر وتَبَحُّثه. وفي التنزيل: (يا بَنِيَّ اذهبوا فتَحَسَّسوا من يوسف وأَخيه) وقال اللحياني: تَحَسَّسْ فلاناً أَي تَبَحَّثْ، وقال أَبو معاذ: التَحَسُّسُ شبه التسمع و التبصر؛ و التَجَسُّسُ بالجيم. البحث عن العورة ، و من القواطع أيضا الغيبة و هي من أخطر القواطع و السّوالب ، و لمّا كانت هي فاكهة المجالس فلا يسلم منها إلاّ المُوفّق و من أراد له اللّه تعالى كلّ خير ، و الغيبة هي أكل لحم الميّت في عالم الحقائق بصريح الآية الكريمة : (و لا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميّتا فكرهتموه) ، و من يستطيع أكل لحم الميّت ؟ إلاّ المحروم ! قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إيّاكم و الغيبة ، فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا ، فإنّ الرجل قد يزني و يتوبُ ، فيتوبُ اللّه تعالى عليه ، و إنّ صاحبَ الغيبة لا يُغفرُ له حتّى يَغفِرَ له صاحبُه) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (مررتُ ليلة أسريَ بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظفارهم ، فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : الذّين يغتابون النّاس و يقعون في أعراضهم) ، و قال سيدنا جابر رضي اللّه تعالى عنه :{ كنّا مع رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في مسير ، فأتى على قبرين يُعذّبُ صاحبهما ، فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّهما يُعذّبان ، و ما يُعذّبان في كبيرٍ ، أمّا أحدهما فكان يغتابُ النّاسَ ، و أمّا الآخرُ فكان لا يَستَتِرُهُ من بوله)} ، و لما رجم رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم ماعزا في الزنا ، قال رجل لصاحبه : هذا أقعص كما يقعص الكلب ، فمرّ

صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم و هما معه بجيفة ، فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنهشا منها) ، فقالا : يا رسول اللّه ، نَنْهَشُ جيفةً ؟! فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (و ما أصبْتُما من أخيكُما أنْتَنُ من هذه) ، و قال سيدنا أبو هريرة رضي اللّه تعالى عنه :{ من أكل لحم أخيه في الدّنيا (أي إغتابه) ، قُرِّبَ إليه لحمُه في الآخرة ، و قيل له : كُلْهُ ميتا كما أكلته حيّا ، فيأكله فيضجّ و يكلح }، وروي أنّ رجلين كانا قاعدين عند باب من أبواب المسجد ، فمرّ بهما رجلٌ كان مُخنّثا فترك ذلك ، فقالا : لقد بقيَ فيه منه شيءُ (أي من التخنّث) و أُقيمت الصلاةُ ، فدخلا فصلّيا مع النّاس ، فحاك في أنفسهما ما قالا ، فأتيا سيدنا عطاءً رضي اللّه تعالى عنه ، فسألاه ، فأمرهما أن يُعيدا الوضوءَ و الصّلاةَ ، و أمرهما أن يقضيا الصّيامَ إن كانا صائمين ، و قال سيدنا مجاهد رضي اللّه تعالى عنه في قوله تعالى : (ويل لكلّ هُمزة لُمزة) الهُمزة الطّعّان في النّاس ، و اللُّمزة الذي يأكل لحوم النّاس ، و قال سيدنا قتادة رضي اللّه تعالى عنه : ذكر لنا أنّ عذاب القبر ثلاثة أثلاث ، ثلث من الغيبة ، و ثلث من النّميمة ، و ثلث من البول (أي من عدم التّنزّه منه) ، و قال سيدنا الحسن رضي اللّه تعالى عنه :{ و اللّه لَلْغيبة أسرعُ في دِين الرجل المؤمن من الأكلة في الجسد }، و قال بعض الصالحين :{ أدركنا السّلف و هم لا يرون العبادة في الصّوم و لا في الصّلاة ، و لكن في الكفّ عن أعراض النّاس }، و قال سيدنا ابن عبّاس رضي اللّه تعالى عنه :{ إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك ، فاذكر عيوبك}، ومن شرّ الغيبة إظهار الودّ في الحضور ، و أكل اللّحم في المغيب كما قيل :

و لمّا رآني مُقبلا و هو جالس °°°°° تزحزح لي من مَكْرِه عن مكانه
و ناقلني بالوُدّ ما دُمتُ حاضرا °°°°° و عند انقطاعي عضّني بلسانه

و من القواطع المهلكات أيضا النّميمة قال اللّه تعالى : (همّازٍ مشّاءٍ بنميم) ثمّ قال تعالى: (عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم) قال سيدي عبد اللّه بن المبارك رضي اللّه تعالى عنه : {الزّنيم ولد الزّنا الذي لا يكتم الحديث ، و العتل الفظّ الغليظ الجافي الّذي لا يتّعظ }، و في هذا دلالة على أنّ ناقل الحديث بغرض إفساد القلوب هو ابن زنا و لا شكّ ، وقال صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم: (لا يدخل الجنّة نمّام) ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (أحبّكم إلى اللّه أحاسنكم أخلاقا ، الموطّئون أكنافا ، الذين يألفون و يُؤلفون ، و إنّ أبغضكم إلى اللّه المشّاؤن بالنّميمة ، المُفرّقون بين الإخوان ، المُلتمسون للبُرآءِ العثرات) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ اللّه لمّا خلق الجنّة قال لها : تكلّمي ، فقالت : سَعِدَ من دخلني ، فقال الجبّار جلّ جلاله : و عزّتي و جلالي لا يسكنُ فيك ثمانية نفر من النّاس ، لا يسكنك مُدمن خمر و لا مُصرّ على الزّنا و لا قتّات و هو النّمّام و لا ديّوث و لا شرطيّ و لا مُخنّث و لا قاطع رحم و لا الذي يقول : عليّ عهد اللّه إن لم أفعل كذا و كذا ثمّ لم يَفِ به) و قال سيدنا الحسن رضي اللّه تعالى عنه : {من نمّ إليك ، نمَّ عليك }، أي من نقل إليك حديثا مكذوبا ليُفسد قلبك ، فلا شكّ أنّه ينقل عليك مكذوبا ليُفسد القلوب عليك ، و قال بعضهم :{ النّميمة مبنيّة على الكذب و الحسد و النّفاق ، و هي أثافي الذلّ }، و من أصناف النّمّام ، ذو الوجهين و اللّسانين ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (ملعونٌ ذو الوجهين ، ملعونٌ ذو اللّسانين) و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من كان له وجهان في الدّنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة) ، وقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (تجدون من شرّ عباد اللّه يوم

القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث و هؤلاء بحديث) و في رواية أخرى (الذي يأتي هؤلاء بوجه و هؤلاء بوجه) ، و قال صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (لا يُبْلغني أحدٌ من أصحابي عن أحدٍ ، فإنّي أحبُّ أن أخرجَ إليكم و أنا سليم الصّدر) ، قيل أنّ حكيما من الحكماء زاره بعض إخوانه ، فأخبره بخبر عن بعض أصدقائه ، فقال له الحكيم : قد أبطأت في الزيارة و أتيت بثلاث جنايات ، بغّضتَ أخي إليّ ، و شغلتَ قلبي الفارغ ، و اتّهمتَ نفسك الأمينة ، و ممّا يُروى في هذا الصّدد عن شرّ السّعاية و النّميمة ، أنّ رجلا باع عبداً ، و قال للمُشتري : ما فيه عيبٌ إلاّ النّميمة، فقال المُشتري : و ما النّميمة ؟ قد رضيتُ ، و كأنّه استخفّ بالنّميمة ، فاشتراه ، فمكُثَ الغلام أيّاما ، ثمّ قال لزوجة مولاه : إنّ سيدي لا يُحبُّك ، و هو يُريدُ أن يتزوّج عليك ، فخُذي الموسَى واحلقي من شعر لحيته عند نومه شعرات حتّى أسحره عليها فيُحبّك ، ثمّ قال للزوج : إنّ امرأتك اتّخذتْ خليلا و تريد أن تقتلك ، فتناومْ لها حتّى تعرفْ ذلك ، فتناوم الرجلُ و جاءتْ المرأة بالموسى ، فظنّ أنّها تريد قتله ، فقام إليها فقتلها ، ثمّ ذهب العبد النّمّام إلى قبيلة المرأة فأخبرهم بالخبر ، فقتلوا الرجل ، ثمّ ذهب إلى قبيلة الرجل فأخبرهم ، و وقع القتال بين القبيلتين ، قال الشاعر الحكيم :

قلْ للّذي لستُ أدري مِنْ تَلَوُّنه ◦◦◦◦◦ أناصحٌ أم على غِشٍّ يُناجيني ؟
إنّي لأكثرُ ممّا سُمْتَني عجبا ◦◦◦◦◦ يَدٌ تَشِجُّ و أخرى منك تأسوني
تَغتابُني عند أقوامٍ و تمدحني ◦◦◦◦◦ في آخرين و كلّ عنك يأتيني
هذان شيئان قد نافيتَ بينهما ◦◦◦◦◦ فاكفُفْ لسانك عن شتمي و تزييني

و من القواطع أيضا اللعن قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ اللّعانين لا يكونون شفعاء و لا شهداء يوم القيامة) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (لعنُ المؤمن كقتله) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ العبد إذا لَعَنَ شيئا صعدتِ اللّعنةُ إلى السّماء ، فتُغلقُ أبوابُ السّماء دونها ثمّ تهبط إلى الأرض فتُغلقُ أبوابُها دونها ، ثمّ تأخذ يمينا و شمالا ، فإذا لم تجد مساغا رجعتْ إلى الذي لُعِنَ إن كان أهلا لذلك ، و إلاّ رجعتْ إلى قائلها) ، قال سيدنا أنس رضي اللّه تعالى عنه : كان رجلٌ يسير مع رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم على بعيرٍ فَلَعنَ بعيره ، فقال له النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (يا عبدَ اللّه ، لا تَسِرْ معنا على بعيرٍ ملعونٍ) ، و قال سيدنا عمران بن حصين رضي اللّه تعالى عنه : بينا رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم في بعض أسفاره ، إذا امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرتْ منها ، فلعنتها ، فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (خذوا ما عليها و أعروها فإنّها ملعونة) ، قال : فكأنّي أنظرُ إلى تلك النّاقة تمشي بين النّاس ، لا يتعرضُ لها أحدٌ . و من القواطع أيضا الخوض في الباطل ، و هو الكلام فيما لا فائدة فيه أصلا ، لا في الدين و لا في الدّنيا ، يقول أهلُ النّار (وكنّا نخوضُ مع الخائضين) ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ الرجل لَيتكلّمُ بالكلمة من رضوان اللّه ما يظنّ أن تبلغَ به ما بلغت ، فيكتبُ اللّه بها رضوانه إلى يوم القيامة ، و إنّ الرجل ليتكلّمُ بالكلمة من سخط اللّه ما يظنّ أن تبلغ به ما بلغت ، فيكتبُ اللّه عليه بها سخطه إلى يوم القيامة) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ الرجل ليتكلّمُ بالكلمة يُضحِكُ بها جُلساءَه يهوي بها أبعدَ من الثريّا) ، و قال سيدنا أبو هريرة رضي اللّه

تعالى عنه : إنّ الرجل ليتكلّمُ بالكلمة ما يُلقي لها بالاً ، يهوي بها في جهنّم ، و إنّ الرجل ليتكلّم بالكلمة ما يُلقي لها بالاً ، يرفعه اللّه بها في أعلى الجنّة ، و من القواطع المهلكات إذاية أولياء اللّه الصالحين و معاداتهم ، قال اللّه تعالى في الحديث القدسي : (من آذى لي وليّا فقد استحلّ مُحاربتي) ، و قال تعالى أيضا : (من أهان لي وليّا فقد بارزته بالمحاربة) و قال تعالى أيضا : (من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب) ، و قال تعالى أيضا : (من عادى لي وليّا فقد ناصبني بالمحاربة) ، و لم ينصب اللّه تعالى المحاربة إلاّ لرجلين معادي أولياء اللّه تعالى ، و آكل الربا ، و سيأتي بيانه ، و من القواطع أيضا المِراء و الجِدال و الخصومة والسؤال عن المشكلات و مواضع الغلط للتغليط و تخجيل المسئول و النفاق القولي قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لا تُمارِ أخاك و لا تُمازِحْه و لا تَعِدْهُ موعدا فتُخلفَه) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من ترك المِراءَ و هو مُحِقٌّ بُنِيَ له بيتٌ في أعلى الجنّة ، و من ترك المراء و هو مُبطلٌ بُنِيَ له بيتٌ في رِبض الجنّة) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ما ضلَّ قومٌ بعد أن هداهم اللّه إلاّ أوتوا الجدل) ، و قال سيدي مسلم بن يسار رضي اللّه تعالى عنه : إيّاكم و المراءَ ، فإنّه ساعة جهل العالم ، و عندها يبتغي الشيطان زلّته ، و قال سيدي مالك بن أنس رضي اللّه تعالى عنه : ليس هذا الجدال من الدّين في شيء ، و قال أيضا : المراء يقسّي القلوب ، و يورث الضغائن ، و قال سيدي سفيان الثوري رضي اللّه تعالى عنه : لو خالفتُ أخي في رمانة ، فقال حُلوة ، وقلتُ حامضة ، لسعى بي إلى السّلطان . و من القواطع أيضا الفحش قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إيّاكم و الفُحش ، فإنّ اللّه تعالى لا يُحبّ الفُحشَ و لا التّفَحّشَ) ، و

قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ليس المؤمن بالطّعان و لا اللّعان و لا الفاحش و لا البذيء) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (الجنّة حرامٌ على كلّ فاحش أن يدخلها) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه وآله و سلّم أيضا : (أربعةٌ يُؤذون أهل النّار في النّار على ما بهم من الأذى ، يسعون بين الحميم و الجحيم ، يدعون بالويل و الثّبور) و ذكر صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم منهم (رجل يسيل فُوهُ قَيْحا و دمًا ، فيُقال له ما بالُ الأبعد قد آذانا على ما بنا من الأذى ، فيقول إنّ الأبعد كان ينظر إلى كلّ كلمة قذعة خبيثة فيستلذّها كما يستلذّ الرّفث) وقال سيدي إبراهيم بن ميسرة رضي اللّه تعالى عنه : يُؤتى بالفاحش المتفحّش يوم القيامة في صورة كلب ، أو في جوف كلبٍ ، قال الإمام سيدي أبو حامد الغزالي رضي اللّه تعالى عنه : فأمّا حدّ الفحش و حقيقته فهو التعبير عن الأمور المُستقبحة بالعبارات الصريحة ، و أكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع و ما يتعلّق به من عورات ، فإنّ للفاحش المتفحّش عبارات صريحة فاحشة يستعملها فيه ، و من القواطع أيضا السّبّ و التّعيير و الطّعن ، قال سيدنا عياض بن حمار رضي اللّه تعالى عنه : قلت يا رسول اللّه ، إنّ الرجل من قومي يَسُبُّني و هو دوني ، هل عليّ من بأس أن أنتصرَ منه ؟ فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (المُتسابّان شيطانان يتعاوَيان و يتهارجان) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (سِبابُ المؤمن فسوقٌ و قِتالُه كفرٌ) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ملعونٌ من سَبَّ والديه) و في رواية (من أكبر الكبائر أن يَسُبَّ الرجل والديه) ، قالوا : يا رسول اللّه ، كيف يسُبُّ الرجل والديه ؟ فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (يسبُّ أبا الرجل ، فيَسُبُّ الآخرُ أباه) ، و من القواطع أيضا إفشاء السرّ ،

قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إذا حدّث الرجل الحديثَ ثمّ التفتَ فهي أمانة) ، و قال سيدنا الحسن رضي اللّه تعالى عنه :{ إنّ من الخيانة أن تُحدّثَ بسرّ أخيك }، و إفشاء السرّ قد يكون بقصد إضرار المفشوِّ سرّه عند الحاكم ، و هو حرام بالاتّفاق ، و قد يكون على حُسن نيّة فلا يقصد إضراره ، و لكنّ غلبته إرادته عن كتمانه ، و هو أيضا حرام ، و شرّ النّاس من ينشر سرّه و سرّ أهله ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ شرّ النّاس عند اللّه منزلة يوم القيامة الرجل يُفضي إلى امرأته و تُفضي إليه ثمّ يَنشرُ سرَّها) ، و أشرّ منه من نشر و أذاع سرّ الربوبية و هو من غير أهل العرفان بل سمع أو قرأ عن تلك الأسرار ثمّ قال بها ، كأقوال سيدي عبد العزيز الدّباغ رضي اللّه تعالى عنه إذا أذاعها للعوام ، كما جاء في الأثر (إنّ من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلاّ العلماء باللّه ، فإذا أظهروه أنكرته أهل الغرّة باللّه) ، فكشف سرّ الربوبية كفر ، كما قيل ، و لا يتكلّم في هذا السّرّ (إلاّ مَنْ أذن له الرحمن و قال صوابا) ، و قد أذاع منه ولي اللّه العارف به سيدي أبو منصور الحلاج رضي اللّه تعالى عنه و كان مغلوبا فكان جزاؤه ما عُرف من صُلبه ، قال الشيخ إبراهيم بن عمران النيلي رضي اللّه تعالى عنه : سمعت الحلاّج يقول: النقطة أصل كل خط، و الخط كله نُقَط مجتمعة. فلا غنىً للخط عن النقطة، ولا للنقطة عن الخط. وكل خط مستقيم أو منحرف فهو متحرك عن النقطة بعينها، وكل ما يقع عليه بصر أحد فهو نقطة بين نقطتين. وهذا دليل على تجلّي الحقّ من كل ما يُشاهَد وترائيه عن كل ما يُعايَن. ومن هذا قُلت: ما رأيتُ شيئاً إلاّ ورأيت اللّه فيه. قال سيدي عبد الرحمن بن خلدون رضي اللّه تعالى عنه : إنّ الحلاج قُتل بفتوى أهل الشريعة و أهل الحقيقة ، و من القواطع أيضا الخوض

في كُنه ذات اللّه تعالى كما حدث لإمام دار الهجرة سيدنا مالك رضي اللّه تعالى عنه لمّا سُئل عن معنى قوله تعالى (الرحمن على العرش استوى) فعرق رضي اللّه تعالى عنه و أطرق و صار ينكتُ بعودٍ في يده ثمّ رفع رأسه و قال : الكيفُ منه غيرُ معقول و الاستواء منه غير مجهول و الإيمان به واجب و السؤال عنه بدعة و أظنّك صاحب بدعة ، و أمر بالسّائل فأخرج . و هذا القاطع قد يجرّه الشيطان إلى قلب السّالك و حينئذ هو معذور فيه كما قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ الشيطان يأتي أحدكم فيقولُ له : من خلقك ؟ فيقول : اللّه تبارك و تعالى ، فيقول : فمن خلقَ اللّه ؟ فإذا وجد أحدُكم ذلك فليقلْ : آمنتُ باللّه و رسوله ، فإنّ ذلك يُذهبُ عنه) ، و من القواطع أيضا تفسير القرآن الكريم بالرأي ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النّار) ومن القواطع أيضا الفتية بغير علم ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من أفتى بغير علم لعنته ملائكة السّماء و الأرض) ، و من القواطع أيضا الأمر بالمنكر و النّهي عن المعروف و الشفاعة السّيئة لقوله تعالى : (ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها) كمن يشفع في حدّ من حدود اللّه تعالى ، بل منهم من يُصَيِّر الظالم مظلوما ، و المظلوم ظالما و يُعطي الرشاوى لتحصيل شهادة الزور في الحكم ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (أكبر الكبائر شهادة الزّور) ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (من أعان ظالما ليُدحض بباطله حقّا فقد برئتْ منه ذمّة اللّه و ذمّة رسوله) قال سيدنا ابن مسعود رضي اللّه تعالى عنه : من شفع شفاعة ليردّ بها حقّا ، أو يدفع بها ظلما

فأهدِيَ له ، فقَبِلَ ، فذلك السّحْتُ ، فقيل له : ما كنّا نرى السّحتَ إلاّ الأخذ على الحكم ، فقال رضي الله تعالى عنه : الآخذ على الحكم كفَرَ ، قال الشاعر :

و كنتُ إذا خاصمتُ خصما كبَبْتُه °°°°° على الوجه حتّى خاصمتني الدّراهم

فلمّا تنازعنا الحكومة غلبَتْ °°°°° عليّ و قالت : قُمْ فإنّك ظالم

من القواطع و السّوالب الدعاء على مسلم بالموت على الكفر و الدعاء للكافر و الظالم بالبقاء و اليمين الغموس و هي التي تغمس صاحبها في جهنّم و اليمين بغير الله تعالى و كثرة الحلف و سؤال الإمارة و المسؤولية و القضاء و تولية الأوقاف و دعاء الإنسان على نفسه و تمنّي الموت يأسا من رحمة الله تعالى و قنوطا و ردّ عذر أخيه و عدم قبوله و تفسير القرآن برأيه و إخافة المؤمن من غير ذنب و مخالطة النساء و الغلمان و التكلم معهم بلا سبب و الدلالة على طريق المعصية لأنّها إعانة على المعصية قال تعالى : (و لا تعاونوا على الإثم و العدوان) و الإذن و الإجازة فيما هو معصية لأنّ الرضا بالمعصية معصية كمن يرضى لزوجته بالتبرّج و يأمرها بذلك و المزاح المذموم المورّث للضغينة و كثرة الضحك لأنّه مميت للقلب و الكلام فيما لا يعني و فضول الكلام ، و منها ما يخص الأذن مثل : استماع كلّ ما لا يجوز تكلّمه و استماع الملاهي و الغناء لأنّه ينبت النفاق في القلب لقوله صلى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ الغِناء يُنبِت النِفاق في القلب كما يُنبِت الماءُ البَقل) و استماع كلام الشابّة الأجنبية من غير حاجة و استماع حديث قوم يكرهونه ، و منها ما يخصّ العين مثل : النظر إلى عورة إنسان قصدا بلا عذر شرعي كنظر الطبيب و النظر إلى الفقراء و الضعفاء بعين الاستخفاف و الازدراء و مشاهدة المعاصي و المنكرات من أفلام جنسية منحلّة و كليبات الغناء و

الرقص الممسوخ للبنات العرايا و النظر إلى من فوقه في أمر الدنيا لأنّه يزدري و يحتقر نعم الله تعالى عليه و النظر إلى بيت الغير من شقّ الباب أو من ثقب أو من فوق سطح لأنّه كشف للعورات ، و منها ما يخصّ اليد مثل : القتل و مُحاولة الانتحار أو الجرح لنفسه و لغيره مع الضرب و أخذ الزكاة و الصّدقات و هو ليس من أهلها و مصافحة الأجنبية بشهوة و كذا الغلمان و الأحداث و إهلاك المال فيما حرّم الله تعالى و إعطاء المال للرياء و المعصية كمن يعطيه في الأعراس و هو ما يُسمى بلغة العوام بالتّبريحة لأنّها إنفاق في معصية الله تعالى و اللعب بالحمام و التّحريش بين البهائم لأنّه من فعل قوم لوط و كتابة ما يُحرم تلفظه و أخذ مال الغير بلا إذنه و إخافة المسلم بسلّ سلاح و التختّم بالذهب للرجال و أخذ الرشوة و إعطائها و أخذ الفوائد البنكية لأنّها ربا لأنّه تعالى لم يُؤذن بالحرب إلاّ لصنفين آكل الربا و مُؤذي أوليائه قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله و ذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله و رسوله) و قال تعالى في الحديث القدسي : (من عادى لي وليّا فقد آذنته بالحرب)

<u>و من القواطع و السّوالب ما يخصّ البطن مثل</u> : أكل الحرام و هو أموال الربا ، يقول الله تعالى : (و لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) ، و يقول تعالى أيضا : (يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله و ذروا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين) ، و قد ذكرتُ سابقا أنّ الله تعالى ناصب الحرب لشخصين معادي و مؤذي أوليائه تعالى ، و آكل الرّبا لقوله تعالى : (يا أيّها الذين آمنوا اتّقوا الله و ذروا ما بقي من الرّبا إن كنتم مؤمنين ، فإن لم تفعلوا فأذنوا بحربٍ من الله و رسوله) ، و كيف يكون حال من كان الله تعالى و رسوله صلّى الله تعالى عليه و

آله و سلّم ناصِبَيْن له راية الحرب ؟ قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (الرّبا ثلاثة و سبعون بابا أيسرها مثلُ أن ينكح الرّجلُ أمّه) ، و آكل الحرام لا تُستجابُ له دعوة و لو دعا اللّه تعالى ألف عام ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (رُبَّ أشعث أغبر مُشرّد في الأسفار ، مطعمُه حرام و ملبسه حرام و غُذّيَ بالحرام ، يرفعُ يديه ، فيقولُ : يا ربِّ ، يا ربِّ ، فأنّى يُستجابُ لذلك) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (يا سعدُ ، أطِبْ مطعمك تكن مُستجابَ الدّعوة ، و الذي نفسُ محمّدٍ بيده ، إنّ العبد ليقذفُ اللّقمة الحرام في جوفه ما يُتقبّلُ منه عملُ أربعين يوما ، وأيّما عبدٍ نبتَ لحمُه من سُحْتٍ فالنّار أولى به) ، و من القواطع أيضا أكل مال اليتيم ، يقول اللّه تعالى : (و آتوا اليتامى أموالهم و لا تتبدّلوا الخبيث بالطّيب و لا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنّه كان حوبا كبيرا) أي إثما عظيما ، و يقول تعالى أيضا : (إنّ الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنّما يأكلون في بطونهم نارا و سيصلوْن سعيرا) و من القواطع أيضا أكل و شرب ما يضر العقل و البدن كالمُسكِرات و المُخَدّرات ، يقول اللّه تعالى : (يا أيّها الذين آمنوا إنّما الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجس من عمل الشّيطان فاجتنبوه لعلّكم تُفلحون ، إنّما يريد الشّيطان أن يوقع بينكم العداوة و البغضاء في الخمر و الميسر و يصدّكم عن ذكر اللّه و عن الصّلاة فهل أنتم منتهون) ، و قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (كلّ مُسكِر خمر و كلّ خمرٍ حرام ، و من شرب الخمر في الدّنيا و مات و لم يتبْ منها و هو مُدمنها لم يشربْها في الآخرة) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ على اللّه عهدا لمن شرب المسكر أن يسقيه من طينة الخبال ، قيل : يا رسول اللّه و

ما طينة الخبال ؟ قال : عَرَقُ أهل النّار أو عُصارة أهل النّار) ، ومن المُسكرات المحرّمات أيضا شرب الجِعَة و هي البيرّة ، التي تُنتبذ من الذرة و الشّعير ، و قد يظن البعض أنها حلال لأنّ تركيبها خالي من الكحول ، لكن لها دليل من الشرع على حرمتها ، و هو ما رواه سيدنا أبو موسى الأشعري ، قال : يا رسول الله ، أفتنا في شرابَيْن لنا نصنعهما باليمن ، البِتْعُ و هو من العسل يُنبَذُ حتّى يشتدّ ، و المزر و هو من الذرة و الشّعير يُنبذ حتّى يشتدّ ، فقال صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (كلّ مُسكرٍ حرام) ، و قد فسّر سيدنا ابن عمر رضي الله تعالى عنهما الأَنْبِذَة فقال البِتْعُ نبيذ العسل ، و الجِعَةُ نبيذ الشعير ، و المزر من الذرة ، و السَّكَرُ من التمر ، و الخَمْرُ من العنب ، أمّا الحشيش و القنب و غيرهما من المخدّرات كالأقراص المهلوسة فحرام بالإتّفاق بدليل قوله صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (كلّ مُسكرٍ حرام) ، و أمّا الدّخّان و الشّمّة فتعاطيهما أيضا مُحرّم و ذلك مُستنبط من قوله صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم : (لا ضَرَر و لا ضِرار) و قد أفتى في حرمتها جميع العلماء قديما و حديثا ، فمن ذلك ما قاله الشيخ سيدي عبد الرحمن الفاسي رضي الله تعالى عنه : الذي ينبغي اعتماده تحريم الدّخّان ، لإعتراف كثير أنّه يُحدث تفتيرا ، فيُشارك الخمر في نشوته ، و يُرخي الأطراف و يوهنها ، حتّى أنّه كالمُسكر القليل من الخمر ، فلولا أنّه فيه ذلك ما وُلِعَ به ، و يتضرّرُ البدن عند تركه جدّا ، و قال الأطباء حديثا : أنّه مُسبّبٌ لكثير من الأمراض المُستعصية كالذبحة الصدرية و أمراض القلب من ضغطٍ و أمراضِ شرايين ، و مرض العصر القاتل السرطان (عافانا الله تعالى منه) و غير ذلك من أمراض كثيرة ، و بحُرمة الدّخّان جزم سيدي أبو السّعود رضي الله تعالى عنه بقوله :

حرامٌ شربُه لا شكّ فيه °°°°° فحال منعُه بين المُحال
تيقّنْ ليس فيه غير ضُرٍّ °°°°° و ما فيه سِوى إتلاف مال

و ما أحسن من قال :

في النّاس قوم سِخافٌ لا عقول لهم °°°°° استبدلوا عِوَضَ التّسبيح دخّانا
أنبوبة بِفمٍ و النّار داخلها °°°°° تجرّ للجوف دخّانا و نيرانا

و من القواطع أيضا الأكل و الشرب من أواني الذهب و الفضة ، جاء في الحديث المُتّفق عليه (نهانا رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أن نشربَ في آنية الذّهب و الفضّة و أن نأكل فيها ، و أن نلبس الحرير و الدّيباج ، قال : هي للمشركين في الدّنيا و لكم في الآخرة) لأنّ الأكل فيها و الشرب منها دليل تكبّر وفخر ، و من القواطع أيضا أكلُ طعام ضيافةٍ عنده لعب و لهو محرم أو غناء أو غيرهما من المنكرات كطعام الأعراس الفاسدة المُفسدة في هذه الأيّام ، و أكل طعام إتُّخذ للرياء و السمعة و المباهاة أو طعام أهل الربا أو طعام مغصوب ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (شرّ الطّعام طعامُ الوليمة ، يُدعى لها الأغنياءُ و يُدفَعُ عنها الفقراءُ ، و من ترك الدّعوةَ فقد عصى اللّه و رسولَه)

<u>قواطع و سوالب الفرج</u> : و من القواطع و السّوالب الزنا ، يقول اللّه تعالى : (و لا تقربوا الزّنا إنّه كان فاحشة و ساء سبيلا) ، و يقول تعالى أيضا : (و لا يزنون و من يفعلْ ذلك يَلْقَ أثاما ، يُضاعفُ له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مُهانا ، إلاّ من تاب) ، و قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لا يزني الزّاني حين يزني و هو مؤمن) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان كالظّلّة على رأسه ، ثمّ إذا أقلع رجع إليه

الإيمان) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من زنى أو شرب الخمر نزع اللّه منه الإيمان كما يخلع الإنسان القميص من رأسه) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ثلاثة لا يكلّمهم اللّه يوم القيامة و لا ينظر إليهم و لا يزكّيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زانٍ ، و مَلِكٌ كذّاب ، و عائل مُستكبرٌ) ، و من القواطع و السّوالب أيضا اللّواط و إتيان الحائض و النّفساء و البهيمة، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لعن اللّه من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ،لعن اللّه من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط ، لعن اللّه من عَمِلَ عَمَلَ قوم لوط) ، و لو بزوجته لما رواه أبو هريرة و ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما قالا : خطبنا رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم قبل وفاته و هي آخر خطبة خطبها بالمدينة حتّى لحق باللّه عزّ وجلّ ، وعظنا فيها و قال : (من نكح امرأته في دبرها أو رجلا أو صبيّا حُشر يوم القيامة و ريحه أنتن من الجيفة يتأذى به النّاس حتّى يدخل النّار و أحبط اللّه أجره ولا يقبل منه صرفا و لا عدلا و يدخل في تابوت من نار و يُسدّ عليه بمسامير من نار) قال أبو هريرة رضي اللّه تعالى عنه : هذا لمن لم يتبْ ، و في سنن أبي داود قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ملعون من أتى المرأة في دبرها) ، و في لفظ لأحمد و ابن ماجه : (لا ينظر اللّه إلى رجل جامع امرأته في دبرها) ، و في لفظ الترمذي و أحمد : (من أتى حائضا ، أو امرأته في دبرها أو كاهنا فصدّقه ، فقد كفر بما أنزل على محمّد صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم) .

<u>قواطع و سوالب جملة الإنسان</u> : و منها ما يخصّ جملة الإنسان مثل : السحر و هو من أكبر القواطع لأنّه من أكبر الكبائر ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (اجتنبوا السّبع الموبقات: الشّرك باللّه ، و السّحر ، و قتل النّفس

التي حرّم اللّه إلاّ بالحقّ ، و أكل مال اليتيم ، و أكل الرّبا ، و التّولي يوم الزّحف ، و قذف المُحصنات الغافلات المؤمنات) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ثلاثة لا يدخلون الجنّة : مدمن خمر ، و قاطع رحم ، و مُصدّقٌ بالسّحر) ، و من القواطع أيضا عقوق الوالدين و قطع الرحم ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (رضى اللّه في رضى الوالدين ، و سخط اللّه في سخط الوالدين) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (ألا أنبّئكم بأكبر الكبائر : الإشراك باللّه و عقوق الوالدين) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (لا يدخل الجنّة عاقّ و لا منّان و لا مدمن خمر) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (لعن اللّه العاقَّ لوالديه) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (لعن اللّه من سبّ أباه ، لعن اللّه من سبّ أمّه) ، و من القواطع أيضا كشف العورة و تشبّه المرأة بالرجل و الرجل بالمرأة ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لعن اللّه المُتشبّهات من النّساء بالرّجال ، و المُتشبّهين من الرّجال بالنّساء) ، و من القواطع أيضا أذى الجار ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (و اللّه لا يؤمن ، و اللّه لا يؤمن ، قيل : من يا رسول اللّه ؟ قال : من لا يأمن جارُهُ بوائقَه) أي غوائله و شروره ، و في رواية : (لا يدخل الجنّة من لا يأمن جاره بوائقه) ، و سئل رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم عن أعظم الذنوب عند اللّه تعالى ، فذكر ثلاث خلال : (أن تجعل للّه نِدّاً و هو خلقك ، و أن تقتل ولدك خشية أن يُطعم معك ، و أن تزني بحليلة جارك) و من القواطع و السّوالب أيضا ترك الصلاة و منع الزكاة وترك الحج مع الاستطاعة ، و كيف لا تكون قواطعا بل هي من أكبر القواطع ، لأنّها العروة الوثقى و الحبل السِّرّي بين العبد

و دين رَحِمَ رحمة الرحمن جلّ جلاله، يقول الله تعالى: (فخلف من بعدهم خَلفٌ أضاعوا الصّلاة و اتّبعوا الشّهوات فسوف يلقون غيّاً، إلاّ من تاب و آمن و عمل صالحا)، قال سيدنا ابن عبّاس رضي الله تعالى عنهما: ليس معنى أضاعوها تركوها بالكلّية، و لكن أخّروها عن أوقاتها، و يقول تعالى أيضا: (فويلٌ للمصلّين، الذين هم عن صلاتهم ساهون)، أي غافلون عنها و مُتهاونون بها، قال سيدي سعيد بن المُسيّب رضي الله تعالى عنه: هو أن لا يُصلّي الظهر حتّى يُصلّي العصر، و لا يُصلّي العصر إلى المغرب، و لا يُصلّي المغرب إلى العشاء، و لا يُصلّي العشاء إلى الفجر، و لا يُصلّي الفجر إلى طلوع الشّمس، فمن مات و هو مُصرّ على هذه الحالة و لم يتبْ وعده الله تعالى بغَيٍّ و هو واد في جهنّم بعيدٌ قعره خبيث طعمه، أمّا عن منع الزكاة فقد قال الله تعالى: (و لا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم، بل هو شرّ لهم، سيُطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة)، و يقول الله تعالى أيضا: (و الذين يكنزون الذّهب و الفضّة و لا يُنفقونها في سبيل الله، فبشّرهم بعذاب أليم، يوم يُحمى عليها في نار جهنّم فتُكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون)، و قال النّبي صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم: (ما من صاحب ذهب و لا فضّة لا يؤدي حقّها، إلاّ إذا كان يوم القيامة صُفِحتْ له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنّم فيُكوى بها جنبُه و جبينُه و ظهرُه، كلّما بردت أعيدت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتّى يقضي الله تعالى بين النّاس، فيرى سبيلَه إمّا إلى الجنّة و إمّا إلى النّار)، أمّا عن ترك الحج فقد قال النّبي صلّى الله تعالى عليه و آله و سلّم: (من ملك زادا و راحلة تبلغه حجّ بيت الله الحرام و لم يحجْ، فلا

عليه أن يموتَ يهوديّا أو نصرانيّا) ، و قياس الراحلة في وقتنا هو المال الكافي الذي يوصله إلى حرم اللّه تعالى ، و من القواطع أيضا إمساك المعازف و آلات اللهو في البيت و الاستماع إلى الغناء ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (يُمسخ قومٌ من أمّتي في آخر الزمان قردة و خنازير ، قالوا : يا رسول اللّه أمسلمون هم ؟ فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : نعم ، يشهدون أن لا إله إلاّ اللّه و أنّي رسول اللّه و يصومون ، قالوا : فما بالهم يا رسول اللّه ؟ فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : اتّخذوا المعازف و القينات و الدّفوف و شربوا هذه الأشربة ، فباتوا على شرابهم و لهوهم فأصبحوا و قد مُسخوا) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (الغناء يُنبتُ النّفاق في القلب كما يُنبتُ الماءُ البقلَ) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (من قعد إلى قينة يستمع منها صُبَّ في أذنيه الآنُك يوم القيامة) و الآنك هو الرصاص المذاب ، و الغناء المقصود بالتّحريم هو غناء الفسّاق الذين يذكرون فيه ما حرّم اللّه تعالى من أمور كالصّحبة و العشق المحرّم بين الرجل و المرأة و غير ذلك من ذكر الخمور و ميادين الحرام ، و الملاحظ لبعض القنوات الفضائية الفضائحية يرى عجبا من فسخ و مسخ لبنات مائلات مميلات ، كاسيات عاريات ، قد أظهرن مفاتنهن ، و هنّ يتخبّطن كالذي يتخبّطه الشيطان من المسّ و بينهنّ شيطان في صورة إنسان ، كأنّه كلبٌ ينبح أو حمارٌ ينهق ، و من القواطع أيضا مُشاهدة ما حرّم اللّه تعالى من أفلام ماجنة و حفلات هابطة ، و إن كان قال أحد الفسّاق من حكماء اليهود قديما : كأس و جارية تفعل في الأمّة المحمّدية ما يفعله ألف جندي ، فأغرقوها في حبّ اللّذات ، فقد تفطّنوا عليهم لعائن الجبّار المنتقم تترا و هم يبثّون

سمومهم عبر القنوات الفضائية ، من أفلام ماجنة فاسقة مُدمّرة للأخلاق و القيّم ، فتلقّها بعض المسلمين بعد تزيين نفْسٍ و إغواء شيطانٍ ، فدمّرت أفكارهم و شتّتْ قلوبهم في فيافي الشهوة ، قال النّبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (لأعلمنّ أقواما من أمّتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تِهامة بيضا ، فيجعلها اللّه تعالى هباءً منثورا ، قيل : يا رسول اللّه صفهم لنا = أو اجلهم لنا = أن لا نكون منهم و نحن لا نعلم ، فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : أما إنّهم إخوانكم و من جلدتكم و يأخذون من اللّيل ما تأخذون ، و لكنّهم أقوام إذا خلوا بمحارم اللّه انتهكوها) ، و لشرّ تلك القنوات قلت عن المُسمّى بالبرابول :

صحن الهموم ..

أطباقه كلّها سموم ..

هذه قناة ماجنة ..

و الأخرى للفكر ساجنة ..

هذه يحكمها طاغية ..

و تلك يُموّلها باغية ..

هذه للحقائق مُدلّسة ..

و تلك للأراجيف مُدرّسة ..

هذه كلّها جنون ..

و تلك كلّها مجون ..

بدأ فِلْمٌ ماجنٌ فجرا ..

و انتهى حفلٌ راقص عصرا ..

توقّف الإرسال ليُرسل الأذان ..
ثمّ عاد بَثُّ الكْليبِ بصوت كُلَيْبٍ ..
عوى .. و عوى .. و النّاس نومى ..

و من القواطع أيضا التعلّق و محبّة كرة القدم لعبا و مشاهدة حتّى كأنّها لا يبقى معها مُتّسع في القلب ، و هي من اللّهو و اللّعب المحرّم لأنّها تورث الضغائن و تُلهي صاحبها عن الصلوات ، و مثلها مثل لعب القمار و النّرد و الضّامّة و غيرها من الألعاب القاطعة عن عبادة اللّه تعالى ، و سبب حرمة ذلك ما قاله سيدي عبد العزيز الدّبّاغ رضي اللّه تعالى عنه و قد سئل عن لعبة الضّامّة فقال : هي حرام ، لأنّ جميع المحرّمات إنّما حُرّمت لسبب واحد و هو ما فيها من الإنقطاع عن اللّه تعالى ، فكلّ قاطع للعبد عن اللّه تعالى و لا غرض فيه للشّارع فإنّ اللّه تعالى يُحرّمه ، و هذه اللّعبة لا منفعة فيها إلاّ الشّغل عن اللّه تعالى ، فإنّ أربابها تراهم حين تعاطيها منقطعين إليها بالقلب و القالب حتّى تنسدّ جميع عيون ذواتهم عن الحقّ تعالى في تلك السّاعة ، فقال سائله : و كذا تعلّم الرّمي و جري الخيل و غير ذلك من آلات الحرب فيها إنقطاع عن اللّه تعالى وقت الشّغل بها ، فقال : ليست هذه بمنزلة اللّعبة السّابقة ، فإنّه لا غرض فيها للشّارع و لا تعود على العبد بمنفعة في ذاته ، بخلاف الرّمي و جري الخيل و غيرهما من آلات الحرب ، فإنّ تعلّمها من إعداد القوّة المأمور بها في قوله تعالى : (و أعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة و من رباط الخيل) ، فكلّ ما هو مقصودٌ للشّارع أو يصحّ أن يكون مقصودا ليس بقاطع عن اللّه تعالى ، و مثل ما ذكره الشيخ ما يوجد من ألعاب إلكترونية تُعلّم فنون القتال و هي معارك وهمية يكون فيها اللاعب قائدها و مسيّرها و تعلّمها يكون بإخلاص النّيّة ، فإن

كانت من اللهو المباح و تكون نيّتها للّه تعالى يكون اللاعب فيها مأجورا و هي من العدّة القابلة لملاقاة أعداء اللّه تعالى و نبيّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم من يهود و نصارى فهذا ما تيسّر جمعه بفضل اللّه تعالى و منّته من مناهي الشريعة مع شروح قدر الاستطاعة ، و هي من قواطع السلوك و سوالب سرّ المريد إن لم يتبْ و يتدارك قافلة السير بالجِدّ و الاجتهاد ، و قد ذكر أيضا الولي الشيخ سيدي محمد بن عزوز البرجي رضي اللّه تعالى عنه أرجوزة في قواطع الطريق و سوالبه وهي:

قواطع المريد فاعلم شرّه ◦◦◦◦◦ رؤيته أعماله مُعتبَرَة

كذا امتداد أمل تُحدّث ◦◦◦◦◦ نفسه أنّه وليّ وارث

قناعة بوارد الأحلام مع ◦◦◦◦◦ ركونه إلى قبول الخلق دَع

تأنّس بالورد مع تلذذ ◦◦◦◦◦ بوارد سكونه الوعد خُذ

و الإكتفا بزعمه و الغرّة ◦◦◦◦◦ باللّه تمّت هذه العشرة

و هذه القواطع و السوالب التي ذكرها الشيخ رضي اللّه تعالى عنه هي عشرة وهي: رؤيته لأعماله و اغتراره بها فيظن أنّه عابد عبادة الثّقلين ، و يقع عليه وصف عابد بني إسرائيل الذي إغترّ بعبادته فيقول اللّه تعالى له :{ أدخل جنّتي برحمتي ، فيقول : بل بعملي }، و هذا من أكبر القواطع لأنّ السالك لا زال يرى نفسه ، قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه:{ من نسب لنفسه حالا أو مقاما فهو بعيد عن طرقات المعارف }، و من القواطع أيضا طول الأمل لأنّ على السّالك أن يكون ابن وقته ، فلا مُستقبل و لا ماضي ، بل يرى الموت نازلا به كلّ ساعة ، فإذا رسخ فيه ذلك دفعه لطلب الإخلاص في عبادته ، قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللّه تعالى عنه :{من تعلّق بوعد الأماني لم يُفارق

التّواني} ، أي من تعلّق بطول الأمل لم يفارق الكسل ، و من القواطع أيضا يظن أنّه وليّ وارث ، و هي من أكبر القواطع أيضا لأنّ الاختصاص بالولاية لا يُنال برؤية النّفس ، قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللَّه تعالى عنه : {ما وصل إلى صريح الحرّية من على نفسه بقيّة} ، وما يظنّ نفسه من ادّعى أنّه وليّ وارث ؟ بل وجوده بهذه النّية إثم ، كذلك الذي سئل : من تكون ؟ فقال : أنا النّقطة ، أو نقطة فوق حرف ، لذلك من أثبت لنفسه وجودا فهو المفقود من ديوان الوَلاية ، حتّى أنّه قيل : لو سقطت طاقية من السّماء لم تقعْ إلاّ على رأس الذي لا يريدها ، و كذلك إرث الوَلاية لا يناله إلاّ من زهد فيه ، ومات عن نفسه وهواه ، قال الشيخ سيدي أبو مدين رضي اللَّه تعالى عنه : {الحقّ تعالى لا يراه أحد إلاّ مات ، و من لم يمتْ لم يرَ الحقّ} ، أمّا قناعته بوارد الأحلام وركونه إلى قبول الخلق فقد سبق ذكره في فصل مظاهر مغلوطة ، و من القواطع أيضا تأنسه بالورد ،و تلذذه بالوارد فأمّا تأنسه بالورد فأن يكون للنّفس فيه مدخل من مداخل الشيطان ، لأنّ الشيطان ليصرف النّفس عن خير يزيّن لها في آخر أقل منه إلى الأقل منه ، لأنّ الشيطان لا يأمر بالشر فقط بل يعرضه في معرض الخير فتلتبس لمّة الملك بلمّة اللعين ، كمن يقول له اللعين كفاك خفاء عن النّاس فلو أطلعتهم على الطريق و أنّك سالك لعلّهم يسلكون معك هذا الطريق ، و إنّما مراد اللعين أن يُصبغ السّالك بألوان الشّهرة و رؤية الخلق ، فالشيطان من هذا القبيل يأتي إلى النّفس و يأمرها أن تترك الذكر الملقّن لأنّه لا أثقل منه عليها و يزيّن لها في غيره من الأذكار فتستحليها ، بل من الفقراء من ذكر لي أنّه يريد و يحرص على حفظ القرآن الكريم ، فقلت له كيف توفّق بين أورادك المأذون فيها من الشيخ و بين حفظ القرآن و بين متطلّبات العيش حتّى أنّ

ذاكرتك دخلتها الشيخوخة و قد أنفت على الثلاثين ، فقال لي أقدر ، فذكرت له أن ذلك تزيينا من الشيطان للنفس فيراها تأنس لحفظ القرآن الكريم بعد ما ثقل عليها ورد الشيخ الموصل ، لذلك لا ينبغي التأنس بالذكر بل بالمذكور جلّ جلاله ، قال سيدي محمّد النفري رضي الله تعالى عنه : أوقفني في الوحدانية و قال لي : أظهرتُ كلّ شيء يدلّ عليّ و يكشفُ عنّي ، كما جعلته في ذات الوقت يدعو إلى نفسه و يحجبُ عنّي ، فحظّ كلّ إنسان من الحِجْبَة كحظّه من التّعلّق ، ذكري أخصّ ما أظهرتُ ، و ذكري كشفٌ كما أنّه حجابٌ ، إذا بدوتُ لهم تر من هذا كلّه شيئا ، و قال رضي الله تعالى عنه أيضا : أوّل الفتنة معرفة الاسم (اسم الله الأعظم) ، أمّا التلذّذ بالوارد فهو حظ من الحظوظ تفرح به النّفس و متى تلذذت به لا يبعد أن تبوح به و تعبّر عنه فيدخلها العجب من حيث لا تدري و لذلك قال الشيخ سيدي ابن عطاء الله رضي الله تعالى عنه : لا ينبغي للسّالك أن يعبّر عن وارداته فإنّ ذلك ممّا يقلّل عملها في قلبه و يمنعه وجود الصدق فيها مع ربّه ، و أيضا متى تلذّذت النّفس بالوارد وقفت معه لأنّه و لله تعالى المثل الأعلى أنّ مثال المريد مع الوارد كمن استضافه الملك ليُحادثه ، فترك مجالسة الملك و تلذّذ بالنّظر إلى القصر و جميل صوره ، و هو في ذلك كالمستهزئ بالملك ، و لذلك قال الشيخ سيدي ابن عطاء رضي الله تعالى عنه : لا تطلبن بقاء الواردات بعد أن بسطت أنوارها و أودعت أسرارها ، فلك في الله غِنى عن كل شيء ، و ليس يُغنيك عنه شيء ، و من القواطع أيضا سكونه و أمنه من وعد الله ووعيده و مكره ، فيغتر و يظنّ أنّه صار وليّا لله تعالى فلا يضرّه شيء و رضا الله تعالى مبسوط عليه ، قال الله تعالى : (أفأمنوا مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون) ، و قال تعالى في الحديث القدسي : (و عزّتي و

جلالي لا أجمع على عبدي خوفين و لا أجمع له أمنين ، فإذا أمِنَني أخفته يوم القيامة، و إذا خافني أمّنته يوم القيامة) ، و قال سيدي الحسن البصري رضي اللّه تعالى عنه :{ من وسّع اللّه عليه ، فلم يرَ أنّه يُمكر به فلا رأي له ، و من قُتّرَ عليه ، فلم يرَ أنّه يُنظرُ إليه فلا رأي له } ، و عن سيدنا عقبة بن عامر رضي اللّه تعالى عنه أنّ رسول اللّه صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم قال : (إذا رأيت اللّه يُعطي العبد ما يُحبُّ و هو مُقيمٌ على معصيته فإنّما ذلك منه استدراج ، ثمّ قرأ : فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كلّ شيء حتّى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مُبلسون) و في الأثر :{ أنّه لما مُكر بإبليس و كان من العبّاد و المُجتهدين فيها ، طفق جبريل و ميكال عليهما السّلام يبكيان ، فقال اللّه تعالى لهما : (ما لكما تبكيان ؟ قالا : يا ربّ ما نأمن مكرك ، فقال اللّه تعالى :هكذا كونا ، لا تأمنا مكري) ، و كان النبي صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم يكثر أن يقول : (يا مقلّب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك ، فقيل له : يا رسول اللّه ، أتخاف علينا ؟ فقال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم : (إنّ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلّبها كيف يشاء) ، و قال صلّى اللّه تعالى عليه و آله و سلّم أيضا : (إنّ الرجل ليعمل بعمل أهل النّار ، و إنّه من أهل الجنّة ، و يعمل الرجل بعمل أهل الجنّة ، و إنّه من أهل النّار ، و إنّما الأعمال بالخواتيم) ، و في قصّة بلعام بن باعوراء ما يغني المُعتبر قال الإمام القرطبي رضي اللّه تعالى عنه في تفسير قوله تعالى : (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ) ذكر أهل الكتاب قصة عرفوها في التوراة. واختُلف في تعيين الذي أوتي الآيات. فقال ابن مسعود وابن عباس: هو بَلْعَامُ بن باعُوراء، ويقال ناعم، من بني إسرائيل في

زمن موسى عليه السلام، وكان بحيث إذا نظر رأى العرش، وهو المعني بقوله:
(وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا) ولم يقل آية، وكان في مجلسه اثنتا عشرة
ألف محبرة للمتعلمين الذين يكتبون عنه. ثم صار بحيث (أنه) كان أوّل من
صنّف كتاباً (في) أن ليس للعالم صانع . قال مالك بن دينار رضي الله تعالى
عنه: بُعث بلعام بن باعوراء إلى مَلِك مَدْين ليدعوه إلى الإيمان؛ فأعطاه و أقطعه
فاتّبع دينه وترك دين موسى عليه السّلام ، ففيه نزلت هذه الآيات. (روى)
المعْتَمِر بن سُليمان عن أبيه قال: كان بلعام قد أوتي النّبوّة، وكان مجابَ
الدعوة، فلما أقبل موسى عليه السّلام في بني إسرائيل يريد قتال الجبّارين،
سأل الجبارون بلعام بن باعوراء أن يدعُوَ على موسى عليه السلام ، فقام
ليدعُوَ فتحوّل لسانه بالدعاء على أصحابه. فقيل له في ذلك؛ فقال: لا أقدر على
أكثر مما تسمعون؛ واندلع لسانه على صدره. فقال: قد ذهبت مني الآن الدنيا
والآخرة، فلم يبق إلا المكر والخديعة والحيلة، وسأمكر لكم، فإني أرى أن
تُخرجوا إليهم فتياتكم فإن الله يبغض الزنى، فإن وقعوا فيه هلكوا؛ ففعلوا
فوقع بنو إسرائيل في الزنى، فأرسل الله عليهم الطاعون فمات منهم سبعون
ألفاً، وقد ذكر هذا الخبر بكماله الثّعلبيّ وغيره. ورُوي أن بلعام بن باعوراء دعا
ألا يدخل موسى عليه السّلام مدينة الجبارين، فاستُجيب له وبقي في التّيه.
فقال موسى عليه السلام : يا ربّ بأي ذنب بقينا في التّيه. فقال: بدعاء بلعام.
قال: فكما سمعت دعاءه عليّ فاسمع دعائي عليه ،و قيل: كان بلعام نبياً و أوتي
كتاباً. وقال مجاهد : إنه أوتي النبوّة؛ فرشاه قومه على أن يسكت ففعل وتركهم
على ما هم عليه. قال الماوردِيّ: وهذا غير صحيح؛ لأن الله تعالى لا يصطفي
لنبوّته إلا من علم أنه لا يخرج عن طاعته إلى معصيته. وقال عبد الله بن

عمرو بن العاص وزيد بن أسلم رضي اللَّه تعالى عنهما : نزلت في أميّة بن أبي الصَّلْت الثَّقفِيّ، وكان قد قرأ الكتب وعلم أن اللَّه مرسِل رسولاً في ذلك الوقت، وتمنّىٰ أن يكون هو ذلك الرسول، فلما أرسل اللَّه محمداً صلى اللَّه عليه وسلم حسده وكفر به، وهو الذي قال فيه رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم: آمنَ شِعْرُه وكَفرَ قلبُه وقال سعيد بن المُسَيِّب رضي اللَّه تعالى عنه : نزلت في أبي عامر بن صَيفي، وكان يلبس المُسُوح في الجاهلية؛ فكفر بالنبيّ صلى اللَّه عليه وسلم، وذلك أنه دخل على النبيّ صلى اللَّه عليه وسلم المدينة فقال: يا محمد، ماهذا الذي جئت به؟ قال: جئتُ بالحنيفيّة دين إبراهيم ، قال: فإني عليها، فقال النبيّ صلى اللَّه عليه وسلم: لستَ عليها لأنك أدخلت فيها ما ليس منها فقال أبو عامر: أمات اللَّه الكاذب منا طريداً وحيداً، فقال النبيّ صلى اللَّه عليه وسلم: نعم أمات اللَّه الكاذب منا كذلك وإنما قال هذا يُعَرّض برسول اللَّه صلى اللَّه عليه وسلم حيث خرج من مكة، فخرج أبو عامر إلى الشام ومَرّ إلى قَيْصر وكتب إلى المنافقين: ٱستعدُّوا فإني آتيكم من عند قَيْصر بجند لنُخرج محمداً من المدينة؛ فمات بالشام وحيداً، وفيه نزل: (وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ) وفي الحديث عن النبيّ صلى اللَّه عليه وسلم: العلم علمان علم في القلب فذلك العلم النافع وعلم على اللسان فذلك حجة اللَّه تعالىٰ على آبن آدم ، فهذا مثل علم بَلْعَام وأشباهه، نعوذ باللَّه منه؛ ونسأله التوفيق والممات على التحقيق ،

شرح قصيدة

﴿ ما لذة العيش إلا صحبة الفقرا ﴾

تأليف

عتو إسماعيل عياد

القصيدة للشيخ أبى مدين شعيب

نفحات نور غار حراء
في شرح ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء
🕌🕋🕌🕋🕌🕋🕌🕋🕌🕋🕌🕋
🕋
شرح
الفقير الحقير كثير العتو و التقصير
عتو بن اسماعيل عياد الحسني

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد النبي المتعبِّد في غار حراء، صاحب الشريعة الغرّاء، والملّة السمحاء، والحنيفية البيضاء، وصاحب الشفاعة والإسراء ..صلى الله عليه وسلم
طلبت الإذن من أهل السلسلة الشريفة لشرح قصيدة سيدنا أبو مدين شعيب رضي الله عنه

فرأيت سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه يذكر في ورده (الصلاة المشيشية) و لما انتهى خاطبته بقلبي أني أريد تقبيل يده الشريفة ،، فسمعني بقلبه و أعطاني يده فقبلت ظاهرها و باطنها ،و مسحت بها عيني ،
بعد فجر الأربعاء ٤ ذو الحجة ١٤٣٩
أوت ٢٠١٨ ١٥
يومها بدأت في شرح قصيدة سيدنا أبو مدين شعيب رضي الله عنه (ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء) و انتهيت منها يوم الثلاثاء ١٨ ذو الحجة ١٤٣٩ ه ١ ٢٩ أوت ٢٠١٨

ما لذة العيش إلا صحبة الفقراء -١
هم السلاطين و السادات و الأمراء

ذكر الشيخ رضي الله عنه العيش و ليس الحياة أو الوقت أو غيرهما قياسا على قوله تعالى(و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا و نحشره يوم القيامة أعمى) ، لأن العيش هو وصف ملازم للشخص في قيامه و قعوده و يقظته و نومه و ظعنه و أسفاره و في كل حالاته، فإذا مات انتفت عنه صفة العيش ، و لذة العيش مطلب القلوب و الأرواح و الأنفس ، فهي لذة المشرب و المطعم و الملبس و المنكح في حق النفس ، و لذة العلوم و المعارف و اللطائف في حق القلوب ، و لذة التجليات و الأحوال و المقامات و الأسرار و الأنوار في حق الأرواح ، و لا توجد هذه اللذائذ مجتمعة إلا في صحبة الفقراء و هم أولياء الله تعالى و خاصته من عباده ، و لفظة الفقراء تُطلق على السالكين طريق الحق تعالى،
و قد اختار أهل الله تعالى إطلاق صفة الفقير لأن مريد السلوك يخرج عن دنياه و ما يملك حسا و معنى إذا كان قوي اليقين و إلا ألزمه شيخه بإخراجها من قلبه ، قال الله تعالى(و أنتم الفقراء إلى الله) و قال تعالى أيضا (للفقراء الذين أُحصروا في سبيل الله)، قال سيدي أبو بكر الطوسي رضي الله عنه: "كنت مدة طويلة أسأل عن معنى اختيار أصحابنا لهذا الفقر على سائر الأشياء ،فلم يُجبني أحد بجواب يُقنعني ،حتى سألت نصر بن

الحمامي ،فقال لي : لأنه أول منزلة من منازل التوحيد ،فقنعت بذلك"، سئل سيدي أبو بكر الدينوري الدقي رضي الله عنه عن الفرق بين الفقر و التصوف فقال :" الفقر حال من أحوال التصوف،فقيل له: ما علامة الصوفي ؟ فقال: أن يكون مشغولا بكل ماهو أولى به من غيره،و يكون معصوما عن المذمومات" و بعضهم لم يُحبّذ تسمية المريد فقيرا كما يُروى عن سيدنا سهل بن علي بن سهل الأصبهاني رضي الله عنه أنه كان يقول :" حرام على كل من يسمي أصحابنا الفقراء ، لأنهم أغنى خلق الله عزّ و جلّ".لكن غلب عليهم اسم الفقراء قديما وحديثا . و ليس شرطا أن يكون السالك فقيرا معدما ليحق له دخول طريق التصوف كما قال سيدي أحمد زروق الفاسي في قواعد التصوف في القاعدة الثامنة :"لا يختص التصوف بفقر لا غنى إن تحققت إرادة وجه الله حكم التابع كحكم المتبوع فيما يتبعه فيه، وإن كان المتبوع أفضل. وقد كان أهل الصفة فقراء في أول أمرهم، حتى كانوا يعرفون بأضياف الله ، ثم كان منهم الغني و الأمير، والمتسبب والفقير، لكنهم شكروا عليها حين وجدت، كما صبروا عليها حين فقدت " إ.هـ من قواعد التصوف،

و هؤلاء الفقراء السالكين طريق الحق تعالى هم على التحقيق السلاطين و السادات و الأمراء ، و إنْ أخذت ألقابهم سلاطين و ملوك و أمراء الدنيا فمجازا ما لُقّبوا به ، لأنهم حكموا على الفاني المُبغض عند الله تعالى و هي الدنيا الملعونة قال سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه : "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه، وعالم أو متعلم "

و جاء ترتيبهم تشريفا أولا بالسلاطين و هم المشايخ العارفون بالله تعالى الغارفون من بحر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الواصلون إلى صريح الحرية الموصلون إلى حضرة الربوبية من شاء الله له السعادة الأبدية ، ثم السادات و هم المريدون أو الفقراء أو التلاميذ طالبو السلوك إلى حضرة ملك الملوك ، ثم الأمراء و هم المَقاديم أو الخَدَم ، ثم تكريما في خدمتهم صعودا فالمقاديم يخدمون الفقراء و الفقراء يخدمون المشايخ ، و قد أخطأ من ظن أن المقدَّم مخدوما مثل الشيخ العارف الغارف الواصل ، بل هو خادما للفقراء ، كما سيأتي إن شاء الله في تفصيل معنى الخادم أو المقدم في البيت الثاني،

فاصحبهم و تأدب في مجالسهم -٢

و خلي حظك مهما قدموك وراء

قال الله تعالى (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) فمن صاحب الصالحين صلُح و فاز و جاز و حاز و من صحب الطالحين خَبُث و نَكِد و بَعُد و هلك ، و قد أمرنا الله تعالى أن نكون مع الصادقين ، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ)، و الصادقون هم أولياء الله تعالى و خاصته من عباده الذين قال تعالى في حقهم (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) و هم السادة أصحاب السعادة رجال الله الصوفية،

:قال سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه

من جاور الأجواد جاد بجودهم

و من جاور الأنذال زاد عناه

و من جاور بُرمة انطلى بحمومها

و من جاور صابون جاب نقاه

:و قال الشاعر

من عاشر الأشراف عاش مشرَّفا

و مُعاشر الأنذال غير مُشرّف

أو ما ترى الجلد الخسيس مُقبَّلا

بالثغر لما جاور المصحف

:قال سيدى أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه

"من لا أدب له لا سير له . ما نال من نال إلا بالأدب وما حرم من حرم إلا بترك الأدب"

: قال في الإتحاف شرح الإحياء

مما وجد بخط الزاهد قطب الدين محمد بن الإردبيلي : قال حجة الإسلام الغزالي : كنت في] مبدأ أمري منكرًا لأحوال الصالحين ، ومقامات العارفين ، حتى صحبت شيخي يوسف

النساج فلم يزل يصقلني بالمجاهدة حتى حظيت بالواردات ، فرأيت الله تعالى في المنام ، فقال لي : يا أبا حامد ، دع شواغلك واصحب أقوامًا جعلتُهم في أرضي محل نظري ، وهم الذين باعوا الدارين بحبِّي ، قلت : بعزتك إلا أذقتني بَرْدَ حُسْنِ الظن بهم ، قال : قد فعلتُ ، والقاطع بينك وبينهم تشاغُلُك بحب الدنيا ، فاخْرُجْ منها مختارًا قبل أن تخرج منها صاغرًا ، فقد أفضتُ عليك أنوارًا من جوار قدسي . فاستيقظتُ فرحًا مسرورًا وجئت إلى شيخي يوسف النساج فقصصت عليه المنام ، فتبسم .. إلخ] اهـ .

ففاز و سعد من صحبهم و سار على خطاهم و جالسهم و أحبهم ، قال القطب سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه:" إياك و التقرب إلى أهل الدنيا، فإن التقرب منهم يقسي القلب، و اتخذ الفقراء أصحابا و أحبابا ، و عظّمهم و كن مشغولا بخدمتهم، و إذا جاءك واحد منهم فانتصب له على قدميك و اسأله الدعاء الصالح، و جاهد نفسك لكي تكون منهم و كن شبيها بهم ، من تشبّه بقوم فهو منهم ، و من أحبّ قوما حُشر معهم، و لو عرف الناس ربّهم حقّ المعرفة كما عرفه الفقراء لانقطعوا عن معاش الدنيا و أحوالها بالكلية، و من علامة الفقير أنه إذا أعطى عطاءً أعطاه لوجه الله و مرضاته لا شيء آخر غير ذلك" و صحبة الفقراء تستدعي التأدب معهم في الأحوال و الأقوال عند مجالستهم ، و قد فصّل كثير من علماء الصوفية في أصول الآداب و فروعها و هي مبثوثة في كتبهم مثل

الأنوار القدسية في قواعد الصوفية لسيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه، و مثل الآداب المرضية لسالك طريق الصوفية لسيدي محمد بن أحمد البوزيدي المستغانمي رضي الله عنه، و شرح منظومة سيدي محمد الإمام المنزلي في آداب المريدين رضي الله عنه، و آداب المريدين و بيان الكسب لسيدي الحكيم الترمذي رضي الله عنه، و آداب المريدين لسيدي عبد القاهر السهروردي رضي الله عنه و غيرها ... و قالوا: " أن التصوف كله أدب فمن فاتك في الأدب فاتك في التصوف" ، قال سيدي أبو العباس بن عطاء الأدمي رضي الله عنه:"من ألزم نفسه آداب السنة نوّر الله قلبه بنور المعرفة، و لا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم في أوامره و أفعاله و أخلاقه، و التأدب بآدابه قولا و فعلا و عزما و عقدا و نيّة" و قال أيضا رضي الله عنه:"من تأدب بآداب الصالحين فإنه يصلح لبساط الكرامة، و من تأدب بآداب الأولياء فإنه يصلح لبساط القربة

، و من تأدب بآداب الصديقين فإنه يصلح لبساط المشاهدة، و من تأدب بآداب الأنبياء فإنه يصلح لبساط الأنس و الإنبساط "، و قال سيدي أبو الحسين بن هند الفارسي رضي الله عنه:" أصل كل خير ملازمة الأدب في جميع الأحوال و الأعمال"، و قال رضي الله عنه أيضا:" من أكرمه الله تعالى بمعرفة الحرمة و الإحترام للأكابر ،أوقع حرمته في قلوب الخلق ، و من حرم ذلك نزع الله حرمته من قلوبهم ، فلا تراه إلا ممقوتا ، و إن حسنت أخلاقه و صلحت أحواله ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"من تعظيم جلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم"

و بالجملة فآداب المريد مع شيخه و مع إخوانه كنار على علم تُعرف لا يتّسع المقام لذكرها ، لكنها تُكتسب بالمحبة و تَصبغ الذواتَ بالقرب من الصالحين و التودد لهم كما قيل : "أحبب أولياء الله ليحبوك، فإن الله ينظر إلى قلوب أوليائه، فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه، فيغفر لك".

و أما قوله رضي الله عنه:

(و خلي حظك مهما قدموك وراء)

و في رواية (مهما خلّفوك) و معنى قوله رضي الله عنه "قدّموك " أي نصّبوك مُقدّما على نفر من الفقراء و خلّفوك فيهم خلافة و نيابة عن الشيخ العارف بالله تعالى حيا كان أو ميّتا ، و المقدّم لا يكون في مرتبة الشيخ العارف الغارف الواصل الموصل بل هو خادم للفقراء ، لذلك قال رضي الله عنه" و خلي حظك مهما قدموك وراء" أي دع حظوظ نفسك وراءك من طلب الجاه و العز و الرتبة و تقبيل الرؤوس و تقديم الفلوس و الترفع بالجلوس لأن حظ النفس في حق المقدّم لا زال، عكس الشيخ العارف الغارف الواصل فإنه ليس له نفس حتى يكون لها حظ ، بل له حق للحق ، فهو فان عن نفسه و بني جنسه و باق بالله و في الله و مع الله و إلى الله وحده ، ، لأن للعارفين بالله الغارفين الواصلين حقوقا لله و لغيرهم حظوظا للنفس ، قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه:"

"للنفس حق وحظ فأعطها حقها ولا تعطها حظها".

ثم هناك حال يطرأ على بعض المنتسبين الجدد و هو إرادة تجرّدهم و خروجهم عمّا في أيديهم ، فتجد الواحد منهم يأخذ ماله كله و يعطيه للمقدم ، فيعتقد المقدم أنه تجرده حقيقي ، لكنه حال شيطاني ليغرر به نفس السالك و يخرجه عن الطريق حسدا و ذلك بعد ذهاب ماله ، و قد حكى لي أحد مقاديم الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه منتسبا جديدا أعطاه كل الذهب و المصوغ الذي جمعه كمهر ليتزوج ، لكن لا أدري هل رد هذا المقدم الذهب الى صاحبه أم لا ، و في هذه الحال وجب على المقدم أن يحتفظ بالذهب و في اليوم الموالي يرد الذهب إلى صاحبه بعد ما يسلى عليه وارد الشيطان في التجرد، لأنه لو لم يرده إليه سيقتل الندم هذا المنتسب و يوسوس له الشيطان في ترك السلوك ، و لا ينبغي على المقدم رفض أخذ الذهب ، بل يتظاهر أنه قبله كهدية أو صدقة ليصرف به وارد الشيطان في إرادة التجرد، ثم يرده له لاحقا، لأنه إن رفض قبوله ربما ذهب هذا المتجرد ليتصدق به على من لا يرده إليه أبدا ، لأنه لو أعطاه إلى الشيخ المربي فقبله فوارده رباني و هو يبغي به رضا الله ، لأن الشيخ المربي يعرف الوارد الرباني من الشيطاني و يميز بينهما عكس المقدم ، قال سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه :" إذا كان الله عز و جل و ذكره عندك ، فلا جرم يمتلئ قلبك من قربه، و تهرب خواطر الشيطان و الهوى و الدنيا من عندك ، للدنيا خاطر و للآخرة خاطر ، للمَلك خاطر و للنفس خاطر و للقلب خاطر و للحق عزو جل خاطر ، فتحتاج أيها الصادق إلى دفع جميع الخواطر و السكون الى خاطر الحق عزوجل" و قال سيدي أبو عمرو الدمشقي رضي الله عنه:"مقام الخطرات بعيد من مقام الوطنات ، لأن الخواطر تلمع ثم تختفي ، و الوطنات تبدو و تثبت ثم تتحقق، و الدعاوى تتولّد من الخواطر ، فإن المدّعي يظن أن ما لاح ثبت، و لا دعوى لصاحب الوطنات مجال" . و قد أخطأ بعض المقاديم إذْ نصّبوا أنفسهم مشايخ مربّين و هم لا زالوا مع النفس محبوسين ، فكيف يُرّبي من لازال لم يُربَّ ، لأن التربية تكليف و ليست تشريفا ، لا يكون شيخا مربيا إلا من كان على قدم سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم و نصّبه سيد الوجود صلى الله عليه وسلم , و قلّده بسيف الهمّة , و ألبسه عمامة العزم , وأجلسه على بساط الوراثة المحمّدية , أمّا من يُخلّف من بعد الشيخ العارف , فيُسمّى بالخادم , و عن معنى الخادم و شرح حاله و من يتشبّه به , يجيبنا

الشيخ سيدي السهروردي رضي الله تعالى عنه في عوارف المعارف فيقول: { أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام فقال : (يا داود إذا رأيت لي طالبا فكن له خادما) , فالخادم يدخل في الخدمة راغبا في الثواب و فيما أعدّ الله تعالى للعباد , و يتصدّى لإيصال الراحة و يفرغ خاطر المقبلين على الله تعالى عن مهام معاشهم , و يفعل ما يفعله لله تعالى بنيّة صالحة , فالشيخ واقف مع مراد الله تعالى , و الخادم واقف مع نيّته , فالخادم يفعل الشيء لله تعالى , و الشيخ يفعل الشيء لله تعالى , فالشيخ في مقام المقربين , و الخادم في مقام الأبرار, فيختار الخادم البذل و الإيثار و الارتفاق من الأغيار للأغيار , و وظيفة وقته تصدّيه لخدمة عباد الله تعالى , و فيه يعرف الفضل و يرجّحه على نوافله و أعماله , و قد يُقيمُ مَنْ لا يعرف الخادمَ من الشيخِ الخادمِ مقامَ الشيخ , و ربّما جهل الخادمُ أيضا حال نفسه , فيحسب نفسه شيخا لقلّة العلم و اندراس علوم القوم في هذا الزمان , و قناعة كثير من الفقراء من المشايخ باللّقمة دون العلم و الحال , فكلّ من كان أكثر إطعاما هو عندهم أحقّ بالمشيخة , ولا يعلمون أنّه خادم و ليس بشيخ , و الخادم في مقام حسن و حظ صالح من الله تعالى" إ.هـ من عوارف المعارف ،

و استغنم الوقت و احضر دائما معهم-٣
و اعلم بأن الرضاء يخص من حضرا

يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم :"إن لربكم في أيام دهركم نفحات، فتعرضوا لها لعله أن يصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبدا "، و تلك النفحات تكون في مواسم معينة من السنة كغرّة محرم و عاشوراء و رجب و شعبان و رمضان و العشرة أيام من ذي الحجة و خاصة يوم عرفة ، و من الأيام يوم الجمعة و ليلتها و يوم الإثنين و ليلة الثلاثاء فيها ساعات مباركة مستجابة الدعوة فيها ، و تكون فيها بركة أكثر إذا اجتمع الفقراء على ذكر الله تعالى ، يروى عن النّبيِّ صلى الله عليه وسلم أَنّهُ قَالَ : " لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزّ وَجَلّ إِلّا حَفّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السّكِينَةُ

وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ ". قال الله تعالى : } واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، ولا تعد عيناك عنهم {، وعن سيدنا أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ قال، قال رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : (إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا : هلموا إلى حاجتكم، فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، فيسألهم ربهم وهو أعلم : ما يقول عبادي قال : يقولون يسبحونك، ويكبرونك، ويحمدونك ويمجدونك، فيقول : هل رأوني فيقولون : لا والله ما رأوك، فيقول : كيف لو رأوني قال : يقولون لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، فيقول : فماذا يسألون قال يقولون : يسألونك الجنة، قال : يقول : وهل رأوها قال : يقولون : لا والله يا رب ما رأوها . قال : يقول : فكيف لو رأوها قال : يقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشد عليها حرصاً وأشد لها طلباً وأعظم فيها رغبةً . قال : فمم يتعوذون قال : يتعوذون من النار، قال : فيقول : وهل رأوها قال : يقولون : لا والله ما رأوها، فيقول : فكيف لو رأوها قال : يقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فراراً وأشد لها مخافةً، قال : فيقول : فأشهدكم أني قد غفرت لهم . قال : يقول ملك من الملائكة : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم) مُتّفَقٌ عَلَيهِ .

وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إن لله ملائكة سيارةً فضلاً يتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكر قعدوا معهم وحف بعضهم بعضاً بأجنحتهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء الدنيا، فيسألهم الله عز وجل وهو أعلم :

من أين جئتم فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك ويهللونك ويحمدونك ويسألونك . قال : وماذا يسألوني قالوا : يسألونك جنتك . قال : وهل رأوا جنتي قالوا : لا أي رب، قال : فكيف لو رأوا جنتي قالوا : ويستجيرونك، قال : ومِمّ يستجيروني قالوا : من نارك يا رب . قال : وهل رأوا ناري قالوا : لا . قال : فكيف لو رأوا ناري قالوا : ويستغفرونك فيقول : قد غفرت لهم فأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا . قال : فيقولون : رب فيهم فلان عبد خطاء إنما مر فجلس معهم . فيقول : وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم) وعنه وعن أبي سعيد رَضِيَ اللّهُ عَنهُما قالا قال رَسُول اللّهِ صلى الله عليه وسلم : (لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، ونزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فيمن عنده) رَوَاهُ مُسلِمٌ ، وعن أبي واقد الحارث بن عوف رَضِيَ اللّهُ عَنهُ أن رَسُول اللّهِ صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل إثنان إلى رَسُول اللّهِ صلى الله عليه وسلم وذهب واحد فوقفا على رَسُول اللّهِ صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً . فلما فرغ رَسُول اللّهِ صلى الله عليه وسلم قال : (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه) مُتّفَقٌ عَلَيهِ ، وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللّهُ عَنهُ قال : خرج معاوية رَضِيَ اللّهُ عَنهُ على حلقة في المسجد فقال : ما أجلسكم قالوا : جلسنا نذكر الله . قال : " آلله ما أجلسكم إلا ذلك قالوا : ما أجلسنا إلا ذلك . قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رَسُول اللّهِ

صلى الله عليه وسلم أقل عنه حديثاً مني، إن رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال : (ما أجلسكم) قالوا : جلسنا نذكر اللّه ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به علينا . قال : (آلله ما أجلسكم إلا ذاك قالوا : واللّه ما أجلسنا إلا ذاك . أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة) رَوَاهُ مُسلِمٌ ، فمجالس الذكر فيها من الغنائم و الأرباح ما لا يوجد في غيرها ، لذلك قال الشيخ رضي الله عنه :" و استغنم الوقت و احضر دائما معهم" ، فمن أراد الغنائم عليه بالإستغنام و من أراد الفوز و البرور و السرور فعليه بالحضور ، لأن نفحات الجموع و أنوارها و أسرارها تصيب الحاضر و تُمنع عن الغائب ، لذلك قال رضي الله عنه :"و اعلم بأن الرضاء يخص من حضرا" و في رواية " الرضى" ، لكن هناك لطيفة و هي أنه رُبّ حاضر غائب و رُبّ غائب حاضر ، ذلك أن الحضور بالقلب و ليس بالقالب هو المُعوّل ، فهناك من يحضر الجموع و شيخه أمامه لكن قلبه غارق في وديان الدنيا و شعابها ، و منهم من غاب لكن قلبه مع شيخه منعه الحضور قلّة أو عائق ، فالأول محروم و الثاني مرحوم . قال سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه :"إياك أن تخرج من هذه الدار وما ذُقت حلاوة حبه ،ليس حلاوة حبه في المآكل والمشرب ، لأنه يشاركك فيها الكافر والدابة بل شارك الملائكة في حلاوة الذكر والجمع على الله تعالى لأن الأرواح لا تحتمل رشاش النفوس ، فإذا انغمست في جيفة الدنيا لا تصلح للمحاضرة لأن حضرة الله تعالى لا يدخلها المتلطخون بنجاسة المعصية فطهر قلبك من العيب يفتح لك باب الغيب وتُب إلى الله وارجع إليه بالإنابة والذكر ومن أدام قرع الباب يُفتح له ولولا الملاطفة ما قُلنا لك ذلك"

٤-و لازم الصمت إلا أن سئلت فقل

لا علم عندي و كن بالجهل مستترا

قال أحدهم:

بيت الولاية قسمت أركانه
ســاداتنا فيه مـن الأبدال
ما بين صمت اعتزال دائم
والجوع والسهر النزيه الغالي

يروى أنه صلى الله عليه وسلم قال :"الصمت يورث معرفة الله ، والعزلة تورث معرفة الدنيا ، والجوع يورث معرفة الشيطان ، والسهر يورث معرفة النفس "

و قد ورد في فضل الصمت أحاديث كثيرة منها

ما رواه سيدنا أَبو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ :

« مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ »و عَنْ سيدنا عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النّجَاةُ؟ قَالَ:"احْفَظْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ "

قال سيدنا أبوعلي الدقاق رضي الله عنه :

" الصمت سلامة، وهو الأصل ، وعليه ندامة إذا ورد عنه الزجر فالواجب : أن يعتبر فيه الشرع، والأمر والنهي ،والسكوت في وقته صفة الرجال كمَا أَن النطق في موضعه من أشرف الخصال .

والصمت من آداب الحضرة قَالَ الله تَعَالَى : } وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلّكُمْ تُرْحَمُونَ {.

وقَالَ تَعَالَى مخبرا عَنِ الجن بحضرة الرسول صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ } فَلَمّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا }.

وقال تعالى : " وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً " .

وقيل: "السكوت على قسمين : سكوت بالظاهر، وسكوت بالقلب والضمائر .

فالمتوكل : يسكت قلبه عن تقاضي الأرزاق .

والعارف : يسكت قلبه مقابلة للحكم بنعت الوفاق ،فهذا بجميل صنعه واثق، وهذا بجميع حكمه قانع .

والصمت لَيْسَ بمخصوص عَلَى اللسان لكنه عَلَى القلب والجوارح كلها

وقَالَ بَعْضهم من لَمْ يستغنم السكوت فَإِذَا نطق نطق بلغو .

قَالَ سيدنا أَبُو بَكْر الفارسي رضي الله عنه :"من لَمْ يكن الصمت وطنه فَهُوَ فِي الفضول وإن كانَ صامتا " و قال سيدناممشاذ الدينوري رضي الله عنه : "الحكماء ورثوا الحكمة بالصمت والتفكر "

و يروى عَن سيدنا معاذ بْن جبل رضي الله عنه أَنّهُ قَالَ : "كلم النّاس قليلا وكلم ربك تَعَالَى كثيرا لعل قلبك يرى اللّه تَعَالَى " و قيل سيدنا ذي النون المِصْرِي من أصْون النّاس لنفسه؟ قَالَ أملكهم للسانه "

و قيل : "صمت العوام بألسنتهم و صمت العارفين بقلوبهم وصمت المحبين من خواطر أسرارهم " و قال سيدنا الفضيل بن عياض رضي الله عنه : "من عد كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه "

قيل : " الصمت : عبادة من غير عناء ، وزينة من غير حلي ، وهيبة من غير سلطان ، وحصن من غير سور ، وراحة للكاتبين ، وغنية من الاعتذار " و قال سيدنا الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه : " الصمت : هو شعار المحققين بحقائق

ما سبق وجف القلم به ، وهو مفتاح كل راحة من الدنيا والآخرة ، وفيه رضى الله وتخفيف الحساب ، والصون من الخطايا والزلل . وقد جعله الله ستراً على الجاهل وزينا للعالم ومعه عزل الهوى ورياضة النفس وحلاوة العبادة وزوال قسوة القلب والعفاف والمروءة والظرف ." و قال الشيخ سيدنا ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه:" الصمت نوعان :

صمت باللسان ، وصمت بالجنان ، وكلاهما لا بد منه في الطريق،فمن صمت قلبه ونطق لسانه : نطق بالحكمة ،ومن صمت لسانه وصمت قلبه، تجلى له سره ، وكلمه ربه وهذا غاية الصمت ".

و قال سيدنا محي الدين بن عربي رضي الله عنه :" الصمت على قسمين :

صمت باللسان عن الحديث بغير الله تعالى ، مع غير الله تعالى جملة واحدة .

وصمت بالقلب عن خاطر خطر له في النفس ، في كون من الأكوان البتة .

فمن صمت لسانه ولم يصمت قلبه : خف وزره .

ومن صمت لسانه وقلبه : ظهر له سره ، وتجلى له ربه .

ومن صمت قلبه ولم يصمت لسانه : فهو ناطق بلسان الحكمة .

ومن لم يصمت بلسانه ولا بقلبه : كان مملكة للشيطان ، ومسخرة له .

فصمت اللسان : من منازل العامة ، وأرباب السلوك .

وصمت القلب : من صفات المقربين ، وأهل المشاهدات .

وحال صمت السالكين : السلامة من الآفات .

وحال صمت المقربين : مخاطبات التأنيس .

فمن التزم الصمت في جميع الأحوال كلها ، لم يبق له حديث إلا مع ربه ، فإن الصمت على الإنسان محال في نفسه .

فإذا انتقل من الحديث مع الأغيار،إلى الحديث مع ربه ،كان نجياً مقرباً مؤيداً في نطقه .

وإذا نطق نطق بالصواب لأنه ينطق عن الله تعالى . فالنطق بالصواب نتيجة الصمت عن الخطأ ، والكلام مع غير الله خطأ ، بكل حال ، وبغير الله سوء من كل حال ...

ولحال الصمت مقام روحي على ضروبه . والصمت يورث معرفة الله تعالى وتقدس "إ.هـ

":فهذا معنى قول الشيخ رضي الله عنه :"و لازم الصمت" و قوله رضي الله عنه

و لازم الصمت إلا أن سئلت فقل

لا علم عندي و كن بالجهل مستترا

فإذا سئلت أيها السالك عن مسألة فقهية أو عن شرح حال أو مقام أو تفسير نور أو تأويل سر فقل :" لا أعلم ، و الله أعلم " و لو كنت تعرف جواب ذلك فقل :" لا علم عندي " و تستر بحجاب الجهل ، فجهل يوصلك الى الحق خير من علم يحجبك عن الحق ، لأن في جوابك عن السؤال رؤية نفس و أنت لا زلت لم تقطع مفاوز النفس و عقبات الطريق ، فقد يداخلك الشيطان بالغرور ليقطع سلوكك، إشتُهِرَ عن الإمام سيدنا مالك رضي الله عنه كثرة ترداده لكلمة لا أدري وكان إذا سُئِلَ عن مسألة قال للسائل أنظرني حتى أفكر، وربما يأتيه في الغد فيجيبه وربما يقول له أيضاً أنظرني .

ويُروى أنَّ رجلاً جاءه من أقصى المغرب فسأله عن موضوع وقال : جئتك من مسيرة ستة أشهر من المغرب وحُمِّلتُ هذا السؤال، فقال له مالك : قل لمن أرسلك إنه لا يدري . قال فمن الذي يعلم؟ قال : الذي علّمه الله ولم يجبه ولكن قال له إن شئتَ عد غداً ريثما أفكر بها وأقرأ ما يمكن أن يتصل بها، حتى إذا جاء الغد جاءه الرجل فقال له مالك : فكرت بها ملياً ولا أدري ما

الجواب ! ولقد عوتب مالك في ذلك فبكى وقال : إني أخاف أن يكون لي في المسائل يوم وأي يوم .

و قد أوصى العارفون بالله تعالى تلاميذاتهم بالصمت و صون اللسان و الجنان فيقال : إذا جالست العارفين بالله احفظ قلبك و سرك ، و أوصوا أيضا رضي الله عنهم بكتمان الأحوال و المقامات و ستر الأنوار و التجليات و الأسرار ، و إظهار الجهل و الخمول بهذا تنفجر من قلوبهم ينابيع الحكمة،

قال سيدي ابن عجيبة رضي الله عنه في شرح الحكم العطائية:" الخمول هو إسقاط المنزلة عند الناس وكتمان سر الولاية وكل ما يسقط المنزلة عندهم وينفي تهمة الوَلاية فهو خمول وإن كان في الحس ظهوراً ولذلك كان شيخنا رضي الله عنه يقول : طريقتنا منها الخمول في الظهور والظهور في الخمول ".

و لا ترى العيب إلا فيك معتقدا-٥

عيبا بدا بينا لكنه استترا

قال تعالى :(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) ، ظلوم لنفسه كفّار نِعم ربّه ، و من يريد الله به خيرا يُحقّقه بحقيقة نفسه من ضعف و ذل و فقر ، قال سيدنا علي كرم الله وجهه :" مسكين ابنُ آدم ، مكتومُ الأجل ، مكنونُ العِلل ، محفوظ العمل ، تؤلمه البقّة ، وتُنتِنُه العَرْقَة ، وتقتله الشَرْقَة" ، فمن عرف نفسه ذليلا عرف الله عزيزا ، و من عرف نفسه فقيرا عرف الله غنيا ، و من عرف نفسه ضعيفا عرف الله قويا ، لذلك يروى :" من عرف نفسه فقد عرف ربّه " ، و السالك يعرف نفسه مقصّرا في حق الربوبية و أنه ما عبد الله حق عبادته ، و أنه كله ذنوب و معاصي و عيوب لولا ستر الله عليه ، قال ابن القيم رحمه الله تعالى

في طريق الهجرتين:" أن ينسيه رؤية طاعته ويشغله برؤية ذنبه فلا يزال نصب عينيه ، فإن الله إذا أراد بعبد خيراً سلبه رؤية أعماله الحسنة من قلبه والإخبار بها من لسانه ، وشغله برؤية ذنبه ، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة ، فإن ما تقبل من الأعمال رفع من القلب رؤيته ومن اللسان ذكره . وقال بعض السلف : إن العبد ليعمل الخطيئة فيدخل بها الجنة ، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار ، قالوا : كيف ؟ قال : يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه ، إذا ذكرها ندم واستقال وتضرع إلى الله وبادر إلى محوها وانكسر وذل لربه وزال عنه عجبه وكبره ، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يراها ويمنّ بها ويعتد بها ويتكبر بها حتى يدخل النار " إ.هـ و البيت إشارة إلى قول سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه:"رُب ذنب أورث ذلا وانكسارا خير من طاعة أورثت عجبا واستكبارا"، و لا ذنب أعظم من رؤية العبد نفسه ، و سرحانها في هواها و ما تشتهي و تمنى ، قال صلى الله عليه وسلم حكاية عن ربه "عاد نفسك فإنها انتصبت لمعاداتي"، وقيل قال الله تعالى البعض أوليائه في المنام (عاد نفسك فليس لي من المملكة منازع غيرها) ، فليس أعظم ذنب من رؤية النفس ، و هو معنى قوله رضي الله عنه :"و لا ترى العيب إلا فيك " و هي نفسك ، "معتقدا عيبا بدا بيّنا " و هو رؤيتها ، " لكنه استترا " بلطف الله تعالى عليك ، فلو تركك و نفسك نفسا واحدا لهلكت ، فعليك أيها السالك بمعاتبة نفسك و القيام على تربيتها كما قيل :

يا خادم الجسم كم تسعى الى خدمته
و تطلب الربح بما فيه خسران
عليك بالنفس فاستكمل فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

و عليك بخاصة نفسك لا ترى عيوب غيرك و تنسى عيوبك كما قال أحدهم:

قبيح من الإنسان ينسى عيوبه
و يذكر عيبا في أخيه قد اختفى
فلو كان ذا عقل لما عاب غيره
و فيه عيوب لو رآها بها اكتفى

: قال الإمام سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه في الحكم
(أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة عدم الرضا منك عنها . ولأن تصحب جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه ، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه ؟ وأي جهل لجاهل . (لا يرضى عن نفسه ؟

: قال الشيخ عبد المجيد الشرنوبي رحمه الله تعالى
يعني أن النظر إلى النفس بعين الرضا يوجب تغطية عيوبها ، ويصير قبيحها حسناً .
: والنظر إليها بعين السخط يكون بضد ذلك ، على حد قول القائل
وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ... كما أن عين السخط تبدي المساويا
فمن رضي عن نفسه ، استحسن حالها ، فتستولي عليه الغفلة عن الله تعالى ، فينصرف قلبه عن مراعاة خواطره ، فتثور عليه الشهوة ، وتغلبه ؛ لعدم وجود المراقبة القلبية التي تدفعها ، فيقع في المعاصي لا محالة . فعطف الغفلة والشهوة على المعصية ، من عطف السبب على المسبب . وكذا عطف اليقظة والعفة على الطاعة ، فإن اليقظة التي هي التنبه لما يرضي الله تعالى ، والعفة التي هي علو الهمة عن الشهوات ، يتسبب عنهما الطاعة التي هي اتباع المأمورات ، واجتناب المنهيات . وإنما كان الرضا عن النفس أصل كل المعصية ؛ لأنها أمارة بالسوء ، فهي العدو الملازم . و في الحديث : " أعدى عدوك نفسك التي بين

جنبيك " ، وناهيك قول زليخا في سورة يوسف : } وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي أن النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ { (53) يوسف . ولله در الإمام البوصيري حيث قال :

وخالف النفس والشيطان واعصهما ... ... وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكما ... ... فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

ولما كان الرضا عن النفس ، من شأن من يتعاطى العلوم الظاهرية ، التي لا تدل على عيوب النفس ، نهى المصنف عن صحبتهم بقوله : ولأن تصحب ؛ بفتح لام الابتداء الداخلة على أن المصدرية ؛ أي لَصُحْبَتُكَ جاهلا لا يرضى عن نفسه ، خير لك في تحصيل فائدة الصحبة التي هي الزيادة في حالك ، من أن تصحب عالماً بالعلوم الظاهرية ، يرضى عن نفسه . فإن المدار في الانتفاع بالصحبة ، إنما هو على العلم بعظمة الله وجلاله وإحسانه ، الذي ينشأ عنه معرفة النفس وعيوبها ، لا على العلوم العقلية والنقلية . فأي علم ؛ أي نافع لعالم بالعلوم الظاهرية يرضى عن نفسه . و أي جهل ضار لجاهل بالعلوم الظاهرية لا يرضى عن نفسه ؛ لعلمه بعيوبها ، فإنه وإن قَلّتْ بضاعته من الأحكام ، لا بد أن يحصلها بالوقائع على مدى الأيام . فلا ينبغي للمريد أن يصحب إلا من يكون عارفاً بعيوب نفسه ، غير راض عنها ؛ ليقتدي به في أفعاله ، فإن الطبع سراق .

كما قال بعضهم :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... ... فكل قري بالمقارنة يقتدي
إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ... ... ولا تصحب الأردى فتردى مع الردى

و حط رأسك و استغفر بلا سبب-٦
و قم على قدم الإنصاف معتذرا
قال الله تعالى (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا . يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا . وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) ، و قال صلى الله عليه وسلم - : "طوبى لمن وجد في كتابه استغفاراً " ، و السيدة عَن عائشةَ رضي الله عنها قالَت : "طوبى لِمن وجدَ في صَحيفتِهِ استغفاراً كثيراً"

أي و تواضع و أكثر من الإستغفار بلا سبب ، أي لا تكن كمن أذنب ثم استغفر و لا تعتقد هذا وتقول و ما شأن كثرة إستغفاري و لم أذنب ، بل إذا ألّمّ هذا الخاطر فأنت على خطر عظيم ، فقد رأيت نفسك و أنها غير مذنبة و الحق أن وجودها أكبر ذنب و رؤيتها أعظم شرك بالله تعالى، فإذا جاءك هذا الخاطر قم منصفا حقَّ الحقِّ تعالى معتذرا مستغفرا ، لأن رؤية النفس على ثلاثة أثافي فوق موقد البعد عن الحق تعالى و مظنّة سخطه محروقة و هي الأنا الإبليسية و العندية القارونية و اللية الفرعونية ، فالملعون قال " أنا خير منه " ، و فرعون قال " و لي ملك مصر "، و قارون قال " إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي" ، فالبلاء كل البلاء في الياء ، أبدلها هاء ، تفوز و تجوز و تحوز ،

قال الشيخ سيدي عبد السلام ابن مشيش رضي الله عنه :"والدلالة على الله هي الدلالة على نسيان النفس فإذا نسيت نفسك ذكرت ربك قال تعالى وأذكر ربك اذا نسيت أي ما سواه وسبب التعب هو ذكر النفس والاعتناء بشؤونها وحظوظها وأما من غاب عنها فلا يلقى إلا الراحة" قال أحد العارفين :" إذا خطر ببال المريد أنه له في الدنيا و الآخرة قدرا أو قيمة أو على بسيط الأرض أحدا دونه لم يصح له في الإرادة قدم ، لأنه يجب أن يجتهد ليعرف ربه ليحصل لنفسه قدرا ، و فرق بين من يريد الله تعالى و من يريد جاه نفسه إما في عاجله أو في آجله "

و إن بدا منك عيب فاعترف و أقم-٧

وجه اعتذارك بما فيك منك جرى

و سيرك أيها السالك محفوف بأعداء ظاهريين و باطنيين ، فالظاهريون الدنيا و سائر الخلق باستثناء أهل الله أولياء الله الصالحين و إخوانك الفقراء ، و الباطنيون نفسك و هواك و الشيطان، و قد انتصبوا لعداوتك فاشحذ لهم ظبّة سيف انتقامك ، لكن إذا بدا منك عيب أو سوء أدب مع إخوانك الفقراء أو في حق شيخك فبادر و اطلب الصفح والغفران منهم ، و اعلم أنك في امتحان معهم ، فحاذر أن تفشل ،

سئل سيدي رويم بن أحمد البغدادي رضي الله عنه عن الفتوة ، فقال:"أن تُعذر إخوانك في زلاتهم ، و لا تعاملهم بما تحتاج أن تعتذر منه"،

و قل عبيدكم أولى بصفحكم-٨

فسامحوا و خذوا بالرفق يا فقراء

و تواضع و تذلل لأهل الله تعالى و أوليائه المتقين الصالحين و المشايخ المربين العارفين الغارفين و قل أنا عُبَيْدُكم و خُوَيْدُكم سامحوني و اغفروا لي سوء آدابي في حضرتكم و في غيبتكم ، و ارفقوا علي فراحلتي ضالع عرجاء ضعيفة كما قال سيدي ابن الفارض رضي الله عنه :

سيروا على سيري فإني ضعيفكم

و راحلتي بين الرواحل ضالعُ

و إني مذنب غارق في وحل المعاصي و الخطايا ، و طريقكم عقبة كؤود صعب علي قطعها لوحدي فخذوا بيدي و ارحموا ضعفي و سامحوني على دعواي و كذبي فأنتم القوم لا يشقى جليسكم ، فأنا المتشبه بكم و إن لم أكن منكم ، و المتمثل بكم و إن لم أكن فيكم ، و قد طاب مشروبي و لاح مرغوبي في كأس (وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم *************** إن التشبه بالكرام فلاح)

هم بالتفضل أولى و هو شيمتهم-٩
فلا تخف دركا منهم و لا ضررا

و هذا البيت يبين لنا رضي الله عنه أوصاف و شيم أهل الله الصالحين ، و أنك إذا تواضعت لهم و تذللت لهم و تقربت منهم قبلوك بأخطائك و بذنوبك و غضوا عنك الطرف ، فلا قول لهم إلا : تفضّل ، و أهلا و سهلا ، و مرحبا بك،

يا ضيف لو زرتنا لوجدتنا ***نحن الضيوف وأنت رب المنزل

فهم لا يحملون لا حقدا و لا غلا عن اليهود والنصارى فكيف يحملون على الموّحد المحمدي ، بل أنت كحلا في أعينهم و سويداء قلوبهم لو عرفت قدرك ، كما قيل :"لو سمعت صرير القلم حين أجراه بإسمك لِتَّ طربا" ، فلا تخاف و لا تخشى دركا و لا ضررا منهم رضي الله عنهم، فهم أطباء القلوب و الأرواح و الأدلاء على الله تعالى ، فكيف تخشى دليل الله ؟؟ بل أنت الضعيف بين اللطيف و الشريف ، فاحمد الله أن أوصلك إليهم ، و عرّفك عليهم ، قال سيدي أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه لبعض تلاميذه :" إذا صحبك إنسان و أساء عشرتك ، فادخل عليه بحسن أخلاقك يطب عيشك، و إذا أنعم عليك فابدأ بشكر الله عز و جل، فإنه الذي عطّف عليك القلوب ، و إذا ابتليت فأسرع الاستقالة، فإنه القادر على كشفها دون سائر الخلق"

و بالتفتي على الإخوان جد أبدا-١٠
حسا و معنى و غض الطرف إن عثرا

بالتَفَّتِّي أي بالفتوة ، كن فتى على الإخوان و جد و تكرم حسا و معنى،" اجتمع مشايخ بغداد عند سيدي أبي حفص النيسابوري رضي الله عنه و سألوه عن الفتوة ، فقال : تكلّموا أنتم فإن لكم العبارة و اللسان ، فقال سيدي الجنيد رضي الله عنه : الفتوة إسقاط

الرؤية و ترك النسبة ، فقال سيدي أبو حفص رضي الله عنه: ما أحسن ما قلت ، و لكن الفتوة عندي أداء الإنصاف ، و ترك مطالبة الإنصاف، فقال سيدي الجنيد رضي الله عنه: قوموا يا أصحابنا ، فقد زاد أبو حفص على آدم و ذريته"، أي إسقاط المنزلة ، أنصف الناس منك ، و لا تنصف نفسك من الناس ، و كن مظلوما و لا تكن ظالما ، و في بعض النسخ " و بالتغنّي" أي تكرّم حسا بالتصدق بأموالك و معنى بالترفق بأخلاقك، و في نسخة غيرها " بالتَّفَنّي " أي كن متفانيا في خدمة إخوانك الفقراء حسا و معنى ، و غض طرفك عن سوء أدب إخوانك في حقك ، فسوء الأدب كالواجب في السلوك ، لأنه لا سوء أدب لا يظهر الأدب ، و قد قيل :"كل سوء أدب أورث أدبا فليس بسوء أدب" ،

١١- و راقب الشيخ في أحواله فعسى
يرى عليك من استحسانه أثرا

و راقب شيخك عند جلوسك و حضورك معه ، فقد يغنيك بنظرة واحدة تكون في حقك ليلة القدر تكون لك ذخرا و مشاهدة خير من ألف شهر عبادة و مجاهدة ،يقول أحد الصالحين: :"إذا نظر فيك العارف تعرضت لأنوار الحضرة و اخضر عودك " ، و مما يروى في سماع الصوفية :

إذا نظرتوني بنظرة صالحة
يلقح جناني و الثمر يطيب

و جاء في إيقاظ الهمم :" أن العارف بالله يجمع بين العبد ومولاه بنظرة أو بكلمة " قال بعضهم:" إذا كانت السلحفاة تربي أولادها بالنظرة، فكيف بالشيخ الكامل لا يربي أبناءه بالنظرة" ، و قال سيدي أبو العباس المرسي رضي الله عنه:" ما بيني و بين مريدي إلا نظرة واحدة، فإذا نظرته قد أغنيته"، و قال سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه:" مالي و صحبة الأميين ، و الله لقد صحبنا رجالا ، لو نظر أحدهم إلى شجرة يابسة لأثمرت من حينها "

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في الطبقات في ترجمة سيدي يوسف العجمي الكوراني : "وكان رضي الله عنه إذا خرج من الخلوة يخرج وعيناه كأنهما قطعة جمر تتوقد فكل من وقع نظره عليه انقلبت عينه ذهباً خالصاً، ولقد وقع بصره يوماً على كلب فانقادت إليه جميع الكلاب، إن وقف وقفوا وان مشى مشوا .((إلى أن قال :)) ووقع له مرة أخرى أنه خرج من خلوة الأربعين فوقع بصره على كلب فانقادت إليه جميع الكلاب، وصار الناس يهرعون إليه (إلى الكلب) في قضاء حوائجهم، فلما مرض ذلك الكلب اجتمع حوله الكلاب يبكون ويظهرون الحزن عليه، فلما مات اظهروا البكاء والعويل، وألهم الله - تعالى - بعض الناس فدفنوه فكانت الكلاب تزور قبره حتى ماتوا "

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني :" فهذه نظرة إلى كلب فعلت ما فعلت، فكيف لو وقعت على إنسان؟ "

و زيادة في الفائدة هذا الفصل نقلا عن كتابي عن سيرة شيخي سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه

الرابطة و همّة الشيخ

همّتك يا سيدي الصّوفي زورق إسعاف و نجاة
إذا ركبه الغارق في بحور التوحيد نجا و فاز
و رابطتك لاقط هوائي تتجلّى بأنوار و أسرار
على قلوب أحبابك تشبيها كأنّها مذياع أو تِلفاز

الرابطة هي أن يربط المريد قلبه بقلب شيخه حيّا كان أو ميّتا و أن يجعل خيال صورة شيخه بين عينيه أي أن يتخيّل نفسه جالسا أمام شيخه و هذا من أهمّ و آكد الآداب لأنّ همّة الشيخ هي التي تطرد عن مريده الخيالات الفاسدة و هي التي تُحرق الشيطان إن

اقترب منه , لأنّ بتشخيصه لصورة شيخه النورانية , تطرد عن خياله الصور الظلمانية التي يستجلبها له الشيطان ليُصرفه عن ذكر الله تعالى , و تكون مع المبتدئ بصور الحسان و الغلمان و أمور النساء و جمالهنّ و جِماعهنّ , و تكون مع المتوسط في أمور الأذواق المسلوبة و الأشواق المكذوبة و التي يزيّنها له الشيطان ليُفتّره بها عن زيادة الذكر و كأنّه وصل و أتمّ سلوكه فلا داعي للذكر , و بتشخيص صورة الشيخ في خيال مريده يحترق شيطانه الباطني ذلك الموسوس و المسوّل له و يُطرد عنه , و تشخيص صورة الشيخ بأن يُصوّره مريده في خياله بين عينيه ثمّ يتوجّه إلى روحانيته في تلك الصورة و كأنه واقف أمامه و ناظر إليه و يُركّز على ذلك و هو مُتوجّهٌ إلى روحانيته بكلّيته ثم يبدأ في الذكر حتى ينجذب و يغيب في ذكره , فإن حصل له ذلك يترك الرابطة الروحانية بينه و بين شيخه و يترك الكعبة و يغيب في ربّ الكعبة و كلّما زالت عنه الجذبة و الغيبة في المذكور جلّ سلطانه يعود إلى الرابطة حتى يغيب و ينجذب ويُداوم على ذلك حتى يفنى عن ذاته و صفاته في صورة الشيخ , و يحسّ كأنّه هو شيخه , وروحه هي روحه , و يشاهد روحانية شيخه مع كمالاته في صورة نفسه أي نفس المريد لأنّ الكمالات لا تُفارق الروحانية فتُربّيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى و لو كان الشيخ في المشرق و مريده في المغرب فإنّ الاتّصال الروحاني يكون على أتمّه بينهما ولو كان الشيخ ميّتا فكذلك الإرسال يستمر على أشدّه و أكثر ممّا كان في حياته لأنّه بالموت تتحرّر الروحانية من النظر إلى الجسد الطيني و التطلع إلى إصلاحه و تخفّ من ثقله و تتجرّد عنه فيكون اتّصالها كأسرع ما كان و هي في الجسد , قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه و هو يبيّن فوز الروح بالموت و تحرّرها من الجسد الطين :

أنا عصفور وهذا قفصي ****** طرت منه وبقي مرتهنا

أحمد الله الذي خلصني **** وبنى لي في المعالي سكنا

و هذه الرابطة هي المسمّاة في اصطلاح التصوف بالفناء في الشيخ , لقولهم : الفناء في الشيخ هو المقدّمة للفناء في الله جلّ جلاله و عزّ سلطانه , هذا عن الدرجة الأولى الصفراء لطرد الخيالات الفاسدة و الوساوس الشيطانية عن قلب المريد الذاكر , أمّا إذا حلّت الشارة الحمراء وتكاثرت الوساوس من كل حَدب و صوب و جاء اللعين بخيله و

رَجِله و غاص خرطومه النجس في قلب المريد فقال له من هو الله الذي تذكره ؟ و أين هو ؟ و كيف هو ؟ و إن كان هو من خلقك , فمن خلقه هو ؟ و جاءه اللعين بكلّ شاردة و واردة عن مَغامِي غَمَاغِمِ التوحيد فأراد تكسير سفينة عقيدته بسَفِينِ وسوسته و أغرقه في عليه ريح نفسه و جاءه موج الشكّ و الشرك و الكفر من كل لجّة بحر الطريق و هيّج مكان , فإن استنجد المريد برُبّان سفينة روحه و هو شيخه فلم يُنقذه و لم يأخذ عنه دفة سفينته ليقودها بنفسه غرقت سفينة روحه لتوّها في بحر الكفر , هذا إن لم يزل عنه عقله, لذلك يتطلب فورا من المريد أن يُرسل إشارات الإنذار لشيخه لينقذه و يمدّه بأسراب الأسرار و قاذفات الأنوار من بارجة روحانيته لتقصف عنه حَوالِك جيوش اللعين إبليس فورا و لا يتمّ له ذلك إلا بفتح قاعدة عسكرية لروحانية شيخه في قلبه , فيتصوّر أنّ شيخه جالس و مُتربّع على عرش قلبه و أنّ دقات قلبه تذكر اسم شيخه , مع كل دقّة يّذكر اسمه و يُداوم على ذلك حتى ينجلي عن ساحة قلبه خطر اللعين و وساوسه , و لا تكون هذه الرابطة القلبية إلا بكمال الحبّ و شدّة الشوق إلى الشيخ ثمّ قد يستجلبها المريد الذاكر فإذا فتح قلبه لشيخه جاءه اللعين بكل ذنب عصى به شيخَه و يأتيه بكل غِلظة كلام نَصَحَهُ بها شيخُه و يُصوّر له اللعين أنّ شيخه يكرهه و لا يُحبّه من هذه الحيثية و يقول له ما ينفعك شيخك بهذه الرابطة و هو لا يحبك و قد عصيته , فإذا سمع منه المريد ذلك قسِيَ قلبه أنّ يجعل شيخه في قلبه مع ربطه بتيّار حبّه , فإن فعلها فقد مُكر به و يُخشى عليه , لذلك لا ينبغي للمريد أن يسمع تلك الوساوس الشيطانية و الهواجس النفسية , وأن يعصي الشيطان في شيخه ولا يُطيعه , و يقول لنفسه مهما عصيت شيخي في أوامره فأنا في تربيته و كفالته و سرّ السلوك هو ذنب يتبعه توبة , و عصيان يتبعه غُفران , ثم يثبّت نفسه بالكلام التالي و يجعله شعارا يضرب به وجه اللعين لو وسوس له فيقول : لو كنت خاليا من المساوئ و العيوب وكانت أخلاقي أخلاق الأبرار فما حاجة الشيخ بيّ , و سرّ اتخاذ المريد لشيخه هو ليُرِيَه مساوئ نفسه وعيوب طبعه و يصير يَشذبُه و يُلقّمه تلقيم أغصان الشجرة لتُثمر و يشذبه ليزيل عن شجرة روحه أغصان هواه و نفسه الميّتة , بل حكم المريد في بدايته حُكم غصن شجرة مجهولة في فلاة , فإذا التقى مع شيخه يصير الشيخ يشذب ذلك الغصن و يحكّه و يبرده حتى يُصَيّره مِرْوَدا تُكَحّلُ به

العيون . بل جعل الله تعالى الشيخ برزخا بينه و بين المريد الماكر الناكر الكافر , ماكر بنفسه و ناكر لشيخه و كافر بربّه , و هو عند ملاقاة الشيخ في غاية الخبث الباطني و الظلام النفساني فلا يصلح أصلا لسانه لذكر الله تعالى لكُدورة باطنه و غلبة نفسه على صفاء روحه , فلا يزال الشيخ في تربيته و تنقيته و تطهيره و مسح ظلاميته حتى ينجلي نوره و تشرق شمس وصوله فيردّه الشيخُ المريدَ الذاكر الشاكر الساكر الغارق في حبّ ربّه العارف به تعالى , و هذه الرابطة هي التي عناها الشيخ سيدي أبو مدين شعيب رضي الله تعالى عنه بقوله:

و راقب الشيخ في أحواله فعسى ***** يرى عليك من استحسانه أثرا

و كيفية امتلاك مفتاح الرابطة فإذا أرادها وجدها في قلبه هو أن يُديم المريد النظر إلى وجه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه و يقرن هذا النظر وهذا التملّي بالصلاة والسلام على الحبيب المحبوب صلى الله تعالى عليه و آله وسلم إلى أن يتجلّى له في مظهر شيخه نور الوراثة المحمدية , و كيفية امتلاكه بعد وفاته رضي الله تعالى عنه هو أن يضع صورة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه أمامه و يقرن ذلك أيضا بالصلاة والسلام على النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم و يُداوم على ذلك , حتى يصير إذا أغمض عينيه يرى صورة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه شاخصة أمامه , أمّا لمن فنيَ الفناء المُطلق في الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه فإنّه أينما صرف نظره رآه يقظة , نسأل الله تعالى أن يفتح علينا بهذه النظرة النورانية المباركة بمنّه وفضله , قال الشيخ سيدي عبد الحكيم الأرواسي رضي الله تعالى عنه في المنتخبات : { و من المقرّر أنّ الذّكر بدون الرابطة ليس بمُوصِل , وأمّا الرابطة بدون الذّكر فموصل , و الرّابطة مقدّمة في كلّ الأمور , و خاصّة مُمِدّ و مُعاون في الذّكر و تُطهّر القلب الذي هو بيت الله تعالى من التّلويثات النفسانية والشيطانية , و الرابطة على ثلاث أنواع : أوّلها : أن يُصوّرَ المُريدُ صورةَ شيخه في خزانة خياله , و هذا القسم يكون في ابتداء الذّكر , و ثانيها : أن يُصوّر المريدُ صورة شيخه في قلبه , و إن حصل مثل هذا القسم أثناء الذّكر بدون إختيار , يذكر الله تعالى مُحافظا صورة شيخه في قلبه مُتفكّرا وُجودَه في القلب , و ثالثها : أن يتصوّرَ المريد نفسه بهيئة شيخه و قيافته و كأنّه هو و ليس نفسه , أي كأنّ

ظاهر المريد هو صورة شيخه , وهذا القسم مُختصّ بالعبادة , فيتخيّل نفسه بتلك الهيئة عند قراءة القرآن و الإستماع له , و عند قراءة دلائل الخيرات و الإستماع للدّرس و الوعظ و أثناء الصّلاة و أداء العبادات , و يقول أنّ من أدّى كلّ هذه العبادات لستُ أنا , إنّما هو الوليّ , و يلتذّ كثيرا من عمل مثل هذه العبادات , و للصّلاة و الذّكر و العبادة حلاوة خاصّة و لذّة مُختصّة في هذا الطريق ,كأنّه يدخل إلى الحضرة الإلهية بواسطةٍ تليق لتلك الحضرة , ويمتثل بالآية الكريمة { و ابتغوا إليه الوسيلة } , و يترقّى السّالك في هذا الطريق بسرعة و يصل إلى مدارج القرب الإلهي , و يقال لهذه الرابطة : الرابطة التَّلَبُسِيَّة } والعلم الحديث قد تكشّفت بحوثه الماوراعقلية أو عالم الميتافيزيقا , أنّ الإنسان إذا فكّر في شخص آخر في زمن معيّن , فإنّ هذا الشخص المُفكّر فيه تصله إشارات التفكير , فيتفكّر في نفس الزمن في الذي تفكّر فيه , و المريد إذا فكّر في شيخه وربط بمحبّته قلبه , فإنّ شيخه في نفس الوقت يُفكّر في هذا المريد و يُرسل إليه إشارات هي المَدد الروحي الذي يترقّى به المريد في سيره , ثم قد يُنكر بعضهم عليّ هذا الكلام و يقول أنّ الإمداد انقطع بوفاة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه فليبحث المريد الذي لم يصل بعد على شيخ آخر يوصله و هذا شأن بعضهم , بل قد سقط بعض من أخذ بهذا الكلام و هوى على أمّ رأسه فلم تنفعه صحبة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه و لم تشفع له محبّة الشيخ إيّاه لأنّه كان سببا في هلاك نفسه بنفسه و غدا مُعلّقا بعد ما لم يجد شيخا كاملا مكملا يُنقذه من ورطته , و هو كذلك إذ قال له اللعين أنا شيخك , فقبل الخاسر بذلك , لأنّه قيل تحقيقا : من لم يكن له شيخ , فشيخه الشيطان . ثم صار مثل هذا نادما مُغنيّا يقول : يا لاَ لِي ! يا لاَ لِي ! ما أنا بالأول ما أنا بالتالي , يا مالي ! يا مالي ! يا ربي رُدْ لي حالي ! أمّا المريد الصادق فنقول له لا تخش و ألزم عتبة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه فإنّه سيفتح لك باب القبول و يُدخلك في حضرة الوصول و يقول لك : ها أنت و ربّك ! سُئِل سيدي عبد العزيز الدبّاغ رضي الله تعالى عنه :{ إذا صحب المريد شيخا كاملا عارفا بربّه و ادعى أنّه يُربّيه بهمّته ثم إذا غابت بشرية الشيخ بموت أو سفر يجد المريد ضعفا من نفسه في الحال والعلم و العمل , فما معنى تربيته له بالحال و الهمّة و انتفاعه به مع ضعف انتفاعه به إذا بَعُدَ عنه ؟ فأجاب رضي الله تعالى عنه : بأنّ همّة

الشيخ الكامل هي نور إيمانه بالله عزّ و جلّ , وبه يُربي المريد و يُرقيه من حالة إلى حالة , فإن كانت محبّة المريد للشيخ من نور إيمانه أمدّه الشيخ حضر أو غاب , بل لو مات و مرّت عليه آلاف من السنين , و من هنا كان أولياء كل قرن يستمدّون من نور إيمان النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم , و يُربيهم و يُرقيهم صلى الله تعالى عليه و آله و سلم , لأنّ محبّتهم فيه محبّة صافية خالصة من نور إيمانهم , وإن كانت محبّة المريد في الشيخ من ذات المريد لا من إيمانه انتفع به ما دام حاضرا فإذا غابت الذات عن الذات بالموت وقع الانقطاع , و علامة محبّة الذات أن تكون محبّته في الشيخ لتحصيل نفع أو لدفع ضر دنيوي أو أخروي , و علامة محبّة الإيمان أن تكون خالصة لوجه الله تعالى لا لغرض من الأغراض , فالمريد إذا وجد النقص من نفسه عند غيبة الشيخ فالتقصير منه لا من الشيخ } . فعلامة المحبة الخالصة كما ذكرها سيدي عبد العزيز الدبّاغ رضي الله تعالى عنه هي التي تكون لوجه الله تعالى خالصة , فلو صحب المريد شيخه بنيّة السلوك فقط لم ينتفع به , و قد بيّن صلى الله تعالى عليه و آله و سلم سرّ المحبّة في الله تعالى فقال صلى الله تعالى عليه و آله و سلم : (أوثق عُرى الإيمان الحبّ في الله عز و جل والبُغض في الله) و في رواية : (ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان) و عدّ منهنّ صلى الله تعالى عليه و آله و سلم (و أن يُحبّ المرءَ لا يُحبّه إلا لله) و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلم أيضا مبيّنا فضل المحبّة في الله تعالى : (إنّ من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء و لا شهداء يغبطهم الأنبياء و الشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى , قالوا : يا رسول الله ألا تُخبرنا من هم ؟ فقال صلى الله تعالى عليه و آله و سلم : هم قوم تحابّوا برُوح الله تعالى على غير أرحام بينهم و لا أموال يتعاطونها , فو الله إنّ وجوههم لنور و إنّهم لعلى نور و لا يخافون إذا خاف الناس و لا يحزنون إذا حزن الناس , و قرأ صلى الله تعالى عليه و آله و سلم هذه الآية : (ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون) , و قال سيدي عبد العزيز الدبّاغ رضي الله تعالى عنه :{ إذا قويتْ محبّة المريد لشيخه جذب الشيخ إليه , فتصير ذات المريد مسكنا للشيخ , و كل واحد يُزَيّن مسكنه }, يشير رضي الله تعالى عنه إلى تأثير الشيخ في ذات المريد إذا سكنها , و قال رضي الله تعالى عنه أيضا :{ إنّ المريد إذا أحبّ الشيخ المحبّة الكاملة سكن الشيخ معه في ذاته , و يكون بمنزلة الحُبْلى

التي تحمل ولدها , فإنّ حملها تارة يتمّ صلاحه فيبقى على حالة مستقيمة إلى أن تضعه و تارة يسقط و لا يجيء منه شيء و تارة يحصل له رقاد ثم يُفيق و الإفاقة تختلف فقد يُفيق بعد شهر و قد يُفيق بعد عام وقد يُفيق لأكثر من ذلك , فهكذا حالة المريد إذا جمل لشيخه فتارة تكون محبّته خالصة تامّة دائمة فلا يزال أمر الشيخ يظهر في ذاته إلى أن يفتح الله تعالى عليه , و تارة تكون محبّته منقطعة بعد أن كانت صادقة و انقطاعها بسبب عروض مانع نسأل الله تعالى السلامة منه , فتتبدّل نيّته في الشيخ و تنقطع أسرار الشيخ عن ذاته بعد أن كانت ساطعة عليها و تارة تقف محبّته في سيرها لمدّة قريبة أو متوسطة أو طويلة فتقف أسرار ذات الشيخ عن ذاته , فإذا رجعت المحبّة رجعت الأسرار , فليختبر المريد نفسه من أي قسم هو من هذه الأقسام الثلاثة , و لا ينتفع المريد بمحبّة شيخه إذا أحبّه لسرّه أو ولايته أو لعلمه أو كرمه أو لنحو ذلك من العلل , حتى تكون محبّته متعلقة بذات الشيخ متوجّهة إليه } . و قد فكّ العلم الحديث ألغاز التواصل الروحي و حلّ الشفرة السريّة للنّفس الإنسانية عمّا يُسمّى بالاتصال التخاطري و هي إذا فكّر أحدهم وهو بالمشرق في شخص آخر يعرفه و هو بالمغرب تفكيرا مركّزا و يُرسل إليه بخياله رسائلا وأفكارا فإنّها تصل إليه و من ذلك هذه الواقعة التي سردها طبيب ألماني عمّا يفعله تركيز العقل على شيء ما و القوة النفسية المُرسلة عبر الأثير و التي تؤثر عن بُعْد في الآخرين و هي قصة أحد مرضاه جاءه يشكو من أنّ راحته الليلية تضطرب بما يسمعه من أصوات مُقلقة و مُزعجة كثيرة الشَبّه بطرق السكّة الحديدية , و كان المريض عاجزا عن تعليل هذه الظواهر المُقلقة لراحته حيث كان يعتبرها مُجرّد مرض وهمي , فجاء إلى الطبيب ليُخلّصه منه , و لكنّ الطبيب لم يجدْ علّة عضوية أو نفسية يستطيع معها الوصول إلى أسباب هذا القلق , و كان دارسا للقِوَى ما وراء النّفس , فسأله: هل لك أعداء ؟ فأجابه المريض : إنّ عدوّي حدّاد القرية و هو رجل عجوز يحمل لي ضغينة , فتوجّه الطبيب إلى هذا الحدّاد و سأله : كيف تنتقم من أعدائك؟ وذكر له اسم المريض و إن كان ينتقم أيضا منه , فأجاب : أنتقم من أعدائي و منهم هذا المريض الذي عليه دَيْنٌ لم يسدّده ليّ و ماطل , بأن أركّز في كل ليلة تفكيري عليه في ساعة محدّدة وأطرق طرقات مُفزعة بقضيب من حديد مُتخيّلا هذا الرجل في عقلي كأنّه أمامي و أنا أقلق راحته , فأمر الطبيب مريضه بأن يُسدّد دَيْنه للحدّاد , و

أخذ يُعلّمه كيف يحمي نفسه و يقيها من التأثيرات النفسية الضارة سواءً كانت مُرسلة من نظرة عابرة لعين حاسدة أو مُنَوّمة مغنطيسيا أو مُرسلة عبر الأثير من فكرة مُصمّمة من ضغينة نفسية , فهذا مثال عن قوّة الإرسال النفسي , و هذا الاتصال التخاطري وقع بين نفسين كافرين خبيثين فما بالنا إن وقع بين روحين مسلمين طاهرين على ما يرضاه الله تعالى , و قد تكلّم عن هذه الرابطة و سرّ همّة الشيخ في تربية المريد و ترقيته الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السرهندي و ابنه سيدي محمد معصوم رضي الله تعالى عنهما فلنقتصر على ذكر شيء من نفائس كلامهما , فقد ورد إلى الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السرهندي رضي الله تعالى عنه سؤال عن دوام نسبة الرابطة يقول صاحبه : {بأنّ الرابطة قد استولت عليّ حتى أراها في الصلاة مسجودة لي فإن نفيتها فرضا لا تنتفي أصلا , فأجابه رضي الله تعالى عنه : إنّ هذه الحالة هي مُمْتَنّ طالبي السلوك و لا يُعطاها إلا واحد من ألف , و صاحب هذه المُعاملة مُستعد تامّ المناسبة لأن يجذب جميع كمالات شيخه , و كيف تُنفى الرابطة فإنّها مسجود إليها لا مسجود لها , و لِمَ لا تُنفى المحاريب و المساجد ؟ وظهور مثل هذه الدولة إنّما يتيسّر للسعداء حتى يعلم صاحب الرابطة واسطته في جميع الأحوال و ليكون متوجّها إلى مُرشده و شيخه في جميع الأوقات }. و قال الشيخ سيدي محمد معصوم رضي الله تعالى عنه:{إنّ رابطة الحبّ توصل الحبيب إلى المحبوب و تجعله موصوفا بصفاته الكاملة و تجعل الطالب مطلوبا و تُجرّد سالك العشق الفوراني من الصفات البشرية وتُخلّصه من أنانية النفس و توصله إلى الحريم القدسي الإلهي و منازل القرب , و المحبّة هي سبب وجود الكون و محرّكة لسلسلة الإيجاد و مُظهرة للكنز المكنون على عرصة الوجود . وإذا ما توجّه أحد إلى شيخه في كل زمان و مكان رآه حاضرا و يُسمى هذا رابطة و هي أكثر فائدة من الذكر بدونها }. و قال أيضا رضي الله تعالى عنه :{ إنّ المريد الرشيد يأخذ الفيوض والبركات من باطن شيخه الذي يقتدي به في غيابه أو بعد موته بمقدار حبّه و ارتباطه المعنوي به , و يستفيد ببركة ارتباطه المعنوي جذب المعاني الخفية , إلا أنّ حصول المعرفة والوصول إلى درجات الولاية إنّما هو مَنوط بصحبته }. و معنى قوله رضي الله تعالى عنه هذا يقصد به مُريدَيْن , واحد لم ير الشيخ الذي يُربّيه بالروحانية و إنّما أخذ الوسيلة عن نوّابه من أذن لهم الشيخ بذلك , و بصدقه و شدّة محبّته

لشيخه نال الفيوضات و البركات من باطن شيخه بالرابطة , و هذا محجوب عنه باب الوَلاية لأنّه لم ير شيخه أبدا , و طريقة هذا المريد في السلوك نُسَمّيها أويسية الوَلاية نسبة إلى سيدنا أويس القرني رضي الله تعالى عنه الذي تربى بروحانية النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم و كان عنده ذوق الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم و شرب مشربهم و لمّا فاتته النظرة النبوية و الصّحبة الخليلية لم يُلحق بلقب الصحابة وإنّما سمّي تابعي , و درجة الصحابي فوق درجة التابعي كما أنّ درجة التابعي فوق درجة تابعي التابعي ثمّ درجة تابعي التابعي فوق درجة الولي , و المريد الآخر هو من صحب شيخه و تملّى بنظرته فنهاه و أمره و ربّاه و سقى ذاتَه بأنواره و روحه بأسراره فهذا لو صحب شيخه يوما واحدا و رآه مرّة واحدة و كان صادقا فانيا في شيخه بالحبّ المُقلق و العشق المُحرق بحيث لا يغيب عن فكره خيال صورته ساعة فإنّه ينال درجة الوَلاية , كما أنّ مِن صغار السنّ من الصحابة الكرام من رأى النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم مرّة واحدة فألحق بدرجة الصحابة . ثم قد يلتبس على البعض الفرق بين المحبّة للشيخ و المحبّة لغيره من إخوانه الفقراء و سائر المشايخ أحياءً أو أمواتا , فيجعلهما في درجة واحدة , و هذا غير صائب و صاحب هذه المحبة لا يجيء منه شيء حتى يستأثر شيخُه و يتربّع إبتداءً على حَبَّة قلبه لوحده حتّى يعرف حضرة الحبيب صلى الله تعالى عليه و آله و سلم فيفنى درجات في محبّته فوق درجة شيخه حتّى يغرق في بحار محبّة الله تعالى , فلا بدّ للمريد أن يتوجّه إلى شيخه فقط و يربط بمحبّته قلبه و يتحقق أنّ الفيوضات لا تُستمدّ إلى من قلب شيخه و بواسطته و أنّ استمداد شيخه من مشايخ سلسلة الطريق إلى حضرة النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم , فعين المدد هو حضرة النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم . و بذلك لا ينظر المريد بعين قلبه إلا حضرتين يحطّ فيهما شدّة حبّه و زفرات عشقه و قد عشق الله تعالى و هما حضرة شيخه و هو يوصله إلى حضرة النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم . قال سيدي عبد القادر رضي الله تعالى عنه :

حضرت مع الأقطاب في حضرة الّلقا ***** فغِبتُ به عنهم و شاهدته وحدي

و قدم الجد و انهض عند خدمته-١٢
عساه يرضى و حاذر أن تكن ضجرا
قال سيدي أبو مدين شعيب رضي الله عنه عن المريد :" و يكون مع المشايخ بالخدمة و الإتّعاظ" قال شارحها سيدي أحمد العلاوي رضي الله عنه:" و من أدب المريد مع المشايخ أن يبادر لخدمتهم و أن يتّعظ بوعظهم ، و من لم ينهض لخدمتهم و يتعظ بوعظهم في الغالب يسقط من نظرهم ، و إن سقط من نظرهم لا محالة يسقط من عين الله، و للمصنف رضي الله عنه في بعض نصائحه:

و راقب الشيخ في أحواله فعسى
يرى عليك من استحسانه أثرا
و قدّم الجد و انهض عند خدمته
عساه يرضى و حاذر أن تكون ضجرا

فقد بيّن ما يحتاج إليه المريد في سيره،و عليه فلا يحسن بالمشايخ إلا من خدمهم ، و قد شاهدنا أن كل من خدمهم إلا و أخذ بقلوبهم ، و لو أن أحدا أنفق عليهم من الأموال الباهظة، ثم لم يتذلل على أعتابهم و يخدم جنابهم ، في الغالب لا يحصل على ما يحصل عليه غيره، قيل أن مولاي الطيب بن مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنهما أتى لتلميذ من تلامذة أبيه و قال له : أعطني مما أعطاك أبي، فقال له: حتى تكون لي عبدا كما كنتُ أنا لأبيك، فقال له: أنا أكون عبدا لعبدك ، فلم تمر عليه أيام إلا و حصل على ما عند أبيه ، و من ذلك قول المصنِّف : من خدم الصالحين انتفع بخدمته ... لكل شيء ثمن ، و ثمن طريق القوم إسقاط المنزلة، فلهذا من أتى للمشايخ و لم يسْخ بخدمتهم ، فلا يحصل على سرهم ."إ.ه

فإذا خدمت المشايخ احذر أن تضجرا و لا تقل لهم " أف" ، فطاعتهم مثل طاعة الوالدين بل أشد ، لأن لهم حق كبير من والديك الطينيين ، فهم والديك الروحانيين الذين أخرجوك من الظلمات الى النور و قرّبوك إلى الله تعالى ، فمن ربى و هدى أولى ممن حمل و ولد ، ثم رأفة بنا ضعيفي اليقين لم يطالبنا شيخنا الحليم سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه

بخدمته ، لأنه كان غنيا بالله تعالى ، و لم يطالبنا بإسقاط المنزلة ، بل أمرنا بخدمة الله تعالى وحده ، و كرما سقانا بأسراره و ملأنا بأنواره ، ثم هناك لفتة بسيطة و هي أن المشايخ في زمن شيخ مشايخنا سيدي أبو مدين شعيب رضي الله عنه كانوا في عبادة لله و جهاد للأعداء من الصليبيين و غيرهم ، و كانوا من الفقر في حضيض لكن في يفاع و زهد عن دق أبواب الملوك و السلاطين ، و كانوا ينفقون على الفقراء والمحتاجين و المساكين ، فكانت لهم أنعام و أراضي للحرث ، فكانوا يشرطون و يشارطون السالك بالخدمة لاسقاط المنزلة فإذا رضي أجادوا بأنوارهم و شرّبوه أسرارهم .

ففي رضاه رضى الباري و طاعته-١٣

يرضى عليك فكن من تركها حذرا

(قال الله تعالى:(رضي الله عنهم و رضوا عنه

فإذا اجتزت أيها السالك مرحلة خدمة شيخك و رضي عنك ، فقد وصلت إلى رضى الله عنك ، ففي رضى الشيخ رضى الله، {وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } ،

قال سيدي القشيري في رسالته ": قبول قلوب المشايخ للمريد أصدق شاهد لسعادته، ومن رده قلب شيخُ من الشيوخ فلا محالة يرى غبّ ذلك، ولو بعد حين . ومن خُذل بترك حرمة الشيوخ فقد أظهر رقم شقاوته، وذلك لا يخطئ ".

قال سيدي أبو يزيد البسطامي رضي الله عنه:"أحبب أولياء الله تعالى ليحبوك ، فإن الله تعالى ينظر الى قلوب أوليائه، فلعله أن ينظر إلى إسمك في قلب وليه فيغفر لك "

فبشراك أيها السالك إذا رضي الله عنك ، فرضى الله تعالى أسمى مطلب و أعلى مرغب يدندن حوله الصوفية ، عن سيدنا أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِرَجُلٍ : " مَا تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ ؟ " ،

فَقَالَ : أَتَشَهّدُ ، ثُمّ أَقُولُ : اللّهُمّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الجَنّةَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النّارِ . أَنَا وَاللّهِ مَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ ، فَقَالَ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ : " حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ " ، فإذا وصلت إلى ذوق رضى الله تعالى عبدته تعالى شوقا و لذة ، فعض على طاعتك بالنواجذ و لا تغتر و تأمن مكر الله تعالى ، قال سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول : " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك " فقلت : يا رسول الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال : " نعم إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ".

و اعلم بأن طريق القوم دارسة-١٤

و حال من يدعيها اليوم كيف ترى

ولد سيدي أبو مدين شعيب رضي الله عنه سنة

٥٠٩ ، هـ و توفي رضي الله عنه سنة ٥٩٤ هـ أي في القرن السادس الهجري

يقول الشيخ الأكبر سيدي محي الدين بن عربي رضي الله عنه : " شيخنا أبو مدين من الثمانية عشر الظاهرين بأمر الله، عن أمر الله، لا يرون سوى الله في الأكوان، وهم أهل علانية وجهر، مثبتون للأسباب ." وقد ذكر ابن الزيات التادلي في كتابه التشوف إلى رجال التصوف، عن إبراهيم الأنصاري يقول : " خرّج أبو مدين ألف تلميذ، ظهرت على كل واحد منهم كرامة " ، وهذه أكبر كرامات سيدي أبي مدين رحمه الله ، ولعل من أكبر تلاميذه اللذين تخرجوا على يده " العارف سيدي محي الدين ابن العربي، والعارف الشيخ سيدي أبو عبد الرحيم القنائي، والعارف الشيخ أبو عبد الله القرشي " ، وغيرهم كثير ، وقد قال عنه

الشيخ يوسف اللخمي : " هو من أعيان مشايخ المغرب، وصدور المقربين، وعظماء العارفين وأئمة المحققين، صاحب الكرامات ... ، وهو أحد أوتاد المغرب ."

و قال أيضا سيدي بن عربي رضي الله عنه : " الغالب على قلب سيدي أبو مدين وبصره مشاهدة الحق في كل شيء ."

وقال عبد الله الفهري السبتي في التعريف به : "كان مقبوضا بالزهد والورع، مبسوطا بالعلم، قد خاض من الأحوال بحارا، ونال من المعارف أسرارا ... ،

وقال صاحب النجم : سيدي أبو مدين سيد العارفين، وقدوة السالكين ... ، جمع بين الشريعة والحقيقة وأنار به معالم هذه الطريقة، وأقامه ركنا من أركان الوجود، وأظهره بالبلاد المغربية، هاديا، وداعيا للخلق ."

لقد كان سيدي أبو مدين نورا لامعا في أهل زمانه، سرى بمريديه وتلامذته إلى أرقى الأحوال، وأزكى الدرجات، وأعظم المقامات، يقول أحمد القسنطيني (ابن قنفذ) في كتابه أنس الفقير ":كان الشيخ أبو مدين رضي الله عنه مشغولا بالتربية، والإفادة، والتعليم، والعبادة، والإقبال على الله تعالى في الظاهر" والباطن ." ، و مع هذا كله قال رضي الله عنه

و اعلم بأن طريق القوم دارسة " من فعل دَرِس أي عَفَا وَامّحَى ،أي أن طريق " التصوف و طلب الحق تعالى مفقودة و عزيزة الوجود ، قلّ طالبها و انعدم دليلها ، لقلة الهِمم و التعزّز بالنفس و توجه أكثر الناس إلى هومهم الدنيوية ، ثم قال رضي الله عنه :"و حال من يدعيها اليوم كيف ترى" و يقصد رضي الله عنه كثرة المدّعين في زمانه ، أي الطريق دارسة فكيف يدّعونها ؟

قال الشيخ سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله عنه عن قلّة الطالبين و الصادقين في السلوك إلى حضرة ملك الملوك تعالى :" بل هي لآحاد أفراد من كل ألف ألف إلى انقطاع

النفس واحد " ، أي واحد من مليون يطلب السلوك ، و كانت الطريقة عزيزة لأن بدايتها ذل و نهايتها عز ، بداية إذلال النفس و نهايتها الوصول إلى العزيز تعالى ، بداية موت و نهايتها حياة ،

قال سيدي أحمد بن مسكين الفقيه البغدادي رضي الله عنه : "من دخل في مذهبنا هذا - يعني الطريق - فليجعل على نفسه أربع خصال من الموت : موت أبيض، وموت أسود، وموت أحمر، وموت أخضر؛ فالموت الأبيض الجوع، والموت الأسود احتمال الأذى، والموت الأحمر مخالفة النفس، والموت الأخضر طرح الرقاع بعضها على بعض " يعني لبس المرقعة والخلق من الثياب ."و سئل يوما صاحبه وتلميذه " أبي تراب " وجاريته في تأويل هذا الكلام : قد فهمنا وجه التسمية في الموت الأخضر ما دامت المرقعة خضراء؛ فما الوجه في الأبيض والأسود والأحمر؟ فجاء بقول لم أرضه، وليس معه دليل، ثم قال : فما عندك أنت؟ قلت : أما الجوع فيميت النفس عن شهواتها ويتركها بيضاء نقية، فذلك الموت الأبيض؛ وأما احتمال الأذى فهو احتمال سواد الوجه عند الناس، فهو الموت الأسود؛ وأما مخالفة النفس فهي كإضرام الناس فيها، فذاك الموت الأحمر " ، قال أحد العارفين بالله :" طريقتنا هذه لا تصلح إلا لأقوام كنست بأرواحهم المزابل" ، ذلك أن السالك طريق الحق تعالى يُطالب بإسقاط المنزلة مثل قصة الرجل الذي كان مع سيدنا أبي يزيد البسطامي رضي الله عنه بقي معه ثلاثين سنة فكان لا ينقطع عن مجلسه ولا يفارقه فقال له يوماً يا أستاذ أنا منذ ثلاثين سنة أصوم النهار وأقوم الليل وقد تركت الشهوات ولست أجد في قلبي شيئاً من هذا الذي تذكر البتة وأنا أؤمن بكل ما تقول وأصدقه فقال له سيدنا أبو يزيد رضي الله

عنه لو صليت ثلاثمائة سنة وأنت على ما أراك عليه لا تجد منه ذرة قال فلم يا أستاذ قال لأنك محجوب بنفسك قال أفلهذا دواء حتى ينكشف هذا الحجاب قال نعم ولكنك لا تقبل ولا تعمل قال بل أقبل و أعمل ما تقول قال له أبو يزيد إذهب الساعة إلى الحجام وأحلق

رأسك ولحيتك وأنزع هذا اللباس وأتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة وأملأها جوزاً وأجمع حولك صبياناً وقل بأعلى صوتك يا صبيان من يصفعني صفعة أعطه جوزة وأدخل سوقك الذي تعظم فيه وأنت على هذه الحالة حتى ينظر إليك كل من عرفك ،فقال يا أبا يزيد سبحان الله أيقال لمثلي هذا وتحسب أني أفعله فقال له قولك سبحان الله شرك فقال له وكيف فقال أبو يزيد لأنك عظمت نفسك فسبحتها قال يا أبا يزيد لست أقدر على هذا ولا أفعله ولكن دلني على غير هذا حتى أفعله فقال له أبو يزيد إبدأ بهذا قبل كل شيء حتى تسقط جاهك وتذل نفسك ثم بعد ذلك أعرفك بما يصلح لك قال لا أطيق هذا قال أنك قد قلت أنك تقبل وتعمل وأنا أعلم أن لا مطمع لعبد فيما حجب عن العامة من أسرار الغيب حتى يموت نفسه ويخرق عوائد العامة فتُخرق له

العوائد وتظهر له الفوائد . وكذلك قصة سيدي أبي عمران البردعي مع شيخه سيدي أبي عبد الله التاودي بفاس من حلق رأسه ولبسه جلابية وأخذه خبزة ينادي عليها من يخلصها ففعل جميع ذلك وكذلك قصة شيخ

شيوخنا سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله عنه من أكله التين عند أشجار الناس وغنائه بالأسواق وخرابه بالقصر مشهور حتى طوف بها مراراً . وكذلك قصة سيدي علي العمراني رضي الله عنه فخرابه بفاس مشهور كنار على علم سكن السفليات حتى مات رضي الله عنه وكذلك قصة شيخ شيخنا مولاي العربي الدرقاوي رضي الله عنه من لبسه الغرارة

وسقيه بالقربة وغير ذلك مما هو معلوم فهذه الحكايات تدل على أن الخمول ليس هو ما يفهمه العوام من لزوم البيوت والفرار إلى الجبال فذلك هو عين الظهور عند المحققين وإنما الخمول هو كما قال الشيخ سيدي أحمد

زروق رضي الله عنه:" تحقق النفس بوصفها الأدنى وشعورها به أبداً ووصفها الأدنى هو الذل وكل ما يثقل عليها فمرجعه للتحقق بوصف التواضع وفائدته تحصيل العمل وكمال الحقيقة ".

متى أراهم و أنى لي برؤيتهم-١٥

أو تسمع الأذن مني عنهم خبرا

ثم كالمشتاق لهؤلاء الرجال الصالحين أولياء الله تعالى و خاصته من عباده يعلّمنا رضي الله عنه تمني لقاءهم ، و متى نراهم و كيف لنا برؤيتهم و أين نجدهم و عمن نسمع عن أخبارهم ، فهم الأطباء للقلوب و الأدلاء على المحبوب ، و هم الكبريت الأحمر و الدر الثمين الأفخر ، و هم خلفاء الله تعالى و رسوله صلى الله عليه وسلم في خلقه ، و هم أمان الله في أرضه ، بهم يُمطر الله الأرض ، و لأجلهم يرفع البلاء عن البلاد و العباد، قال بعضهم :" لله تعالى رجال لا يعرفهم إلا الخاصة ولله رجال يعرفهم الخاصة والعامة ولله رجال لا يعرفهم لا الخاصة ولا العامة و لله رجال أظهرهم في البداية وسترهم في النهاية و لله رجال سترهم في البداية وأظهر في النهاية و لله رجال لا يعرفهم سواه ولا يطلع على ما بينه وبينهم إلا الحفظة الكرام الذين وكلوا بحفظ السرائر و لله رجال اختص الله بمعرفتهم لا يُظهر حقيقة ما بينه وبينهم إلى الحفظة، فمن سواهم حتى يلقونه فهم شهداء الملكوت الأعلى وهم المقربون وهم الذين يتولى الله قبض أرواحهم بيده وهم الذين طابت أجسامهم من
طيب أرواحهم فلا يعدو عليها الثرى حتى يبعثون مشرقين بانوار البقاء المجعول فيهم ببقاء الأبد مع الباقي الأحد وهم المُخْفون تحت حجاب الأنس المغموسون في بحار القدُس فليس لهم مع غيره قرار ولا عن
أنفسهم أخبار تولى الله شأنهم ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون " ، فطوبى لمن وجدهم و رآهم ، و طوبى لمن قَبِلُوه و قَبَّلُوه ، و طوبى لمن صاحبوه و ساحبوه ، و طوبى لمن شرّبوه الهَاءَ و عرّفوه الله ، و لله الحمد و الشكر و المنّة أن عرّفنا الله تعالى سيدنا محمد الصوفي رضي الله عنه مثل هؤلاء الرجال ، الذي كان عارفا و غارفا و غارقا و فارقا و طارقا و واصلا موصلا ، عارفا بالله تعالى، غارفا من طمطام أسرار و أنوار سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، غارقا في حب الله تعالى، فارقا الحقيقة عن الدعوى ، طارقا القلوب بحق الحقيقة ، واصلا إلى حضرة المشاهدة ، موصلا من شاء الله له السعادة .

من لي و أنى لمثلي أن يزاحمهم -١٦
على موارد لم آلف بها كدرا

لكن كيف لي بهم ، و كيف أصل إليهم ، و كيف أزاحمهم بِرُكْبَتَي على مشارفِ مشارقِ مشاربٍ غير آسنة و لا مكدَّرة ؟ ؟

يقول الامام سيدنا أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه قبل مصاحبته للصوفية يقول لولده عبد الله رحمه الله (يا ولدي عليك بالحديث و إياك مجالسة هؤلاء الذين سموا أنفسهم الصوفية فإنهم ربما كان أحدهم جاهلا بأحكام دينه فلما صحب أبا حمزة البغدادي الصوفي وعرف أحوال القوم أصبح يقول لولده ياولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة " ، دام الامام سيدي أبو حامد الغزالـي رضي الله عنه في خلوته مقدار عشر سنين؛ ليصل إلى نتيجة وهي في قوله : "إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتـهم وسكناتـهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتـها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟ وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه. ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه "

و

قال الشيخ سيدي عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه : "يا غلام: لا يكن همك ما تأكل وما تشرب، وما تلبس وما تنكح، وما تسكن وما تجمع، كل هذا همُّ النفس والطبع فأين همُّ القلب، همك ما أهمك فليكن همك ربك عز وجل وما عنده "

أحبهم و أداريهم و أوثرهم-١٧

بمهجتي و خصوصا منهم نفرا

فهؤلاء القوم الكرام السادة أصحاب السعادة الصوفية أهل الله تعالى و خاصته أحبهم و أداريهم إذا غضبوا لأرضيهم و أؤثرهم بروحي و مالي و أبسط لهم أثواب أدبي ، و كل من انتسب أو احتسب إليه صلى الله عليه وسلم من السادة الصوفية و من العارفين بالله الغارفين من بحره صلى الله عليه وسلم المربين المقربين الواصلين الموصلون فهم أعمامي في الطريق ، و كل من تبرك بهم أو سلك طريقهم من المريدين و المحبين و رشف من دِيَمِه صلى الله عليه وسلم فهم إخواني في الطريق ،

كلهم من رسول الله ملتمس

غرفا من البحر أو رشفا من الديم

، لكن زيادة على كل هذا أختصّ بحب لا منتهى له و عشق لا مدى له أحبابا آخرين و هم شيخي و شيخ شيخي و شيخ شيخ شيخي إلى حضرة سيد الوجود سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم و هم أهل السلسلة الشريفة هم على رأسي و عيني و هم سويداء قلبي و هم نور عيني و مهجة روحي أموت دونهم و وجهي على تراب أقدامهم ، و نالوا هذا الشرف لأنهم سواقي روحي و منابع شرب قلبي و التيار الكهربائي الدائم الذي لا ينقطع الرابط قلبي بقلب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهم أولى من أبي و أمي و من زوجي و أبنائي ، فلولاهم لكنت ميّتا بين الأحياء ، و لكنت أخا الحيوان ، و لكنت غافلا عن الله غارقا في دنيا القذارة ، فجزاهم الله عنا خير الجزاء ، و تبركا بهم عليهم رضى الله و رضوانه أذكرهم لتتنزل علينا شآبيب عطفهم رضي الله عنهم .

: سند الطريقة الصوفية"
أخذ الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه الطريقة عن شيخه سيدي أبي مدين بوتشيش رضي الله تعالى عنه عن سيدي أحمد العلاوي رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد البوزيدي رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد الوكيلي رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي يعزى المهاجي رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد بن عبد القادر رضي الله تعالى عنه عن سيدي العربي الدرقاوي رضي الله تعالى عنه عن سيدي علي الجمل رضي الله تعالى عنه عن سيدي العربي بن عبد الله رضي الله تعالى عنه عن سيدي أحمد بن عبد الله رضي الله تعالى عنه عن سيدي قاسم الخصاصي رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد بن عبد الله رضي الله تعالى عنه عن سيدي عبد الرحمن الفاسي رضي الله تعالى عنه عن سيدي يوسف الفاسي رضي الله تعالى عنه عن سيدي عبد الرحمن المجذوب رضي الله تعالى عنه عن سيدي علي الصنهاجي الدوار رضي الله تعالى عنه عن سيدي إبراهيم الفحام رضي الله تعالى عنه عن سيدي أحمد زروق رضي الله تعالى عنه عن سيدي أحمد الحضرمي رضي الله تعالى عنه عن سيدي يحي القادري رضي الله تعالى عنه عن سيدي علي بن وفا رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد وفا بحر الصفا رضي الله تعالى عنه عن سيدي داود بن باخلي رضي الله تعالى عنه عن سيدي أحمد بن عطاء الله السكندري رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي العباس المرسي رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه عن سيدي عبد السلام بن مشيش رضي الله تعالى عنه عن سيدي عبد الرحمن العطار الزيات رضي الله تعالى عنه عن سيدي شعيب أبي مدين رضي الله تعالى عنه عن سيدي عبد القادر الجيلاني رضي الله تعالى عنه عن سيدي سعيد المبارك رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي علي الحسن بن يوسف رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي الفرج الطرطوسي رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي الفرج عبد الوهاب التميمي رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي بكر بن جحدر الشبلي رضي الله تعالى عنه عن سيدي أبي القاسم الجنيد رضي الله تعالى عنه عن سيدي سري السقطي رضي الله تعالى عنه عن سيدي معروف الكرخي رضي الله تعالى عنه عن

سيدي علي بن موسى الرضا رضي الله تعالى عنه عن سيدي موسى الكاظم رضي الله تعالى عنه عن سيدي جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه عن سيدي محمد الباقر رضي الله تعالى عنه عن سيدي زين العابدين رضي الله تعالى عنه عن سيدنا الحسين السبط رضي الله تعالى عنه عن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله تعالى وجهه عن سيدنا و مولانا و منبع فيوضاتنا و وسيلتنا إلى ربنا سيدنا محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه و سلم عن سيدنا جبريل عليه السلام عن رب العزة و الجلال سبحانه و تعالى. فعليك أيها السالك أن تربط قلبك بالمحبة لهم ، فإذا أحببتهم وصلت إلى محبة الله لك فإذا أحبّك الله و رضي عنك سعدت سعادة الدارين و شربت أقداح الحب كما قال سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه: " ورود الأمداد بحسب الإستعداد، و شروق الأنوار على حسب صفاء الأسرار ".

قوم كرام السجايا حيثما جلسوا-١٨
يبقى المكان على آثارهم عطر
أهل الله و رجاله أولياؤه الصالحون تشتاق لهم الجنة و تحن لهم الأرض و مجالسها و تتباهى بهم الجبال والقفار و الفيافي و البحار وتستبشر بمَن يذكر الله عليها .
قال سيدنا ابنُ مسعود رضي الله عنه : " إن الجبل ليُنادي الجبلَ باسمه : أمَرّ بك اليوم أحدٌ يذكر الله ؟ فإذا قال : نعم، استبشر ".
و قال سيدنا عون بن عبدالله رضي الله عنه : " إنّ البقاع ليُنادي بعضُها بعضًا : يا جارتاه، أمَرّ بكِ اليوم أحدٌ يذكر الله؟ فقائلة : نعم، وقائلة : لا ."و قال سيدنا الأعمش عن سيدنا مجاهد رضي الله عنهما: " إن الجبل ليُنادي الجبل باسمه : يا فلان، هل مرّ بك اليوم ذاكرٌ لله ؟ فمن قائل : لا، ومن قائل : نعم ".

و الشرف الذي ناله السادة الصوفية الكرام هو لكثرة ذكرهم الله تعالى كما قال صلى الله عليه وسلم : [ألا أنبِّئُكم بخيرِ أعمالِكمْ، وأزكاها عندَ مليكِكِمْ، وأرفعها في درجاتِكُم، وخير لكم من إنفاقِ الذّهبِ والورِقِ، وخير لكم من أن تلقَوا عدوَّكم فتضربوا أعناقَهم ويضربوا أعناقَكم ؟ قالوا : بلى . قالَ : ذِكرُ اللّهِ]

و قال صلى الله عليه وسلم أيضا : [إذا مررتُم برياضِ الجنةِ فارْتَعوا . قالوا : وما رِياضُ الجنّةِ؟ قال : حَلَقُ الذّكرِ] و قال صلى الله عليه وسلم أيضا : [ما اجتمَعَ قومٌ في بيتٍ من بيوتِ اللّهِ يتلونَ كتابَ اللّهِ، ويتدارسونَهُ فيما بينَهم إلّا نزلَت عليهِم السَّكينةُ، وغشِيَتهُمُ الرّحمةُ، وحفَّتهُمُ الملائكةُ، وذكرَهُمُ اللّهُ فيمَن عندَهُ]

و في حديث سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : "خرج معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما على حلقة في المسجد، فقال : ما أجلسكم؟ قالوا : جلسنا نذكر الله، قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، وما كان أحد بمنزلتي من رسول الله صلى الله عليه وسلم أقل حديثا مني، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلسكم؟ قالوا : جلسنا نذكر الله، ونحمده على ما هدانا للإسلام، ومنّ به علينا، قال : آلله ما أجلسكم إلا ذاك؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذاك، قال : أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة]

يقول الإمام النووي رحمه الله : (قوله [إن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة])، معناه : يظهر فضلكم لهم، ويريهم حسن عملكم، ويثني عليكم عندهم

و يروى عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : [إنّ لله ملائكةً سيّاحين في الأرض فُضْلًا عن كُتّابِ الناسِ، يطوفون في الطُرُقِ، يلتمسون أهلَ الذِّكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون اللهَ تنادوا : هَلُمُّوا إلى حاجاتِكم، فيَحفُّونهم بأجنحتِهم إلى السماءِ الدنيا، فيسألهم ربُّهم، وهو أعلمُ منهم : ما يقول عبادي؟ فيقولون : يُسبِّحونك، ويُكبِّرونك، ويحمَدونك، ويمجِّدونك، فيقول : هل رأوني ؟ فيقولون : لا واللهِ ما رأوك، فيقول : كيف لو رأوني ؟ فيقولون : لو رأوك كانوا أشدّ لك عبادةً، وأشدّ لك تمجيدًا، وأكثرَ لك تسبيحًا، فيقول : فما يسألوني ؟ فيقولون : يسألونك الجنّة، فيقول : وهل رأوها ؟ فيقولون : لا واللهِ يا ربِّ ما رأوها، فيقول : فكيف لو أنهم رَأوها ؟ فيقولون : لو أنهم رأوها كانوا أشدّ عليها حِرصًا، وأشدّ لها طلبًا، وأعظمَ فيها رغبةً، قال : فمم يتعوّذون؟ فيقولون : من النّار، فيقولُ اللهُ : هل رأوها ؟ فيقولون : لا واللهِ يا ربِّ ما رَأوها، فيقول : فكيف لو رأَوها ؟ فيقولون : لو رأوها كانوا أشدّ منها فرارًا، وأشدّ لها مخافةً، فيقول : فأشهدِكُم أني قد غفرتُ لهم، فيقولُ ملكٌ من الملائكةِ : فيهم فلانٌ ليس منهم، إنما جاء لحاجةٍ ! فيقول : هم القومُ لا يَشْقى بهم جليسُهم]

و قال أحد الأولياء : "علامة المحبة كمال الأنس بمناجاة المحبوب و كمال التنعم بالخلوة به و كمال الاستيحاش من كل ما ينغص عليه الخلوة"

قال سيدي سلطان العارفين البسطامي رضي الله عنه :" إذا وضع العارف رأسه على ركبته يريد أن لا يرفع إلى أن ينفخ في الصور من شدة الأنس بالله "

و قال سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه:" مطلب العارفين من الله تعالى الصدق في العبودية، و القيام بحقوق الربوبية"

و قال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه في كتابه لواقح الأنوار القدسية في بيان العهود المحمدية :"فاعمل يا أخي على جلاء مرآة قلبك من الصدأ والغبار وعلى تطهرك من سائر الرذائل حتى لا يبقى فيك خصلة واحدة تمنعك من دخول حضرة الله تعالى وحضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن أكثرت من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم فربما تصل إلى مقام مشاهدته صلى الله عليه وسلم"

قال أحد العارفين : "من استعد استمدَّ ، فإذا هيَّأ لكَ الإستعداد فقد فتح لكَ باب الإستمداد"

قال سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه.

أي بني، قد ذكر الله تعالى في كتب الأنبياء نعت الأصفياء، يقول الله تعالى: عبدي بي " وجدتني، وبي وقع بيني وبينك عقد المحبة،

وبي صرت من أهل خدمتي، وبي تعرفني وبي تذكرني وتثني عليّ، وبي تتلذذ بذكري، وبي قصدتَ صحبتي، وبي قدرت أن تنظر في الآخرة إلى وجهي، عبدي نفسك لي، وروحك لي، وقلبك لي، وكُلِّيتك لي، فإن أعطيتني الكل أعطيتك الكل، وكنت لك مع الكل "

قال سيدي ابن عطاء الله رضي الله عنه :"من ذا الذى ذاق حلاوة محبتك فرام عنك بدلاً؟

و من ذا الذي أَنِسَ بقربك فابتغى عنك حِوَلا ؟"

و قال سيدي علي زين العابدين رضي الله عنه.

نظّف مرآة قلبك لكي يتجلّى فيها نور جمال الحق فيغنيك عن العالم وكل ما فيه، وتتوهج " نار العشق الإلهي ، والله ما عمرك من أول يوم ولدت فيه بل عمرك من أول يوم عرفت الله تعالى فيه "

و قال سيدي ابن عطاء الله السكندري رضي الله عنه :"لو خلا قلب الإنسان من العشق.. لم يبق من انسانيته إلا صنم من لحم ودم"

و قال مولانا جلال الدين الرومي رضي الله عنه

" أرسل الله رسوله إليك ؛ ليرسلك إليه"

و قال سيدي ذو النون رضي الله عنه: "إطلاع الحق سبحانه على الأسرار بمواصلة المدد ،كإطلاع الشمس على الأرض بإشراق الأنوار ، فعليكم بتصفية القلوب ، فإنها مواضع نظره ، ومواطن سره ، فإن من عرف الله لا يختار غيره حبيباً سواه"، و قال سيدي أبو يزيد رضي الله عنه:" إن في الليل شراباً لقلوب العارفين ، تطيرُ به قلوبهم حبّاً لله وشوقاً إليه، ألا إنّ الناظرين إليه لا إلى غيره ذهبوا بصفوةِ الدنيا والآخرة "

و قال سيدي الإمام الرفاعي رضي الله عنه: "وهذا الشراب هو التحيُّر ، وهو على ضربين : تحير وَحشة وتحير دَهشة ، فتحيُّرُ الوحْشةْ للمطرودين ، وتحيُّرُ الدهشةِ للعارفين المشتاقين "يا دليل المتحيرين زدني تحيُّراً"

و قال سيدي النساج رضي الله عنه :" يخرجُ أكثر أهل الدنيا من الدنيا ولم يذوقوا طيباتها المقصودة ، قيل: و ما هي ؟ قال: سرورُ المعرفة ، وحلاوةُ المِنّة ، ولذائذُ القُربة ، وأنسُ المحبّة " و قوله رضي الله عنه(حيثما جلسوا

(يبقى المكان على آثارهم عطر

هو عطر حسا و معنى ، و الحمد لله شممنا عطرا في حضرة شيخنا سيدي محمد الصوفي رضي الله عنه في مجلس ذكر و عمارة ما شممنا عطرا مثله و كأنه رائحة الجنة ، و عطر معنى تذوقه الأرواح و القلوب تغيب به عن الوجود فناء في واجد الوجود الواحد المعبود سبحانه وتعالى.

يهدي التصوف من أخلاقهم طُرَفا-١٩

حسن التآلف منهم راقني نظرا

يهدي التصوف من أخلاقهم ظُرَفا) و في نسخة أخرى (طُرَفا) و في نسخة غيرهما (طُرُقا) ، و المعنيان الأولان متقاربان ، أي يهدينا فن التصوف من أخلاقهم فوائد كثيرة و عطايا عديدة ، و لمحاتٍ و لفتاتٍ و نُكَتٍ (ليس معنى النكت الأقوال المضحكة بل النكت في اللغة العربية تعني اللطيفة من الكلام و الفائدة) ، و حقا و عدلا فقد أثروا معجم اللغة بكلمات و مصطلحات ومفاهيم غاية في الرقي الأدبي و الفني ، ناهيك عن

الآداب في السلوك التي استنبطوها من القرآن الكريم والسنة الشريفة ، أما عن معنى (يهدي التصوف من أخلاقهم طُرُقا) ، فذلك لتعدد مشاربهم رضي الله عنهم ، فمن الطرق الصوفية من اعتمدت على الذكر و الشكر ، و منها من اعتمدت على الصبر و المجاهدة و الرياضة و إماتة النفس ، و من المشايخ العارفين بالله الربانيين من كان يربي بالنظرة و الخطرة ، و في هذا الصدد نذكر كرامة سيدنا أبو مدين شعيب رضي الله عنه فقد كان يتكلم رضي الله عنه في الحقائق بعد صلاة الفجر فسمع به رهبان دير يعرفون بدير الملك وكانوا سبعين راهباً ، فجاء من أكابر هؤلاء عشرة رهبان بسبب الإمتحان، فتنكروا ولبسوا زي المسلمين ودخلوا المسجد وجلسوا مع الناس يستمعون ولم يعلم إذ ذاك أحد بهم فلما أراد سيدي أبو مدين رضي الله عنه أن يتكلم سكت حتى دخل رجل خياط ، فقال له رضي الله عنه: ما أبطأك ؟؟؟قال له الخياط: يا سيدي حتى فرغت من عشر طواقي التي أوصيتني عليها البارحة ،فأخذ رضي الله عنه الطواقي من الخياط ثم نهض قائماً وألبس كل واحد من الرهبان واحدة، فتعجب الناس من ذلك ولم يعلموا ما الخبر"ثم شرع سيدي أبو مدين رضي الله عنه في الكلام، فكان من جملة قوله: "يا فقراء إذا هبت نسمة التوفيق من جانب الحق تعالى على القلوب المشرقة أطفأت كل نور "

ثم تنفس رضي الله عنه فانطفأت قناديل المسجد كلها وكانت تفوق ثلاثين قنديلاً؛

ثم سكت رضي الله عنه وأطرق فلم يجسر أحد أن يتكلم لعظم هيبته، ثم رفع رأسه وقال: "لا إله إلا الله ، يا فقراء إذا أشرقت أنوار العناية على القلوب الميتة عاشت وأضاءت لها كل ظلمة", ثم تنفس رضي الله عنه فاشتعلت القناديل وعاد إليها نورها فأشرقت بالنور وتمايلت حتى كادت أن تقع ويلحق بعضها ببعض" ثم قرأ سيدي أبو مدين آية السجدة فسجد الناس وسجد الرهبان مع الناس خشية الإفتضاح، فدعا رضي الله عنه في سجوده: "اللهم إنك أعلم بتدبير خلقك ومصالح عبادك، وإن هؤلاء الرهبان وافقوا المسلمين في لباسهم والسجود لك، وإنا قد غيرنا ظواهرهم ولن يقدر على تغير بواطنهم غيرك، وقد أجلستهم على مائدة كرمك فانقذهم من الشرك والطغيان وأخرجهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان" ، فما رفع الرهبان رؤسهم من السجود إلا وقد مضى ما تقدم من الهجران وتخلصوا من الضلالة والطغيان، ثم تقدموا إلى سيدي أبو مدين الغوث رضي الله عنه وتابوا على

يديه ببكاء وقلب حزين، فصرخ الناس وبكوا لبكائهم وكان يوماً مشهوداً ، و قد مات في ذلك المجلس ثلاثة أشخاص. فهذا غيض من فيض كراماتهم و قطرة من بحار كرمهم ، و حرصهم على سعادة الخلق و إنقاذهم من الكفر و الضلال ، و قد دُوّنت في مناقبهم و كراماتهم و فضلهم على خلق الله ما تعجز أن توقره الجمال ، و لأن طريق التصوف طريق طلب الحق و بدونه هو ثلمة في بيضة الدين فقد قال سيدنا مالك رضي الله عنه :" من تصوف و لم يتفقه فقد تفسق و من تفقه و لم يتصوف فقد تزندق و من جمع بينهما فقد تحقّق " ، و لأن التصوف فن عزيز و غالي فقد انتسب إليه كثير من العلماء و الفقهاء من أهل السنة قديما و حديثا و من هؤلاء السادة الكرام:

الفضيل بن عياض.
إبراهيم بن أدهم.
داود الطائي.
سفيان بن عيينة.
أبو سليمان الداراني.
بشر الحافي.
الإمام الجنيد.
معروف الكرخي.
السري السقطي.
ذو النون المصري.
أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان القشيري.
أبو سعيد الخزاز.
الحارث المحاسبي.
يحيى بن معاذ الرازي.
أبو بكر الورّاق.
أبو القاسم السمرقندي.

.أبو عبد الله البلخي
.عبد القادر الجيلاني
.أبو الحسن الشاذلي
.أبو العباس المرسي
.ابن عطاء الله السكندري
.أحمد بن علي الرفاعي
.أبو حامد الغزالي
.زكريا الأنصاري
.منصور الحلاج
.أبو يزيد البسطامي
.محيي الدين ابن عربي
.يحيى بن شرف النووي
.ابن حجر العسقلاني
.ابن حجر الهيتمي
.الحافظ أبو نعيم
.أبو القاسم النصرَاباذي
أبو علي الرَوذباري
أبو العباسْ الدَينوري
القاضي بكارِ بن قتيبةَ
القاضي رُوَيمْ بن أحمد البغدادي
الشيخ الفقيه محمد بن خَفيفِ الشيرازي الشافعي
أبي الفضل محمد المقدسي
.حافظ ابن الصلاح
.تقي الدين السبكي
.تاج الدين السبكي

أبو الحسن الهِيكاري.
نجم الدين الخَبوشاني الشافعي.
سراج الدين أبي حفص عمر المعروف بابن الملقِّن الشافعي.
أبو عبد العزيز أحمد بن صالح الفقيه اليحصبي ثم اليماني.
الحافظ جمال الدين محمد بن علي الصابوني.
الحافظ شرف الدين أبي محمد عبد المؤمن الدمياطي.
الحافظ أبي طاهر السِّلَفي.
الحنبلي المسند المعمّر جمال الدين أبي المحاسنْ يوسف.
عبد الغني النابلسي.
أبو البركات الدردير المالكي.
قاضي القضاة شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي
شرف الدين أبي البركات محمد الجُذامي المالكي.
بهاء الدين أبي الحسن علي بن أبي الفضائل هبة الله بن سلامة.
جمال الدين محمد المعروف بابن النقيب.
قاضي القضاة الشيخ عز الدين عبد العزيز.
قاضي القضاة بدر الدين أبي عبد الله محمد.
برهان الدين إبراهيم بن سعد بن جماعة الكِناني الشافعي.
أبو عبد الله محمد بن الفُرات.
قاضي القضاة تقي الدين أبي عبد الله محمد بن الحسين بن رُزَيْن الحموي الشافعي.
صدر الدين أبو الحسن محمد.
عماد الدين أو الفتح عمر.
معين الدين أبو عبد الله محمد.
المفسّر النحوي أبو حيان الأندلسي.
قطب الدين القَسطلاني.
المفسر كمال الدين ابن النقيب.

.الحافظ أبي موسى المَديني
.علامة نجم الدين أبو النعمان بشير بن أبي بكر حامد الجُبْعْبري التبريزي
.جلال الدين السيوطي
.عبد الواحد بن عاشرٍ الأنصاري المالكي
.الشيخ أحمد بن المبارك اللّمْطي
.أحمد التيجاني
.مفتي اقريقيا الشيخ إبراهيم الرياحي التونسي

....ومن المتأخرين .....
.عبد الحليم محمود
.إبراهيم الباجوري
.محمد متولي الشعراوي
.عبد الرحمن الشاغوري
.محمد الهاشمي
.عبد القادر عيسى
.أحمد العلاوي
.محمد الحامد
.مصطفى سعيد الخن
.محمود بن عبد الرحمن الشقفة
.يوسف النبهاني
.سعيد حوى
.محمد علوي المالكي
.حسنين مخلوف، مفتي الديار المصرية سابقا
.محمد سعيد الكردي
.الملا سعيد رمضان البوطي

.أحمد بن صديق الغماري
.عبد الله بن الصديق الغماري
.أحمد كفتارو
.حسن البنا

.....ومن المعاصرين ....

محمد الصوفي التلمساني الجزائر
حمزة بن العباس البودشيشي المغرب
.محمد سعيد رمضان البوطي، في سوريا
.عبد الحكيم كفتارو
.أحمد بدر الدين حسون مفتي سوريا ، في سوريا
.محمود الدرّة، في سوريا
.محمد بسام الزين، في سوريا
.محمود أحمد زين، في سوريا
.أسامة الرفاعي، مفتي عكار، في لبنان
.علي جمعة مفتي الديار المصرية، في مصر
محمد عز الدين الغرياني، ليبيا
محمد صلاح الدين المستاوي، تونس
.محمد بن ابراهيم بن عبد الباعث الكتاني، في مصر
.علي الجفري، في اليمن
.عمر بن حفيظ، في اليمن
.نوح القضاة المفتي العام للأردن، في الأردن
.نوح كلر، في الأردن
.حسني الشريف، في الأردن

.حازم أبو غزالة، في الأردن
.إسماعيل الكردي، في الأردن
.سعيد فودة، في الأردن
.أحمد الجامي، في تركيا
.يوسف الرفاعي، في الكويت
.محمد عبد الغفار الشريف، في الكويت
.عبد الله فدعق، في السعودية
.أحمد بن محمد العلوي المالكي، في السعودية
.زين بن سميط، في السعودية
.عبد الله بن بيه، في موريتانيا
.محمود رفاعي حمادة، في سوريا
.سعيد الكحيل، في سوريا
.عدنان السقا، في سوريا
.مصطفى البغا، في سوريا

هم أهل ودي وأحبابي الذين علوا-٢٠
عمن يجر ذيول العز مفتخرا

فمهما تفاخر المتفاخرون و تعزز المتعززون و تشامخ المتشامخون و جروا ذيول فخرهم و عزهم و شموخهم أمام أحبابي أهل الله تعالى و مشايخ سلسلة سندي و مشربي و دلاء بئر شربي من حضرة أسرار و أنوار سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلن يكونوا قطرة عندي من بحارهم ، و لا ذرة في نظري في فضاء شموسهم و أقمارهم و نجومهم

: فهم أحباب قلبي و قرة عيوني و عشقي و غرامي و مرادي ، قال محبهم
سقوني وقالوا مت غراما بحبنا ** إذا شئت أن تحيا وتحظى بقربنا
فموت الفتى بالحب راحة قلبه ** إذا مات من حر الصبابة والعنا

فكم من فتى أضحى وكم من متيم ** وكم من قتيل فى الغرام بحبنا
فإن كنت فى دعوى المحبة صادقا ** تجرد وقم وانهض الى باب عزنا
وقف سحرا واخضع وكن متذللا ** وقبل ثرى أعتابنا تبلغ المنى
فمشروبنا يحيي به كل ميت ** ورضاؤنا يشفى العليل من الضنى
فيا لائمي فى الحب دعني فإنني ** جعلت لمن أهواه قلبي مسكنا
وأصبحت من وجدي وشوقى و لوعتي ** أعلل قلبي بالمسرة والهنا
و مطلق دمعي مرسل فوق وجنتي ** ونَمَّ بأسراري وباح وأعلنا
وأصبح من فوق الخدود مسلسلا ** وأمسى حديثي من غرامي معلنا
فمحبوب قلبي قد تجلى جماله ** على طور قلبي حين لَبَّيْتُ معلنا
وقربني لما وقفت ببــابه * * وقال لك البشرى تمل بقربنا
فطاب سماعي عند طيب حديثه ** وزال العنا عنى وأصبحت آمنا

لا زال شملي بهم في الله مجتمعا-٢١
و ذنبنا فيه مغفورا و مغتفرا

و هؤلاء أحباب قلبي لم يغيبوا و لا يغيبوا و لن يغيبوا عني طرفة عين ، بل هم في بالي و خاطري عند كل نَفَس ، فقربهم حياة و بُعدهم ممات ، و حبهم رَوْح روحي ، قال سيدي أبو مدين شعيب رضي الله عنه:

تضيق بنا الدنيا إذا غبتُم ُعنا *** وتَذهَبُ بالأشواقِ أرواحُنا منّا
فبُعدُكُمُ موتٌ وقُربكُم حيا *** فإن غبتموا عنّا ولو نفساً متنا
نموت ببعدِكمُ ونحيا بقُربكم *** وإن جاءنا عنكم بشيرُ اللقا عشنا
ونحيا بذكراكم إذا لم نراكمُ *** ألا إنّ تذكارَ الأحبّة ينعشُنا
فلولا معانيكمُ تراها قلوبُنا *** إذا نحنُ أيقاظٌ وفي النوم إن غبنا

لمتنا أسى من بعدكم وصبابةً *** ولكنّ في المعنى معانيكم معنا
يحرُكنا ذكر الأحاديث عنكمُ *** ولولا هواكُم في الحشا ما تحرّكنا
فقُل للذي ينهى عن الوجد أهلهُ *** إذا لم تذُق معنى شرابِ الهوى دعنا
إذا اهتزّت الأرواح شوقاً إلى اللقا *** ترقصت الأشباح يا جاهلَ المعنى
أما تنظرُ الطير المقفّصَ يا فتى *** إذا ذكر الأوطان حنّ إلى المغنى
يُفَرّجُ بالتغريد ما بِفُؤادِهِ *** فتضطرِبُ الأعضاءُ في الحسّ والمعنى
ويرقصُ في الأقفاصِ شوقاً إلى اللقا *** فتهتزُّ أربابُ العقولِ إذا غنى
كذلكَ أرواحُ المحبّينَ يا فتى *** تهزِّزها الأشواقُ للعالمِ الأسنى
أتلزمُها بالصبرِ وهي مشوقةٌ *** وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى
إذا لم تذُق ما ذاقتِ الناسُ في الهوى *** فباللهِ يا خالي الحشا لا تعنّفنا
وسلّم لنا فيما ادعينا لأننا *** إذا غلبت أشواقُنا ربّما صحنا
وتهتزُّ عند الإستماع قلوبُنا *** إذا لم نجد كتم المواجيد صرّحنا
وفي السرِّ أسرارٌ دقاقٌ لطيفة *** تراقُ دمانا جهرةً إن بها بحنا
فيا حاديَ العشّاقِ قم واحد قائماً *** وزمزم لنا باسم الحبيب وروحنا
وصن سرّنا في سكرنا عن حسودنا *** وإن أنكرَت عيناك شيئاً فسامحنا
فإنّا إذا طبنا وطابت عقولُنا *** وخامَرنا خمرُ الغرام تهتّكنا
فلا تلم السكران في حالِ سُكرهِ *** فقد رفع التكليف في سُكرِنا عنّا

و هذا القرب من شيخك يسمى بالرابطة و لمزيد الفائدة نذكر سرها هنا و أن المشايخ أوصوا بها تلاميذتهم لأنها أقصر طريق للوصول .

فالرابطة هي أن يربط المريد قلبه بقلب شيخه حيّا كان أو ميّتا و أن يجعل خيال صورة شيخه بين عينيه أي أن يتخيّل نفسه جالسا أمام شيخه .

همّتك يا سيدي الصّوفي زورق إسعاف و نجاة

إذا ركبه الغارق في بحور التوحيد نجا و فاز
و رابطتك لاقط هوائي تتجلّى بأنوار و أسرار
على قلوب أحبابك تشبيها كأنّها مذياع أو تِلفاز
و هذا من أهمّ و آكد الآداب لأنّ همّة الشيخ هي التي تطرد عن مريده الخيالات الفاسدة و هي التي تُحرق الشيطان إن اقترب منه , لأنّ بتشخيصه لصورة شيخه النورانية , تطرد عن خياله الصور الظلمانية التي يستجلبها له الشيطان ليُصرفه عن ذكر الله تعالى , و تكون مع المبتدئ بصور الحسان و الغلمان و أمور النساء و جمالهنّ و جِماعهنّ , و تكون مع المتوسط في أمور الأذواق المسلوبة و الأشواق المكذوبة و التي يزيّنها له الشيطان ليُفتّره بها عن زيادة الذكر و كأنّه وصل و أتمّ سلوكه فلا داعي للذكر , و بتشخيص صورة الشيخ في خيال مريده يحترق شيطانه الباطني ذلك الموسوس و المسوّل له و يُطرد عنه , و تشخيص صورة الشيخ بأن يُصوّره مريده في خياله بين عينيه ثمّ يتوجّه إلى روحانيته في تلك الصورة و كأنه واقف أمامه و ناظر إليه و يُركّز على ذلك و هو مُتوجّهٌ إلى روحانيته بكلّيته ثم يبدأ في الذكر حتى ينجذب و يغيب في ذكره , فإن حصل له ذلك يترك الرابطة الروحانية بينه و بين شيخه و يترك الكعبة و يغيب في ربّ الكعبة و كلّما زالت عنه الجذبة و الغيبة في المذكور جلّ سلطانه يعود إلى الرابطة حتى يغيب و ينجذب ويُداوم على ذلك حتى يفنى عن ذاته و صفاته في صورة الشيخ , و يحسّ كأنّه هو شيخه , وروحه هي روحه , و يشاهد روحانية شيخه مع كمالاته في صورة نفسه أي نفس المريد لأنّ الكمالات لا تُفارق الروحانية فتُربّيه روحانية الشيخ بعد ذلك إلى أن توصله إلى الله تعالى و لو كان الشيخ في المشرق و مريده في المغرب فإنّ الاتّصال الروحاني يكون على أتمّه بينهما ولو كان الشيخ ميّتا فكذلك الإرسال يستمر على أشدّه و أكثر ممّا كان في حياته لأنّه بالموت تتحرّر الروحانية من النظر إلى الجسد الطيني و التطلع إلى إصلاحه و تخفّ من ثقله و تتجرّد عنه فيكون اتّصالها كأسرع ما كان و هي في الجسد , قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي رضي الله تعالى عنه و هو يبيّن فوز الروح بالموت و تحرّرها من الجسد الطين :
أنا عصفور وهذا قفصي ****** طرت منه وبقي مرتهنا
أحمد الله الذي خلصني **** وبنى لي في المعالي سكنا

و هذه الرابطة هي المسمّاة في اصطلاح التصوف بالفناء في الشيخ , لقولهم : الفناء في الشيخ هو المقدّمة للفناء في الله جلّ جلاله و عزّ سلطانه , هذا عن الدرجة الأولى الصفراء لطرد الخيالات الفاسدة و الوساوس الشيطانية عن قلب المريد الذاكر , أمّا إذا حلّت الشارة الحمراء وتكاثرت الوساوس من كل حَدب و صوب و جاء اللعين بخيله و رَجِله و غاص خرطومه النجس في قلب المريد فقال له من هو الله الذي تذكره ؟ و أين هو ؟ و كيف هو ؟ و إن كان هو من خلقك , فمن خلقه هو ؟ و جاءه اللعين بكلّ شاردة و واردة عن مَغامِي غَمَاغِمِ التوحيد فأراد تكسير سفينة عقيدته بسَفِينِ وسوسته و أغرقه في لجّة بحر الطريق و هيّج عليه ريح نفسه و جاءه موج الشكّ و الشرك و الكفر من كل مكان , فإن استنجد المريد برُبّان سفينة روحه و هو شيخه فلم يُنقذه و لم يأخذ عنه دفة سفينته ليقودها بنفسه غرقت سفينة روحه لتوّها في بحر الكفر , هذا إن لم يزل عنه عقله, لذلك يتطلب فورا من المريد أن يُرسل إشارات الإنذار لشيخه لينقذه و يمدّه بأسراب الأسرار و قاذفات الأنوار من بارجة روحانيته لتقصف عنه حَوالِك جيوش اللعين إبليس فورا و لا يتمّ له ذلك إلا بفتح قاعدة عسكرية لروحانية شيخه في قلبه , فيتصوّر أنّ شيخه جالس و مُتربّع على عرش قلبه و أنّ دقات قلبه تذكر اسم شيخه , مع كل دقّة يّذكر اسمه و يُداوم على ذلك حتى ينجلي عن ساحة قلبه خطر اللعين و وساوسه , و لا تكون هذه الرابطة القلبية إلا بكمال الحبّ و شدّة الشوق إلى الشيخ ثمّ قد يستجلبها المريد الذاكر فإذا فتح قلبه لشيخه جاءه اللعين بكل ذنب عصى به شيخَه و يأتيه بكل غِلظة كلام نَصَحَهُ بها شيخُه و يُصوّر له اللعين أنّ شيخه يكرهه و لا يُحبّه من هذه الحيثية و يقول له ما ينفعك شيخك بهذه الرابطة و هو لا يحبك و قد عصيته , فإذا سمع منه المريد ذلك قسِيَ قلبه أنّ يجعل شيخه في قلبه مع ربطه بتيّار حبّه , فإن فعلها فقد مُكر به و يُخشى عليه , لذلك لا ينبغي للمريد أن يسمع تلك الوساوس الشيطانية و الهواجس النفسية , وأن يعصي الشيطان في شيخه ولا يُطيعه , و يقول لنفسه مهما عصيت شيخي في أوامره فأنا في تربيته و كفالته و سرّ السلوك هو ذنب يتبعه توبة , و عصيان يتبعه غُفران , ثم يثبّت نفسه بالكلام التالي و يجعله شعارا يضرب به وجه اللعين لو وسوس له فيقول : لو كنت خاليا من المساوئ و العيوب وكانت أخلاقي أخلاق الأبرار فما حاجة

الشيخ بيّ , و سرّ اتخاذ المريد لشيخه هو ليُرِيَه مساوئ نفسه وعيوب طبعه و يصير يَشذبُه و يُلقّمه تلقيم أغصان الشجرة لتُثمر و يشذبه ليزيل عن شجرة روحه أغصان هواه و نفسه الميّتة , بل حكم المريد في بدايته حُكم غصن شجرة مجهولة في فلاة , فإذا التقى مع شيخه يصير الشيخ يشذب ذلك الغصن و يحكّه و يبرده حتى يُصَيّره مِرْوَدا تُكَحّلُ به العيون . بل جعل الله تعالى الشيخ برزخا بينه و بين المريد الماكر الناكر الكافر , ماكر بنفسه و ناكر لشيخه و كافر بربّه , و هو عند ملاقاة الشيخ في غاية الخبث الباطني و الظلام النفساني فلا يصلح أصلا لسانه لذكر الله تعالى لكُدورة باطنه و غلبة نفسه على صفاء روحه , فلا يزال الشيخ في تربيته و تنقيته و تطهيره و مسح ظلاميته حتى ينجلي نوره و تشرق شمس وصوله فيردّه الشيخُ المريدَ الذاكر الشاكر الساكر الغارق في حبّ ربّه العارف به تعالى , و هذه الرابطة هي التي عناها الشيخ سيدي أبو مدين شعيب رضي الله تعالى عنه بقوله:

و راقب الشيخ في أحواله فعسى ***** يرى عليك من استحسانه أثرا

و كيفية امتلاك مفتاح الرابطة فإذا أرادها وجدها في قلبه هو أن يُديم المريد النظر إلى وجه الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه و يقرن هذا النظر وهذا التملّي بالصلاة والسلام على الحبيب المحبوب صلى الله تعالى عليه و آله وسلم إلى أن يتجلّى له في مظهر شيخه نور الوراثة المحمدية , و كيفية امتلاكه بعد وفاته رضي الله تعالى عنه هو أن يضع صورة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه أمامه و يقرن ذلك أيضا بالصلاة والسلام على النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم و يُداوم على ذلك , حتى يصير إذا أغمض عينيه يرى صورة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه شاخصة أمامه , أمّا لمن فنيَ الفناء المُطلق في الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه فإنّه أينما صرف نظره رآه يقظة , نسأل الله تعالى أن يفتح علينا بهذه النظرة النورانية المباركة بمنّه وفضله , قال الشيخ سيدي عبد الحكيم الأرواسي رضي الله تعالى عنه في المنتخبات : { و من المقرّر أنّ الذّكر بدون الرابطة ليس بمُوصِل , وأمّا الرابطة بدون الذّكر فموصل , و الرّابطة مقدّمة في كلّ الأمور , و خاصّة مُمِدّ و مُعاون في الذّكر و تُطهّر القلب الذي هو بيت الله تعالى من التّلويثات النفسانية والشيطانية , و الرابطة على ثلاث أنواع : أوّلها :

أن يُصوّرَ المُريدُ صورةَ شيخه في خزانة خياله , و هذا القسم يكون في ابتداء الذّكر , و ثانيها : أن يُصوّر المريدُ صورة شيخه في قلبه , و إن حصل مثل هذا القسم أثناء الذّكر بدون إختيار , يذكر الله تعالى مُحافظا صورة شيخه في قلبه مُتفكّرا وُجودَه في القلب , و ثالثها : أن يتصوّرَ المريد نفسه بهيئة شيخه و قيافته و كأنّه هو و ليس نفسه , أي كأنّ ظاهر المريد هو صورة شيخه , وهذا القسم مُختصّ بالعبادة , فيتخيّل نفسه بتلك الهيئة عند قراءة القرآن و الإستماع له , و عند قراءة دلائل الخيرات و الإستماع للدّرس و الوعظ و أثناء الصّلاة و أداء العبادات , و يقول أنّ من أدّى كلّ هذه العبادات لستُ أنا , إنّما هو الوليّ , و يلتذّ كثيرا من عمل مثل هذه العبادات , و للصّلاة و الذّكر و العبادة حلاوة خاصّة و لذّة مُختصّة في هذا الطريق , كأنّه يدخل إلى الحضرة الإلهية بواسطةٍ تليق لتلك الحضرة , ويمتثل بالآية الكريمة { و ابتغوا إليه الوسيلة } , و يترقّى السّالك في هذا الطريق بسرعة و يصل إلى مدارج القرب الإلهي , و يقال لهذه الرابطة : الرابطة التَّلَبُسِيَّة } والعلم الحديث قد تكشّفت بحوثه الماوراعقلية أو عالم الميتافيزيقا , أنّ الإنسان إذا فكّر في شخص آخر في زمن معيّن , فإنّ هذا الشخص المُفكّر فيه تصله إشارات التفكير , فيتفكّر في نفس الزمن في الذي تفكّر فيه , و المريد إذا فكّر في شيخه وربط بمحبّته قلبه , فإنّ شيخه في نفس الوقت يُفكّر في هذا المريد و يُرسل إليه إشارات هي المَدد الروحي الذي يترقّى به المريد في سيره , ثم قد يُنكر بعضهم عليّ هذا الكلام و يقول أنّ الإمداد انقطع بوفاة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه فليبحث المريد الذي لم يصل بعد على شيخ آخر يوصله و هذا شأن بعضهم , بل قد سقط بعض من أخذ بهذا الكلام و هوى على أمّ رأسه فلم تنفعه صحبة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه و لم تشفع له محبّة الشيخ إيّاه لأنّه كان سببا في هلاك نفسه بنفسه و غدا مُعلّقا بعد ما لم يجد شيخا كاملا مكملا يُنقذه من ورطته , و هو كذلك إذ قال له اللعين أنا شيخك , فقبل الخاسر بذلك , لأنّه قيل تحقيقا : من لم يكن له شيخ , فشيخه الشيطان . ثم صار مثل هذا نادما مُغنيّا يقول : يا لاَ لِي ! يا لاَ لِي ! ما أنا بالأول ما أنا بالتالي , يا مالي ! يا مالي ! يا ربي رُدْ لي حالي ! أمّا المريد الصادق فنقول له لا تخش و ألزم عتبة الشيخ سيدي محمد الصوفي رضي الله تعالى عنه فإنّه سيفتح لك باب القبول و يُدخلك في حضرة الوصول و يقول لك : ها

أنت و ربّك ! سُئِل سيدي عبد العزيز الدبّاغ رضي الله تعالى عنه :{ إذا صحب المريد شيخا كاملا عارفا بربّه و ادعى أنّه يُربّيه بهمّته ثم إذا غابت بشرية الشيخ بموت أو سفر يجد المريد ضعفا من نفسه في الحال والعلم و العمل , فما معنى تربيته له بالحال و الهمّة و انتفاعه به مع ضعف انتفاعه به إذا بَعُدَ عنه ؟ فأجاب رضي الله تعالى عنه : بأنّ همّة الشيخ الكامل هي نور إيمانه بالله عزّ و جلّ , وبه يُربي المريد و يُرقيه من حالة إلى حالة , فإن كانت محبّة المريد للشيخ من نور إيمانه أمدّه الشيخ حضر أو غاب , بل لو مات و مرّت عليه آلاف من السنين , و من هنا كان أولياء كل قرن يستمدّون من نور إيمان النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم , و يُربيهم و يُرقيهم صلى الله تعالى عليه و آله و سلم , لأنّ محبّتهم فيه محبّة صافية خالصة من نور إيمانهم , وإن كانت محبّة المريد في الشيخ من ذات المريد لا من إيمانه انتفع به ما دام حاضرا فإذا غابت الذات عن الذات بالموت وقع الانقطاع , و علامة محبّة الذات أن تكون محبّته في الشيخ لتحصيل نفع أو لدفع ضر دنيوي أو أخروي , و علامة محبّة الإيمان أن تكون خالصة لوجه الله تعالى لا لغرض من الأغراض , فالمريد إذا وجد النقص من نفسه عند غيبة الشيخ فالتقصير منه لا من الشيخ } . فعلامة المحبة الخالصة كما ذكرها سيدي عبد العزيز الدبّاغ رضي الله تعالى عنه هي التي تكون لوجه الله تعالى خالصة , فلو صحب المريد شيخه بنيّة السلوك فقط لم ينتفع به , و قد بيّن صلى الله تعالى عليه و آله و سلم سرّ المحبّة في الله تعالى فقال صلى الله تعالى عليه و آله و سلم : (أوثق عُرى الإيمان الحبّ في الله عز و جل والبُغض في الله) و في رواية : (ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان) و عدّ منهنّ صلى الله تعالى عليه و آله و سلم (و أن يُحبّ المرءَ لا يُحبّه إلا لله) و قال صلى الله تعالى عليه و آله و سلم أيضا مبيّنا فضل المحبّة في الله تعالى : (إنّ من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء و لا شهداء يغبطهم الأنبياء و الشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى , قالوا : يا رسول الله ألا تُخبرنا من هم ؟ فقال صلى الله تعالى عليه و آله و سلم : هم قوم تحابّوا برُوح الله تعالى على غير أرحام بينهم و لا أموال يتعاطونها , فو الله إنّ وجوههم لنور و إنّهم لعلى نور و لا يخافون إذا خاف الناس و لا يحزنون إذا حزن الناس , و قرأ صلى الله تعالى عليه و آله و سلم هذه الآية : (ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم و لا هم يحزنون) , و قال سيدي عبد

العزيز الدبّاغ رضي الله تعالى عنه :{ إذا قويتْ محبّة المريد لشيخه جذب الشيخ إليه , فتصير ذات المريد مسكنا للشيخ , و كل واحد يُزَيّن مسكنه }, يشير رضي الله تعالى عنه إلى تأثير الشيخ في ذات المريد إذا سكنها , و قال رضي الله تعالى عنه أيضا :{ إنّ المريد إذا أحبّ الشيخ المحبّة الكاملة سكن الشيخ معه في ذاته , و يكون بمنزلة الحُبْلى التي تحمل ولدها , فإنّ حملها تارة يتمّ صلاحه فيبقى على حالة مستقيمة إلى أن تضعه و تارة يسقط و لا يجيء منه شيء و تارة يحصل له رقاد ثم يُفيق و الإفاقة تختلف فقد يُفيق بعد شهر و قد يُفيق بعد عام وقد يُفيق لأكثر من ذلك , فهكذا حالة المريد إذا جمل لشيخه فتارة تكون محبّته خالصة تامّة دائمة فلا يزال أمر الشيخ يظهر في ذاته إلى أن يفتح الله تعالى عليه , و تارة تكون محبّته منقطعة بعد أن كانت صادقة و انقطاعها بسبب عروض مانع نسأل الله تعالى السلامة منه , فتتبدّل نيّته في الشيخ و تنقطع أسرار الشيخ عن ذاته بعد أن كانت ساطعة عليها و تارة تقف محبّته في سيرها لمدّة قريبة أو متوسطة أو طويلة فتقف أسرار ذات الشيخ عن ذاته , فإذا رجعت المحبّة رجعت الأسرار , فليختبر المريد نفسه من أي قسم هو من هذه الأقسام الثلاثة , و لا ينتفع المريد بمحبّة شيخه إذا أحبّه لسرّه أو ولايته أو لعلمه أو كرمه أو لنحو ذلك من العلل , حتى تكون محبّته متعلقة بذات الشيخ متوجّهة إليه } . و قد فكّ العلم الحديث ألغاز التواصل الروحي و حلّ الشفرة السريّة للنّفس الإنسانية عمّا يُسمّى بالاتصال التخاطري و هي إذا فكّر أحدهم وهو بالمشرق في شخص آخر يعرفه و هو بالمغرب تفكيرا مركّزا و يُرسل إليه بخياله رسائلا وأفكارا فإنّها تصل إليه و من ذلك هذه الواقعة التي سردها طبيب ألماني عمّا يفعله تركيز العقل على شيء ما و القوة النفسية المُرسلة عبر الأثير و التي تؤثر عن بُعْد في الآخرين و هي قصة أحد مرضاه جاءه يشكو من أنّ راحته الليلية تضطرب بما يسمعه من أصوات مُقلقة و مُزعجة كثيرة الشَبّه بطرق السكّة الحديدية , و كان المريض عاجزا عن تعليل هذه الظواهر المُقلقة لراحته حيث كان يعتبرها مُجرّد مرض وهمي , فجاء إلى الطبيب ليُخلّصه منه , و لكنّ الطبيب لم يجدْ علّة عضوية أو نفسية يستطيع معها الوصول إلى أسباب هذا القلق , و كان دارسا للقِوَى ما وراء النّفس , فسأله: هل لك أعداء ؟ فأجابه المريض : إنّ عدوّي حدّاد القرية و هو رجل عجوز يحمل لي ضغينة , فتوجّه الطبيب إلى هذا الحدّاد و سأله :

كيف تنتقم من أعدائك؟ وذكر له اسم المريض و إن كان ينتقم أيضا منه , فأجاب : أنتقم من أعدائي و منهم هذا المريض الذي عليه دَيْنٌ لم يسدّده ليّ و ماطل , بأن أركّز في كل ليلة تفكيري عليه في ساعة محدّدة وأطرق طرقات مُفزعة بقضيب من حديد مُتخيّلا هذا الرجل في عقلي كأنّه أمامي و أنا أقلق راحته , فأمر الطبيب مريضه بأن يُسدّد دَيْنه للحدّاد , و أخذ يُعلّمه كيف يحمي نفسه و يقيها من التأثيرات النفسية الضارة سواءً كانت مُرسلة من نظرة عابرة لعين حاسدة أو مُنَوّمة مغنطيسيا أو مُرسلة عبر الأثير من فكرة مُصمّمة من ضغينة نفسية , فهذا مثال عن قوّة الإرسال النفسي , و هذا الاتصال التخاطري وقع بين نفسين كافرين خبيثين فما بالنا إن وقع بين روحين مسلمين طاهرين على ما يرضاه الله تعالى , و قد تكلّم عن هذه الرابطة و سرّ همّة الشيخ في تربية المريد و ترقيته الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السرهندي و ابنه سيدي محمد معصوم رضي الله تعالى عنهما فلنقتصر على ذكر شيء من نفائس كلامهما , فقد ورد إلى الشيخ سيدي أحمد الفاروقي السرهندي رضي الله تعالى عنه سؤال عن دوام نسبة الرابطة يقول صاحبه : {بأنّ الرابطة قد استولت عليّ حتى أراها في الصلاة مسجودة لي فإن نفيتها فرضا لا تنتفي أصلا , فأجابه رضي الله تعالى عنه : إنّ هذه الحالة هي مُمْتَنّ طالبي السلوك و لا يُعطاها إلا واحد من ألف , و صاحب هذه المُعاملة مُستعد تامّ المناسبة لأن يجذب جميع كمالات شيخه , و كيف تُنفى الرابطة فإنّها مسجود إليها لا مسجود لها , و لِمَ لا تُنفى المحاريب و المساجد ؟ وظهور مثل هذه الدولة إنّما يتيسّر للسعداء حتى يعلم صاحب الرابطة واسطته في جميع الأحوال و ليكون متوجّها إلى مُرشده و شيخه في جميع الأوقات }. و قال الشيخ سيدي محمد معصوم رضي الله تعالى عنه:{إنّ رابطة الحبّ توصل الحبيب إلى المحبوب و تجعله موصوفا بصفاته الكاملة و تجعل الطالب مطلوبا و تُجرّد سالك العشق الفوراني من الصفات البشرية وتُخلّصه من أنانية النفس و توصله إلى الحريم القدسي الإلهي و منازل القرب , و المحبّة هي سبب وجود الكون و محرّكة لسلسلة الإيجاد و مُظهرة للكنز المكنون على عرصة الوجود . وإذا ما توجّه أحد إلى شيخه في كل زمان و مكان رآه حاضرا و يُسمى هذا رابطة و هي أكثر فائدة من الذكر بدونها }. و قال أيضا رضي الله تعالى عنه :{ إنّ المريد الرشيد يأخذ الفيوض والبركات من باطن شيخه الذي يقتدي به في غيابه أو بعد

موته بمقدار حبّه و ارتباطه المعنوي به , و يستفيد ببركة ارتباطه المعنوي جذب المعاني الخفية , إلا أنّ حصول المعرفة والوصول إلى درجات الولاية إنّما هو مَنوط بصحبته }. و معنى قوله رضي الله تعالى عنه هذا يقصد به مُريدَيْن , واحد لم ير الشيخ الذي يُربّيه بالروحانية و إنّما أخذ الوسيلة عن نوّابه من أذن لهم الشيخ بذلك , و بصدقه و شدّة محبّته لشيخه نال الفيوضات و البركات من باطن شيخه بالرابطة , و هذا محجوب عنه باب الوَلاية لأنّه لم ير شيخه أبدا , و طريقة هذا المريد في السلوك نُسَمّيها أويسية الوَلاية نسبة إلى سيدنا أويس القرني رضي الله تعالى عنه الذي تربى بروحانية النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم و كان عنده ذوق الصحابة الكرام رضي الله تعالى عنهم و شرب مشربهم و لمّا فاتته النظرة النبوية و الصّحبة الخليلية لم يُلحق بلقب الصحابة وإنّما سمّي تابعي , و درجة الصحابي فوق درجة التابعي كما أنّ درجة التابعي فوق درجة تابعي التابعي ثمّ درجة تابعي التابعي فوق درجة الولي , و المريد الآخر هو من صحب شيخه و تملّى بنظرته فنهاه و أمره و ربّاه و سقى ذاتَه بأنواره و روحه بأسراره فهذا لو صحب شيخه يوما واحدا و رآه مرّة واحدة و كان صادقا فانيا في شيخه بالحبّ المُقلق و العشق المُحرق بحيث لا يغيب عن فكره خيال صورته ساعة فإنّه ينال درجة الوَلاية , كما أنّ مِن صغار السنّ من الصحابة الكرام من رأى النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم مرّة واحدة فألحق بدرجة الصحابة . ثم قد يلتبس على البعض الفرق بين المحبّة للشيخ و المحبّة لغيره من إخوانه الفقراء و سائر المشايخ أحياءً أو أمواتا , فيجعلهما في درجة واحدة , و هذا غير صائب و صاحب هذه المحبة لا يجيء منه شيء حتى يستأثر شيخُه و يتربّع إبتداءً على حَبَّة قلبه لوحده حتّى يعرف حضرة الحبيب صلى الله تعالى عليه و آله و سلم فيفنى درجات في محبّته فوق درجة شيخه حتّى يغرق في بحار محبّة الله تعالى , فلا بدّ للمريد أن يتوجّه إلى شيخه فقط و يربط بمحبّته قلبه و يتحقق أنّ الفيوضات لا تُستمدّ إلى من قلب شيخه و بواسطته و أنّ استمداد شيخه من مشايخ سلسلة الطريق إلى حضرة النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم , فعين المدد هو حضرة النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم . و بذلك لا ينظر المريد بعين قلبه إلا حضرتين يحطّ فيهما شدّة حبّه و زفرات عشقه

و قد عشق الله تعالى و هما حضرة شيخه و هو يوصله إلى حضرة النبي صلى الله تعالى عليه و آله و سلم . قال سيدي عبد القادر رضي الله تعالى عنه :

حضرت مع الأقطاب في حضرة اللّقا ***** فغِبتُ به عنهم و شاهدته وحدي

ثم الصلاة على المختار سيدنا   محمد خير من وفى و من نذر -٢٢